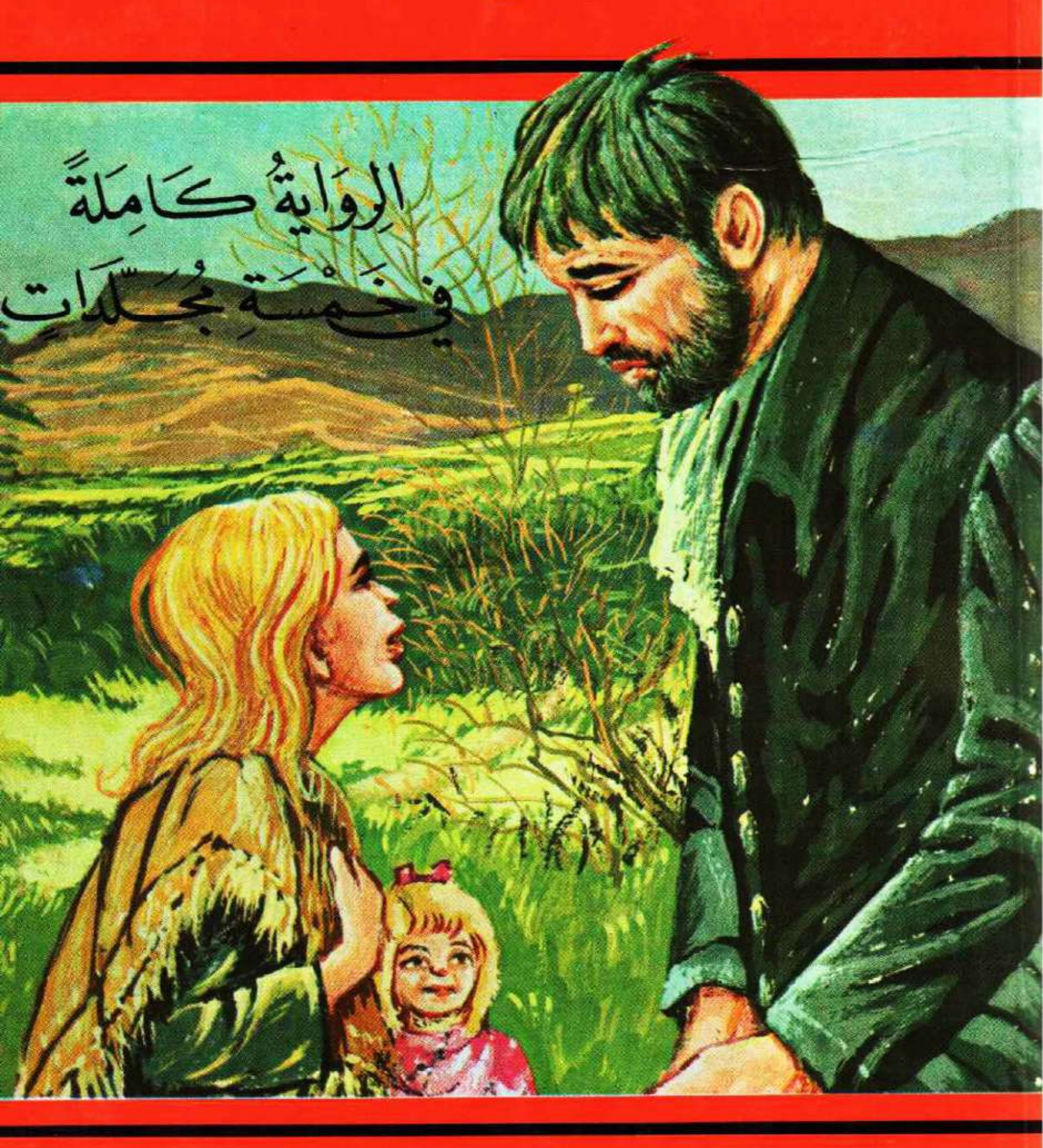
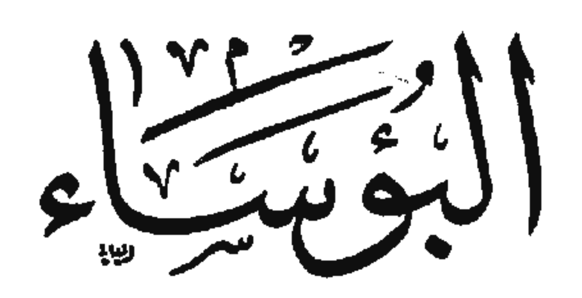
البؤساء



٤

دار العلم للملايين



لشاعر فرنسة العظيم

فيكتور هيجو

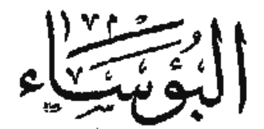
المجلد الرابع

نقله إلى العربية

منير البعلبكي

دار العلم للملايين

بيروت


البؤساء

LES MISÉRABLES

Par

Victor Hugo



الطبعة الأولى

١٩٥٥

الطبعة الثانية

أيلول (سبتمبر) ١٩٧٩

القسم الرابع

قصيدة شارع پلوميه الرعائية وملحمة شارع سان دونيز



الكتاب الأول

بضع صفحات من التاريخ

١
تفصيل حسن

إن سنتي ١٨٣١ و ١٨٣٢ ، المتصلتين اتصالاً مباشراً بثورة تموز ، من أغرب حقب التاريخ وأدعاها الى الذهول . فهاتان السنتان هما ، بين السنوات التي سبقتهما والسنوات التي تلتهما ، أشبه شيء بجبلين . إن هالةً من العظمة الثورية تجلّلهما . إننا نتبيّن فيهما هوىً وأجرافاً . فيهما نرى الكتلَ الاجتماعية ، مداميكَ الحضارةِ نفسَها ، ومجموعةَ المصالح الراسخة ، المنضّدة المتماسكة ، والصورة الجانبية العريقة للوجود الفرنسي القديم ، تظهر وتغيب كل لحظة من خلال سُحب النُّظم ، والأهواء ، والنظريات

العاصفة . وهذا الظهور والغياب ُدعيا المقاومة والحركة . فبين الفينة والفينة نرى الحق ، ذلك الفجر الذي تشرق فيه النفس الانسانية ، يلتمع ويومض .

وهذه الحقبة الرائعة قصيرة جداً ، ولقد شرعت تبتعد عنا بعداً كافياً بحيث أمسى في ميسورنا ان نتبين خطوطها الرئيسية .

ولسوف نقوم بهذه المحاولة .

كان عهد عودة آل بوربون الى العرش من تلك المراحل الانتقالية ، العسير تحديدها ، حيث نجد التعب ، والأزيز ، والدمدمة ، والسُّبات ، والضجيج ، والتي لا تفيد غير بلوغ الامة الكبيرة محطةً تقف عندها . وهذه العهود فريدة ، وهي تخدع رجال السياسة الذين يبدون الرغبة في استغلالها . ففي بادىء الامر ، لا تتطلّب الأمة غير الراحة ؛ ولا يظمأ الناس إلا الى السلام ؛ ولا يطمعون الا في شيء واحد : أن يكونوا صغاراً . وهذه ترجمة لقولنا إنهم يرغبون في ان يظلوا مطمئنين وادعين . لقد رأوا ، والحمد لله ، ما فيه الكفاية من الاحداث العظيمة ، والاقدار العظيمة ، والمغامرات العظيمة ، والرجال العظام . ولقد احتملوا من ذلك فوقَ ما يطيقون . فهم خليقون بأن يقايضوا قيصر ببروسياس *، ونابوليون بملك إيفيتو ** . « ايّ ملك صغير طيّب كان ذلك الملك ! » لقد أغذّوا السير منذ انبلاج الفجر ، ولقد أظلّهم يوم طويل قاسٍ . لقد ركضوا الجولة الاولى مع ميرابو ، والجولة الثانية مع روبسبيير ، والجولة الثالثة مع بونابرت ، فخارت قواهم . إن كلّاً منهم يلتمس سريراً .

---

* Prusias ملك بيثينيا في آسية الصغرى . (٢٣٧ – ١٩٢ ق · م)

** Yvetot مقاطعة في السين الأدنى حمل حكامها لقب ملك من القرن الرابع عشر الى القرن السادس عشر . و « ملك ايفيتو » اغنية نالت شعبية كبيرة عام ١٨١٣ عندما كانت فرنسة تعبة من مجد كلفها غالياً . وفي الاغنية مقارنة بين طموح نابوليون الاول وحكمة ملك ايفيتو الذي لم يكن يفكر في توسيع رقعة ملكه .

واذ وهنت ضروب التفاني ، وشاخت البطولات ، وأتخمت المطامع ، وأنشئت الثروات فان القوم كانوا كلهم يلتمسون ، ويتطلّبون ، ويتوسلون ، ويلحّون في البحث عن ماذا ؟ عن مكان يرقدون فيه . وينالون مـــا أرادوا . إنهم يلكون الأمن ، والهدوء ، والفراغ ؛ وإنهم لراضون . بيد أن بعض الوقائع تبرز ، في الوقت نفسه ، وتنتزع الاعتراف بها ، وتقرع الباب القائم الى جانبها . وهذه الوثائق إنما انبثقت من الثورات والحروب . إنها موجودة ، إنها تحيا ؛ إن لهـــا حقاً في الاستقرار في المجتمع ، وإنهـا لتستقرّ فيه . والوقائـــع هي في الكثرة العظمى من الاحيان اشبه ما تكون بالروّاد ، فهي تمهّد السبيل للمباديء ليس غير.

وإذن ، فهذا ما يتبدّى للفلاسفة السياسيين .

ففي الوقت الذي يلتمس فيه الناس المرهقون الراحـــةَ ، تتطلّب الوقائع المَقْضيّةُ ضمانات . فالضمانات هي للوقائع بمثابة الراحة للناس .

هذا ما طلبته انكلترة من آل ستيوارت بعد « الحامي » * ، وهذا ما طلبته فرنسة من آل بوربون بعد الامبراطورية .

وهذه الضمانات ضرورة من ضرورات العصر . وينبغي ان لا يُبخل بها . إن الامراء « يمنحونها » ، ولكن الواقع ان قوة الاحداث هي التي تعطيها . حقيقةٌ راسخة ينطوي العلم بها على خيـــر كثير ، حقيقةٌ لم يحرزها آل ستيوارت عام ١٦٦٢ ، ولم يلمحها آل بوربون مجرد لمـــح عام ١٨١٤ .

والواقـــع أن الأسرة التي قُدّر لها ان ترجع الى عرش فرنسة عند سقوط نابوليون كانت من السذاجة المهلكة بحيث اعتقدت أنهـا هي التي أعطت ، وان ما أعطته تستطيـع ان تستردّه ؛ وأن اسرة بوربون تملك الحق الالـهي ؛ وأن فرنسة لا تملك شيئاً ؛ وان الحقوق السياسية التي

* « حامي الجمهورية الانكليزية » هو اوليفر كرومويل (١٥٩٩ — ١٦٥٨) الذي ثار على آل ستيوارت وأنشأ نظاماً جمهورياً لم يعمّر طويلاً .

سلّم بها دستور لويس الثامن عشر لم تكن غير فرع من الحق الالـهي ، نزعته اسرة بوربون المالكة ومنّت به على الشعب الى ان يحين ذلك اليومُ الذي يحلو فيه الملك أن يستردّه . ومع ذلك ، فباعتبار الأسى الذي أنزلته المنحة بهم كان خليقاً بآل بوربون ان يشعروا بأنها لم تصدر عنهم البتة .

كانوا شرسين مع القرن التاسع عشر . وكانوا يقطّبون كلما انبسطت اساريو الأمة . ولو شئنا ان نصطنع لفظاً مبتذلاً ، يعني لفظاً دارجاً وصحيحاً ، إذن لقلنا إنهم كانوا يقلبون وجوههم . ورأى الشعب ذلك.

لقد اعتقدوا أنهم كانوا اقوياء ، لأن معالم الامبراطورية أزيلت أمامهم كما يزال مشهدٌ عن مسرح . انهم لم يدركوا ان أمرتهم نفسها إنما جيء بها بالطريقة ذاتها . انهم لم يروا ان أسرتهم كانت هي أيضاً في تلك اليد التي قضت على نابوليون .

لقد اعتقدوا انهم راسخو الجذور لأنهم كانوا يمثلون الماضي . كانوا مخطئين . لقد كانوا جزءاً من الماضي ، اما الماضي كله فلم يكن غير فرنسة . إن جذور المجتمع الفرنسي ما كانت ممتدةً في أسرة بوربون ، ولكن في الامة . ان تلك الجذور الخفية الخالدة لم تكن لتؤلف حقّ اسرة من الأسر ، ولكنْ تاريخَ شعب . كانت في كل مكان ، إلا تحت العرش .

كانت أسرة بوربون لفرنسةَ عقدة تاريخها الماجدة الدامية ، ولكنها لم تكن العنصر الاساسي في قَدَرها ، أو الاساس الرئيسي في سياستها . كان في ميسورها ان تستغني عن آل بوربون . لقد استغنت عنهم اثنتين وعشرين سنة . وكانت ثمة وسيلة الاستمرار ؛ ولم يرتابوا فيها . وأنّى لهم أن يرتابوا ، وهم الذين تخيلوا ان لويس السابع عشر كان يحكم في التاسع من تيرميدور ، وأن لويس الثامن عشر كان يحكم يوم مارانغو . ولم يكن الامراء في زمن من الازمان ، منذ بدء التاريخ ، اكثر عمىً عن الوقائع وعن ذلك الجزء

من السلطان الالـهي الذي تنطوي الوقائع عليه وتعلنـه اعلاناً رسمياً . بل ان الدعوى الارضية التي تدعى حق الملوك لم تنكر في زمن من الازمان الحقّ الالـهي .

خطيئة رئيسية قادت تلك الأسرة الى ان تضع يدهـا على الضمانات « الممنوحة » عام ١٨١٤ ، على التنازلات ، كما كانت هي تدعوهـا . شيء مؤسف ! إن ما دعوه تنازلاتهم ، كان انتصاراتنا . وإن ما دعوه تطاولاتنا لم يكن غير حقوقنا .

وحين بدا للعهد البوربوني الجديد ان الاوان قد حان ، بعد ان توهم انه انتصر على بونابرت وامتدت جذوره في البـلاد ، يعني حين ظنّ ذلك العهد أنه قويّ وانه راسخ ، وطّن النفس فجاءة على القيام بمغامرته. فذات صباح ، تصدّر في وجه فرنسة ، وأنكر - رافعـاً صوته - الحق الجماعي والحق الفردي : أنكر السيادة على الامـة ، وأنكر الحرية على المواطن . وبكلمة ثانية ، لقد أنكر على الأمة ما جعلها أمـة ، وعلى المواطن ما جعله مواطناً .

ذلك هو جوهر تلك الاعمال الشهيرة التي تدعى أحكام تموز .

وسقط العهد البوربوني الجديد .

ولقد سقط بحقّ . بيد انه يتعين علينا ان ننصّ على أنه لم يكن معادياً على نحو مطلق لكل شكل من اشكال التقدم . إن بعض الاشياء العظيمة قد أنجزت في ظله .

ففي ظل العهد البوربوني الجديد تعوّدت الأمة المناقشة في هـدوء ، وهو ما كان يعوز الجمهورية ؛ وتعودت العظمة في السّلم ، وهو ما كان يُعوز الامبراطورية . وكانت فرنسة ، الحرة القوية ، مشهداً مشجعاً للشعوب الاوروبية الاخرى . لقد قالت الثورة كلمتها في ظل روبسبيير ، وقال المدفع كلمته في ظل بونابرت ، ولكن العقل لم يجيء دوره في الكلام إلا عهدَ لويس الثامن عشر وشارل العاشر . لقد خمدت الريح ، وأضيء المشعل

من جديد . ولقد شوهد نور العقل الصافي يرتعش فوق الذرى المشرقة . مشهد بهيّ ، حافل بالفائدة وبالسحر . فطوال خمس عشرة سنة رأى الناس هذه المبادىء الكبرى العتيقة جداً عند رَجُل الفكر ، الحديثة جداً عند رُجل السياسة ، وهي تعمل في وضح السلم وعلى مرأى من النـــاس ومسمع : المساواة أمام القانون ، وحرية الضمير ، وحرية القول ، وحرية الصحافة ، وحقّ الكفايات جميعاً في المناصب جميعاً . وانما استمرّ هذا الوضع حتى عام ١٨٣٠ . كان آل بوربون اداة من ادوات الحضـارة انكسرت في يدي العناية الالهيّة .

وكان سقوط آل بوربون مفعماً بالعظمة ، لا من ناحيتهم ، ولكنْ من ناحية الأمـة . لقد غادروا العرش في وقـــار ، ولكنْ من غير سلطان . إن سقوطهم في الظلمة لم يكن غيبة من تلك الغيبات الاحتفاليـة التي تثير في جوانح التاريخ انفعـالاً قاتماً . انها لم تكن لا سكينة شارل الأول الشبحية ولا صيحة نابوليون النسرية . لقد مضَوْا لسبيلهم ، هذا كل ما هنالك . لقد نزعوا التاج ، ولم يحتفظوا بالهـــالة . كانوا فاضلين ، ولكنهم لم يكونوا فخيمين . لقد أعوزهم ، الى حدّ مـا ، جلال تعاستهم . ففي اثناء الرحلة من شيربورغ ، بدا شارل العـــاشر — وقد قُطِعت مائدة مستديرة لتحوّل الى مائدة مربعة — مشغول البال بأدب السلوك اكثر من انشغاله بالعرش المنهار . وأحزن هـذا الصّغار أتباعهم الذين أحبّوهم ، والرجال الجديين الذين كانوا يُجِلّون عِترتهم . وكان الشعب ، بدَوْره ، نبيلاً على نحو رائع . فالأمـة التي هوجمت ذات صباح هجوماً مسلّحـاً ، بضربٍ من الثورة الملكية ، استشعرت انها قوية الى حد جعلها لا تعرف الغضب . لقـد دافعت عن نفسها ، وكبحت جماحها ، ووضعت الاشياء في مواضعها ، وألقت الحكومة بين يدي القانون ، وبعثت بآل بوربون الى المنفى ، واأسفاه ! ووقفت عند هذا الحد . لقد أخـــذت الملك العجوز ، شارل العاشر ، من تحت

السرادق الذي كان قد أظل لويس الرابع عشر ووضعته في رفق على الارض . انها لم تمسّ اشخاص الملوك إلا في كآبة وفي احتراس . إنها لم تكن رجلاً ؛ انها لم تكن نفراً من الرجال ؛ لقد كانت فرنسةَ ، فرنسةَ كلها ، فرنسةَ المنتصرة النشوى بنصرها وقد بدت وكأنها تذكرت نفسها ، وطبّقت أمام أعين العالم كله هذه الكلمات الوقور التي نطق بها غليوم دو فير بعد يوم المتاريس * : « من اليسير على اولئك الذين تعوّدوا جمع أعطيات العظماء والوثوب ، مثل عصفور ، من فَنَن الى فنن ، من قَدَر ملتـاع الى قَدَر مزدهر ، أن يتكشّفوا عن قحة نحو أميرهم في محنته . أما انا فمصائر ملوكي سوف تكون موضع الاجلال دائماً ، وبخاصة حين يكونون في شدّة وضيق . »

لقد حمل آل بوربون معهم الاحترام ، ولكنهم لم يحملوا الأسف . وكما أسلفنا القول ، فان محنتهم كانت اعظم منهم . لقد زالوا أمام اعين الناس .

وسرعان ما وجدت ثورة تموز اصدقاء واعداء في اوجاء العالم كله . لقد اندفع الأولون نحوها في حماسة وابتهاج ، وولاهـا الآخرون ظهورهم ؛ كلٌ وفقَ طبيعته الخاصة . وللوهلة الأولى اغلق امراء اوروبة عيونهم ، كالبُوم في الفجر ، وقد عرتهم نَفْرة وانشداه ، ثم لم يفتحوها إلا ليتهددوا ويتوعدوا . وإنه لذعر نستطيع ان نفهمه ، وإنه لغضب نستطيع ان نلتمس له عذراً . والواقع ان هذه الثورة العجيبة كادت ان لا تكون صدمةً . فهي لم تذهب حتى الى حدّ تشريف الملكية المغلوبة بمعاملتها كعدوّ وَهَدْر دمها . وفي اعين الحكومات الاستبدادية ، الراغبة دائماً في ان تفتري الحرية على نفسها ، كانت خطيئة ثورة تموز انها برغم هَوْلها ظلت رقيقة . بيد ان شيئاً لم يُحاوَلْ او يُبيَّتْ ضدّها . لقد انحنى لها اكثر الناس نقمة عليها ، واهتياجاً لنبأهـا ،

---

* وهو اليوم الذي نصبت فيه المتاريس في شوارع باريس خلال ثورة ١٨٣٠ .

وخوفاً منها . فأياً ما كانت أنانياتنا وأعتقادنا فأن احتراماً عجيباً ينبثق من الأحداث التي نستشعر فيها تدخّل يد أعلى من يد الانسان .

إن ثورة تموز هي انتصار الحق معفّراً وجه الواقعة . * شيء مفعم بالسَّناء .

الحقّ معفّراً وجه الواقعة . من هنا بهاءُ ثورة ١٨٣٠ ، ومن هنا وداعتها أيضاً . إن الحق لا يحتاج ، إذا ما انتصر ، الى ان يكون عنيفاً .

الحق هو الصحيح والصائب .

وميزة الحقّ هي أنه يظلّ أبد الدهر جميلاً صافياً . والواقعة ، حتى ولو كانت ماسّة الى أبعد حدّ في الظاهر ، حتى ولو اقترنت باعظم القبول من المعاصرين ، مقدَّرٌ لها على نحو محتوم (اذا لم تزِدْ على ان تكون مجرد واقعة ، واذا لم تنطوِ الا على قليل من الحق أو لم تنطو على شيء ما منه) ان تصبح مع كرور الايام شائهةً دنسة ، ولربما فظيعةً أيضاً . واذا شئتَ ان تتأكد لتوّك الى اي حدّ من البشاعة قد تنتهي الواقعة ، حين يُرى اليها على مسافة الاجيال والقرون ، فانظر الى ميكيافيلي . إن ميكيافيلي ليس عبقرية شريرة ، وليس ابليساً ، وليس كاتباً نذلاً خسيساً . إنه ليس شيئاً غير الواقعة . وهو ليس الواقعة الايطالية فحسب ؛ إنه الواقعة الأوروبية ، واقعة القرن السادس عشر . إنه يبدو مروّعاً ، وإنه لكذلك ، امام فكرة القرن التاسع عشر الاخلاقية .

وهذا الصراع بين الحق والواقعة مستمرّ منذ نشأة المجتمع الأولى . أما إنهاء المبارزة ، ومزج المثل الاعلى المحض بالواقع البشري ، وتمكين الحقّ من الانسلال في أمن ، الى الواقعة وتمكين الواقعة من الانسلال في أمن الى الحق ، فذلك واجب الحكماء .

* fait ; fact

٢

خياطة رديئة

ولكن واجب الحكماء شيء ، وواجب الحُذّاق شيء آخر .

فسرعان ما انقضت ثورة عام ١٨٣٠ .

إذ ما ان ترتطم الثورة بصخور الشاطىء حتى يشرّح الحذّاق حادث الغرق .

والحذّاق ، في عصرنا ، قد منحوا انفسهم لقب رجال دولة ، حتى لقد انتهى هذا التعبير ، رجل دولة ، إلى أن يصبح ، الى حد ما ، تعبيراً عامياً . والواقع الذي ينبغي لكل امرىء ان يذكره أنه حيثما كان الحذق وحده فثمة بالضرورة صغار . إن قولك « الحذاق » يَعْدِل قولك « القليلي الذكاء » .

كما ان قولك « رجال دولة » قد يعدل ، في بعض الاحيان ، قولك « خونة » .

وإذن ، فالحذاق يعتقدون ان ثورات مثل ثورة تموز شرايين مقطوعة ، فهي في حاجة الى رَبْطٍ عاجل . إن الحقّ ، حين يُعلَنَ في أبهة بالغة ، يهزّ ويزلزل . وكذلك ما يكاد الحقّ يُثْبَت حتى يتعيّن علينا ان نعمد الى اثبات الدولة من جديد . وما إن تتوطّد الحرية حتى يتعين علينا ان نفكر في السلطة .

وإلى هنا لا ينفصل الحكماء عن الحذاق ولكنهم يتبادلون الحذر وسوء الظن . السلطة ؟ فليكن ! ولكن ، قبل كل شيء ، ما السلطة ؟ وثانياً ، من أين تنبثق ؟

إن الحذاق يبدون وكأنهم لا يسمعون تمتمات الاعتراض ، فهم يواصلون عملهم .

وعند هؤلاء السياسيين ، البارعين في إلباس الاوهام الرائجة أقنعة الضرورة ، ان أول ما يحتاج اليه الشعب بعد ثورة من الثورات ، اذا ما شكل هذا الشعب جزءاً من قارة ملكية ، هو الفوز بسلالة حاكمة . وبهذه الطريقة – كذلك يقولون – يستطيع الشعب ان ينعم بالامن بعد ثورته ، يعني انه ينعم بالوقت الكافي لتضميد جراحه وترميم بيته . إن السلالة الحاكمة تخفي صقالات البناء ، وتغطي عربات الاسعاف .

والان ليس من اليسير ، دائماً ، الفوز بسلالة حاكمة .

وفي حال الاضطرار ، يكفي اول رجل ذي عبقرية ، او اول مغامر تلتقي به لتنصيب ملك . ولديك نابوليون مثلاً على الحالة الاولى ، وإيتوربيد * مثلاً على الحالة الثانية .

ولكن أول اسرة تلتقي بها لا تكفي لاقامة سلالة مالكة . ينبغي ان يكون ثمة قدرٌ معيّن من القِدَميّة في عِرق من الاعراق ؛ وتجاعيد القرون لا تُرتَجل ارتجالاً .

ولنفرض اننا اخذنا بوجهة نظر « رجال الدولة » ، محترِسين طبعاً بمختلف ضروب الاحتراس ، فما هي ، بعد الثورة ، صفات الملك الذي ينبثق منها ؟ قد يكون ، ومن الخير ان يكون ، ثورياً ، يعني انه قد شارك هو نفسُه في هذه الثورة ، وان يكون قد مارسها ، وان يكون قد تعرّض للتهلكة بواسطتها أو لمع في سمائها ، ان يكون قد مسّ الفأس أو شهر السيف .

وما هي صفات الاسرة المالكة ؟ يجب ان تكون وطنية ، يعني ثورية من بعيد ، لا بالأعمال التي تُنجَز ، ولكن بالفكرات التي تُعتنق .

---

* Iturbide جنرال مكسيكي نودي به امبراطوراً ، عام ١٨٢١ ، ثم اضطر الى الاستقالة عام ١٨٢٣ . حتى اذا رجع الى المكسيك لكي يستعيد عرشه اعدم رمياً بالرصاص في اديلا عام ١٨٢٤ .

يجب ان تتألف من الماضي وان تكون تاريخية ، ومن المستقبل وان تكون عاطفة .

وهذا كله يفسّر لماذا تجتزيء الثورات الاولى بالبحث عن رجل ، عن كرومويل أو نابوليون . ولماذا تصر الثورات التي تليها إصراراً مطلقاً على البحث عن سلالة مالكة ، عن اسرة برونزويك ، او اسرة اورليان .

إن الأسر المالكة تشبه شجرات التين الهندي التي ينعطف كل غصن من اغصانها حتى الارض وتمتدّ له جذورٌ فيها ليصبح هو نفسه شجرة تين هندية مستقلة . فكل فرع من فروع الاسرة المالكة يستطيع ان يصبح سلالة حاكمة . على شرط واحد : أن ينعطف نحو الشعب .

تلك هي نظرية الحذّاق .

وهوذا ، اذن ، الفنّ العظيم : ان يُخلَع على النجاح شيء من نبرة الكارثة ، لكي تصيب الرعدة اولئك الذين يفيدون منه ايضاً ، وأن تُلطّف بالخوف خطوةٌ واقعية ، وان يُكَبَّر قوس الانتقال الى حدّ إعاقة التقدّم ، وأن يُمسَخ هذا الفجر ، وان تُبطَل حرارة الحماسة وتُلغى ، وان تُقطَع الزوايا والبراثن ، وان يُبطّن النصر ، وان يُغطّى الحق بالفراء ، وان يُلفّ العملاق الشعب بنسيج صوفي رقيق ويُسرَع به الى الفراش ، وان تُفرض حميةٌ على هذا الافراط في الصحة ، وأن يُخضع هرقل الجبار المعاملة الخاصة بالناقهين ، وأن يُكبَح الحدث ضمن النطاق الملائم ، وان يُقدّم الى العقول الظامئة للمثل الأعلى هذا الرحيق الممزوج بماء الحشائش والبزور ، وأن تُتّخذ الاحتياطات ضدّ الاسراف في النجاح ، وان تزوّد الثورة بنوافذ مائلة يأتيها النور من فوق .

وأخذت سنة ١٨٣٠ بهذه النظرية ، التي سبق لها ان طُبّقت في انكلترة عام ١٦٨٨ .

ان عام ١٨٣٠ ثورةٌ أُوقفت في منتصف الطريق . تقدّمٌ نصفيّ ؛

شبه حقّ . وهنا يُنكر المنطق ما هو تقريبيّ ، كما تُنكر الشمسُ الشمعةَ سواء بسواء .

من الذي يوقف الثورات في منتصف الطريق ؟ البورجوازية .

لماذا ؟

لأن البورجوازية هي المصلحةُ مشبعةً . أمسِ كانت شهوة ، وهي اليوم امتلاء ، ولسوف تكون غداً اكتظاظاً .

إن ظاهرة عام ١٨١٤ بعد نابوليون أعادت نفسها عام ١٨٣٠ بعد شارل العاشر .

لقد جرت محاولة ، محاولة خاطئة ، الى ان يُجعَلَ من البورجوازية طبقة . إن البورجوازية لا تعدو ان تكون الجزء الراضي من الشعب . والبورجوازي هو الرجل الذي يجد الآن متسعاً من الوقت للجلوس . والكرسي ليس طبقةً اجتماعية .

ولكننا ، بسبب من رغبتنا في الجلوس ، قد نوقف تقدّم الجنس البشري نفسه . وكثيراً ما ارتكبت البورجوازية هذه الغلطة .

وارتكاب غلطةٍ ما لا يشكل طبقة اجتماعية . فالانانية ليست احد اجزاء النظام الاجتماعي .

وفوق هذا ، فينبغي ان نكون منصفين ، حتى للانانية . فالدولة التي طمح اليها ، بعد صدمة ١٨٣٠ ، ذلك الجزء من الأمة الذي ندعوه البورجوازية ، لم تكن قوة الاستمرار ، التي تتألف من لا مبالاة وكسل ، والتي تنطوي على شيء من العار . إنها لم تكن الرقاد ، الذي يفترض نسياناً موقتاً تتخلله الأحلام . لقد كانت هي الوقوف .

والوقوف كلمة مؤلفة من معنىً مزدوج فريد ، يكاد يكون متناقضاً : جيش زاحف ، يعني حركة ؛ ووقوف ، يعني سكون .

الوقوف هو استعادة القوى . إنه السكون المسلّح اليقظ . إنه الأمر الواقع الذي يقيم ارصاداً ورقباء ويلزم جانب الحذر . الوقوف

يفترض نشوب المعركة أمس ، ونشوبها غداً .

تلك هي الفترة التي امتدت ما بين عام ١٨٣٠ وعام ١٨٤٨ .

وما ندعوه هنا المعركة يمكن ان يدعى ايضاً التقدّم .

لقد استشعرت البورجوازية ، اذن ، كما استشعر رجال الدولة ، الحاجةَ الى رجل ينطق بهذه الكلمة : قف ! شخصية مركّبة تعني الثورة ، وتعني الاستقرار . وبكلمة اخرى ، شخصية تكفل الحاضر من طريق توافق الماضي ، على نحو واضح ، مع المستقبل .

واقد وجد هذا الرجل « في متناول اليد » . كان اسمه لويس فيليب دورليان .

ونصّب المئتان والواحد والعشرون * رجلاً لويس فيليب ملكاً . ونهض لافاييت بعبء التتويج . لقد دعاها خير الجمهوريات . ولقد حلّت دار بلدية باريس محلّ كاتدرائية ريمس .

وكانت هذه الاستعاضة عن العرش الكامل بنصف عرش هي « صنيع عام ١٨٣٠ » .

وحين أنجز الحذاق عملهم برزت آفة حلّهم الكبرى وأمست واضحة للعيان . وانما تمّ ذلك كله من غير إشارة الى الحق المطلق . وصرخ الحق المطلق : « إني أحتجّ » ! ثم ما لبث ، وهو شيء رهيب ، أن ارتدّ الى الظلام .

٣
لويس فيليب

إن للثورات ذراعاً رهيبة ويداً ميمونة . انها تضرب في قوة ، وتتخير

* هم اعضاء المجلس الذين انتخبوا لويس فيليب ملكاً على فرنسة .

جيداً . وحتى عندما تكون ناقصة ، وحتى عندما تكون متفسّخة ، فاسدة ، وساقطة الى مرتبة ثورةٍ طفلةٍ ، مثل ثورة ١٨٣٠ ، فانها تحتفظ دائماً تقريباً بقدْرٍ كافٍ من نور العناية الالـٰهية يعصمها من سقوطٍ مهلك . ان خسوفها ليس أبداً تخلياً .

ومع ذلك ، فينبغي لنا ان لا نسرف في الزهو . فالثورات ، هي الاخرى ، تُخدع عن نفسها ، وتتكشف عن اخطاء خطيرة .

فلنعد الى عام ١٨٣٠ . لقــد كان عام ١٨٣٠ ميموناً في انحرافه . ففي المؤسسة التي دعت نفسها النظامَ بعد ان بُترت الثورة بتراً ، كان الملك خيراً من الملكية . لقد كان لويس فيليب رجلاً نادر المثال :

كان ابن والد سوف يمنحه التاريخ من غــير ريب اسباباً تخفيفية ولكنه جدير بالاجلال بقدر ما كان ذلك الوالد جديراً باللوم ؛ كانت له جميع الفضائل الخصوصية وكثير مــن الفضائل العمومية ؛ كان شديد العناية بصحته ، وبثروته ، وبشخصه ، وباعماله ؛ كان يعرف قيمة الدقيقة وان لم يكن يعرف دائماً قيمة السنة . كان عفيفاً ، رائقــاً ، مسالماً ، صبوراً ؛ كان رجلاً صالحاً ، وملكاً صالحاً ؛ كان ينام مع زوجتـــه ، وكان في قصره خدم ليس لهم من عمل غير عرض السرير الزوجيّ على انظار البورجوازيين ، وهو افتخار بالنظامية المخدعية كانت له فائدته بعد ضروب العرض غير الشرعية التي كان فرع الاسرة الأرشد يتباهى بها . كان يعرف جميع لغات اوروبة ، ويعرف - وهو شي اشدّ ندرةً - جميع لغات المصالح على اختلافها ، ويتكلمها ؛ كان ممثلاً رائعاً « للطبقة المتوسطة » ولكنه فاقها ، وكان من جميع النواحي اعظم منها ؛ كان من شدة الذكاء ، فيما هو يقدر الدمَ الذي يجري في عروقه حقّ قدره ، بحيث يعتمد قبل كل شيء على قيمته الذاتية ؛ وحتى في مسألة العِرْق ، وذلك امرٌ فريدٌ جداً ، كان ينتسب الى آل اورليان لا الى آل بوربون . صحيح انه كان اول امير من امراء الدم ، عندما لم يكن غير « صاحب

السمو» ، ولكنه أمسى بورجوازياً يوم نعِمَ بلقب «صاحب الجلالة» . كان مسهباً أمام الجمهور ، موجزاً مع المقربين اليه ؛ كان بخيلًا في زعم الناس ولكن الدليل لم ينهض على بخله ، فهو في الواقع واحد من اولئك الرجال المقتصدين الذين لا يحجمون عن الاسراف حين يقتضيهم هواهم أو واجبهم ذلك . كان حسنَ الثقافة ، ولكنه قليل التقدير للأدب ، مصقول الحاشية ولكن روح الفروسية لا تعمر صدره ، بسيطاً ، هادئاً ، قوياً . كان معبودَ أسرته واهل بيته ، محدّثاً فاتناً ، رجلَ دولةٍ لا يُخدع ، بارداً باطنياً ، تسيطر عليه المصلحة المباشرة ، ويحكم دائماً وفقاً للمناسبة الأشدّ قرباً ، عاجزاً عن الضغن والشكران ، مبلياً في غير رحمة ضروبَ الامتياز على ضروب التوسط ، قادراً على ان يعارض ، من خلال الاكثريات البرلمانية ، ذلك الاجماع الخفيّ الذي يدمدم على نحو لا يكاد يُسمع تحت العروش . كان كثير البوح بسريرته ، تعوزه الحكمة في ذلك بعض الاحيان ، ولكن قلة حكمته تلك تنطوي على حذاقة رائعة . كان واسع الحيلة ، كثير الوجوه ، متعدد الاقنعة ، يوقع في قلب فرنسة الخوفَ من اوروبة ، ويوقع في قلب اوروبة الخوف من فرنسة ؛ محباً لبلاده بلا جدال ، ولكنه مؤثِر لأسرته ، مقيِّماً التسلّط اكثر من السلطة ، والسلطةَ اكثر من الفَضْل ، وهو مزاجٌ مهلك يجيز – اذ يعطف كل شيء نحو النجاح – الخديعةَ والاحتيال ، ولا ينبذ الدناءة البتة ، ولكنه مفيد يصون السياسة من الصدمات العنيفة ، والدولة من التقصّفات ، والمجتمع من الكوارث . كان مدققاً ، محباً للضبط ، محترساً ، يقظاً ، فطناً ، لا يتطرق اليه التعب . كان يناقض نفسه احياناً ، ويكذّب نفسه ، جريئاً على النمسا في آنكونا * ، عنيداً مع انكلترة في اسبانية ، قاذفاً

* Ancône مدينة ايطالية ، وقد احتلها الوزير الفرنسي كازيمير بيرييه من عام ١٨٣٢ الى عام ١٨٣٨ وصد عنها القوات النمسوية .

آنفرس * بنيران مدافعه . دافعـــاً التعويض الى بريتشارد ** منشداً المارسييز في ايمان ، ممتنعاً على الخور ، وعلى الاعياء ، وعلى تذوّق الجمال والمثل الأعلى ، وعلى السخاء الجسور ، وعلى المدينة الفاضلة ، وعلى الوهم ، وعلى الغضب ، وعلى الزهو ، وعلى الخوف ، متحققاً بكل شكل من أشكال الشجاعة الشخصية ، فهو جنرال في فالمي *** جنـــدي في جيماب **** تعرّضت حياته للخطر ثماني مرات على ايدي قتلة الملوك ومع ذلك فلم تفارق الابتسامة شفتيه . كان باسلاً كرامي قنابـــل ، شجاعاً كمفكر ، قلقاً أمام احتمالات اضطرابٍ اوروبيّ ليس غير ؛ غير اهل للمغامرات السياسية الكبرى ، مستعداً دائماً لأن يخاطر بنفسه ولكن غير مستعد البتة للمخاطرة بعمله ، مقنّعاً ارادته بقناع التأثير لكي يطاع بوصفه ذكياً لا بوصفه ملكاً ، موهوباً بالملاحظة لا بالتكهن ؛ مهتماً اهتماماً قليلاً بالعقول ولكنه قادر على ان يقرأ أخلاق الرجال ، يعني انه كان محتاجاً الى ان يرى لكي يعطي حكمه . كان ذا عقل راشدٍ حاضر البديهة ثاقب النظر ، وحكمة عملية ، وحديث طيّع ، وذاكرة أعجوبية . كان دائم النبش في تلك الذاكرة ، وهو وجه الشبه الأوحد ما بينه وبين يوليوس قيصر والاسكندر ونابوليون . كان عارفاً بالوقائع والتفاصيل ، والتواريخ واسماء الأعلام ، جاهلاً للنزعات ، والاهواء ، وعبقريات الجماعة المختلفات ، والمطامع الباطنية ، وفورات النفوس المخبوءة الغامضة ، وبكلمة واحدة ،

---

* Anvers مدينة بلجيكية حصينة احتلها الفرنسيون عام ١٨٣٢ بقيادة المارشال جيرار .

** Pritchard مبشر انكليزي (١٧٩٦ — ١٨٨٣) كان معادياً لفرض الحماية الفرنسية على تاهيتي حيث كان تاجراً وقنصلاً عاماً ، فما كان من الاسطول البحري الفرنسي الا ان دمر مخازنه ، فطلبت انكلترة من فرنسة ان تدفع التعويض اليه .

*** Valmy قرية في مقاطعة المارن ، حيث انتصر در موريه وكيليرمان عـــلى البروسيين عام ١٧٩٢ .

**** Jemmapes من اعمال البلجيك ، وفيها انتصر دوموريه على النمسويين عام ١٧٩٢

كلّ ما نستطيع ان ندعوه تيارات الضمير غير المنظورة . كان مقبولاً من جانب الفئات العالية ولكنه قليلاً ما كان متفقاً مع فرنسة الأعماق . كان يشق طريقه بالحذاقة ، وكان يحكم اكثر مما ينبغي ، ويملك على نحو غير كاف . كان رئيس وزراء نفسه ، مجيداً في جعل حقارة الأمور الواقعية عقبة تحول دول عظمة الفكرات والمعاني ، مضيفاً الى موهبة الحضارة الخلاّقة الحقيقية نظاماً وتنظيماً وروحاً من النمطية والمماحكة تمتنع على الوصف . كان مؤسس سلالة حاكمة ووكيل دعاواها ، ففيه شيء من شارلمان وشيء من محام . وعلى الجملة ، فقد كان وجهاً أصيلاً شامخاً ، ملكاً عرف كيف يكسب السلطة برغم قلق فرنسة ، والقوةَ برغم حسد أوروبة . إن لويس فيليب سوف يُصنّف بين رجال عصره البارزين ، وخليق به ان يُرفع الى مصاف ألمع الحكام في التاريخ لو انه أحب المجد بعض الشيء ، ولو أنه قدر ما هو عظيم حق قدره كما قدر ما هو نافع ومفيد .

كان لويس فيليب بهيّ الطلعة ، وحين شاخ ظل مليح الوجه . إنه لم يكن قريباً الى قلب الأمة دائماً ، ولكنه كان قريباً دائماً الى قلب الجمهور . كان مُرضياً ، كانت له هذه الموهبة : الفتنة . كانت الجلالة تعوزه فهو لم يلبس لا التاج ، برغم انه ملك ، ولا الشّعر الابيض ، برغم انه شيخ . كان طراز حياته من النظام القديم ، وكانت عاداته من النظام الجديد : مزيج من النبيل والبورجوازي . كان ملائماً لعام ١٨٣٠ ، كان لويس فيليب يمثل انتقالاً ملكياً . كان قد احتفظ بطريقة النطق القديمة وطريقة الاملاء القديمة اللتين وضعهما في خدمة الفكرات العصرية . كان يحب بولونية وهنغارية ولكنه كان يكتب *les polonois* ويلفظ *les hongrais* لقد ارتدى ثياب الحرس الوطني مثل شارل العاشر ، ووشاح جوقة الشرف مثل نابوليون .

كان نادراً ما يذهب الى الكنيسة ، وكان لا يذهب الى الصيد أبداً ، ولم يقصد الى الأوبرا في يوم من الايام . كان ممتنعاً على الفساد يأتيه

من جانب الكهان ، واصحاب كلاب القنص ، والراقصات . وزاد ذلك في شعبيته عند البورجوازيين . ولم يكن له بطانـــة . كان يخرج من القصر ومظلته تحت ذراعه ؛ ولقد شكّلت هـذه المظلة جزءاً من مجده فترة ً طويلة من الزمن . كان فيه شيء من البنّاء ، وشيء من البستاني ّ ، وشيء من الطبيب . لقد فصّد َ خادماً له سقط عن جواده . ومن ذلك الحـــين امسى لويس فيليب لا يخرج إلا ومبضعه معه كما كان هنري الثالث لا يخرج إلا وخنجره معه . وسخر الملكيون من هـــذا الملك المضحك ، أول من سفح الدم لكي يشفي .

وفي شكاوى التاريخ من لويس فيليب ينبغي ان يُجرى شيء من التخفيض . فهناك ما تقع تبعته على الملكية ، وهناك ما تقع تبعته على العهد ، وهناك ما تقع تبعته على الملك . ثلاثة اعمدة ، يعطي كل منها حاصل جمع ٍ مختلفاً . فمصادرة الحق الديموقراطي ، وجعل التقـدّم المهمّ الثاني ، وقمع احتجاجات الشارع قمعاً عنيفاً ، والقضاء على العصيان بالقوة العسكرية ، وقهر الفتن بالسيف ، وشارع ترانسنونـــين * ، والمجالس الحربية ، واستغراق البلد الشرعي للبلد الحقيقي ، وتطبيق نظرية الحكومة تطبيقاً نصفياً ليس غير مع ثلاثمئة الف شخص من المحظوظـين ، وإنكار دعوانا في البلجيك ، وفتح الجزائر باكثر مما ينبغي من القسوة ، واتخاذ هذا الفتح صفة البربرية اكثر مما اتخذ صفة التمدن ، كالذي حصل في الهند على يد الانكليز ، ونكث عهد الشرف المعطى لعبد القادر ** ، وشراء بلايي ، ودوتز ، والتعويض على بريتشارد ، هي من أعمال العهد . اما

* Transnonain حيث جرت المذبحة المعروفة يوم ١٤ نيسان ١٨٣٤ اثناء الفتنة التي انفجرت في باريس في حيّ سان ميري ، اذ اطلقت رصاصة من المنزل رقم ١٢ من هذا الشارع على الجند فاصابت احد الضباط ، فما كان من الجنود إلا ان اقتحموا المنزل وقتلوا جميع أهله .

** يقصد الامير عبد القادر البطل الجزائري الشهير الذي حارب الفرنسيين طوال المدة الواقعة ما بين عامي ١٨٣٢ و ١٨٤٧ .

السياسة التي كانت عائلية اكثر منها قومية فهذه من عمل الملك .
وهكذا نرى ، بعد اجراء هذا التخفيض ، ان التهمة الموجهة الى الملك قد تقلصت .

كانت غلطته الكبرى هي هذه : أنه كان معتدلاً باسم فرنسة .
من أين نشأت هذه الغلطة ؟
فلننص على ذلك .

كان لويس فيليب ملكاً تغمر الأبوة صدره اكثر مما ينبغي . وهذه الحضانة لأسرة ينبغي ان تنقف لتصير سلالة ملكية ، كانت تخشى كل شيء ولا تقدر على احتمال الازعاج . ومن هنا ذلك الجبن المغالى فيه ، المثير لسخط شعب يملك ١٤ تموز بين تراثه المدنيّ ، وأوسترليتز بين تراثه العسكريّ .

وفوق هذا ، وإذا تركنا جانباً الواجبات العامة التي ينبغي ان تنجز قبل كل شيء ، فأن حدب لويس فيليب العميق على امرته كان شيئاً تستحقه تلك الاسرة . لقد كانت هذه المجموعة العائلية رائعة . لقد نافستْ فضائلُها مواهبها . فقد وضعت احـــدى بنات لويس فيليب ، ماري دورليان ، اسمَ سلالتها بين الفنانين ، كما وضـع شارل دورليان ذلك الاسم بين الشعراء . لقد نحتت بكل جوارحها تمثالاً دعته جان دارك . وانتزع اثنان من ابناء لويس فيليب هذه المدحة الديماغوجية من ميترنيخ :
«هذان شابان لم نر لهما ضريباً ، واميران لن نرى لهما ضريباً . »

تلك هي ، من غير أن نكتم شيئاً ، ولكن من غير ان نبالغ في شيء ، الحقيقة عن لويس فيليب .

فلأن يكون « الامير المساواة » ، ويحمـــل في ذات نفسه ذلك التناقض بين عودة آل بوربون الى العرش وبـين الثورة ، ويكون له ذلك المظهر المقلق ، مظهر الثوريّ الذي يصبح مهدّئاً للروع في شخص الحـاكم — ذلك كان قَـــدَر لويس فيليب سنة ١٨٣٠ . ولم يعرف

التاريخ تكيُّف رجل مع حدَثٍ ما أكمل من هذا التكيّف . لقد دخل أحدهما في الآخر ، وتمّ التجسُّد . إن لويس فيليب هو سنةُ ١٨٣٠ وقد جُمِلت رجلاً . والى هذا فقد كان يشفع له ذلك الاختيار العظيم للعرش : النفي . فقد عبرتْ به ساعةٌ كان فيها مبعداً عن وطنه محكوماً عليه بالأعدام ، وكان تائهاً ، وفقيراً . لقد سبق له ان عاش من كدِّه وعمله . وفي سويسرة ، كان هذا الوريث لأغنى ممتلكات فرنسة الاميرية قد باع فرساً عجوزاً لكي يشتري بثمنه ما يسدّ به الرمق . وفي رايشناو ، كان قد اعطى دروساً في الرياضيات ، بينا قامت اخته آديليد بأعمال الخياطة والتطريز . وهذه الذكريات ، مرتبطةً بملك من الملوك ، أوقعت الحماسة في نفوس البورجوازيين . كان قد هدم بيديه الاثنتين آخر قفص حديدي في « مون سان ميشيل » ، وقد بناه لويس الحادي عشر ، واستعمله لويس الخامس عشر . كان رفيق دوموريه ، وصديق لافاييت . وكان قد انتسب ، ذات يوم ، الى النادي اليعقوبي . وكان ميرابو قد ربّت على كتفه . وكان دانتون قد قال له : « ايها الفتى ! » وفي الرابعة والعشرين ، عام ٩٣ ، وكان يُعرف آنذاك بمسيو دو شارتر ، ومن مقعد مغمور في المؤتمر الوطني ، شهد محاكمة لويس السادس عشر الذي دُعي في براءة **ذلك الطاغية المسكين** . وذكاء الثورة الاعمى ، الذي سحق الملكية في الملك ، وسحق الملك بالملكية ، وهو لا يكاد يرى الرُجلَ في قهر الفكرة الوحشيّ ؛ وعاصفة « المجلس المحكمة » الهوجاء ؛ وتساؤل الغضبة الشعبية ؛ وحيرة « كابيه » بمَ يجيب ؛ وتذبذب ذلك الرأس الملكي تذبذباً مشدوهاً مروّعاً تحت تلك الضربة الفظيعة ؛ وبراءة كل شيء ، على نحو نسبي ، في تلك الكارثة ، براءة اولئك الذين حكموا ، وبراءة ذلك الذي حُكم عليه — هذه الاشياء كلها كان لويس فيليب قد رآها ؛ كان قد نظر الى هذه الدوّامة المجنونة ؛ وكان قد بَصُرَ بالقرون تَمْثُل أمام المؤتمر الوطني ؛ وكان

قد رأى ، خلف لويس السادس عشر ، عابرَ السبيل الشقي المسؤول ، ذلك المتهم الهائل ، الملكية ، ينتصب في الظلام . وكان لا يزال في نفسه خوفٌ خاشع أمام عدالة الشعب هذه التي لا حدود لها ، والتي تكاد ان تكون مجرّدة كمثل عدالة الله .

وكان الاثر الذي تركته الثورة في ذات نفسه أعجوبيـــاً . كانت ذاكرته اشبه بصورة حية لتلك السنوات العظام ، دقيقةً فدقيقةً . وذات يوم ، وأمام شاهد عيان يتعذر علينا أن نرتاب فيـــه ، صحح من ذاكرته كامل الحرف R من اللائحة الابجدية باسماء اعضاء الجمعية التأسيسية .

كان لويس فيليب ملكاً في وضح النهار . ففي اثناء حكمه ، كانت الصحافة حرة ، وكانت الخطابة حرة ، وكان الضمير والرأي حرّين . إن قوانين ايلول واضحة وصريحة . واذْ كان يدرك ادراكاً حسناً الأثر القارض الذي يخلّفه النور في الامتيازات فقد ترك عرشه معرّضاً للنور . ولسوف يعترف التاريخ له بهذا الاخلاص .

إن لويس فيليب ، مثلَ جميع رجال التاريخ الذين غادروا المسرح ، ينبغي ان يمثل اليوم للمحاكمة امام الضمير الانساني . إنه لم يمثل حتى الآن إلا أمام محكمة بدائية .

ان الساعة التي يتحدث فيها التاريخ بنبرته الحرة الجليلة ، لمّا تحنْ بعدُ بالنسبة اليه . إن الأوان لم يئِنْ لاطلاق الحكم الاخير على هذا الملك . وذلك المؤرخ الشهير الصارم ، لويس بلان ، قد عدّل منذ قريبٍ حكمه الأول . كان لويس فيليب هو الشخص الذي اختاره هذان الشيئان التقريبيان اللذان ندعوهما الـ ٢٢١ ، و ١٨٣٠ ، يعـــني نصف برلمان ، ونصف ثورة . وعلى اية حال ، فمن وجهة النظر التي ينبغي ان تسمو اليها الفلسفة ، لا نستطيع ان نحكم عليه هنا ، كما قد لمحّنا من قبل ، إلا مع بعض التحفظات بإسم المبدأ الديموقراطي المطلق . ان

كل شيء خارج نطاق هذين الحقين ، حقّ الانسان اولاً ، وحق الشعب بعد ذلك ، هو في عينيَّ المطلق اغتصاب . ولكنّ ما نستطيع ان نقوله منذ الآن ، بعد ابداء تلك التحفظات ، هو ان لويس فيليب ، بالاختصار ومن ايما زاوية درسناه ، سوف يظلّ - اذا نُظر اليه في ذات نفسه ومن وجهة نظر الطيّبة الانسانية ، واذا اردنا ان نستعمل اللغة العتيقة المألوفة في التاريخ القديم - واحداً من افضل الملوك الذين قدّر لهم ان يتربعوا على عرش .

أيّ مأخذ يؤخذ عليه ؟ ذلك العرش نفسه . جرّد لويس فيليب من صفة الملك يَبْقَ الرجل . والرجل صالح . وإنه لمن الصلاح في بعض الاحيان بحيث يصبح رائعاً . فكثيراً ما كان يرجع في موهن من الليل الى منزله ، مثقل الكاهل بالمهامّ البالغة الخطورة ، وبعد نهار كامل من الصراع ضدّ ديبلوماسية القارّة كلها ، وهناك رقد هدّه التعب واستبد به النعاس ، ما الذي كان يعمله ؟ كان عسك برزمة وثائق ، وينفق الليل في مراجعة دعوى جنائية ، شاعراً بان الصمود في وجه اوروبة شيء عظيم ، ولكنّ انقاذ رجل من بين يدي الجلاّد اعظم من ذلك بكثير . كان عنيداً مع وزير عدليته ، وكان ينازع النواب العامين ، **ثرثاري القانون** كما كان يدعوهم ، أرضَ المقصلة شبراً شبراً . وكانت الوثائق المركومة تغطي طاولته في بعض الاحيان . كان يدرسها جميعاً . فقد كان التخلي عن هذه الرؤوس البائسة المحكوم عليها بالموت يوقع في نفسه آلاماً مريرة . وذات يوم ، قال للشاهد نفسه الذي اشرنا اليه منذ لحظة : **البارحة انقذت سبعة** . وخلال السنوات الاولى من حكمه أُلغيت عقوبة الاعدام ، ومن هنا كانت اقامة المشنقة من جديد ضربة قاسية للملك . وإذ كانت « لا غريف » * قد اختفت مع فرع السلالة المالكة الأرشد ، فقد انشئت « غريف » بورجوازية أطلق عليها اسم « باب سان

* La Grève ساحة الاعدام في باريس ، وقد سبق التعريف بها .

جاك » . لقد استشعر « الرجال العمليون » الحاجـــة الى مقصلة شبه شرعية ، فكان ذلك انتصاراً من انتصارات كازيمير بيرييـــه * الذي مثل جانب البورجوازية الاكثر محافظة ، على لويس فيليب الذي مثل جانبها الاكثر تحرّراً . لقد علّق بخط يده على بيكاريا ** وبعـــد مؤامرة فييَسكي *** هتف : « ما اعظـــم اسفـــي لاني لم اصب بجراح ! لقد كان في امكاني ان أغفر له ! » وفي مناسبة أخرى ، كتب مشيراً الى مقاومة وزرائه ، في ما يتصل بمتهم سياسيّ هو وجـــه من آكرم الوجوه في عصرنا هذا : « أما وقد منحته العفو فلم يبق عليّ إلا ان أنتزعه له انتزاعاً . » كان لويس فيليب سهل الخليقة مثـــل لويس التاسع ، طيب الفؤاد مثل هنري الرابع .

وعندنا ، بعدُ ، في منطق التاريخ ، حيث الطيّبة هي الجوهرة النادرة أن الرجل الصالح يكاد ان يحتل مقاماً أسمى من مقام الرجل العظيم .

وطبيعيّ ، بعد أن حكم بعضهم على لويس فيليب في صرامة ، وحكم بعضهم الآخر عليه في قسوة ، ان يتقدّم رجـــل امسى الآن طيفاً من الاطياف ، رجلٌ عرف هذا الملك ، فيشهد له أمام التاريخ . وهذه الشهادة مهما تكن ، هي من غير ريب وقبل كل شيء ، مجرّدة عن الهوى تجرداً كاملاً . ان الوصف الذي خطته يد رجل ميت يكون مخلصاً . والظل قد يعزي ظلاً آخر . والمشاركة في ظلمة واحدة تمنـــح الحق في الثناء .

* Casimir Périer مصرفي غني ورجل دولة فرنسي تولى وزارة الداخلية عام ١٨٣١ فقمع اضطرابات باريس وليون في شدة وعنف ، ثم ما لبث ان قضى نحبه بالكوليرا (١٧٧٧ — ١٨٣٢)

** César de Beccaria فيلسوف وعالم جنائي ايطالي (١٧٣٨ — ١٧٩٤) وضع كتاباً شهيراً في العقوبات ادت مبادئه الى تجديد القانون الجنائي وتلطيفه . وقد احدث كتابه ذاك لدى نشره ضجة كبيرة في اوروبة .

*** Fieschi متآمر فرنسي (١٧٩٠ — ١٨٣٦) حاول اغتيال لويس فيليب فأعدم في ٢٨ تموز مع زميليه « بيبين » و « موري » .

وليس ثمة كبير خوف من ان يقال ، ذات يوم ، عن ضريحين في المنفى : « هذا الضريح قد تملّق ذاك . »

٤
شقوق تحت الأساس

في اللحظة التي توشك فيها هذه الدرامة التي نرويها ان تدخـــل الى أعماق احدى السحب الفاجعة التي تحجب السنوات الأولى من عهد لويس فيليب لم يكن في ميسورنا ان نكون مبهمين ؛ ولقد كان من الضروري أن يكون هذا الكتاب صريحاً في ما يتصل بذلك الملك .

لقد تولى لويس فيليب السلطة الملكية من غير عنف ، من غير عمل مباشر من جانبه ، بفعل تحويل ثوري كان من غير شك مختلفاً جداً عن هدف الثورة الحقيقي ، ولكنه تحويل لم يكن له هو ، دوق دورليان ، ايما مبادأة شخصية فيه . لقد وُلد اميراً ، ولقد حسب أنه انتُخب ملكاً . إنه لم يمنح نفسه هذه السلطة ؛ إنه لم يأخذها قط ؛ لقد قُدّمت اليـــه ، ولقد قبلها ؛ مقتنعاً ، على نحو خاطيء ، في نظرنا ، ولكنه كان مقتنعاً على أية حال ، بأن العرض كان وفقاً للحق ، وان القبول كان وفقاً للواجب . ومن هنا كان امتلاكه ناشئاً عن اخلاص . والآن ، ونحن نقول ذلك في توكيد ، لمّا كان لويس فيليب مخلصاً في امتلاكه ، ولما كانت الديموقراطية مخلصة في هجومها ، فان الهول الناشيء عن المعارك الاجتماعية ليست تقع تبعتُهُ لا على الملك ، ولا على الديموقراطية . إن صراع المبادىء اشبه ما يكون بصراع العناصر . الاوقيانوس يدافع عن الماء ، والاعصار يدافع عن الهواء . الملك يدافع عن الملكية ، والديموقراطية تدافع عن الشعب . إن النسبيّ ، الذي هو الملكية ، يقاومُ المطلق ، الذي هو الجمهورية . وتسيل

دماء المجتمع من جراء هذا الصراع . ولكن ما يعتبر آلامه اليوم سوف يصبح سلامته في ما بعد . وعلى اية حال ، فليس ثمة ههنا ايّ لوم نوجهه الى الفريقين المتصارعين . إن احدهما لمخطىء من غير ريب . فالحق ليس كتمثال رودس قائماً على شاطئين اثنين في آن معاً ، فرِجل في الجمهورية ورِجل في الملكية . انه كلٌّ لا يتجزأ ، وانه لقائم في ناحية واحــدة . ولكن اولئك الذين ينخدعون ، ينخدعون في خلوص نية . والأعمى لا يعتبر مجرماً إلا بقدر ما يعتبر الفاندي * قاطع طريق . فلنعزُ ، اذن ، هــذه المبارزات الرهيبة الى حتمية الاشياء . وايّاً ما كانت هذه العواصف ، فان المسؤولية البشرية لا تمازجها .

فلننجز هذا العرض .

إن حكومة ١٨٣٠ قد عرفت ، منذ البــدء ، حياةً قاسية . لقد اضطرّت ، وهي التي وُلدت أمس ، الى ان تقاتل اليوم .

فما انقضت فترة يسيرة على إقامتها حتى شعرت في كل مكان بحركات غامضة موجّهة ضد ملكية تموز ، وكانت ما تزال حديثة عهد بالعرش ، وغير راسخة الدعائم على الاطلاق .

لقد وُلدت المقاومــة في غد . أمـا هي نفسها فلعلّها لم تولد إلا البارحة .

ومن شهر الى شهر تعاظمت الاعمال العدائية ؛ وبعد أن كانت بكماء ، غدت صريحة واضحةً

والواقع ان ثورة تموز التي لم يرتَضِها الملوك خارج فرنسة إلا قليلاً ، كما سبق منا القول ، قد فُسّرت في فرنسة على وجوه مختلفة .

إن الله يبسُط ارادته الى الناس من خلال الأحداث ، وإنـه لنصٌّ غامضٌ مكتوبٌ بلغة غريبة . ويقوم الناس بترجمة ذلك النص في الحال .

---

* اي احد المشتركين في حروب « فانديه » Vendée (غربي فرنسة) الاهلية التي اثارتها ، خلال الثورة الفرنسية ، جماعات النبلاء ورجال الدين باسم المبدأ الملكي .

وهي ترجمات عجلى ، ركيكة ، ملأى بالاخطاء ، ومواطن النقص ، وسوء الفهم . إن عقولاً قليلة جداً لتفهم اللغة الالـهية . واوفرهم حظاً من الحكمة ، واعظمهم نصيباً من الأناة ، وأعمقهم عمقاً يحلّون الغازها في تؤدة . حتى اذا أقبلوا مع نصّهم ، كانت الحاجة قد زالت منذ عهد طويل . وفي الساحة العامة حتى الآن عشرون ترجمة . ومن كل ترجمة يُولد حزب ، ومن كل خطأ في الفهم تنشأ عصبة ، وكل حزب يعتقد ان لديه وحده النصّ الصحيح ، وكل عصبة تعتقد أنها تملك الضياء .

وكثيراً ما تكون الحكومة نفسها عصبة .

وفي الثورات يتجه بعض السبّاحين ضدّ التيار . اولئك هم رجال الاحزاب العتيقة .

ذلك ان الاحزاب العتيقة ، المتشبثة بالحق الوراثي بنعمة الله ، تعتقد ان لها الحق في ان تثور على الثورات باعتبار انها ناشئة من حقّ العصيان . خطأ ! لأن الفريق الثائر ، في الثورة ، ليس الشعب ؛ إنه الملك . فالثورة هي على وجه الضبط نقيض العصيان . فكل ثورة ، بوصفها عملاً سوياً ، تنطوي في ذات نفسها على شرعيّتها ، التي يلحق بها العارَ احياناً ثائرون زائفون ، ولكنها تَثبُت ، حتى بعد ان تلوّث ، وتستمرّ ، حتى بعد ان تخضّب بالدماء . إن الثورات لا تنبعث من المصادفة ، ولكنْ من الضرورة . الثورة عودةٌ من الصناعيّ الى الحقيقيّ . إنها تنشب ، لأنها ينبغي ان تنشب .

ولم تشذّ الاحزاب القديمة الشرعية عن هذه القاعدة فحملت على ثورة ١٨٣٠ بكامل العنف المنبثق من التفكير الخاطيء . إن الاغلاط قذائف ممتازة . لقد سددوا سهامهم ببراعة الى المواطن التي لا تمتنع فيها على الجَرْح ، حيث وجدوا درعها واهياً ، وحيث وجدوا ان المنطق يعوزها . لقد هاجموا هذه الثورة في ملكيتها وهكذا صاحوا في وجهها : أيتها الثورة ، لمَ هذا الملك ؟ إن الاحزاب عميانٌ يحسنون اصابة الهدف .

وهذه الصيحة اطلقها الجمهوريون ايضاً . ولكنها ، وقد صدرت عنهم ، كانت منطقية . فما كان عمىً بالنسبة الى دعاة الشرعية كان نفاذ بصيرة بالنسبة الى الديموقراطيين . كانت سنةُ ١٨٣٠ قد أفلست مع الشعب . وأنبّتها الديموقراطية ، حانقةً ، على ذلك الأخفاق .

وبين هجوم الماضي وهجوم المستقبل تقلقل بنيان ثورة تموز . لقد مثّلتِ اللحظةَ ، فهي في صراع مع الاجيال الملكية ، من ناحية ، وهي في صراع مع النور الأزليّ من ناحية اخرى .

والى هذا فان سنة ١٨٣٠ ، بعد أن لم تَعُدْ هي الثورةَ - وبعد أن اصبحت هي الملكية ، اضطرت الى ان تطبع على غرار اوروبة . إن صيانة السّلم زادت الأمر تعقيداً . فالتجانس الذي يُراد في السبيل المغلوط أبهظ من الحرب وأثقل . ومن هذا الصراع الخفيّ ، المكموم دائماً المزمجر دائماً ، يولد السلامُ المسلّح ، تلك الوسيلةُ الحضارية المتلِفة التي ترتاب فيها الحضارةُ نفسها . وشَبَتْ * ملكية تموز ، برغم السّوط ، تحت نير الوزارات الاوروبية . ولقد كان خليقاً بميترنيخ ان يشدّها الى الطِّوَل ** لقد دفعتها الى فرنسة يد التقدم ذات يوم دَفَعت هي الملكيات في اوروبة ، تلك الثديات البطيئة . أما حين قُطِرت ، فقد انقادت انقياداً .

وفي غضون ذلك ، داخلَ البلاد ، فأنّ العوز المقيم ، والبروليتاريا ، والاجور ، والتربية ، والعقوبة ، والبغاء ، وقدَر المرأة ، والثروة ، والبؤس ، والانتاج ، والاستهلاك ، والتوزيع ، والمقايضة ، والمال ، والاعتبار ، وحقوق رأس المال ، وحقوق العمل — كل هذه المسائل تضاعفت في وجه المجتمع . جُرُفٌ فظيع .

وخارج نطاق الاحزاب السياسية بمعناها الدقيق ، ظهرت على المسرح

* شبا الفرس : قام على رجليه .

** الطِّوَل : حبل طويل تشد به قائمة الدابة ثم تربطه الى وتد وترسلها ترعى .

حركة جديدة . ذلك بأن الاختيار الفلسفيّ استجاب للاختيار الديموقراطي . فاذا بالنخبة تستشعر القلق كالدهماء ، سواء بسواء . استشعرته على نحو مغاير ، ولكن بالشدة نفسها .

كان المفكرون يتأمّلون ، فيما كانت التربة ، يعني الشعب ، وقد عصفت بها التيارات الثورية ، ترتجف من تحت اقدامهم في ارتجاجات صَرْعيّة خفية . كان هؤلاء المفكرون - وبعضهم منعزلون ، وبعضهم مجتمعون في أَسَر ، بل وفي اتحاد بالأيمان تقريباً - يدرسون القضايا الاجتماعية ، في سكينة ، ولكنْ في عمق . معدّنون ثابتو الجنان يحفرون دهاليزهم ، بهدوء ، في اعماق بركان ، غير منزعجين أو يكادون من الهزات الخفيّة ، ووهج الحمم نصف المنظور .

وهذا السكون لم يكن اقلّ مشاهد هذه الحقبة المضطربة جمالاً .

وهؤلاء الرجال تركوا الاحزاب السياسية مسألة الحقوق ؛ لقد شغلوا انفسهم بمسألة السعادة .

كانت رفاهية الانسان هي التي رغبوا في انتزاعها من المجتمع .

لقد رفعوا المسائل المادية ، مسائل الزراعة ، والصناعة ، والتجارة ، إلى مثل منزلة الدين السامية ، تقريباً . ففي الحضارة كما قد تكوّنت ، وأقلها من عمل الله واكثرها من عمل الانسان ، تتحد المصالح ، وتتضامّ ، وتلتغم على نحو يمكّنها من ان تشكل صخرةً حقيقية قاسية ، وفقاً لقانون ديناميّ يدرسه ، في تؤدة ، علماء الاقتصاد ، الذين هم في الواقع جيولوجيّو السياسة .

وهؤلاء الرجال الذين يتكتّلون تحت اسماء مختلفة ، والذين نستطيع ان نخلع عليهم ، برغم ذلك ، لقب الاشتراكيين النوعيّ ، قد حاولوا ان يثقبوا هذه الصخرة ، ويجعلوا ماء السعادة الانسانية الصافي على الانبجاس منها .

واعتنقت جهودهم كل شيء ، من مسألة المشنقة حتى مسألة الحرب .

وإلى حقوق الرجل التي اعلنتها الثورة الفرنسية ، اضافوا حقوق المرأة وحقوق الطفل .

ولن يدهش أحدٌ اذا لم نحاول هنا ـ لاسباب مختلفة ـ ان نعالج القضايا التي أثارتها الاشتراكية معالجة اساسية ، ومن وجهة النظر النظرية . إننا سوف نجتزىء بسردها .

والواقع ان جميع المسائل التي طرحها الاشتراكيون ، بعد اقصاء الرؤى المتصلة بتكوّن العالم ، والاحلام ، والتصوف يمكن ان تُدْرج تحت مشكلتين رئيسيتين :

المشكلة الاولى :

إنتاج الثروة .

المشكلة الثانية :

توزيعها .

والمشكلة الأولى تنطوي على مسألة العمل .

والمشكلة الثانية تنطوي على مسألة الاجور .

في المشكلة الأولى يدور البحث حول اصطناع القوى .

وفي المشكلة الثانية يدور البحث حول توزيع المباهج .

ومن اصطناع القوى اصطناعاً حسناً تنشأ قوة الأمة كلها .

ومن توزيع المباهج توزيعاً حسناً تنشأ السعادة الفردية .

وينبغي ان نفهم من التوزيع الحسن لا التوزيعَ المتساوي ولكنِ التوزيعَ العادل . فالعدل اعظم منازل المساواة .

ومن اتحاد هذين الشيئين ، قوة الامة من خارج ، وسعادة الفرد من باطن ، تنجم الرفاهية الاجتماعية .

والرفاهية الاجتماعية تعني ان يكون الانسان سعيداً ، والمواطن حراً ، والأمة عظيمة .

وانكلترة تحلّ أولى هاتين المشكلتين . إنهـا تخلق الثروة على نحو

رائع ! ولكنها توزعها توزيعاً رديئاً . وهذا الحلّ الذي ليس كاملًا إلا من ناحية واحدة ، يقودها لا محالة إلى هذين الطرفين الأقصيَيْن : الثراء الهائل ، والشقاء الهائل . البهجة كلها لقلة من الناس ، والحرمان كله لسائر الناس ، يعني للشعب ؛ والامتياز ، والاستثناء ، والاحتكار ، والاقطاعية منبثقةً من العمـــل نفسه ؛ وضع خاطيء وخطِر يُقيم قوة الأمة العمومية على التعاسة الخصوصية ، ويؤصّل عظمة الدولة ، في آلام الفرد . عظمة فاسدة ، تتحد فيها جميع العناصر المادية ، ولا يتسرب اليها أيما عنصر من العناصر المعنوية .

والشيوعية والقانون الخاص بالاراضي يعتقدان أنهما حـــلاّ المشكلة الثانية . إنهما مخطئان . فالتوزيع الذي يقولان بـه يقتل الانتاج . إن التقسيم المتساوي يلغي التنافس . وبالتالي يلغي العمل نفسه . إنه توزيع يقوم به الجزار ، الذي يقتل مـــا يوزّعه . واذن فمن المتعذر ان نقف عند هـذه الحلول الموهومـة . إن توزيـع الثروة لا يكون بقتلهـا .

إن المشكلتين يجب ان تُحلاّ معـاً لـكي يكون حلّهما حسناً . يجب ان يوحَّد الحلاّن بحيث يصبحان حـلًا واحداً ليس غير .

إنك اذا حللت احدى المشكلتين فحسب تكون فينيسيا ، تكون انكلترة . سوف تكون لك مثل فينيسيا ، قوة اصطناعية ، أو تكون لك ، مثل انكلترة ، قوة مادية ؛ سوف تكون الغنيّ الشرير . سوف تموت بالعنف ، كما ماتت فينيسيا ، أو بالافلاس ، كما ستسقط انكلترة . والعالم سوف يدعك تموت وتسقط ، لان العالم يُسقط ويميت كلّ شيء غير منطوٍ إلا على الانانية ، وكل شيء لا يمثـل للجنس البشري فضيلةً أو فكرة .

وواضح اننا لا نشير بهاتين الكلمتين ، فينيسيا وانكلترة ، الى الشعب

ولكن الى المنشآت الاجتماعية ؛ الى حكم الاقلية المفروض على الامم ، لا الامم نفسها . فالامم تتمتع دائماً باحترامنا ومشاركتنا الوجدانية . إن فينيسيا ، الشعب ، سوف تنبعث ؛ وانكلترة ، الارستوقراطية ، سوف تسقط . ولكن انكلترة ، الامة ، خالدةٌ ابداً . حتى اذا قلنا هذا تابع الكلام .

حلوا المشكلتين ، شجعوا الغني ، إحموا الفقير ؛ الغوا البؤس ، ضعوا حداً للاستغلال غير العادل الذي يُنزله القويّ بالضعيف ، إكبحوا الحسد الطاغي الذي يستشعره ذلك الذي لا يزال على الطريق نحو ذلك الذي بلغ غايته ؛ عدّلوا اجور العمل في دقة وعلى نحو اخويّ ؛ اضيفوا التعليم المجاني والالزامي الى نموّ الطفولة ، واجعلوا العلم اساس الرجولة ؛ نمّوا العقل فيما تمسكون بالذراع ؛ كونوا شعباً قوياً وأسرة من الناس السعداء في آن معاً ؛ إجعلوا الملكية ديموقراطية ، لا بالغائها ، ولكن بتعميمها بحيث يصبح في ميسور كل مواطن بلا استثناء ان يكون مالكاً ، وهو شيء أيسر وأسهل مما يعتقد ، وبكلمتين اثنتين ، تعلموا كيف تُنتجون الثروة ، وتعلموا كيف توزعونها ، وعندئذ تتمّ لكم العظمة المادية والعظمة المعنوية ، متحدتين ، وعندئذ تكونون جديرين بان تدعوا انفسكم فرنسة .

ذلك ، باستثناء آراء بعض الفرق التي ضلّت السبيل ، وفوق تلك الآراء ، هو ما قالته الاشتراكية ؛ ذلك ما سعت الى تحقيقه ، وذلك ما رسمته في عقول الناس رسماً خفيفاً .

جهود رائعة ! محاولات مقدسة !

هذه المذاهب ؛ هذه النظريات ، هذه المقاومات ، هذه الضرورة غير المرتقبة التي تحمل رجل الدولة على التشاور مع الفلاسفة ، والبيّنات المشوّشة نصف المنظورة ، والسياسة الجديدة التي كان من الضروري وضعها منسجمة مع العالم القديم ولكنها مع ذلك غير متنافرة جداً مع

مثل الثورة الأعلى ؛ وذلك الوضع الذي يتعيّن فيه اصطناع لافاييت لمقاومة بولينياك * ؛ وحدْس التقدّم الشفاف في الفتنة ، وفي البيوت ، وفي الشارع ؛ والتنافس على التوازن من حوله ؛ وإيمانه بالثورة ؛ وربما ذلك التخلي المرَضيّ الغريب الناشيء عن القبول الغامض لحــــقٍّ جازم أعلى ؛ ورغبته في ان يظلّ جزءاً من سلالته ؛ واعتزازه بأسرتـــــه ، واحترامه الصادق للشعب ، وإخلاصه هو — كل ذلك شغَل لويس فيليب على نحو مؤلم تقريباً ، حتى لقد كاد يرزح تحت اعباء العرش برغم قوته البالغة وشجاعته النادرة .

لقد استشعر تحت قدميـــــه تفككاً رهيباً لم يكن ، مع ذلـك ، تفتتاً الى هباء — بسبب من ان فرنسة كانت هي فرنسة اكثر من اي وقت مضى .

وغطّت الافق سحب داكنة . كان ظلٌّ غريب يقترب شيئاً فشيئاً فينبسط فوق الناس ، فوق الاشياء ، فوق الافكار ، ظلٌّ مُقبِل من ضروب السخط ومن ضروب النظُم . كان كل ما خُنق على عجل قد شرع يهتز ويختمر . وفي بعض الاحيان ، كان ضمير الرجل المخلص يحبس انفاسه ، اذ كان ثمة اضطراب في ذلك الهواء الذي امتزجت فيه المغالطات بالحقائق وارتعدت العقول في غمرة القلق الاجتماعي كاوراق الشجر عند اقتراب العاصفة . كان التوتر الكهربائي قوياً الى درجة جعلت اول عابر سبيل يضيء في بعض الأحيان ، على الرغم من انه قد يكون نكرة من النكرات . ثم إن الظلمة الغَسقية هبطت من جديد . وبين الفينـــة والفينة ، كانت الدمدمات العميقة البكماء تمكّن الناس من تقدير مبلغ البرق الذي انطوت عليه السحابة .

ولم يكد ينقضي على ثورة تموز عشرون شهراً حـــــتى استُهلت سنة

---

* Polignac رئيس مجلس الوزراء الفرنسي ووزير الشؤون الخارجية في نهاية عهد الملك شارل العاشر (١٧٨٠ — ١٨٤٧)

١٨٣٢ بظهر مداهمٍ متهدِّد . فشقاء الشعب ؛ وافتقاد العمال للخبز ؛ وطرد بروكسيل لآل ناسوس * كما طردت باريس آل بوربون ؛ وعرضُ بلجيكة نفسَها على أحد الأمراء الفرنسيين وإعطاؤها لأحد الأمراء الانكليز ؛ وكراهية نيقولا الروسيةُ ؛ وقيام إبليسَيْن خلفنا ، فرديناند في اسبانية ، وميغويل في البرتغال ؛ والزلزال الايطالي ؛ وبَسْطُ ميترنيخ ذراعه فوق بولونيّ ، ومقاومة فرنسة للقوات النمسوية مقاومة عنيدة في آنكونا ، وانبعاث صوت مطرقة غريب مشؤوم ، من ناحية الشمال ، كانت تسمِّر النعش على بولندة كرةً اخرى ؛ وتسديد النظرات الغضبى الى فرنسة تسديداً موصولاً من مختلف ارجاء اوروبة ؛ وتمثيل انكلترة دور الحليف المريب المستعد لأن يدفع كل من ينحني ، وينقضّ على كل من يسقط ؛ واحتماء اعضاء مجلس الشيوخ خلف بيكاريا لكي يأبى تسليم اربعة رؤوس الى القانون ؛ ومحوُ « زهرات الزنبق » عن عربة الملك ؛ وانتزاع الصليب عن كاندرائية نوتردام ؛ وانحلال لافاييت ؛ وافلاس لافيت ؛ وموت بنجهان كونستان فقيراً ؛ وموت كازيمير بيرييه من ضياع السلطان ؛ وانتشار الداء السياسي والداء الاجتماعي في عاصمتيْ المملكة في آنٍ معاً ، واحداهما مدينة الفكر ، والاخرى مدينة العمل ؛ فنشبت الحرب الاهلية في باريس ونشبت حرب الرقّ في ليون ، وانطلق من المدينتين الاثنتين وهجُ الأتون نفسه ؛ وتوقّد ارجوان فوهة البركان على جبين الشعب ؛ واجتياح التعصب ارجاء الجنوب ؛ وانتشار القلق في انحاء الغرب ؛ ومحاولة الكونتيس دو بيري تحريض مقاطعة لافانديه ؛ والدسائس ؛ والمؤامرات ؛ والانتفاضات ؛ والكوليرا — كل هذا اضاف الى ضجيج الافكار الكالح هديرَ الاحداث المظلم .

---

* Nassaus اسرة اوروبية مالكة حكمت في النذرلند ، او الاراضي المنخفضة ، منذ عام ١٨١٥

٥

وقائع ينبثق منها التاريخ
وينكرها التاريخ

وحوالى نهاية نيسان كان كل شيء قد أمسى أسوأ مما كان . كان الاختمار قد أمسى غلياناً . ومنذ سنة ١٨٣٠ كانت ثمة ههنا وهناك فتن صغيرة جزئية سرعان ما أُخمدت ، ولكن لتعاود الاندلاع من جديد – أمارات تؤذن بثورة دفينة واسعة . كان شيء فظيـــــع في سبيله الى ان يرى النور . وكان في ميسور المرء ان يلمح أسارير ، ما تزال غير واضحة فهي لا تكاد تُرى ، لثورة ممكنة الوقوع . وتطلعت فرنسة الى باريس ؛ وتطلّعت باريس الى حيّ سان انطوان .

وكان حي سان انطوان ، الذي حميَ خفيةً ، قد شرع يغلي .

وكانت حانات شارع شارونّ ، برغم أن التقاء هـــذين النعتين يبدو غريباً وقد خُلعا على بيوت الخمر – نقول كانت تلك الحانات رصينة عاصفة .

ففيها كان مجرد وجود الحكومة موضع التساؤل . قد تناقشوا هناك على نحو علنيّ ، في ما اذا كان يتعين عليهم ان يقاتلوا او أن يلتزموا الهدوء . وكانت هناك حوانيت خلفية حيث أُخذ على العمال عهدٌ بأن « ينفروا الى الشوارع عند الصيحة الأولى ، وان يقاتلوا مهما تكن قوى العدو عظيمة . » وما إن أقسموا على ذلك حتى أطلق رجـل جالس في زاوية الحانة صوتاً مرناناً وقال : « فهمتَ ! لقد أقسمتَ ! » وفي بعض الاحيان كانوا يرتقون السلم الى غرفة موصدة ، وهناك كانت تمثل مشاهد تـكاد تـكون ماسونية . كان يُطلب الى المنتسب الجديد ان يقسم على ان يقدّم الخدمة الى الجماعة كما يقدم الخدمة الى أبويه . تلك كانت الصيغة.

وفي الغرف الدنيا كان المرء يقرأ كراريس «تخريبية». **لقد ازدروا الحكومة**، كذلك قال تقرير سريّ من تقارير ذلك العهد.

وهناك كانت تُسمع كلمات مثل هذه: «انا لا اعرف اسماء الرؤساء. أما نحن فلن نعرف اليوم المضروب إلا قبل ساعتين.» وقال أحد العمال: «نحن ثلاثمئة، فليضع كل منا عشرة «سو» يجتمع لدينا مئة وخمسون فرنكاً لصنع القذائف والبارود.» وقال آخر: «انا لا اطلب ستة اشهر، أنا لا اطلب شهرين. ففي اقلّ من خمسة عشر يوماً سوف نقف أمام الحكومة وجهاً لوجه. وبخمسة وعشرين الف رجل نستطيع ان نصمد.» وقال آخر: «انا لا آوي الى الفراش، لأني أصنع الخراطيش طول الليل.» وبين الفينة والفينة كان رجال «ذوو سيماء بورجوازية وثياب أنيقة» يُقبلون «فيُحدثون ارتباكاً»؛ وكانت تبدو على وجوه اولئك الرجال «أمارات السلطان»، فهم يصافحون «الرجل الاكثر أهمية» بطريقة خاصة وينصرفون. كانوا لا يمكثون غير عشر دقائق. وكان القوم يتبادلون كلمات ذات مغزى: «لقد نضجت الخطة؛ لقد تمت المسألة.» و«كان كل من في المكان يئز بهذا» اذا اردنا أن نستعير كلمات واحد من الشهود بالحرف. وكانت الحماسة قوية الى درجة جعلت أحد العمال يصيح، ذات يوم، في حانة عمومية: «ليس عندنا سلاح!» فأجابه احد رفاقه: «الجنود عندهم!» محرّفاً بذلك، على سبيل السخرية، ولكن من غير ان يدري، بيان نابوليون لجيش ايطالية. ويضيف احد التقارير قائلًا: «وعندما يكون لديهم شيء اكثر سرّيةً فانهم ما كانوا يتسارّون به في تلك المواطن.» ويكاد المرء يعجز عن ان يفهم ايّ شيء يستطيعون ان يُكتّموه بعد ان قالوا ما قالوه.

وكانت الاجتماعات دوريةً أحياناً. وفي بعض تلك الاجتماعات لم يكن يجتمع اكثر من ثمانية نفرٍ أو عشرة نفر بحال من الاحوال،

وكان هؤلاء هم هم أبداً . وفي بعضها الآخر كان في ميسور كل امرىء أن يدخل اذا شاء ، وكانت الغرفة تغص بالوافدين حتى أنهم كانوا يضطرون الى الوقوف على الأقدام . كان بعضهم يشهد تلك الاجتماعات بدافع الحماسة وهوى النفس ، وكان بعضهم يشهدها « لأن طريقهم الى أعمالهم كانت من هناك » . وكالذي حدث في عهد الثورة ، كانت في تلك الحانات نسوة وطنيات كنّ يعانقن القادمين الجدد .

وثمة وقائع اخرى معبّرة كُشِف عنها الغطاء .

دخل رجل الى احدى الحانات ، واحتسى الخمر ، وخرج قائلاً :
« ايها الخمار ، إن ثمن ما شربتهُ عندك سوف تدفعه الثورة . »

وفي احدى الحانات المواجهة لشارع شارون كانوا ينتخبون المفوضين الثوريين . وكان الاقتراع السري يُجرى في القبّعات .

وكان بعض العمال يجتمعون في منزل معلم من معلّمي المسايفة كان يعطي درساً في شارع كوت . كان هناك مجموعة اسلحة تذكارية مؤلفة من سيوف خشبية ، وعصيّ ، وهراوات ، وسيوف كليلة . وذات يوم نزعوا هذه السيوف الكليلة من أغمادها . وقال احد العمال : « نحن خمسة وعشرون ؛ ولكنهم لا يعتمدون عليّ لانهم ينظرون اليّ نظرتهم الى ماكينة » . وهذه الماكينة كانت في ما بعد « كينيه » .

وجميع الأشياء الصغيرة التي تمّت بعد تفكّر اكتسبت تدريجياً ضرباً من السيرورة العجيبة . فقد قالت امرأة ، تكنس عتبة بابها ، لامرأة اخرى : « منذ عهد طويل وهم منهمكون في صنع الخراطيش . وتُليت البيانات جهاراً على قارعة الطريق ، موجّهة الى حرس المديريات الوطني . وكان احد هذه البيانات يحمل هذا التوقيع : **بورتو ، تاجر خمر** .

وذات يوم ، وعند باب احد تجار الخمر في سوق لونوار ، ارتقى رجلٌ ذو لحية كثيفة ونبرة ايطالية مَعْلماً من معالم الطريق وقرأ في صوت عالٍ كلاماً مكتوباً بدا وكأنه صادر عن سلطة سرية . وتشكلت

حوله جماعات ، وصفقت هذه الجماعات . والتقطت المقاطع التي هزت الحشد ، اكثر ما يكون ودُونت في تلخيص ... « إن عقائدنا تُحجَّر ؛ إن بياناتنا تمزّق ؛ إن ملصقي إعلاناتنا يراقَبون ويُلقى بهم في السجن .. إن السقوط الذي طرأ ، منذ قريب ، على اسعار القطن قد جعل كثيراً من المعتدلين ينضمون الينا ... » و « ... ان مستقبل الشعوب يتكوّن في صفوفنا المغمورة ... » و « هذا هو فصل المسألة : العمل او الرجعة ، الثورة او الثورة المضادة . ذلك لأننا في هذه الحقبة لم نعد نؤمن بقوة الاستمرار أو بالجمود . مع الشعب او ضد الشعب ، ذلك هو السؤال ، وليس هناك سؤال غيره . » و « ... يوم لا نعود نلائمكم ، اسحقونا . ولكنْ حتى ذلك الحين ، ساعدونا على المضي الى أمام . » كل ذلك في وضح النهار .

وكانت أعمال اخرى اكثر جسارة موضع ارتياب الشعب بسبب من جسارتها نفسها . ففي الرابع من نيسان ، ١٨٣٢ ، ارتقى عابر سبيل المَعْلم القائم عند زاوية شارع مارغريت وصاح : « أنا بابوفيّ ! * » ولكن الشعب استروح تحت بابوف ريح « جيسكيه » .

وقال هذا الرجل في ما قاله :

— « فلتسقط الملكية الشخصية ! إن المعارضة اليسارية جبانة خائنة . فحين تريد ان تكون على صواب ، تبشر بالثورة . انها تصطنع الديموقراطية لكي لا تُغلب ، وتنهج نهجاً ملكياً لكي لا تقاتل . الجمهوريون وحوش ذات ريش . إحذروا الجمهوريين ، ايها العمال المواطنون . »

* نسبة الى بابوف Babeuf وهو ديماغوجي فرنسي (١٧٦٠ — ١٧٩٧) تآمر على حكومة الادارة ، مع نفر من اليعاقبة ، وحكم عليه بالموت ، ولكنه انتحر بضربة خنجر في اللحظة التي تقدم فيها الى المشنقة . وتعاليمه اقرب الى الشيوعية وتعرف بالبابوفية .

فصاح عامل :

— « اسكت ، ايها المواطن الجاسوس ! »

ووضع ذلك حداً للخطبة .

ووقعت أحداث عجيبة .

وعند هبوط الليل التقى عاملٌ « برجل حسن البزة » قرب القناة فقال له هذا الرجل : « الى اين انت ذاهب ايها المواطن ؟ » فأجاب العامل : « سيدي ، انا لم اتشرف بمعرفتك . » فقال الرجل : « ولكني اعرفك معرفة جيدة . » ثم اضاف : « لا تخف ، انا مفوّض اللجنة . إنهم يرتابون في صلابة عقيدتك . وانت تعرف انك اذا أفشيت شيئاً ما فأنا لك بالمرصاد . » ثم صافح الرجلَ بطريقة خاصة ، وانصرف قائلاً :

« سوف نلتقي ثانيةً في وقت قريب . »

وكان رجال الشرطة يسترقون السمع . فيتلقفون ، لا في الحانات فحسب ، ولكن في الشوارع ايضاً ، محاوراتٍ فريدة :

قال احد الحائكين لنجّار آبنوس :

— « حاول ان تدخل على جناح السرعة . »

— « لماذا ؟ »

— « سوف يجري شيء من اطلاق النار . »

وتبادل عابرا سبيلٍ رثا الثياب هذه العبارات التي تلفت الانتباه ، والطافحة بروح « جاكيّة * » واضحة :

— « من يحكمنا ؟ »

— « مسيو فيليب . »

— « لا ؛ البورجوازية . »

ونخطىء اذا حسبت اننا استعملنا لفظة الـ « جاكيّة » بقصد رديء . لقد كان الـ « جاكات » هم الفقراء .

---

* يقصد بالروح الجاكية jacquerie الروح الثوري .

وفي مناسبة اخرى سُمِع عابرا سبيل يتحدثان فيقول احدهما للآخر :

— « عندنا خطة حسنة للهجوم . »

ومن حديث حميميّ دار بين اربعة رجال جالسين القرفصاء في خندق عند مفترق طرق « باب العرش » التُقطت هذه الكلمات ليس غير :

— « سوف يُبذل كلُّ جهد ممكن لكي لا يتنزّه في باريس بعد اليوم . »

الى من يعود الضمير في « يتنزه » ؟ غموض متوعّد .

وكان « الزعماء الرئيسيون » ، كما اعتادوا ان يقولوا في الضاحية ، يحيون في عزلة دائمة . واعتقد القوم ان اولئك الزعماء كانوا يجتمعون لتبادل الرأي في حانة قرب جسر سان اوستاش . وكانوا يحسبون ان رجلاً يدعى أوغ .... ، وهو رئيس جمعية اسعاف الخياطين ، شارع مونديتور ، كان يقوم بدور الوسيط الرئيسي بين الزعماء وبين ضاحية سان انطوان . ومع ذلك ، فقد كان الظلام الكثيف تكتنف هؤلاء الزعماء دائماً ، ولم يكن في ميسور ايما حقيقة واقعية ان تُضعف من الشهامة الفردية التي انطوى عليها هذا الجواب الذي أطلقه في ما بعد أحد المتهمين امام المحكمة المؤلفة من اعضاء مجلس الاعيان :

— « من هو رئيسك ؟ »

— « أنا لم اعرف احداً ، أنا لم أتبيّن احداً . »

ومع هذا ، فانها لم تزد على ان كانت مجرد كلمات ، كلمات شفافة ، ولكنها غامضة . فهي احياناً اشاعات في الهواء ، وهي أحياناً قيلٌ وقال . واكتُشفت بيّنات اخرى .

فقد كلّفَ احد النجارين بأن يسمّر في شارع روبي ألواحَ سياج يطوّق قطعة من الارض ينهض عليها منزلٌ رهن الانشاء ، فوجد في

تلك الارض قصاصة من رسالة ممزقـــة كانت الاسطر التالية ما تزال مقروءةً فيها :

— « .... يجب على اللجنة ان تتخذ الاجراءات لمنع الانتساب الى الشُّعَب في مختلف الجمعيات . »

وفي احدى الحواشي :

— « لقد علمنا ان ثمة بنادق في رقم ٥ (مكرر) شارع ضاحية بواسونيير يبلغ عددها خمسة آلاف او ستة آلاف ، عند صانع اسلحة في احد الافنية . إن فصيلة الجيش غير مسلحة البتة . »

وكان الذي أثار النجارَ وجعله يُطلع جيرانه على تلك القصاصة انه التقط على بضع خطىً اخرى ورقة ثانية ، ممزقة هي أيضاً ، ولكنهـــا اعظم دلالةً . وها نحن نُثبتها هنا بشكلها ذاته لما لهذه الوثائق الغريبة من قيمة تاريخية :

Q	C	D	E	
				احفظ هذه اللائحة عن ظهر قلب . وبعد ذلك مزقها . ان الرجـــال الذين قبلوا سوف يفعلون الشيء نفسه عندما تبلغهم الاوامر . خلاص واخوة ل u og al fe

والواقع ان اولئك الذين شاركوا ، آنذاك ، في المقاصـد السرية التي انطوى عليها هذا الكشف لم يدركوا إلا في ما بعد معنى هـــذه الاحرف الكبيرة الاربعة : *quinturions* ، (قادة الخمسة) *centurions* (قادة المئة) ، *decurions* (قادة العشرة) ، *éclaireurs* (كشافون) ، ومعنى هذه الاحرف : *u og al fe* التي كانت دامغـــاً تاريخاً ، والتي عنتْ هذا الخامس عشر من نيسان ١٨٣٢ . وتحت كل من هـــذه

الاحرف الكبيرة ، دُوّنت اشارات ذات دلالة خاصة جداً . هكذا :

Q . Baunerel ٨ بنادق . ٨٣ خرطوشة . رجل موثوق .

C . Boubière بندقية صغيرة ؛ ٤٠ خرطوشة .

Q . Rollet سيف كليل . بندقية صغيرة . خمسة غرام بارود .

E . Teissier حسام . صندوق خرطوش . صائب .

Terreur ٨ بنادق . شجاع ، الخ .

واخيراً وجد هذا النجار ، في الارض المسيجة نفسها ، ورقة ثالثة دوّنت عليها بالقلم الرصاصي ، ولكنّ على نحو مقروء جداً ، هذه القائمة اللغزية :

اتحاد . بلانشار . آربر سيك ؛ ٦ .

بارّا . سواز . « سال أو كنت » .

كوسيوسكو . أوبري الجزار ؟

J. J. R.

كييوس غراكوس .

حقّ إعادة النظر . دوفون . أربعة .

سقوط الجيروندبين . ديرباك . موبويه .

واشنطون . بنسون . بندة ... واحدة ؛ ٨٦ خرطو ...

المارسييز .

سيا .... الشعب . ميشيل . كيكامبوا . سابر .

هوش .

مارسو . افلاطون . آربر سيك .

فرصوفيا . تيلي ، المنادي على صحيفة « لو بوبولير » .

وأدرك البورجوازي المخلص الذي انتهت الى يده هذه اللائحة معناها . لقد بدا ان تلك اللائحة كانت القائمة الكاملة بشُعب المديرية الرابعة

من جمعية حقوق الانسان ، مع اسماء وبيوت رؤساء الشُعَب . واليوم ، وقد أمست هذه الوقائع التي كانت مجهولة آنذاك مسألة تاريخ ليس غير ، نستطيع ان ننشرها في الناس . وينبغي ان نضيف ان تأسيس جمعية حقوق الانسان يبدو متأخراً عن العهد الذي وُجدت فيه هذه الورقة . ولعلها كانت مجرد مسوّدة .

وأياً ما كان ، فبعد الاشاعات والاقاويل ، وبعد الاشارات المدونة تبدأ الوقائع المادية في البروز .

وفي شارع بوبينكور ، عند تاجر من تجار البضائع المستعملة ، عُثر في درج احدى الخزائن على سبع صحائف من الورق الرمادي طُويت كلها على نحو متساوٍ بقَطْع الربع . وكانت هذه الصحائف تخفي ستة وعشرين مربعاً من الورق الرمادي نفسه طُويت على شكل خراطيش ، وبطاقة كُتب عليها :

ملح البارود	١٢ ليبرة .
كبريت	ليبرتان
فحم	ليبرتان ونصف
ماء	ليبرتان

ولقد نصّ التقرير الرسمي الذي وُضع إثر اكتشاف هذه الاشياء على ان رائحة بارود قوية انبعثت من ذلك الدرج .

وفيما كان احد البنّائين راجعاً الى بيته ، بعد ان اتمّ عمل النهار ، نسي رزمةً صغيرة على مقعد خشبي قرب جسر اوسترليتز . وحُملت هذه الرزمة الى مخفر الشرطة . وهناك فُتِحت فاذا فيها حواران مطبوعان يحملان توقيع *Lahautière* ، وأغنية عنوانها : ايهـــا العمال ، تعاونوا ، وصندوق صفيحيّ مليء بالخراطيش .

وبينا كان أحد العمال يحتسي الخمر مع رفيق له دعاه الى ان يضع يده عليه ليرى مبلغ ما يستشعره من حرارة . ولكن الآخر استشعر تحت صدرته بندقية صغيرة .

وفي خندق بالجادة ، بين الـ « بير لاشيز » والـ « باربير دو ترون » ، وفي اشد النقاط انعزالاً ، اكتشف بعض الصبية ، وهم يلعبون ، تحت ركام من النُّجارة والقُشارة ، كيساً يحتوي على قالب من قوالب القنابل ، واسطوانة خشبية اصنع الخراطيش ، وطاساً خشبياً فيه قليل من بارود القنص ، وبوتقة صغيرة تكشّف داخلها عن آثار واضحة لرصاص مذوب .

وذات يوم ، في الساعة الخامسة صباحاً ، دخل بعض الشرطة منزل رجل يدعى باردون أمسى في ما بعد رئيساً لشعبة « باريكاد ميري » وقتل في ثورة نيسان ١٨٣٤ فوجدوه واقفاً غير بعيد عن سريره ، وفي يده خراطيش كان منهمكاً في صنعها .

وحوالى الفترة التي يستريح فيها العمال رُئي رجلان يلتقيان بين « باب بيكبوس » ، و « باب شارينتون » ، في زقاق صغير ضيق بين جدارين قرب بائع خمر كانت أمام بابه مائدة ورق لعب . واخرج أحدهما بندقية صغيرة من تحت ثوبه العمالي وقدّمه الى الآخر . ولحظةَ قدّمه اليه لمح ان العرق الناضح من صدره قد ألحق بعض الرطوبة بالبارود . فأعدّ فتيل البندقية الصغيرة واضاف شيئاً من البارود الى ما كان في خزانها منه . ثم افترق الرجلان .

وافتخر رجل يدعى غاليه — وقد قُتل بعدُ في شارع بوبورغ في أحداث نيسان — بأن عنده في المنزل سبعمئة خرطوشة وأربعاً وعشرين قداحةً .

وأبلغت الحكومة ذات يوم ان اسلحةً ومئتي الف خرطوشة قد وزعت في الحيّ . وبعد اسبوع وزعت ثلاثون ألف خرطوشة . ومن عجب ان الشرطة لم تستطع ان تعثر على واحدة . وقد جاء في رسالة

استولى عليها البوليس : « لن تنقضي فترة طويلة حتى يصبح في ميسور ثمانين الف وطني ان يحملوا السلاح خلال اربع ساعات . »

كان هذا الاختمار كله عمومياً ، بل ان في استطاعة المرء ان يقول انه كان هادئاً تقريباً . لقد جمعت الثورة الداهمة عاصفتها بسكون في وجه الحكومة . ولم تعوز الغرابة هذه الازمة ، التي كانت ما تزال سرية ولكنها لم تعد غير مدركة بالكلية . كان البورجوازيون يتحدثون مع العمال في هدوء ، حديث الاستعدادات المتخذة . كانوا يقولون : « كيف حال الثورة ؟ » بالنبرة عينها التي يتساءلون فيها : « كيف حال زوجتك ؟ »

وتساءل تاجر اثاث ، في شارع مورو : « حسناً ، متى ستهجمون ؟ »

وقال بائع آخر :

— « سوف تهجمون في وقت قريب ، أنا ادري . منذ شهر كنتم خمسة عشر الفاً ، وها انتم الآن خمسة وعشرون الفاً » — وقدم بندقيته ، وقدّم جار له بندقية صغيرة كان يبتغي ان يبيعها بسبعة فرنكات .

وأياً ما كان ، فقد تعاظمت الحمّى الثورية . ولم تخلُ منها ايما بقعة في باريس وفي فرنسة كلها . لقد نبض الشريان في كل مكان . ومثل تلك الاغشية ، التي تنشأ عن بعض الالتهابات والتي تتشكل في الجسم البشري ، شرعت شبكة الجمعيات السرية تنتشر في البلاد . فمن جمعية « اصدقاء الشعب » العلنية والسرية في آن معاً ، انبثقت « جمعية حقوق الانسان » التي ارخت جدولاً من جداول اعمالها هكذا : بلوفيوز ، السنة الاربعون من التقويم الجمهوري ، والتي قدّر لها ان تعمّر حتى بعدَ قرارات محكمة الجنايات القاضية بحلها ، والتي لم تتردّد في ان تطلق على شُعبها مثل هذه الاسماء ذات المغزى :

الحراب .

ناقوس الخطر .
مدفع النفير .
القلنسوة الفريجية *
٢١ كانون الثاني .
المتشردون .
الصعاليك .
الى الامام سر .
روبسبير .
المستوى .
Ça ira **

وانتجت « جمعية حقوق الانسان » « جمعية العمل » . وكان فاقدو الصبر هم الذين فارقوا تلك الجمعية واندفعوا الى امام . وحاولت منظمات اخرى ان تتزود بالمتطوعين من الجمعيات الأم الكبرى . وتشكى المتطوعون قائلين انهم يخضعون بذلك لجذب متواتر . وهكذا نشأت « الجمعية الغالية » و « اللجنة المنظمة للبلديات » . وهكذا نشأت ايضاً جمعيات لـ « حرية الصحافة » و ا « الحرية الفردية » و ا « تثقيف الشعب ضد الضرائب المباشرة » . ثم نشأت « جمعية العمال المنادين بالمساواة » التي انقسمت الى ثلاث شعب : شعبة المساواتيين ، وشعبة الشيوعيين ، وشعبة الاصلاحيين . ثم « جيش الباستيل » ، وهو ضرب من الجماعة ذات التنظيم العسكري ، اربعة رجال يقودهم عريف ، وعشرة يقودهم رقيب ، وعشرون يقودهم ملازم ثانٍ ، واربعون يقودهم ملازم اول ؛ ولم يكن

* نسبة الى فريجيا ، وهي بلد قديم في اواسط آسية الصغرى . والقلنسوة الفريجية *bonnet phrygien* قلنسوة حمراء تشبه تلك التي كان يعتمر بها الفريجيون القدماء ، وقد شاعت في فرنسة عهد الجمهورية الاولى بوصفها رمزاً للحرية .
** أغنية ثورية سبق التعريف بها .

ثة قط اكثر من خمسمئة رجل يعرف بعضهم بعضاً . منظمةٌ امتزج فيها الحذر بالجرأة ، وبدت وكأنها موسومةٌ بعبقرية البندقية (فينيسيا) . وكانت للجنة المركزية القائمة في الرأس ، ذراعان اثنتان ، هما « جمعية العمل » و « جيش الباستيل » . وتحركت بين هذه الجمعيات الجمهورية جمعيةٌ تقول بالشرعية ، وتدعى « جمعية فرسان الوفاء » . ولكنها شُجبت ونُبذت ظهرياً .

وتفرعت الجمعيات الباريسية الى المدن الرئيسية . فكانت لليون ، ونانت ، وليل ، ومرسيليا جمعياتها الحاملة اسماء « حقوق الانسان » ، و « الكاربوناري » ، و « الرجال الاحرار » . وكانت لـ « أيكس » جمعية ثورية دُعيت « جماعة الكوغورد » . لقد سبق أن لفظنا هذه الكلمة .

وفي باريس لم تكن ضاحية سان مارسو أقلّ صخباً ، أو تكاد ، من ضاحية سانت انطوان ، ولم تكن المدارس اقلّ اهتياجاً من الضواحي . وكانت احدى القهوات في شارع سان هياسينت ، وغرفتا الشراب والتدخين في « سيت بيليار » ، شارع ماتورين سان جاك ، بمثابة ملتقى يجتمع فيه الطلاب . فكانت جمعية « أصدقاء الالفباء » المتصلة بـ « التضامنيين » في آنجيه ، وجماعة الكوغورد في ايكس ، تجتمع ، كما رأينا من قبل ، في مقهى « موزين » . وكان هؤلاء الشبان انفسهم يجتمعون ايضاً ، كما قد رأينا ، في « مطعمٍ حانةٍ » قرب شارع مونديتور يحمل اسم كورينت . وكانت هذه الاجتماعات سرية . وكانت غيرها عامة جهد الطاقة ، وفي ميسورنا ان ندرك مدى جرأة اولئك القوم من هذا المقطع من الاستجواب الذي تمّ في احدى المحاكمات التي تلت : — « أين عُقِد هذا الاجتماع ؟ » — « في شارع دو لا بيه » . — « في بيت مَنْ ؟ » — « في الشارع . » — « ايّ الشُعَب كانت هناك ؟ » — « كانت هناك شعبة واحدة . »

— « أيها ؟ » — « شعبة الكتاب الموجز » — « مَنْ كان زعيمها ؟ »
— « أنا » . — « أنت أصغر سناً من ان تتخذ وحدك ذلك القرارَ الخطير بمهاجمة الحكومة . فمن أين جاءتك تعليماتك ؟ » — « من اللجنة المركزية . »

وكان الجيش في الوقت نفسه مرهقاً وناقماً مثل افراد الشعب ، كما اثبتت بعدُ تلك الحركات التي شهدتها بيلفور ، ولونيفيل ، وإبيينال . لقد اعتمدوا على السرية الثانية والخمسين ، على السرية الخامسة ، والثامنة ، والسابعة والثلاثين ، وعلى السرية العشرين الخفيفة . وفي بورغونيْ وفي مدن الجنوب غُرست « شجرة الحرية » ، يعني عموداً تعلوه قلنسوة حمراء .

كذلك كان الوضع .

وكانت ضاحية سانت انطوان ، كما قلنا منذ البدء ، هي التي جعلت ذلك الوضع ملموساً وأكدت عليه اكثر مما فعل أيّ جزء آخر من اجزاء الشعب . كان وجع الخاصرة في تلك الناحية .

هذه الضاحية العتيقة ، الغاصة بالسكان مثل قرية نحل ، الناشطة ، الشجاعة ، الغضوب مثل قفير نحل ، كانت تلتهب بالتوقّع والرغبة في الانتفاض . كان كل شيء في اضطراب ، ومع ذلك فأن العمل لم ينقطع بسبب من هذا . وليس في ميسور شيء ان يعطي فكرة عن مظهر الماثل ذاك ، المائر بالحيوية ، القاتم في آنٍ معاً . إن في تلك الضاحية ضروباً من الشدة مخبوءةً تحت سقوف العلالي ، وإن في تلك الضاحية أيضاً مواهب متقدة ونادرة . وإنما في موضوع الشدّة والذكاء ، بخاصة ، يكون من الخطر ان تتماسّ الأطراف القصوى .

وكانت لضاحية سانت انطوان ، الى ذلك ، اسباب اخرى للاهتياج ؛ ذلك انها كانت تستشعر عواقب الازمات التجارية ، والافلاسات ، والاضرابات ، والبطالة ، الملازمة للاضطرابات السياسية الكبرى . وفي عهد الثورة ، يكون البؤس هو السبب والنتيجة في وقتٍ واحد .

فالضربة التي يسدّدها ترتدّ اليه . والحقّ أن اهل تلك الضاحية ، الزاخرين بالفضيلة الفخور ، المفعمين الى أبعد الحدود بالحرارة الكامنة ، والمستعدين ابداً لنزاعٍ مسلح ، السريعين الى الانفجار ، المهتاجين ، البعيدي الغور ، المرهقين ، بَدَوْا وكأنهم ينتظرون سقوط شرارةٍ ما ، ليس غير . وكلما طافت بعض الشرارات بالأفق ، تحدوها ريح الحوادث ، لا نستطيع الا أن نفكر بضاحية سانت انطوان وبالمصادفة الفظيعة التي أقامت مخزنَ بارود الآلام والافكار ذاك ، على ابواب باريس .

وخمارات « ضاحية انطوان » ، التي اشير اليها غير مرةٍ في اللمحة السابقة ، ذات شهرة تاريخية . ففي أزمان الاضطراب تصبح كلماتها أدعى الى السكر من خمرها . ان ضرباً من الروح النبوئية وعبقاً من أعباق المستقبل ليطوفان هناك ، فتعظُم بها القلوب ، وتكبُرُ النفوس . إن خمارات ضاحية انطوان لتشبهُ حانات جبل آفانتين ، المشيدة فوق كهف « سيبيل » والموصولة بايحاءات عميقة مقدسة ، حانات كادت موائدها ان تكون أثافيّ ، حيث كان القوم يحتسون ما دعاه اينييوس * **خمر العرّافات** .

وضاحية سانت انطوان مستودع أناس . والاضطراب الثوري يحدث فيها صدوعاً تجري من خلالها السيادة الشعبية . وهذه السيادة قد تُوقع بعض الاذى ؛ انها ترتكب أخطاء مثل أيّ شيء آخر . ولكنها ، حتى حين تضلّ السبيل ، تظلّ جليلةً . وفي ميسورنا ان نقول فيها ما يقال في السّيكلوب ** الاعمى : *Ingens* *** .

ففي عام ٩٣ ، كانت تنطلق من ضاحية سانت انطوان حشود وحشية حيناً ، وعُصب بطولية حيناً ، تبعاً للفكرة السائدة وما اذا

---

* Ennius احد الشعراء الرومان الاقدمين (٢٤٠ ق . م - ١٦٩ ق . م)

** السيكلوب Cyclope في الاساطير اليونانية لفظ يطلق على بعض العمالقة الذين ليس لهم غير عين واحدة في منتصف الجبين .

*** في اللاتينية ، وتعني : ضخم ، هائل ، عظيم .

كانت صالحة او طالحة ، وتبعاً لليوم وما اذا كان يوم تعصب او يوم حماسة .

وحشية ! يجب ان نشرح هذه الكلمة . ما كانت غاية اولئك الرجال المتميزين غيظاً ، الذين انقضوا على باريس العتيقة المخرّبة ، في الايام التكوينية من عهد الفوضى الثورية ، بمزّقي الثياب ، صائحين ، مهتاجين في ضراوة ، رافعين عصياً في اطرافها رصاص ، شاهرين حراباً عالية ؟ كانوا يريدون ان يضعوا حداً للمظالم ، ولضروب الطغيان ، وللحرب ، ويطالبون بالعمل للرجل ، بالعلم للطفل ، بالرحمة الاجتماعيـــة للمرأة ، بالحرية ، بالمساواة ، بالاخاء ، بالخبز للجميع ، بالفكر للجميع ، بجعـل العالم جنة عَدْن ، بالتقدّم . وهذا الشيء المقدس ، الخيّر ، اللطيف — التقدّم — طالبوا به مروّعين ، أنصاف عراة ، وفي ايديهم نبابيت ، وفي أفواههم زئير ، بعد أن ضاقت بهم المذاهب وعصف بهم الحنق . كانوا وحوشاً ، أجل ، ولكنْ وحوشَ الحضارة .

لقد نادوا بالحق في ضراوة . لقد ارادوا ، ولو من طريق الخوف والارتعاد ، ان يسوقوا الجنس البشري عنوةً الى الجنة . لقـد بَدَوْا وكأنهم برابرة ، ولقد كانوا منقذين . لقد طالبوا بالضياء تحت قنـاع الليـــل .

وإزاء هؤلاء الناس ، القساة — نحن نقر بذلك — والفظيعين ، ولكن القساة والفظيعين في سبيل الخير ، كان ثمة رجـال آخرون مبتسمون ، مزركشون ، مذهّبون ، مزدانون بالعصائب ، ذوو جوارب حريرية ، وريش أبيض ، وقفافيز صفراء ، ورجال يصرّون في رقة ، وقد انحنوا فوق مائدة مخملية عند زاوية موقد رخاميّ ، على صيانـــة الماضي ، والاحتفاظ بالقرون الوسطى ، بالحق الالـهي ، بالجهل ، بالعبودية ، بعقوبة الاعدام ، بالحرب ، مجدّين في همس وفي تلطّف كلّاً من الحسام ، والحطب المعدّ لاحراق المجرمين ، والمشنقة . أما نحن ، فلو اضطررنا

الى ان نختار إما برابرة المدنية ، أو متمدني البربرية إذن لاخترنا البرابرة .
ولكن ثمة اختياراً آخر ممكناً ، والحمد لله . إن أيما سقوط مفاجيء ليس ضرورياً ، سواء أكان ذلك الى أمام او الى وراء . لا استبداد ، ولا ارهاب . نحن نرغب في التقدم في انحدار رفيق .
لقد قضى الله بذلك . ان تلطيف المنحدرات هو جمّاع السياسة الالـّهية .

٦
آنجولراس وأعوانه

وحوالى هذه الفترة أجرى آنجولراس — نظراً لوشك وقوع بعض الأحداث — ضرباً من الاحصاء العجيب .
كانوا كلهم يشهدون ذلك الاجتماع السري في مقهى الموزين .
وقال آنجولراس مازجاً كلماته ببعض المجـــازات نصف الملغزّة ، ولكن الحافلة بالمغزى :
— « من الخير أن نعرف أين نحن ، وعلى من نستطيع ان نعتمد . اذا أردنا مقاتلين فيتعين علينا أن نصنعهم . ينبغي ان نملك الشيء الذي به نضرب . ذلك لن يعود علينا بأذىً ما . إن عابري السبيل خليقون بأن يُنطَحوا في الطريق ، اذا كان ثمة ثيران ، اكثر مما يُنطحون اذا لم يكن ثمة شيء من ذلك . فلنحصِ القطيعَ قليلاً . كم عددنا ؟ نحن لا نستطيع ان نؤجل هذا العمل الى غد . فالثوريون يجب ان يكونوا دائماً على استعداد ، وليس لدى التقدم وقت يضيعه . حذار المفاجآت ، حذار أن نؤخذ على حين غرة . يجب ان نلقي نظرة على مـا خِطناه لنرى أمتماسك هو أم لا . وهذه المسألة ينبغي ان تدرس أعمق الدرس

اليوم . كورفيراك ، يتعين عليك ان تتولى أمر الخبراء الفنيين . انه يوم انطلاقهم . اليوم الاربعاء . فويي ، انت سوف ترى رجال الـ « غلاسيير » ، اليس كذلك ؟ وكومبوفير قد وعدني بالذهاب الى بيكبوس . ان هناك احتشاداً رائعاً . وباهوريل سوف يزور الـ « ايستراباد » . بروفير ، ان الفتور قد شرع يدبّ في نفوس الماسونيين . ولسوف تجيئنا ببعض الاخبار من محفل شارع « دو غرونيل سان هونوريه » . وجولي سوف يمضي الى مستشفى دوبويترين ، ويجسّ لنا نبض مدرسة الطب . وبوسويه سوف يقوم بجولة صغيرة في قصر العدل ويتحدث مع المحامين المتدرّجين . أما أنا فسأتولى أمر الكوغورد .»

فقال كورفيراك :

— « واذن فقد سُوّيَ كل شيء . »

— « لا . »

— « ما الذي بقي اذن ؟ »

— « شيء هام جداً . »

فتساءل كومبوفير :

— « وما هو ؟ »

فأجاب آنجولراس :

— « باب مَين . »

وبدا آنجولراس لحظةً وكأنه مستغرق في التفكير ، ثم استأنف الكلام :

— « ان في « باب مين » ناحتي رخام ، ورسامين ، ومساعدين في استوديوهات فن النحت . انها اسرة شديدة الحماسة ، ولكنها عرضةٌ للفتور وخمود الهمة . ولكني لا ادري ما الذي اصابهم منذ فترة قصيرة . انهم يفكرون في اشياء اخرى . انهم يذبلون . انهم ينفقون اوقاتهم في لعب الدومينو . يجب ان يقصد اليهم شخص ما ، ويتحدث اليهم

قليلاً ، وفي حزم . انهم يلتقون في محل ريشفو . وفي الامكان الاجتماع بهم هناك بين الظهر والساعة الواحدة . يجب ان ننفخ على هذه الجمرات . وكنت قد اعتمدت في هذا على ماريوس الشارد الذهن ذاك ، اذ هو على الجملة طيب ، ولكنه لم يعد يأتي البتة . اني في حاجـــة الى مَنْ اوسله الى « باب مين » . لم يبقَ عندي احد . »

فقال غرانتير :

— « وانا ؟ انا هنا . »

— « انت ؟ »

— « انا . »

— « انت ، ترشد الجمهوريين ؟ انت ، تدفيء — باسم المبادي‌ء — قلوباً دبّ اليها البرد ؟ »

— « ولِمَ لا ؟ »

— « امن الممكن ان تصلح انت لشيء ؟ »

فقال غرانتير :

— « اجل ، اني احس بطموح غامض الى ذلك . »

— « انت لا تؤمن بشيء . »

— « انا اؤمن بك . »

— « غرانتير ، اتريد ان تؤدي اليّ خدمة ؟ »

— « كلفني بأيّ شيء . بمسح حذاءك . »

« حسناً ، لا تقحم نفسك في شؤوننا . أفق من مرارتك . »

— « انت ناكر للجميل ، يا آنجولراس . »

— « سوف يكون خليقاً بك ان تذهب الى « باب مـــين » ! سوف تكون قادراً على ذلك ! »

— « انا قادر على ان اهبط شارع دي غري ، ان اجتاز ساحة سان ميشال ، ان اسير منحرفاً في شارع مسيو لو برنس ، ان اسلك

شارع فوجيرار ، ان اعبر الـ « كارْم » ، ان انعطف نحـــو شارع آمّاس ، ان اصل الى شارع « شيرش ميدي » ، ان اخلّف ورائي « مجلس الحرب » ، ان اهرول خلال شارع « فيَيْ تويلري » ، ان اوسع الخطى في الجادة ، ان اتبع مرتفع « مين » ، ان ادخل الى محل ريشفو . انا قادر على ذلك . ان حذائي قادر على ذلك . »

– « اتعرف اولئك الرفاق الذين يجتمعون عند ريشفو معرفة جيدة ؟»

– « معرفة بسيطة . انا نتخاطب بضمير المفرد ، ليس غير . »

– « ما الذي ستقوله لهم ؟ »

– « سوف احدثهم عن روبسبيير ، وحق الالـه . عن دانتون . عن المبادىء . »

– « انت ! » .

– « أنا . ولكنك لا تنصفني ، فحين أحاول ذلك أكون فظيعاً . لقد قرأتُ برودوم . انا اعرف « العقـد الاجتماعي » ، وانا احفظ دستور السنة الثانية عن ظهر قلب . « إن حرية المواطن تنتهي حيث تبدأ حرية مواطن آخر » . أو تحسبني بهيمةً ؟ إن في درجي ورقة مالية قديمة من اوراق عهد الثورة . حقوق الانسان ، سيادة الشعب ، يا سلام ! بل اني هيبريٌ بعض الشيء ، انا استطيـع أن أردّد ، طوال ست ساعات متواصلة ، والساعة في يدي ، بعض الاشياء الرفيعة . »

فقال آنجولراس :

– « إلزم الجدّ . »

فأجابه غرانتير :

– « انا وحشيٌ . »

وفكر آنجولراس بضع ثوانٍ ، وأومأ ايماءة من يتخذ قراراً . وقال في رصانة :

– « غرانتير ، لا مانـــع عندي من أن أجربك . سوف تذهب الى

باب مين . »

كان غرانتير يحيا في غرفة مؤثثة على مقربة دانية من مقهى الموزين. فغادر المكان ، ثم رجع بعد خمس دقائق . لقد مضى الى غرفته ليرتدي صدرة روبسبيرية .

وقال وهو يدخل المقهى ، ويحدق الى آنجولراس :

-- « حمراء . »

ثم إنه ضغط ، براحة يده الضخمة ، على طرفي صدرته القرمزيين ، فوق صدره .

واقترب من آنجولراس ، وهمس في اذنه :

-- « كن مطمئناً . »

وهرس قبعته في عزم ، وانصرف .

وبعد ربع ساعة ، هُجرت الغرفة الخلفية من مقهى الموزين . كان اصدقاء الالفباء جميعاً قد ولوا ، كلٌّ في سبيله ، وكل الى عمله . وكان آنجولراس ، الذي احتفظ لنفسه بالاتصال بالكوغورد ، قد خرج بعدهم كلهم .

وكان أعضاء جماعة « كوغورد ايكس » الذين في باريس يجتمعون في ذلك العهد في سهل إيسي ، بأحد المقالع المهجورة الكثيرة في تلك الناحية من باريس .

وفي طريقه الى ذلك الملتقى ، استعرض آنجولراس في ما بينه وبين نفسه الوضع العام . كانت خطورة الأحداث واضحةً للعيان . وحين تكون الأحداث ، التي تسبق بعض الامراض الاجتماعية الخفية ، تتقدّم في تثاقل فأن اقلّ تعقُّد خليق بأن يوقفها ويعرقل سيرها . ظاهرة تنبثق منها الانهيارات والولادات الجديدة . ولمح آنجولراس انتفاضة نيرةً تحت اذيال المستقبل . ومن يدري ؟ فلعل اللحظة كانت تقترب . الشعب ينتزع حقوقه من جديد ، يا له مشهداً جميلاً ! الثورة تعاود السيطرة ، في جلال على

فرنسة ، وتقول للعالم : التتمة غداً ! كان آنجولراس محبوراً . كان الأتون محمى ، وكانت لديه في تلك اللحظة نفسها سلسلة متفجرة من الاصدقاء منتثرة في باريس كلها . كان يركّب في أفكاره – بفصاحة كومبوفير الفلسفية الثاقبة ، وحماسة فويي المحبّة للبلدان جميعاً ، وتوقد ذهن كورفيراك ، وظرافة باهوريل ، وكآبة جان بروفير ، وعلم جولي ، وسخرية بوسويه – ضرباً من المفرقعة الكهربائية التي تلتهب من اقطارها جميعاً في آن معاً . إنهم كلهم منهمكون في العمل . وليس من ريب في أن الثمرة سوف تتكافأ مع الجهد ، وكان هذا حسناً . وقاده ذلك الى التفكير في غرانتير وقال مخاطباً نفسه : « قف ، ان « باب مين » يكاد يحملني على تنكّب طريقي ، فما ضرّ لو ذهبتُ حتى محل ريشفو ؟ فلنلق لحظة على ما يعمله غرانتير ، والى اين قد انتهى . »

وأعلن ناقوس فوجيرار الساعة الواحدة عندما وصل آنجولراس الى غرفة التدخين في محل ريشفو . ودفع الباب ، ودخل ، طاوياً ذراعيه ، تاركاً الباب يتذبذب بحيث يصفع كتفيه ، ونظر الى الغرفة الملأى بالموائد ، والرجال ، والدخان .

كان صوت يجلجل في هذا الضباب ، فيجيبه في حدّة صوتٌ آخر . كان غرانتير يحاور خصماً وجده هناك .

وكان غرانتير جالساً تجاه وجه آخر ، الى مائدة من رخام سانت آنّ التي نُثرت عليها النخالة ، ورُقشت بحجارة الدومينو ، وكان يضرب هذا الرخام بجمْع كفه ، وتلك هي الكلمات التي سمعها آنجولراس :

– « ستة مزدوجة . »

– « اربعة . »

– « يا للخنزير ! انا لا استطيع ان العب . »

– « لقد متّ ، اثنان . »

– « ستة . »

– « ثلاثة . »
– « آص . »
– « الدور دوري في الوضع أولاً . »
– « اربع نقاط . »
– « بصعوبة . »
– « لك . »
– « لقد ارتكبتُ خطأ جسيماً . »
– « أنت تلعب جيداً . »
– « خمسة عشر . »
– « سبعة اضافية . »
– « هذا ما يجعل مجموعي اثنين وعشرين . (يفكر) اثنين وعشرين . »
– « انت لم تتوقع الستة المزدوجة ، ولو فزتُ بها منذ البدء لتغير اتجاه اللعبة كلها . »
– « اثنان مرة اخرى . »
– « آص . »
– « آص . حسناً ، خمسة . »
– « ليس عندي شيء . »
– « انت الذي وضعت اولاً ، على ما أعتقد ؟ »
– « نعم . »
– « بياض . »
– « ألديه حظ ؟ آه ! ان لديك حظاً واحداً ! (يستغرق في تفكير حالم) اثنان . »
– « آص . »
– « لا خمسة ولا آص . هذا مزعج لك . »
– « دومينو . »
– « الى الجحيم ! »

الكتاب الثاني



ابونين

١

حقـــل القبرة

كان ماريوس قد شهد الخاتمة غير المتوقعة التي انتهى اليها الكمين الذي أحاط جافير بنبأه . ولكن ما كاد جافير يغـادر البيت العتيق ، ناقلاً أسراه في ثلاث عربات ، حتى انسلّ ماريوس ، بدوره الى الخارج . لم تكن الساعة قد تجاوزت التاسعة مساء . فمضى ماريوس الى غرفة كورفيراك . ولم يعـد كورفيراك ذلك القاطن الهادىء النفس في الحي اللاتيني . كان قد انتقل الى شارع الزجاج « لاسباب سياسية » ، وكان هذا الحي واحداً من تلك الاحياء التي أولعت الثورة في ذلك العهد بالاستقرار فيها . وقال ماريوس

لكوفيراك : « لقد جئت لانام عندك . » وسحب كورفيراك حشيّة من سريره الذي كان يحتوي على اثنتين ، ووضعها على الارض ، وقــال : « دونك ما ترقد عليه . »

وفي اليوم التالي ، حوالى الساعة السابعة صباحاً ، رجع ماريوس الى البيت العتيق ، فدفــع اجرة الغرفة وما كان لـ « مام بوغون » في ذمته ، واستأجر كارّةً يــدوية حمّلها كتبه ، وسريره ، وطاولته ، وخزانته ذات الادراج ، وكرسيّيه الاثنين ، وغادر الغرفة من غير ان يترك عنوانه الجديد ، حتى اذا رجع جافير بعد الظهر ليستجوب ماريوس عن احداث الليلة البارحة لم يجد غير « مام بوغون » التي اجابته بقولها : « لقد انتقل ! »

كانت « مام بوغون » مقتنعة بأن ماريوس كان بطريقة ما شريكاً للصوص الذين أُلقي القبض عليهم الليلة البارحة . وصاحت وسط بوّابات الحيّ : « من كان يستطيع ان يتخيل ذلك ؟ شابّ يكاد يحسبه الناظر فتاةً ! »

وكان ثمة سببان دفعا ماريوس الى الانتقال على هذا النحو الخاطف . اولهما أنه أمسى يخــاف ذلك البيت حيث رأى عن كثب وفي مختلف مراحلها الأدعى الى التقزّز والأشدّ ضراوةً قباحةً اجتماعية هي أشنع من الغنيّ الشرير : الفقيرَ الشريرَ . وثانيهما أنه لم يكن يرغب في ان يشهد المحاكمة التي سوف تتلو تلك الحادثـة ، في اغلب الظن ، وفي ان يُساق الى الادلاء بشهادته ضد تيناردييه .

وظنّ جافير ان الشاب ، الذي كان قد نسيَ اسمـه ، أخذه الذعرُ فولى هارباً ، أو لعله لم يَعُدْ الى غرفته لحظةَ وقع الكمين ؛ ومـع ذلك فقد بذل بعض الجهد في البحث عنه ، ولكنه لم يوفّق .

وتصرّم شهر ، ثم تبعَهُ آخر . كان ماريوس لا يزال يحيــا مع كورفيراك . ولقد علـم من محامٍ متدرّج يتردّد دائمـاً الى أروقة قصر

العـــدل أن تيناردييه كان أسير السجن الانفرادي . وكلّ يوم اثنين ، كان ماريوس يرسل الى كاتب سجن لافورس خمسة فرنكات لكي يُسلمها الى تيناردييه .

واذْ لم يبق مع ماريوس أيا مال ، فقد دأب على استعارة الفرنكات الخمسة من كورفيراك . كانت هي اول مرة يستدين بهـا ، في حياته . وكانت هذه الفرنكات الخمسة الدورية لغزاً مزدوجاً بالنسبة الى كورفيراك الذي كان يقدّمها ، وبالنسبة الى تيناردييه الذي كان يتلقّاهـا . وقال كورفيراك في ما بينه وبين نفسه : « الى مَنْ تذهب هذه الفرنكات الخمسة ؟ » وتساءل تيناردييه : « من الذي يبعث اليّ بهـذه الفرنكات الخمسة ؟ »

والى هذا ، فقد كان ماريوس محزوناً كسير الفؤاد . كان كل شيء قد غرق ، في الظلام ، كرةً اخرى . إنه لم يعد يرى أيا شيء امامه . وغاصت حياته ، من جديد ، في ذلك اللغز الذي كان يتيه خـــلاله متلمّـساً طريقه تلمساً . وكان قد رأى ، لحظةً ، وعلى مقربة دانية في ذلك الظلام ، الفتاة الجميلة التي أحبها ، والشيخ الذي بدا وكأنه ابوها ، هذين الكائنين المجهولين اللذين كانا شوقَهُ الاوحد ، وأمله الاوحــــد في الحياة . ولحظةَ خُيّل اليه أنه قد عثر عليهما ذهبت ريحٌ بهذه الظلال كلها . ولم تنطلق ايمـــا شرارة يقينٍ أو حقيقةٍ حتى من تلك الصدمة الرهيبة الى ابعد الحدود ، ولم يكن ايما حَدْسٍ ممكناً . فهو لم يعرف حتى الاسمَ الذي كان قد ظن انه عرفه . فليس من ريب انه لم يعد اورسولا . والقبرة كانت مجرد لقب . وما الذي ينبغي أن يقوله في الرجل العجوز ؟ أكان يتهرّب حقاً من وجه البوليس ؟ وعاودت ذهنه صورةُ ذلك العامل الاشيب الذي كان ماريوس قـــد لقيه في جوار الانفاليد . وتراءى له وكأن من الجائز ان يكون ذلك العامل ومسيو لوبلان رجلاً واحداً . أكان متقنّعاً ، اذن ؟ لقد كانت لهذا الرجل

جوانب بطولية ، وجواب ملتبسة . لمَ لمْ يلتمس النجدة ؟ لمَ فرّ ؟ هل كان – نعم أو لا – والدَ الفتاة الشابة ؟ واخيراً ، هل كان حقاً ذلك الرجلَ الذي حسِبَ تيناردييه انه عرفه ؟ أمن الممكن ان يكون تيناردييه مخطئاً ؟ اسئلة كثيرة ولا منفذ . صحيح ان هـــذا كله لم يسلب فتاة اللوكسومبورغ شيئاً من سحرها الملائكيّ . شقاء بعضٌ ؛ كان في قلب ماريوس هوى ، وكان فوق عينيه ظلام . لقد دُفع ؛ لقد جُذِب ؛ ولقد أمسى عاجزاً عن الحركة . لقد تلاشى كل شيء ، ما خلا الحب . بل لقد خسر حتى إلهام الحب وايماضاته الخاطفة . ففي الاحوال العادية ، يكون من دأب هذه الشعلة التي تحرقنا أن تُنيرنا أيضاً بعضَ الشيء ، وان تـفح بعض الضوء النافع في الخارج . وحتى نصائح الهوى الخفية لم يعد ماريوس يسمعها . إنه لم يقل في ذات نفسه قط : ولمَ لا اذهب الى هناك ؟ ولمَ لا اجرب هذا ؟ إن تلك التي لم يَعُدْ في مقدوره ان يسميها أورسولا كانت في مكانٍ ما من غير شك . ولكن شيئاً لم يهد ماريوس الى الوجهة التي يتعين عليه انه يلتمسها فيها . لقد تلخصت حياته كلها ، الآن ، في كلمتين : شك مطلق وسط ضباب لا سبيل الى اختراقه . أما أن يراها مرةً ثانية – أن يراها هي – فذلك ما كان يطمح اليه دائماً ، ولكنه لم يَعُدْ يرجوه منذ اليوم .

وزاد الطين بلة ان الفاقة ألمّت به من جديد . لقد استشعر تلك الريحَ المثلوجة على مقربة منه ، من امامه ومن ورائه . وخلال هذه الآلام كلها ، وطوالَ فترة أمست الآن مديدة ، انقطع عن العمل ، وليس شيء اشدّ خطراً من العمل الذي ينقطع المرء عنه . إنه عادةٌ مفقودةٌ . عادة يسهل هجرها ، ولكن يصعب استئنافها .

إن مقداراً بعينه من الاحلام شيء صالح ، مثل مخدّر يُعطى بجرعة رصينة . انه يلطّف حتّى الدماغ اثناء العمل ، وقد تكون حـــادةً

احياناً ، ونحدث في العقل مجاراً رقيقاً رطبـــاً يصحح خطوط التفكير المحض الشديدة الخشونة ، ويملأ الفجوات والثغرات ههنا وههناك ، ويشدّ بعضها الى بعض ، ويفلّ زوايا الافكار الحادة . ولكن الاسترسال في الاحلام يَغمر ويُغرق . وويلٌ لكل عاملٍ بعقله يجيز لنفسه ان يهبط هبوطاً كاملاً من التفكير الى الاستغراق في الاحلام ! انه يحسب انه سوف يعاود الارتفاع في يسر ، وانه يقول سيان هذا وذاك على اية حال . خطأ !

التفكير كدحُ العقل ، أما الأحلام فهي متعتُه . والاستعاضة عن التفكير بالاستغراق في الاحلام يعني عدم التمييز بين السم والغذاء .

وكان ماريوس ، فيما نذكر ، قد شرع يخطو في هذه السبيل . كان الهوى قد داهمه ، وكان قد انتهى آخر الأمر الى القذف به في خيالات لا غور لها ولا هدف . إنه ما عاد يغادر غرفته إلا ليمشي ويحلم . ولادةٌ كسول . لجة صاخبة وراكدة . وفوق هذا ، فبقدْر ما ينقص العملُ تكثر الحاجات . تلك قاعدة . فالانسان ، في الحـــالة الحالمة ، يكون بطبعهِ مسرفاً مترَفاً . والعقل المسترخي لا يصبر على حياة الضيق والحرمان . فهناك ، في هذا الضرب من الحياة ، بعض الخير ممتزجـــاً بالشر ، لأنه اذا كان الاتراف وخيم العاقبة ، فان السخاء سليمٌ صالح . ولكن الفقر الذي يتميز بالكرم والنبل ، والذي لا يأتي عملاً مـا ، مصيره الى الهلاك . إن موارده لتنضب ، وان حاجاته لتتدفق .

منحدر مشؤوم يُدَحرِج من أعلاه الأشدّ قوة والاكثر نبلاً ، كما يُدحرج الاشد ضعفاً والأكثر فجوراً ، سواء بسواء . منحدر يقود الى احدى هاتين الحفرتين : الانتحار أو الجريمة .

وبسبب من انطلاقك كل يوم ابتغاء الاستغراق في الاحلام يجيء يوم تلقي بنفسك فيه في اللجة .

ان الاستغراق في الاحـلام ينتج رجـــالاً مثـل « إيسكوس »

و « لوبرا » .

كان ماريوس يهبط هذا المنحدر في خطى بطيئة ، وقد سُمِّرت عيناه على تلك التي لم يَعُدْ يراها البتة . والواقع ان ما دوّناه هنا يبدو غريباً ، ومع ذلك فهو صحيح . ان ذكرى الكائن الغائب تزداد التماعاً في ظلمة الفؤاد . وكلما تعاظمت غيبته تعاظم تألقه . والنفس اليائسة المظلمة ترى ذلك الضوء في أفقها ؛ كوكب الليل الباطني . هي – ذلك كان كل تفكير ماريوس . انه لم يحلم بشيء آخر ، لقد استشعر على نحو غامض ان بذلته العتيقة قد أمست بذلةً غير ملائمـة على الاطلاق ، وان بذلته الجديدة قد أضحت بذلة عتيقة ؛ ان قمصانه قد تهرأت ، وان قبعته قد تهرأت ، وان حذاءه قد تهرأ ، يعني ان حياته قد تهرأت . وقـال في ذات نفسه : « ليتني أوفق ، فقط ، الى رؤيتها مرة ثانية قبـل أن أموت . »

ولم تبق له غير فكرة عذبة مفردة هي أنها أحبّته ، أن عينيهـا أنبأتاه بذلك ؛ أنها لم تعرف اسمه ولكنها عرفت روحه ، وأنهـا قـد تكون – حيثما وُجدت ، وأياً ما كان ذلك الموطن الخفي – ما تزال تحبه . ومن يدري ؟ فلعلّها كانت تحلم به كما كان يحلم بها . واحياناً ، في تلك الساعات الغامضة التي يعرفها كل قلبٍ عاشق ، كان يخاطب نفسه – وليس ثمة ما يدعوه الى غير الأسى ومع ذلك فهو يستشعر هزةَ ابتهاج غامضة – قائلاً : ان افكارها هي التي تفِدُ علي ! ثم يضيف : وأفكاري تصل اليها ايضاً ، ربما !

وهذا الوهم ، الذي هزّ له رأسه بعد لحظة ، وُفـّق مع ذلك الى ان يلقي في نفسه شعاعاً كان يشبه الأمل في بعض الاحيان . وبـين الفينة والفينة ، وبخاصة في ساعة المساء تلك التي توقع في نفوس الحالمين اعظم الحزن ، كان يسفح على دفتر أفرده لتلك الغاية أصفى الاحلام التي أفعم الحبّ بها ذهنه ، واشدّها لا شخصية ، واكثرها مثالية . وكان يدعو

ذلك « الكتابة اليها » .

وينبغي ان لا نحسب أنه خولط في عقله . على العكس تماماً . لقد َفقَدَ القدرة عـــلى العمل ، والسيرَ ُقدُماً نحو هدف محدّد ، ولكنه كان اقوى بصيرةً واشدّ استقـــامةً من اي وقت مضى . لقد رأى ماريوس — على ضوء هادىء وحقيقي ، وان يكن ضوءاً غريباً — مـا الذي كان يجري تحت ناظريه ، حتى الوقائع التي لا أهمية لها ، والناس الذين لا شأن لهم . كان يقول الكلمة الحقّ في كل شيء ، بضرب من الضنى الصـــادق والتجـرد الأبيض القلب . كانت محـا كاتـه للاشياء ، وقد انفصلت عن الأمل أو كادت ، تحلـّق وتحوم في الجوّ .

ولم يفته شيء ، في ذلك الوضع العقلي ، ولم يخدعه شيء ، ولقـــد بَصُرَ ، في كل لحظة ، بأعماق الحياة ، والانسانية ، والقَدَر . وسعيدٌ حتى في الآلام المبرّحة ، هو ذلك الذي وهبه الله نفـساً جديرةً بالحب وبالتعاسة ! ومن لم يرَ اشياء هذا العـــالم ، وقلوبَ الناس على هَدْيٍ من هذا الضوء المزدوج فـأنه لم يرَ شيئاً من الحـق ولم يعرف منه شيئاً .

ان النفس التي تحب والتي تتألم هي نفسٌ بلغت المنزلة السّنية .

واياً ما كان ، فقد تصرمت الايام ، واحداً بعد آخر ، من غير ان يبرز شيء جديد . بيد انه خيّل اليه ان المسافة القاتمة التي بقي عليه ان يجتازها كانت تنكمش مع كل لحظة . وظنّ انه قد لمح ، في وضوح ، حافة المنحدر الوعر الذي لا يسبر غوره .

وكرّر مخاطباً نفسه :

— « ماذا ! ألن أوفق الى رؤيتها قبيل ذلك ! »

اذا صعّدتَ في شارع سان جاك ، فدَعْ باب المدينة جانباً ، واسلك الجادة الداخلية العتيقة الى اليسار ، فترةً قصيرة ، تصِلْ الى « شارع الصحة » ، ثم الى شارع « لا غلاسيير » ؛ وقبيـــل وصولك الى نهر

ال « غوبلين » الصغير ، تجد حقلاً ما ، هو على مدار جادات باريس الطويلةِ الرتيبةِ البقعةُ الوحيد التي تغري « رويسدابيل » * بالقعود .

ان ذلك الشيء الخفيّ الذي تنبثق منه الملاحة قائمٌ هناك ، مرجٌ اخضر تخترقه حبال مشدودة شداً محكماً تُجفف عليها في وجه الريح بعض الخرق البالية ؛ مزرعة عتيقة خصّصت للبقول يرجع عهدها الى ايام الملك لويس الثالث عشر ، وقد اخترقت نوافذ العلالي سطحها الواسع ، على نحو تعوزه البراعة ؛ سياج من اوتاد محطمة ؛ بركة بين شجرات الحور ؛ نساء ؛ ضحكات ؛ أصوات ؛ وعند الافق « البانتيون » ، وشجرة الصمّ البكم ، و « وادي النعمة الصغير » ، اسود ، مكتّلاً ، غريب الهيئة ، ممتعاً ، بهيّاً ؛ وفي الخلفية كانت ذرى ابراج نوتردام المربعة العابسة .

واذ كان المكان جديراً بالمشاهدة ، فأن احداً ما كان يقصد الى هناك . وكثيراً ما كانت تنقضي خمس عشرة دقيقة من غير ان تمرّ بالمكان عربة او كارّة .

واتفق ذات يوم ان قادت ماريوس نزهاتُهُ المتوحدة الى تلك البقعة المنبسطة قرب تلك البركة . وفي ذلك النهار تبدّى فوق الجادة شيء نادر : عابر سبيل . وسأل ماريوس عابرَ السبيل هذا ، وقد استبدّ به على نحو غامض سحرُ البقعة الموشك ان يكون موحشاً :

— « ما اسم هذا المكان ؟ »

فأجابه عابر السبيل :

— « انه حقل القبّرة . »

ثم اضاف :

---

* Ruysdael رسام هولندي عرف بتصوير المشاهد الطبيعية والريفية (١٦٢٨ — ١٦٨٢) .

– « ههنا قتل اولباخ راعية ايفري . »

ولكن ماريوس لم يسمع شيئاً بعد كلمة « القبّرة » . والواقع ان ثمة مثل هذه التخشّرات المفاجئة في الحالة الحالمة ، تلك التخثرات التي تكفي كلمةٌ واحـــدةٌ لأحداثها . ان العقل كله ليتخثّر فجأة حول فكرة واحدة ، فلا يعود قادراً على ادراك ايما شيء آخر .

كانت القبرة هي الصفة التي حلت في اعماق كآبة ماريوس محـــلّ اورسولا . وقـال ، في ضرب من ذلـك الذهول غير العقلي الملازم لامثال هذه المناجاة الخفية : « هـذا حقلها . سوف اعرف هنـا أين تسكن . »

كان ذلك سخفاً ، ولكنّ ماريوس كان اعجز من ان يقاومه .

وطفق يفِدُ كل يوم على « حقل القبرة » .

٢
تكوّن الجرائم الجنيني
في حضانة السجون

كان انتصار جافير في بيت غوربو العتيق قد بدا كاملاً ، ولكنه لم يكن كذلك .

ففي المحل الأول ، وكان ذلك هو موضوع أسفه الرئيسي ، لم يوفق جافير الى جعل الاسير أسيراً . والمعتدى عليـه الذي يولي فراراً يثير الريبة اكثر من القاتل . ولعل هذه الشخصية – التي حرص قطـــاع الطرق على أسرها بوصفها لقيةً نفيسة – أن تكون غنيمة لا تقلّ نفاسةً في نظر السلطات عنها في نظر قطاع الطرق .

والى هذا ، فان مونبارناس كان قد افلت من جافير .

لقد تعيّن عليه ان ينتظر فرصة اخرى ليضع يده على ذلك الشاب الابليسي المتأنق . والحق ، ان مونبارناس التقى بأيبونين ، التي كانت تقوم بالحراسة تحت اشجار الجادة ، فذهب بها ، مؤثراً ان يكون « نيمورين » مع البنت ، على ان يكون « شيندرهان » مع الأب . وحسناً فعل . كان مطلق السراح . أما ايبونين فان جافير كان قد ألقى القبض عليها ؛ تعزية تافهة . والتحقت ايبونين بآزيلما في الـ « مادلونيت » .

واخيراً ، ففي الرحلة من بيت غوربو العتيق الى سجن « لا فورس » فرّ كلاكسو ، احد المعتقلين الرئيسيين . ولم يدر احد كيف وقع ذلك . ولم « يفهم » الضباط والجنود هذا الحادث . لقد تحوّل الى بخار ، لقد انسلّ من بين الاغلال ، لقد سال من خلال شقوق العربة . كانت عربة الاجرة مصدوعة ، وكان قد ولى الادبار . ولم يدر احد ما يقول الا ان كلاكسو لم يكن هناك حين انتهوا الى السجن . كان ثمة إما جِنّ وإما شرطة . هل ذاب كلاكسو في الظلام مثل رقاقات الثلج في الماء ؟ هل كان ثمة إغضاء خفيّ من جانب الضباط ؟ أكان ذلك الرجل ذا صلة باحجية النظام والفوضى المزدوجة ؟ أكان ذا مركز مشترك مع النكث بالعهد ومع الردع والزجر ؟ أكان لأبي الهول ذاك قائمتان أماميتان في الجريمة ، وقائمتان خلفيتان في محل السلطة ؟ ولم يتقبل جافير هذه الازدواجات البتة ، ولقد قفّ شعره لمثل هذه الامكانيات . ولكن فصيله كان ينتظم مفتشين آخرين ، لعلهم ان يكونوا اكثر منه اطلاعاً ـ وإن كانوا مرؤوسيه ـ على اسرار مديرية الشرطة ، ولقد كان كلاكسو مجرماً ضخماً الى حد يرشحه لأن يكون ضابط شرطة ناجحاً . إن كون المرء على مثل هذه الصلات الحميمة المشعوذة بعالم الظلام لشيء ممتاز بالنسبة الى قطع الطرق ، ورائع بالنسبة الى

حفظ الأمن . ان ثمة مثل هؤلاء الاوغاد ذوي الحدّين . وأياً ما كان، فقد فُقد كلاكسو ، ولم يُعثر له بعدُ على أثر . وبدا جافير مهتاجاً ، لذلك ، اكثر منه مندهشاً .

أما ماريوس ، « ذلك المحامي الغرّ الذي استبدّ به الذعر في اغلب الظن » ، والذي نسي جافير اسمه ، فلم يبالِ به جافير الا قليلًا . والى هذا ، فقد كان محامياً ، والمحامون يُعثر عليهم دائماً كرة اخرى . ولكن أكان هو مجرد محامٍ ؟

وبدأت المحاكمة .

واستنسب قاضي التحقيق ان لا يضع احد افراد عصابة « المعلم مينيت » في الحجيرة المنفردة طمعاً في بعض الثرثرة . وكان ذلك الرجل هو بروجون ، ذا الشعر الطويل الذي وجدناه في شارع « بيتي بانكيه » . لقد تُرك في محكمة شارلمان ، وعُهِد الى الحرس في مراقبته جيداً .

وهذا الاسم ، بروجون ، هو احدى ذكريات سجن « لا فورس » . ففي ذلك الفناء الرهيب المسمّى « البناء الجديد » والذي دعته الادارة فِنـاء القديس برنار ، ودعاه اللصوص « حفرة الأسود » ، وعلى ذلك الجدار المغطّى بالقذر والطين ، الناهض عن اليسار الى أعلى السقوف ، قرب باب حديدي عتيق صدىءٍ يقود الى الكنيسة السابقة التي كانت ملحقةً بفندق « لا فورس » الدوقيّ ، والتي أمست الآن مهجعاً لقطاع الطرق ، كان لا يزال في امكان المرء ان يرى ، قبل اثني عشرة سنة ، ضرباً من الباستيل منقوشاً في الحجر ، على نحو أخرق ، بواسطة مسمار من المسامير ، وتحته هذا التوقيع :

بروجون ، ١٨١١

لقد كان بروجون ١٨١١ والدَ بروجون ١٨٣٢ .

وكان هذا الأخير ، الذي لم يُلمح في كمين غوربو الا لماماً فتىً قويّ البنية ، واسع الحيلة ، بالغ الحذاقة ، ذا مظهر منذهلٍ نائح . وبسبب

من هذا المظهر المذهل اختاره القاضي ، معتقداً ان جدواه في محكمة شارلمان خليقة بان تكون اعظم من جدواه في الجبيرة المنفردة .

ان اللصوص لا يكفّون عن ممارسة اللصوصية لمجرّد انهم في قبضة العدالة . انهم لا يستشعرون الارتباك بمثل هذه السهولة . وكون المرء في السجن بسبب من جريمة ما لا يحول دون الشروع في جريمة اخرى . انهم فنانون لهم لوحة معروضة في الصالون ومع ذلك فهـــم ينصرفون بكليتهم الى انجاز اثر جديد في مقرّ عملهم الفني .

لقد بدا وكأن السجن أوقع الذهول في نفس بروجون . كان يُرى ساعات كاملة احياناً في محكمة شارلمان ، واقفاً قرب نافذة البائـــع ، محدّقاً كالأبله الى لائحة الاسعار القذرة ، البادئة بـ « ثوم » ٦٢ سنتياً » والمنتهية بـ « سيجار » خمسة سنتيات » . وفي بعض الاحيان كان يمضي وقته في الارتجاف ، صارّاً اسنانه ، قائلاً انه محموم ، ومتسائلاً ألم يشغر احد الاسرّة الثمانية والعشرين في قاعة المحمومين .

وفجأة ، حوالى النصف الثاني من شباط ، ١٨٣٢ ، اكتُشف ان بروجون ، ذلك الفتى الناعس ، قد وجّه بواسطة السعاة الرسميين ، لا باسمه هو ولكنْ باسم ثلاثة من رفاقه ، ثلاثةَ رسائل مختلفة كلفتـــه خمسين « سو » ، وهو مبلغ هائل لفت انتباه مدير السجن .

ودرست المسألة . وبمراجعة لائحة النفقات الخاصة بالرسائل والملعقة في غرفة استقبال المحكوم عليهم ، تبين ان الخمسين « سو » قد انفقت على الوجه التالي : ثلاثة مرسلين ؛ واحد الى البانتيون ، عشرة « سو » ؛ وواحد الى « وادي النعمة » ، خمسة عشر « سو » ؛ وواحد الى « باب غرونيل » ، خمسة وعشرون « سو » . وكانت هذه اغلى نفقة مدونة في اللائحة كلها . واتفق انه في البانتيون ، ووادي النعمة ، وبـــاب غرونيل كانت تقوم بيوت ثلاثة من مطوّفي الليل الاشدّ خطراً في تلك المنطقة : كرويدونييه ، المعروف ببيزارو ، وغلوريو المحكوم عليـــه

بالاشغال الشاقة سابقاً ، وباركاروس" الذي لفتت هذه الحادثة عيون الشرطة اليه . لقد حسبوا انهم حزروا ان هؤلاء الرجال على صلة بعصابة « المعلم مينيت » التي القي القبض على اثنين من زعمائها : بابيه وغولوميه . ولقد قدّروا ان رسائل بروجون ، وقد بعث بها لا الى بيوتٍ بعينها ولكنْ الى اشخاص كانوا ينتظرونها في الشارع ، ينبغي ان تكون اشعارات بجريمة مبيّتة . وكانت ثمة ادلة اخرى . لقد القوا القبض على ثلاثة من المطوفين بالليل ، واعتقدوا انهم احبطوا مكيدة بروجون اياً ما كانت .

ولم ينقض اسبوع ، تقريباً ، على اتخاذ هذه الاجراءات حتى رأى حارس كان يراقب ذات ليلة مهجع السجناء في الجزء الادنى من « البناء الجديد » ، لحظةَ كان يلقي كستناءته في صنـــدوق الكستناء ـ وتلك هي الوسيلة التي يصطنعونها للتأكد من أن الحرس يقومون بواجبهم على النحو الأتم ؛ فكلّ ساعة ، ينبغي ان تلقى كستناءة في كل من الصناديق المسمّرة الى ابواب المهاجع ـ نقول ان حارساً رأى آنذاك ، من خصاص باب المهجع ، بروجون قاعداً في فراشه يكتب شيئاً على ضوء العاكسة . ودخل الحارس ، وألقي بروجون في الحبس المظلم شهراً ، ولكنهم لم يعثروا على ما كان قد كتبه . ولم يعرف البوليس شيئاً اضافياً .

بيد ان الامر الثابت هو ان « سائق عربة » قد قُذف بـه ، في اليوم التالي ، من محكمة شارلمان الى « حفرة الأسود » من فـــوق البناية ذات الادوار الخمسة الفاصلة ما بين الساحتين .

ان السجناء يخلعون على كرة الخبز المجبولة في فـنّ ، والمرسلة الى ايرلندة ، يعني فوق سطوح السجن ، من فِناء الى فناء ، اسم « سائق العربة » . أما أصل الكلمة فهو هذا ، فوق انكلترة ؛ من ارض الى ارض ، الى ايرلندة . وهذه الكرة تقع في الفناء ، ومن يلتقطهـــا يفتحها ، فيجد فيها رسالة موجهة الى سجينٍ ما في الفناء . فاذا اتفق ان

عثر عليها احد السجناء حملها الى من وجّهت اليه . واذا اتفق ان وقعت في يد احد الحراس ، او في يد واحد من اولئك السجناء المرتشين الذين يُدعون في السجون العادية خرافاً ، ويدعون في سجون المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ثعالب ، حُمِلت الى المكتب وسلّمت الى الشرطة .

وهذه المرة بلغ « سائق العربة » المكان الذي وجّه اليه ، على الرغم من ان الشخص الذي حملت اسمه كان آنذاك في المحبس المنفرد . ولم يكن المرسل اليه غير بابيه ، احد زعماء « المعلم مينيت » الاربعة .

كان « سائق العربة » ينطوي على ورقة مكوّرة لم يُخطّ عليها غير هذين السطرين :

« بابيه ، هناك مهمة ينبغي ان يُنْهَض بها في شارع بلوميه . سياج من قضبان في حديقة . »

ذلك هو الشيء الذي كان بروجون قد كتبه في الليل .

وعلى الرغم من الجواسيس ، ذكوراً واناثاً ، فقد وجد بابيه وسيلة مكنته من ارسال الرقعة من « لا فورس » الى « لا سالبيتريير » الى « صديقة حميمة » له كانت سجينةً هناك . وهذه الفتاة سلّمت الرقعة ، بدورها ، الى اخرى كانت تعرفها ، وتدعى مانيون ؛ وكان البوليس يراقب مانيون هذه مراقبة شديدة ، ولكنها لم تكن قد اعتُقِلتْ بعد . وكانت لمانيون هذه ، التي رأى القارىء اسمها من قبل ، صلات بتيناردييه وزوجته سوف نشير اليها في ما بعد ؛ وكان في ميسورها ، من طريق الاجتماع بأيبونين ، ان تؤلف جسراً يصل ما بين « لا سالبيتريير » و الـ « مادلونيت » .

واتفق في تلك اللحظة ذاتها ان أطلق سراح ايبونين وآزيلما بعد ان وجد القاضي الذي استنطق تيناردييه ان ليس ثمة ما يدعو الى ابقائهما في السجن .

وحين غادرت ايبونين السجن قدّمت اليها مانيون التي كانت تنتظرها

عند باب الـ « مادلونيت » رسالة بروجون الى بابيه ، وكلفتها ان تستطلع المسألة .

وشخصت ايبونين الى شارع بلوميه ، واهتدت الى السياج والحديقة ، فنظرت الى المنزل ، وتجسّست ، ولاحظتْ ؛ وبعد بضعة ايام حملت الى مانيون ، التي كانت تسكن في شارع كلوشبيرس قطعة بسكويت حملتها مانيون الى خليلة بابيه في « لا ساليتريير » . والبسكويتة ، في رمزية السجون القاتمة ، تعني : « ليس ثمة ما يُعمل . »

بحيث ، لم ينقضِ على ذلك اقلّ من اسبوع حتى تبادل بروجون وبابيه هذه الكلمات ، وقد التقيا في الطريق من « لا فورس » ، بينا كان احدهما ذاهباً الى « الاستنطاق » والآخر عائداً منه :

— « حسناً ؟ شارع ب ؟ » كذلك تساءل بروجون .

فأجابه بابيه :

— « بسكويتة . »

تلك كانت خاتمة جنين الجريمة الذي وضعه بروجون في سجن « لا فورس » .

بيد أن ذلك الاجهاض أدى الى نتائج غريبة بالكلية عن برنامج بروجون . ولسوف نرى هذه النتائج .

إننا كثيراً ما نعقد خيطاً ونحن نحسب أننا نُحكم وثاق غيره .

٣
شبح يتبدى للأب مابوف

لم يعد ماريوس يزور احداً ، ولكنْ كان يتفق له في بعض الأحيان ان يلتقي بالأب مابوف .

فقيا كان ماريوس يهبط هذه الدرجات المشؤومة التي يستطيع المرء ان يدعوها سلم الكهوف ، والتي تقود الى مواطن لا نور فيها حيث نسمع السعداء يمشون فوقنا ، كان مسيو مابوف يهبطها بدوره ايضاً .

كان كتاب « مجموع نباتات كوتيريتز » قد كسد كساداً كاملاً . وكانت التجارب على نبات النيل قد اخفقت في حديقة اوسترليتز الصغيرة المعرّضة تعريضاً رديئاً . ولم يوفق مسيو مابوف الى اكثر من زراعة بعض النباتات النادرة التي تحب الرطوبة والظلّ . بيد انه لم ييأس ، برغم ذلك . كان قد فاز بزاوية من الارض معرّضة تعريضاً حسناً في « حديقة النباتات » لكي يجري فيها « على حسابه » تجاربه حول نبات النيل . ومن اجل ذلك ، كان قد وضع الواح مجموعته النباتية في مصرف الرهن . وكان قد قصر فطور صباحه على بيضتين ، وكان يترك احداهما لخادمته العجوز التي لم يدفع اليها اجرها منذ خمسة عشر شهراً . وكثيراً ما كان فطوره ذاك هو وجبة الطعام الوحيدة التي يصيبها في اليوم . ولم يعد يضحك ضحكته الطفلية تلك ، لقد أمسى متكسّاً ، فهو لا يستقبل احداً من الزائرين . وكان ماريوس على حقّ في الاقلاع عن الألمام بداره . واحياناً ، ساعةَ كان مابوف يمضي الى « حديقة النباتات » ، كان العجوز والشاب يلتقيان في « جادة المستشفى » . ولم يكونا يتبادلان الحديث ، بل يهزان رأسيهما في كآبة . انه لشيء مرير ان تعبر بنا لحظةٌ يُفرّق البؤس فيها ويفصل ! كانا من قبل صديقين ، فأمسيا الآن عابرَيْ سبيل .

كان الكتبيّ ، روايال ، قد توفي . وغدا مسيو مابوف لا يعرف ، منذ اليوم ، غير كتبه ، وحديقته ، ونيله . كانت هذه هي الأشكال الثلاثة التي اتخذتها السعادة ، والمتعة ، والأمل . لقد غدا ذلك حياته . وقال في ذات نفسه : « اذا وفقت الى صُنع كُراتي الزرقاء فسوف أمسي غنياً ، ولسوف أسترجع ألواحي المعدنية من مصرف الرهن ،

واجعل « مجموعة نباتاتي » رائجة من طريق خداع السذّج والافراط في التمدّح والاعــلان في الصحف ، ولسوف اشتري — وانا اعرف من أين — نسخة من كتاب « فن الملاحة » لبيير دو ميدين ، مع رسوم محفورة على الخشب ، طبعة عام ١٥٥٩ » . وفي غضون ذلك عمــل طوال النهار في مسكبته النيلية ، حتى اذا هبط الليل ارتدّ الى منزله ليروي حديقته ، ويقرأ كتبه . وكان مسيو مابوف يشرف ، آنذاك ، على الثمانين من عمره .

وذات ليلة ، تبدّى له شبح غريب .

كان قد انقلب الى منزله والشمس لمّا تغبْ بعــد . وكانت الأم بلوتارك ، المعتلة الصحة ، مريضة طريحة الفراش . وكان قد تعشّى على عظم بقي فيه بعض اللحم وكسرة من خبز وجدها على طاولة المطبخ . وكان قد جلس على مَعْلَم حجريّ حلّ في حديقته محلّ المقعد .

وقرب هذا المقعد ، نهض — على طريقة الرياض القديمة — شبه كوخ ُمنشأٍ من ألواح خشبية محطمة اتخِذ من دوره الاول بيت للارانب ، ومن دوره الثاني مستودع للفاكهة . ولم يكن في الدور الاول ارانب . ولكنْ كان ثمة بعض التفاح في مستودع الفاكهة . بقيةٌ من ذخيرة الشتاء .

وكان مسيو مابوف قد شرع يتصفح ويقرأ ، بمساعدة نظارتيه ، في كتابين كانا يسحرانه ، وكان قد استغرق فيهما ، وهو شيء اكثر اهمية في مثل سنه . وكان حيــاؤه الفطري قد جعله مستعداً لتقبل الخرافات . وكان اول هذين الكتابين رسالة الرئيس دولانكر الشهيرة « حول تقلب الابالسة » ، وكان ثانيهما كتاب « موتور دو لا روبوديير » البالغ قطعهُ قطعَ ربع الطلحية : « حول أبالسة فوفير وغيلان لا بييفر » . وكان هذا الكتاب الاخير اكثر إمتاعاً له ، بسبب من أن حديقته كانت من قبلُ احدى البقاع التي ألفتْها الغيلان . وكان الغسق قد شرع يبيّض كل شيء فوق ، ويسوّد كل شيء تحت . وفيما كان

الاب مابوف يقرأ ، ومن فوق الكتاب الذي امسك بـه في يده ، راح يتأمل نباتاته ويتأمل ، بالاضافة الى اشياء اخرى ، دفلى* رائعة كانت احدى تعزياته . كانت قد تصرّمت اربعة ايام من القيـظ ، والريح ، والشمس ، من غير ان تسقط خلالها قطرة مطر . لقد التوت سوق النباتات ، وانحنت براعمها ، وتساقطت اوراقها ، فقد كانت هذه كلها في حاجة الى ماء ، وكانت الدفلى ، على الخصوص ، كئيبة الفؤاد ، فقد كان الاب مابوف واحداً من اولئك الذين يؤمنـون بأن للنباتات نفوساً . وكان رجل العجوز قد عمل طوال النهار في مسكبته النيلية . كان الاعياء يستبدّ به ، ومع ذلك فقد نهض ، ووضع كتابيه عـلى المقعد وتقدّم ، منحنياً الى امام ، وفي خطىً مترنحة ، نحو البئر . ولكنه ما إن امسك بالسلسلة حتى عجز عن ان يسحبها الى حدّ يمكنه من ان يفكّها . وعندئذ استدار ، ورفع عيناً تنضح بالألم المرير نحو السماء التي كانت غاصة بالنجوم .

كان للعشية ذلك الصفاء الذي يدفن احزان المرء تحت ابتهاج سرمدي ؛ وإن يكنْ حِداديأ على نحو غريب . وكان المساء يؤذن بانه سيكون جافاً كالنهار ، سواء بسواء .

وقال الرجل العجوز في ذات نفسه :

— « النجوم في كل مكان ! لا سحابة في السماء مهما تكن صغيرة ، لا قطرة مطر ! »

وعاد رأسه ، الذي كان قد ارتفع لحظة ، فسقط على صدره .

ورفعه كرة اخرى ، ونظر الى السماء متمتماً :

— « قطرةً من ندى ! قليلًا من الرحمة ! »

وحاول مرة ثانية ان يحلّ سلسلة البئر ، ولكنه لم يستطع .

وفي تلك اللحظة سمع صوتاً يقول :

---

* الدفلى ، rhododendron نبت مرّ زهره كالورد الأحمر وحمله كالخرنوب .

— « ايها الأب مابوف ، اتحبّ ان أروي حديقتك ؟ »

وفي الوقت نفسه ، سمع جلبة اشبه بجلبة ظبيٍ يجتاز السياج المقام من اشجار شائكة ، وبَصُرَ بضربٍ من الفتـــاة الطويلة الهزيلة تنبثق من وسط العلّيق ، وتنتصب أمامه ناظرةً اليه من غير حيـــاء . كانت تبدو وكأنها شكلٌ وُلِدَ اللحظـةَ من الغسق ، اكثر منها كائنـاً بشرياً .

وقبل ان يوفق الاب مابوف — الذي اجفل في يُسْر والذي كان كما رأينا عرضة للخوف -- الى ان يجيب بكلمة ، كانت تلك المخلوقـة التي بدت حركاتها مفاجئة على نحو غريب وسطَ الظلمة قد حلّت سلسلة البئر ، وغطست الدلو في الماء وسحبته منه ، وملأت المرشة . ورأى الرجل العجوز هذا الشبح حافيَ القدمين ممزق الثوب يعدو بين المساكب ويوزع الحياة من حوله . وأفعم وقعُ ماء المرشة على اوراق النباتات قلبَ الأب مابوف بالبهجة الذاهلة . لقد بـدا له أن الدفلى أمست الآن سعيدة .

وحين أفرغ الدلو الاول ، متحت الفتاة دلواً ثانياً ، ثم دلواً ثالثاً . لقد سَقتِ الحديقة كلها .

وفيما هي تخطر هكذا بين مجازات الحديقة ، حيث بدا ظلها أسود بالكلية ، مذبذبةً شالها الممزق فوق ذراعيها الطويلتين ذواتيْ الزوايا ، بدت أشبه شيء بخفاش .

حتى اذا انجزت سقاية الحديقة ، تقدّم الاب مابوف نحوها ، والدمع يترقرق في عينيه ، ووضع يده على جبينها .

وقال :

— « فليباركك الله . انتِ ملاكٌ ، ما دمت تُعنين بالرياحين . »

فأجابت :

— « لا . انا الشيطان ، ولكن سيان عندي ! »

وصاح العجوز من غير ان ينتظر جوابها ومن غير أن يسمعه :

— « ما اعظم اسفي لأن اكون في غاية البؤس ، وفي غاية الفقر ، وان اكون عاجزاً عن عمل شيء من اجلك ! »

فقالت :

— « في استطاعتك ان تصنع شيئاً . »

— « ماذا ؟ »

— « ان تقول لي اين يسكن مسيو ماريوس . »

ولم يفهم العجوز قط .

— « ومن هو مسيو ماريوس هذا ؟ »

ورفع عينيه الخامدتين ، وبدا وكأنه يلتمس شيئاً كان قد تلاشى .

— « شاب كان يتردد الى هنا في الايام الماضية . »

وفي غضون ذلك كان مسيو مابوف قد نبش ذاكرته .

ثم صاح :

— « آه ! أجل ... أنا ادري ماذا تريدين ان تقولي . انتظري اذن ! ماريوس ... البارون ماريوس بونمرسي ، وحق الاله ! انه يسكن ... او على الاصح انه لم يعد يسكن ... آه ، حسناً ، لست ادري .. »

وفيما هو يتحدث انحنى لكي يثبّت غصناً من اغصان الدفلى ، وأردف :

— « آه ، لقد تذكرتُ الآن ! انه يصعّد في الجادة في كثير من الاحيان ، ويمضي نحو لا غلاسيير . شارع كرولبارب . حقل القبّرة . اسلكي تلك الطريق ، فليس من العسير ان تهتدي اليه . »

وحين نهض مسيو مابوف لم يكن ثمة احد . كانت الفتاة قد اختفت .

وعراه ، من غير شكّ ، شيء من الذعر .

وقال في ذات نفسه :

ـ « حقاً ، لو لم تَزُرْني حديقتي لاعتقدتُ انها روح من الارواح . »

وبعد ساعة ، حين اوى الى الفراش ، عاوده ذلك من جديد . وفيا هو يستسلم للرقاد ـ في تلك اللحظة المضطربة التي يتخـذ الفكر خلالها شيئاً فشيئاً ـ مثلَ ذلك الطائر الاسطوري الذي يتحول الى سمكة لكي يعبر البحر ـ شكلَ الحلم لكي يجتاز الرقادَ ، قال مخاطباً نفسه في اختلاط :

ـ « حقاً ، ان هذا ليشبه اعظم الشبه ما يرويه روبوديير عن الغيلان . أمن الجائز ان تكون غولاً ؟ »

٤
وشبح يتبدّى لماريوس

وبعد بضعة ايام انقضت على زيارة « احـدى الارواح » لمسيو مابوف ، وذات صباح ـ وكان ذلك يوم الاثنين ، وهو اليوم الذي اعتاد ماريوس ان يستعير فيه المئة « سو » من كورفيراك ليقدّمها الى تيناردييه ـ وضع ماريوس قطعة المئة « سو » في جيبه ؛ وقبل ان يمضي لتسليمها الى مكتب السجن راح « يتنزه قليلاً » رجاة ان يمكنه ذلك من العمل بعد عودته . وكان ذلك كذلك على نحو سرمديّ . فما ان ينهض صباحاً حتى يجلس واضعاً امامه كتاباً وقطعة من ورق وينصرف الى الترجمة . وكان منهمكاً آنذاك في ترجمة مناظرة شهيرة بين رجلين المانيين ، غانس وسافيني ، الى الفرنسية . وتناول سافيني ، وتناول غانس ، وقرأ اربعة اسطر ، وحاول ان يكتب سطراً واحداً منها ، ولم يوفق ، ورأى كوكباً بين ورقتـه وعينيه ، ونهض من

كرسيه ، قائلاً : « سوف انطلق الى الخارج . ان ذلك سوف يدخل البهجة على فؤادي . . »

وكان يقصد الى حقل القبّرة .

وهناك رأى الكواكب اكثر من أيما وقت مضى ، وكان يرى سافيني وغانس اقلّ من ايما وقت مضى .

وانقلب الى الغرفة ، وحاول ان يستأنف عمله ، ولكنه لم يوفق . إنه لم يجد ايما وسيلة الى اعادة وصل ايّ من الخيوط المتقطعة في ذهنه . وعندئذ قال في ذات نفسه : « انا لن اغادر الغرفة غداً . إن ذلك يحول بيني وبين العمل . » ومع ذلك ، فقد كان ينطلق الى الخارج كل يوم .

لقد عاش في « حقل القبره » اكثر مما عاش في غرفة كوروفيراك . وكان هذا هو عنوانه الحقيقي : جادة الصحة ، الشجرة السابعة من شارع كرولباروب .

وذلك الصباح ، كان قد فارق هذه الشجرة السابعة ، وقعد على ضفة نهر الـ « غوبلين » . كانت شمس جذلى تتألق من خلال اوراق الشجر الغضة المبتهجة الشديدة الاشراق .

كان يفكر في « ها » . وعاوده استغراقه في التفكير ، وقد غدا مؤنّباً ، كرة اخرى . لقد فكّر ، آسفاً ، في البطالة ، في شلل النفس الذي استحوذ عليه ، وفي ذلك الليل الذي كان يتكاثف أمامه ساعةً بعد ساعة تكاثفاً سريعاً الى درجة جعلته لا يرى الشمس نفسها منذ اللحظة .

وفي غضون ذلك ، ومن خلال هذا التطور الاليم الطارىء على فكراته الغامضة التي تكن حتى مفاجأة ، فقد أُوهن العملُ في نفسه الى حد أمسى معه عجز من أن يغالي في الحزن — نقول ومن خلال هذا الاستغراق الكئيب انتهت اليه أحاسيس العالم الخارجيّ . لقد سمع

من خلفه ، ومن تحته ، على ضفتي النهر الاثنتين غسّالات الـ « غوبلين » يطرقنَ بياضاتهن . ومن فوق رأسه كانت الطير تثرثر وتغرد على اغصان الدردار . من ناحية ، صوتُ الحرية ، صوت اللامبالاة السعيدة ، صوت أوقات الفراغ المجنحة ؛ ومن ناحية ثانية ، صوت العمل . وهو شيء جعله يتأمل — او يفكر تقريباً — في هذين الصوتين البهيجين .

وفجأة ، وفي غمرة من نشوته المرهَقة ، سمع صوتاً كان يعرفه يقول :

— « آه ! ها هو ذا ! »

ورفع عينيه ، فتبيّن الطفلة البائسة التي وفدت على غرفتـــه ذات صباح ، كبرى أولاد تيناردييه ، إيبونين . كان يعرف ، الآن ، اسمها . ومن عجب أنها كانت قد أمست اكثر فقراً ، واكثر جمالاً : خطوتان لم يبدُ ان في ميسورها القيام بهما البتة . كانت قـــد حققت تقدّماً مزدوجاً نحو الضياء ، ونحو الشقاء . كانت حافية القدمـــين ، ترتدي اسمالاً باليـــة ، شأنها يومَ دخلتْ غرفته بتلك الجـارة كلها ، باستثناء ان تلك الاسمال كان قد زاد عمرها شهرين إضافيين ، فثقوبها اكبر ، ومِزَقها أقذر . كان هو الصوتَ الاجش نفسه ، والجبـــين المتجعد نفسه المسفوع من اثر الرياح ، والنظرة الاباحية ، الضـــالة ، المترجرجة . كان يبدو عليها ، علاوةً على سيمائها القديمة ، ذلك المزيج من الخوف والاسى الذي يضيفه السجن الى البؤس .

كانت على شعرها اعواد من التبن والصائرة ، لا مثلَ اوفيليا بسببٍ من جنونها بعد ان أعداها جنونُ هاملت ، ولكن بسببٍ من انهـــا كانت قد رقدت في مستودع العلف باصطبل من الاصاطب .

ومع هذا كله ، فقد كانت جميلة . ايه أيهـا الشباب ، يا لك من كوكب ساطع !

وفي غضون ذلك ، كانت قد وقفت أمام ماريوس ، وعلى وجههـ

الازرق الضارب الى السواد انطباعةُ ابتهاج ، وشيءٌ يشبه الابتسامة .

ووقفت بضع ثوانٍ ، وكأنما عجزت عن الكلام .

وأخيراً قالت :

— « لقد وجدتك اذن ! كان الاب مابوف مصيباً . كان ذلك على هذه الجادة . كم قد بحثت عنك ! ليتك فقط تدري ! هـل تدري ؟ لقد كنت في الحبس . خمسة عشر يوماً ! لقد أطلقوا سراحي ! بعد ان رأوا انه ليس هناك شيء ضدي ، وفوق هذا ، فأنا لم أبلغ بعدُ سنّ التمييز . كان ينقصني شهران حتى ابلغه . أوه ! كم قـد بحثت عنك ! لقد قضيت ستة اشهر في ذلك . انت ما عدت تسكن هناك على الاطلاق ؟ »

فقال ماريوس :

— « لا . »

— « أوه ! لقد فهمتُ . بسبب من تلك القضية . مثل هـذه المخاوف غير مرغوب فيها . لقد انتقلت من هناك . ماذا ! لمَ تلبس مثل هذه القبعة العتيقة ؟ إن امثالك من الشباب ينبغي ان يلبسوا ثياباً ممتازة . اتدري ، يا مسيو ماريوس ؟ إن الأب مابوف يدعوك البارون ماريوس ، ولقد نسيت بقية الاسم . ولكنك لست بارونـاً ، اليس هذا صحيحاً ؟ البارونات عجائز ؛ انهم يذهبون الى حديقة اللوكسومبورغ أمام القصر حيث الشمس اقوى ما تكون ؛ إنهم يقرأون صحيفـة الـ « كوتيديان » بفلس واحد . لقد حملت ذات يوم رسالة الى بارون كان على هذه الشاكلة . كان عمره يزيد على مئة عام . ولكنْ قل لي ، اين تسكن الآن ؟ »

وامتنع ماريوس عن الجواب .

وتابعتْ :

— « آه ، ان قميصك ممزق . يجب ان أرتقه لك . »

واستأنفت حديثها وقد غلبت على وجهها شيئاً بعـــد شيء ، سيماء مكفهرة :

— « يبدو انك غير مبتهج برؤيتي ؟ »

ولم يقل ماريوس شيئاً . واعتصمت هي نفسها بالصمت لحظةً ، ثم صاحت :

— « ومع ذلك فلو اردتُ أنا لكان بامكاني ان اجعلك سعيداً في سهولة . »

فتساءل ماريوس :

— « ماذا ؟ ايّ شيء تريدين ان تقولي ؟ »

فأجابت :

— « آه ! لقد كنتَ تحدثني بلهجة اكثر لطفاً ! »

— « حسناً ، ماذا تريدين ان تقولي ؟ »

وعضت شفتيها . لقد بدت وكأنها مترددة ، وكأنما كانت تجتاز ضرباً من الصراع الباطني . واخيراً بدت وكأنها قد وطّنت نفسها على أمر .

— « ليكن ما يكون ! سيان عندي ! انت تبدو حزيناً ، وأنا أريد أن تكون سعيداً . ولكنْ عِدْني بأنك سوف تضحك وأن اسمعك تقول : آه ! حسناً ! هذا جيـــد . مسكين انت يا مسيو ماريوس ! أتدري ؟ لقد وعدتني بأن تعطيني كل ما ارغب فيه ... »

— « نعم ! ولكنْ تكلمي اذن ! »

ونظرت الى عيني ماريوس ، وقالت :

— « عندي العنوان . »

وران الشحوب على وجه ماريوس . لقد ارتدّ دمه كله الى قلبه .

— « ايّ عنوان ؟ »

— « العنوان الذي سألتني عنه . »

واضافت وكأنما كانت تبذل جهداً :

— « العنوان ... انت تعرف ذلك معرفة جيدة ! »

فتلجلج ماريوس :

— « نعم ! »

— « عنوان الآنسة ! »

وإذْ لفظتْ هذه الكلمة تنهدتْ تنهداً عميقاً .

ووثب ماريوس عن المقعد الذي كان يجلس اليه ، وأمسك بيدِها في وَله .

— « أوه ! تعالي ! دليني على الطريق ! قولي لي ! اطلبي ما تشائين ! ما هو العنوان ؟ »

فأجابت :

— « تعال معي . انا لست واثقة من الشارع والرقم . انه هناك في الناحية المقابلة تماماً ، ولكني اعرف البيت جيداً . سوف اريك إياه . »

وسحبت يدها ، واضافت في لهجة كانت جديرة بأن تنفذ الى قلب ايما امرىء يراقبها ، ولكنها لم تمسّ ماريوس الثمل المنتشي بالبهجة ولو بمجرد مسّ :

— « أوه ، ما اعظم سرورك ! »

وعبرتْ بجبين ماريوس سحابة . وأمسك ايبونين من يدها ، قائلاً :

— « إحلفي لي انكِ لن تفعلي أمراً واحداً . »

فقالت :

— « أحلف ؟ ماذا يعني ذلك ؟ آه ، انت تريد مني أن أحلف ؟ »

وضحكتْ .

— « ابوكِ ! عديني ، يا ايبونين ! احلفي لي انك لن تعطي هذا العنوان لأبيك ! »

واستدارت نحوه وعلى وجهها أمارات الانشداه .

— « ايبونين ! وكيف عرفت أنني ادعى ايبونين ؟ »

— « عديني بما اسألك اياه ! »

ولكنها بدت وكأنها لم تفهم .

— « هذا جميل ، هذا ! لقد دعوتني ابيونين ! »

وأمسك ماريوس بذراعيها الاثنتين في وقت معاً .

— « ولكنْ أجيبيني الآن ، بحق السماء ! انتبهي لما اقوله . احلفي لي انك لن تعطي العنوان الذي تعرفينه لابيك ! »

فقالت :

— « أبي ؟ آه ، نعم ، أبي ! لا تقلق من هذه الناحية . إنه في الحبس المنفرد . والى ذلك ، فهل أشغل نفسي بأبي ؟ »

فصاح ماريوس :

— « ولكنك لا تعدينني ! »

فقالت ، وقد انفجرت بالضحك :

— « دعني اذهب اذن ! كم تهزّني ! اجل ! اجل ! اني أعدك بذلك ! إني أحلف لك ! وما يضيرني ذلك ؟ انا لن اعطي العنوان لابي . حسن ! ايعجبك ذلك ؟ اليس هذا ما تريد ؟ »

فقال ماريوس :

— « ولا لايّ شخص آخر ؟ »

— « ولا لاي شخص آخر . »

فأضاف ماريوس :

— « والآن ، دليني على الطريق . »

— « في الحال ؟ »

— « في الحال . »

فقالت :

— « تعال . أوه ! ما أعظم سروره ! »

وبعد بضع خطىً ، وقفتْ ، وقالت :

— « أنت تتبعني مبالغاً في الاقتراب مني ، يا مسيو ماريوس . دعني أمضي الى أمام ، واتبعني هكذا ، من غير ان يبدو أنك تفعل ذلك . فليس من الخير لشاب راقٍ مثلك ان يُرى مع امرأة مثلي . »

ولم يكن في ميسور أيا لسانٍ ان يُبلغ ما انطوت عليه تلك الكلمة ، امرأة ، وقد انطلقت على ذلك النحو من فم هذه الطفلة .

وتقدمتْ بضع خطىً ، ووقفت كرة اخرى . وتبعها ماريوس . وخاطبته عن عُرض ومن غير ان تلتفت :

— « بالمناسبة ، اتدري انك وعدتني بشيء ؟ »

وبحث ماريوس في جيبه . ولم يكن يملك في هذا العالم غير خمسة فرنكات مخصصة لتيناردييه . فأخذها ، ووضعها في يد ايبونين . »

وفتحت اصابعها ، وتركت القطعة النقدية تسقط على الارض ، ونظرت اليه في سيماء قاتمة .

وقالت :

— « انا لا أريد دراهمك . »

الكتاب الثالث

المنزل الذى فى شارع بلوميه

١

المنزل السري

حوالى منتصف القرن الماضي ، كانت لاحد رؤساء محكمة باريس ذوي القلانس المخملية خليلة*، وكان يخفيها عن العيون . ذلك بأن النبلاء الكبار في ذلك العهد كانوا يُظهرون خليلاتهم ، على حين كان البورجوازيون يُخفونهن . وكان ذلك الرئيس قد شيد « بيتاً صغيراً » في ضاحية سان جيرمان في شارع بلوميه المهجور ، الذي يدعى اليوم شارع بلوميه ، غير بعيد عن البقعة التي عُرفت في ذلك العهد باسم « صراع الحيوانات » .

كان منزلاً صيفياً يتألف من دورين ليس غير : غرفتـان في الدور الاول ، وغرفتان في الدور الثاني . مطبخ في القسم الخلفي ، وبهـو نسائي للتبرج في القسم العلوي ، وعليّة تحت السقف مباشرة ، وكان في مقدمة ذلك حديقة ذات باب حديدي كبير ذي قضبان ، ينفتح على الشارع . وكانت مساحة هذه الحديقة نحواً من خمسة آلاف متر مربع . ذلك كان كل ما في ميسور عابري السبيل ان يلمحـوه . ولكنْ كان في مؤخرة المنزل فناء ضيق ، وفي اقصى ذلك الفناء بناء منخفض يتألف من غرفتين ليس غير وسرداب – موطنٌ ملائم لاخفـاء طفلٍ ومرضع عند الحاجة . وكان هذا البناء متصلاً – من جانبه الخلفي ومن طريق مقنّع ينفتح سرّاً – بمجاز طويل ، ضيّق ، معبّد ، مُلتوٍ ، غير مسقوف يحيط به جداران عاليان . وكان هذا الباب ، المحجوب في فنّ بديع – وكأنه ضائع بين أسيجة الحدائق والحقول التي كان يتتبع جميع زواياها ومنعطفاتها – ينتهي عند باب آخر ، محجوب ايضاً ، قائم على بُعد ثُمن فرسخ ، في حيّ آخر تقريباً ، في الطرف الاقصى غير المعمور من شارع بابل .

وكان الرئيس يسلك هذه الطريق ، بحيث لا يستطيع حتى اولئك الذين قد يراقبونه ويتعقّبون خطواته ، والذين ربما لاحظوا ان الرئيس يمضي على نحو خفي الى مكان ما كل يوم – نقول بحيث لا يستطيع حتى هؤلاء انفسهم ان يرتابوا في ان الذهاب الى شارع بابل يعني الذهاب الى شارع بلوميه . ومن طريق شراء الاراضي ، على نحو حاذق ، مرة بعد مرة ، استطاع هذا القاضي الداهية ان يجعل هذه الطريق السرية الى منزله تمتد فوق ارضه الخاصة ، ومن هنا فهي غير محتاجة الى مراقبة . وكان بعد ذلك قد باع قطعاً صغيرة من الارض محاذية للمجاز لتحوّل الى رياض رياحين وحقول خُضَر . ولقد حسب مالكو هذه القِطع ، عن اليمين وعن الشمال ، ان ما رأوه كان جداراً حاجزاً ، ولم ينتبهوا

حتى الى وجود ذلك الشريط الممتد الطويل المتلوّي بين جدارين وسط مساكنهم واشجارهم المثمرة . الطيور وحدها رأت تلك الطرفة الغريبة . ومن الراجح أن قبّرات القرن الماضي وعصافير الدوري فيه قد لغت في حق الرئيس لغواً كثيراً .

وكانت المنزل ، وقد شيّد من حجارة على طراز مانسار ، وألبست جدرانه بالخشب وأثث على طراز واتو – أشغال من حصى في الداخل ، ولمّة مستعارة من خارج – وطوّق بسياج من الازاهير مثلّث ، نقول كانت المنزل طلعة كتوم ، مغناج ، ذات ابهة ، فهي ملائمة لبدوات الحب وبدوات القضاء .

وهذا المنزل وذلك المجاز ، اللذان اختفيا اليوم ، كانا لا يزالان قائمين منذ خمسة عشر عاماً . ففي عام ٩٣ ، اشترى المنزلَ حدادٌ لكي يهدمه ، حتى اذا عجز عن دفع ثمنه أعلنت الدولة إفلاسه . وهكذا كان المنزل هو الذي هدم الحداد . ومن ذلك الحين ظل المنزل شاغراً ، وتداعى الى السقوط تدريجياً ، مثل جميع المساكن التي كفّ وجود الانسان عن مدّها بالحياة . لقد ظلّ مؤثثاً بأثاثه العتيق ، معروضاً دائماً للبيع او للايجار ؛ وكان العشرة الاشخاص أو الاثنا عشر شخصاً الذين يجتازون شارع بلوميه طوال العام يشعرون بذلك من طريق قصاصة من الورق صفراء ، غير مقروءة ، كانت معلّقة على سياج الحديقة منذ عام ١٨١٠ .

وحوالى نهاية العهد البوربوني الجديد كان في ميسور هؤلاء العابرين أنفسهم أن يلاحظوا أن الورقة قد اختفت ، وأن نوافذ الدور الاعلى الخارجية قد فتحت ايضاً . كان المنزل آهلاً حقاً ، وكانت على النوافذ « ستائر صغيرة » ، مما يؤذن بأنه كانت ثمة امرأة .

في شهر تشرين الاول ، عام ١٨٢٩ ، كان قد برز رجل في سنٍّ ما ، واستأجر المنزل على حاله تلك ، ومعه طبعاً البناء الذي في المؤخرة

والمجازُ الممتدّ الى شارع بابل . كان قد اصلح المدخلين السريين المؤديين الى بابي هذا المجاز . وكان المنزل ، كما ذكرنا منذ لحظة ، لا يزال مؤثثاً تقريباً بأثاث الرئيس القديم . وكان المستأجر الجديد قد أمر باجراء بعض الترميات ، واضاف ما كان ناقصاً ههنا وهناك ، وزوّد الفناء بشيء من البلاط ، والدور الارضي بشيء من الآجرّ ، والسّلم ببضع درجات ، واراضي الغرف بطبقة حجرية ، والنوافذ ببضعة ألواح من الزجاج ؛ واخيراً اقبل على المنزل واستقرّ فيه مع فتاة شابة وخادم مسنّة ، من غير ما ضجة ، فكأنه شخص يتسلل خلسةً ، وليس رجلاً يدخل الى بيته . ولم يلغط الجيران بذلك ، لسبب واحد هو أنــه لم يكن ثمة جيران .

وكان هذا المستأجر هو ، الى حدّ ما ، جان فالجــان . وكانت الفتاة الشابة هي كوزيت . وكانت الخادمة عانساً تدعى توسّين كان جان فالجان قد انقذها من مأوى العجزة ومن البؤس ، وكانت عجوزاً ريفية ، تمتامة – ثلاث صفات حملت جان فالجان على ان يصطحبها . لقد استأجر المنزل تحت اسم مسيو فوشلوفان ، صاحب دَخل . وفي جميع ما قد رُوي من قبل ، لا شك في ان القارىء قد تبيّن جان فالجان حتى قبل ان يتبيّنه تيناردييه نفسه .

لماذا غادر جان فالجان دير بيكبوس الصغير ؟ ما الذي كان قد حدث ؟

لا شيء .

فقد كان جان فالجان ، كما نذكر ، سعيداً في الدير ، سعيداً الى درجة جعلت ضميره قلقاً آخر الأمر . لقد رأى كوزيت كل يوم ؛ لقد استشعر الابوة تولد وتنمو في ذات نفسه اكثر فأكثر ؛ لقد حضن هذه الطفلة بروحه ؛ ولقد قال في ذات نفسه إنها ابنته ، وإن شيئاً ما لا يستطيع ان ينتزعها منه ، وإن هذا سوف يكون الى الأبد ، وإنها

سوف تغدو راهبةً من غير شك ، إذ كانت تُغرى بذلك في لطف كل يوم ، وإن الدير قد أمسى منذ اليوم الكون كله بالنسبة اليها كما كان بالنسبة اليه ، وإنه سوف يشيخ هناك ، وانها سوف تشبّ هناك ، وانها سوف تشيخ هناك وانه سوف يموت هناك ، وان الفراق — وذلك أملٌ فاتن — أمسى مستحيلاً . وفيما هو يفكر في ذلك شرع يجد آخر الأمر بعض المصاعب . لقد استجوب نفسه . لقد ساءل نفسه هل كانت هذه السعادة كلها سعادته فعلاً ؟ أليست مصنوعة من سعادة شخص آخر ؟ من سعادة هذه الطفلة التي صادرها وسلبها ، هو الرجل العجوز ؟! أليست هذه سرقة ؟ وقال في ذات نفسه إن لهذه الطفلة الحـــق في أن تعرف الحياة قبل أن تتخلى عنها ، وأن إبعادها مقدّماً وبطريقة ما ، من غير أن يؤخذ رأيها في ذلك ، عن متع الحياة جميعاً بدعوى انقاذهـا من ضروب التجارب على اختلافها ، وان الافادة من جهلها وعزلتها لحملهـا على الاخذ بدعوة اصطناعية معناها مسخ كائنٍ بشري والكذب على الله . ومن يدري ، فقد تفكر في ذلك كله ذات يوم ، وتأسف لكونهـا راهبة ، وعندئذ تنتهي الى ان تبغضه ؟ فكرة اخيرة انانية تقريبـاً ، واقلّ بطولية من سائر الفكرات ، ولكنه لم يطق لها احتمالاً . لقـد وطن العزم على مغادرة الدير .

لقد قرّر ذلك ؛ لقد ادرك في يأس ان ذلك واجب عليه . أمـا الحوائل فلم يكن ثمة شيء منها . فقد كان مقامه الذي تطـاول خمس سنوات بين تلك الجدران الأربعة ، محتجباً عن الناس ، قد حطم من غير ريب أو بدد عناصر الخوف . ان في استطـاعته ان ينقلب الى الناس في اطمئنان . كان قد غدا شيخاً كبيراً ، وكان كل شيء قـد تغير . ومن ذا الذي يستطيع ان يتبيّنه الآن ؟ والى هذا ، فلو قـد نظر الى المسألة في أسوأ احوالها اذن لما كان ثمة خطر إلا عليه هـو ، وليس يملك الحقّ في ان يحكم على كوزيت بالعيش في الدير لمجرّد انـه

محكوم عليه بالعيش في سجن الاشغال الشاقة . وفوق ذلك فأيّ شأن للخطر في حضرة الواجب ؟ واخيراً ، فليس يمنعه شيء من ان يكون فطناً حذراً ، وان يتخذ الاحتياطات الضرورية .

أما تثقيف كوزيت فقد كاد ان ينتهي ويكتمل .

حتى اذا وطّن العزم على ذلك ، راح يرتقب فرصة . وما عتمت هذه الفرصة أن تمثّلت له . لقد مات فوشلوفان العجوز .

والتمس جان فالجان مقابلة رئيسة الدير الموقّرة وقال لها إنه وقد عادت عليه وفاة أخيه بأرث يمكّنه من ان يحيا منذ اليوم من غير ان يعمل فهو يعتزم ترك خدمة الدير والانصراف مع ابنته . ولكن لمّا لم يكن من العدل ان تُعلَّم كوزيت بالمجان ، ما دامت لم تفِ بنذورها ، فقد التمس من رئيسة الدير الموقرة ، في خشوع ، ان تسمح له بان يقدّم الى الدير خمسة آلاف فرنك تعويضاً عن السنوات الخمس التي قضتها كوزيت فيه .

وهكذا غادر جان فالجان « دير العبادة السرمدية » .

ولدن مغادرته الدير أخذ بيديه الاثنتين ، غير مكلفٍ احداً بمساعدته ، ذلك الصندوق الصغير الذي كان يحمله دائماً . وأذهل هـذا الصندوق كوزيت ، بسبب من عبق الطيب الذي انبعث منه .

ولنسارع الى القول ان هذا الصندوق لم يفارقه قط ، منذ اليوم . كان في غرفته دائماً . كان الشيء الاولَ — وفي بعض الاحيان الشيء الاوحدَ — الذي كان يحمله كلما غيّر مسكنه . وكانت كوزيت تضحك منه ، وتدعو ذلك الصندوق « **ممتنع الانفصال** » ، قائلةً : « اني اغار منه » .

ومع ذلك فأن جان فالجان لم يعاود الظهور في الهواء الطلق من غير ان يستشعر قلقاً عميقاً .

لقد اكتشف البيت الذي في شارع بلوميه ، ودفن نفسه فيه . وكان

منذ ذلك الحين يحمل اسم اولتيموس فوشلوفان .

وفي الوقت نفسه استأجر مسكنين آخرين في باريس ، باعتبار أن مُقامه المستمر في الحيّ نفسه يلفت الانتباه اكثر مما ينبغي ، ولكي يكون في ميسوره ان يغيّر منزله عند الحاجة ، وعند اقلّ قلق قد يستشعره ، واخيراً لكي لا يجد نفسه كرة ثانيـــة في مضيق كذلك الذي فرّ فيه ، ذات مساء ، من وجه جافير ، فراراً أعجوبيـــاً . وكان هذان المسكنان متواضعين جداً ، حقيري المظهر ، قائمين في حيّين جدّ متباعدين ، احدهما في « شارع الغرب » ، والآخر في « شارع الرجل المسلّح » .

وبين الفينة والفينة ، كان يمضي الى « شارع الرجل المسلّح » حيناً ، والى « شارع الغرب » حيناً ، لكي يقضي شهراً أو ستة أسابيع مـــع كوزيت من غير ان يصحب توسّين . وهناك كان البوّابان يقومـــان على خدمته ، وقد ادعى انـــه ريفيّ من ذوي اليسار كان له موطىء قدم في المدينة . لقد كانت لهذه الفضيلة الشامخة ثلاثة منازل في باريس فراراً من وجه الشرطة .

٢
جان فالجان عضواً في الحرس الوطني

ومع ذلك فقد سكن ، بمَحْضر المعنى ، في شارع بلوميه ، وكان قد نظّم حياته على الوجه التالي :

لقد احتلت كوزيت ، هي والخادمة ، البيت الصغير . كان لها المهجع الواسع ذو الجدران المدهونة ، والبهو النسائي ذو الاثاث المذهب ، وصالون الرئيس المفروش بالسجاد ، والمؤثث بالكراسي الضخمة ذوات

الأذرع ؛ كانت لها الحديقة . وكان جان فالجان قد رغب في ان يوضع في غرفة كوزيت سريرٌ ذو مظلة مصنوعة من دمقس مثلث الألوان ، وسجادة فارسية عتيقة جميلة اشتريت من محل الأمّ غوشيه في « شارع فيغييه سان بول » . ولكي يرقق من قسوة هذه الامتعة الاثرية الرائعة اضاف الى تلك الذخائر مختلف قطع الاثاث الصغيرة البهيجة الانيقة التي تصطنعها الفتيات : الرفّ والمكتبة والكتب المذهبة ، ومحفظة الكتابة ، والورق النشاف ، وطاولة العمل المرصعة بعرق اللؤلؤ ، وعلبة التبرّج الفضية المذهبة ، ومائدة أدوات الزينة المصنوعـــة من خزف ياباني . وكانت ستائر دمقسية طويلة مثلثة الألوان فوق خلفيّة حمراء ، مماثلـــة لستائر السرير ، تتدلى فوق نوافذ الدور الثـاني . وفي الدور الاول كانت ستائر من وشي . وطوال فصل الشتاء كان منزل كوزيت الصغير يُدفأ من قمته الى أخمصه . أما هو فكان يقطن في شبه كوخ البواب القائم في الفناء الخلفيّ ، وليس فيه غير حشية فوق سرير ذي سُيُور ، وطاولة خشبية بيضاء ، وكرسيين من قش ، ووعاء ماء من فخار ، وبضعة كتب على لوح خشبي ، وصندوقه الاثير على قلبه في احـــدى الزوايا ؛ ولم تعرف مأواه ذاك نارُ الموقد قط . كان يتناول الطعام مع كوزيت ، وكان يوضع له رغيف أسود على المائدة . ويوم دخلت توسين في خدمته قال لها : « الآنسة هي سيدة المـــنزل . » فأجابت توسين مندهشة : « وانت ، يا سيدي ؟ » فقال : « أنا ، أنا شيء خيرٌ من السيد بكثير ، أنا الأب . »

وكانت كوزيت قد دُرّبت في الدير على تدبير المنزل ، فنظّمت الخَرْج وكان متواضعاً جداً . وكل يوم ، كان جان فالجـــان يأخذ بذراع كوزيت ، ويخرج فيتمشّى معهـــا . كانا يمضيان الى مجـــاز اللوكسومبورغ الأشد انعزالاً ؛ ويوم الأحـــد من كل اسبوع كانا يشهدان القداس ، في كنيسة « سان جاك دو هو با » دائماً ، لانهـا

كانت نائية جداً . وإذ كان ذلك الحيّ حياً فقيراً جداً ، فقد كان يعطي كثيراً من الصدقات هناك . وكان البؤساء يحيطون به في الكنيسة ، مما اسبغ عليه اللقب الذي حملته رسالة تيناردييه وزوجته : « الى رَجُل كنيسة سان جاك دو هو با الخيّر . » وكان مولعاً باصطحاب كوزيت لزيارة المعوزين والمرضى . ولم يفِدْ غريبٌ على البيت الذي في شارع بلوميه . وكانت توسين تحمل المؤن ، وكان جان فالجان يمضي بنفسه التماساً للماء من حوض قريب على الجادة . وكانوا يضعون الحطب والخمر في شبه سرداب مفروش بالحصى مجاور للباب المؤدي الى شارع بابل وهو الذي كان الرئيس يتخذ منه غرفةً صيفية كهفية الشكل . ذلك لأنه في عصر « الهيام والجنون » لم يكن ثمة حب من غير كهف صيفيّ .

وكان في الباب المؤدي الى شارع بابل صندوق بريد للرسائل والصحف . واذ كان محتلو البيت الصيفي الثلاثة ، في شارع بلوميه ، لا يتلقون رسائل او صحفاً البتة ، فقد اقتصرت فائدة ذلك الصندوق – الذي كان في ما مضى وسيط المغرمات ، ونجوى العاشقات – على استقبال إخطارات جابي الضرائب وانذارات الحرس . ذلك أن مسيو فوشلوفان كان ينتمي الى الحرس الوطني ؛ كان قد عجز عن النجاة من حلقات احصاء عام ١٨٣١ المحكمة . وكانت التحريات البلدية قد امتدت آنذاك حتى الى دير بيكبوس الصغير ، ضربٌ من سحابة مقدسة خفية خرج جان فالجان منها موقراً جليلاً في عين مشيخة المدينة ، وبالتالي جديراً بأن يُلحق بالحرس الوطني .

وثلاث مرات ، او أربع مرات في العام ، كان جان فالجان يرتدي ثوبه الرسمي ، ويؤدي واجبه . وكان يفعل هذا ، فوق ذلك ، في كثير من الرضا والارتياح . فقد كان ذلك تقنّعاً ملائماً يمزجه بكل امرىء من غير ان يخرجه من عزلته . كان جان فالجان قد بلغ الستين من عمره ، وهي سنّ الاعفاء الشرعي ، ولكنه كان يبدو ابن خمسين

ليس غير . والى هذا ، فلم تكن به رغبة في ان يفرّ من رقيبه الأول وأن يخالط الكونت لوبو . لم يكن له وضع مدنيّ ؛ كان يخفي اسمه ، وكان يخفي هويته . كان يخفي عمره ، وكان يخفي كل شيء . وكان قد التحق بالحرس الوطني في ارتياح كثير ، كما ذكرنا . فلأن يشبه جمهورَ الناس الذين يدفعون ضرائبهم كان أملَه كله . كان الملاك هو المثل الأعلى لهذا الرجل ، في باطنه ؛ وكان البورجوازي هو مثله الأعلى ، في ظاهره .

بيد أن علينا ان نشير الى أمر . فحين كان جان فالجان يغادر المنزل مع كوزيت كان يرتدي الثوب الرسمي كما ذكرنا ، فهو أشبه ما يكون بالضابط القديم . أما حين كان يغادر المنزل وحده ، وغالباً ما كان يفعل ذلك مساءً ، فقد جرت عادته بأن يرتدي صدرةً وسروالاً من صدرات العمال وسراويلهم ، ويعتمر بقلنسوة تحجب وجهه . أكان ذلك احتراساً ام تواضعاً ؟ الشيئين جميعاً . وكانت كوزيت قد تعودت مظهر قَدَرها اللغزيّ ، ولم تلاحظ — إلا بشق النفس — غرابات أبيها . اما توسين ، فكانت تُجلّ جان فالجان ، وتعتقد أن كل ما يعمله صالح خيّر . وذات يوم ، قال لها الجزار الذي تشتري من عنده اللحم ، وقد وقع بصره على جان فالجان : « هذا مخلوق مضحك . » فاجابته : « إنه قـ — قديس ! »

وما كان ايّ من جان فالجان ، او كوزيت ، او توسين ، ليدخل الى المنزل أو يغادره الا من الباب المطلّ على شارع بابل . وما لم يلمحهم المرء من خلال باب الحديقة ذي القضبان الحديدية فلن يكون في ميسوره ان يحزر أنهم يقطنون في شارع بلوميه . وكان هذا الباب مغلقاً ابداً ، وكان جان فالجان قد ترك الحديقة مهملة ، لكي لا تلفت الانتباه .

ولعله ان يكون قد خُدع في ذلك .

٣

مع الاوراق والجذوع

وكانت هذه الحديقة ، التي أسلمت الى نفسها منذ نصف قرن أو يزيد ، قد أمست غريبة جداً ، وفاتنة . كان عابرو السبيل ، قبل اربعين عاماً ، يقفون في الشارع لينظروا اليها ، من غير ان تثير ريبتهم تلك الاسرارُ التي تخفيها خلف أدغالها الغضة الخضراء . وكان غيرُ حالم من حالمي ذلك العصر قد أجاز لعينيه ولأفكاره ان تنفذ ، في غير رصانة ، من خلال قضبان الباب القديم الذي كان مقفلاً ، ملتوياً ، متذبذباً ، مرسّخاً بدعامتين خضراوين يغطيهما الطحلب ، ومتوجاً على نحو غريب بواجهة مثلثة من اشكال هندسية متشابكة (آرابيسك) لا سبيل الى حلها .

كان ثمة مقعد حجري في احدى الزوايا ، وتمثال او تمثالان يعلوهما العفن ، وبعض العرائش التي نُزعت مساميرها مع الزمن والتي أنتنت على الجدار . والى هذا ، فلم يكن ثمة لا مجازات ولا عشب . كان ثمة نجيلٌ* في كل مكان . كانت البستنة قد ولّت . وكانت الطبيعة قد رجعت . وتكاثرت الاعشاب الضارّة ، مصادفةً رائعة بالنسبة الى زاوية بائسة من الارض . كان عيد المنثور الخيريّ رائعاً . إن ايما شيء في هذه الحديقة لم يناقض جهد الاشياء المقدس من اجل الحياة ؛ كان النماء الجليل في مستقرّه هناك . لقد انحنت الاشجار نحو العواسج ، وصعّدت العواسج نحو الاشجار . لقد تسلّق النجم** ، وانعطف الغصن ؛

---

* النجيل chiendent ضرب من الحمض .

** النجم ، هنا ، النبت الذي لا يقوم على ساق .

كان ذلك الذي يجري فوق الارض قد حاول أن يـلاقي ذلك الذي ينوّر في الهواء ، وكان ذلك الذي يطفو في الريح قد انحنى نحو ذلك الذي يحبو في الطحلب . لقد تمازجت الجذوع ، والافنان ، والاوراق ، والعروق ، وباقات العشب ، والعطفات * ، وقضبـان الكرم ، والأشواك ، وتعارضت ، وتزاوجت ، واختلطت من غير نظام . كان النبات قد تجدّدَ وأنجز هناك ، في معانقةٍ محكمة عميقة ، تحت عين الخالق الراضية ، في تلك الارض المسيّجة البالغة مساحتها ثلاثمئة قدم مربـع ، سرّ الأخوة المقدس ، رمز الاخوة الانسانية . إن هذه الحديقة لم تَعُـد حديقة . كانت دغلاً هائلاً ، يعني شيئاً ممتنعاً على النفاذ كغابـة ، آهلاً كمدينة ، مرتعداً كعشّ ، قاتماً ككاتدرائية ، أرِجاً كباقة ، متوحّداً كشاهدة قبر ، زاخراً بالحياة كجمهرة من الناس .

وفي فلوريال ** ، كان هذا الدغل الضخم ، المنطلق خلف قضبانه الحديدية وضمن جدرانه الأربعة ، يتطلع الى اللقاح في جَهْد الانبات الكليّ العميق ، ويختلج في وجه الشمس الطالعة وكأنه — أو يكاد — بهيمة تتنشّق هواء الحب الكونيّ وتستشعر نُسْغَ نيسان يصعد ويغلي في عروقها ؛ وفيما هو ينفض شعره الاخضر العجيب في الريح ، كان ينثر فوق الارض الرطبة ، فوق التماثيل المهشمة ، فوق سُلم المـنزل الصيفي المنهارة ، بل فوق حصباء الشارع المهجور ، نجوماً من الرياحين ولآلىء من الندى ، وينثر الخصب ، والجمال ، والحياة ، والبهجـة ، والشذا . وعند الظهيرة ، كانت الفٌ من الفراشات تَفزع اليـه ، وكان مشهداً الـهياً ان يرى المرء الى ثلوج الصيف الحية هـذه تدور رقاقاتٍ رقاقاتٍ في الظلّ . هناك ، في ظلمات الاخضرار البهيجة هذه ،

---

* جمع عطفة (بكسر العين) وهي اطراف الكرم المتعلقة منه .

** Floréal الشهر الثامن من السنة الجمهورية (٢٠ نيسان — ١٩ نوار) واسمه مشتق من الزهر والريحان . (fleurs) .

كانت جمهرة من الاصوات البريئة تتحدث الى الروح في رفق ، وكل ما قد نسيت الزقزقة ان تقوله كان الطنين يتمّه . وعند المساء ، كانت أنفاسٌ حالمة تتصاعد من الحديقة وتلفّها لفاً . كان كفنٌ من الضباب ، حزن سماوي وهادىء ، يغطيها . وكانت ريا زهر العسل والليلاب المُسْكرة تفوح من كل مكان مثل سُمّ لذيذ لطيف . كان المرء يسمع آخر نداءات الطيور المعروفة بنقارات الخشب ، ونداءات أمّ عجلان المهوّمة تحت الاغصان . كان في ميسوره أن يستشعر المودة المقدسة التي تجمع بين الطائر والشجرة . ففي النهار تُبهج الاجنحةُ الاوراقَ ، وفي الليل تصون الاوراقُ الاجنحة .

وخلال الشتاء كان الدغل داكناً ، ندياً ، شائكاً ، مرتعداً ، فهو يكشف عن المنزل بعض الشيء . كنت تلمح ، بدلاً من الازهار على الاغصان والندى على الازهار ، عصائبَ الحلازينِ الفضيةَ الطويلة على بساط الاوراق الخضراء البارد الأصفر . ولكنْ على أيّ وجه ، وبأيّ مظهر ، وفي كل فصل - في الربيع ، والشتاء ، والصيف ، والخريف - كانت هذه الحديقة الصغيرة تنفث الكآبة ، والتأمل ، والعزلة ، والحرية ، وغيبة الانسان ، ووجود الله . وكان الباب الحديدي العتيق الصدىء يبدو وكأنه يقول : « هذه الحديقة حديقتي . »

وعبثاً كانت شوارع باريس المعبدة تطوّقها ، وقصور شارع « فارين » الكلاسيكية الفخمة على بضع خطوات منها ، وقبة الانفاليد قريبة جداً اليها ، ومجلس النواب غير بعيد عنها ؛ عبثاً كانت عربات شارع بورغونيْ وشارع سان دومينيك تجري مزهوّةً في جوارها ؛ عبثاً كانت المركبات العامة الصفراء ، والسمراء ، والبيضاء ، والحمراء تتقاطع في الساحة المجاورة ، فقد كان شارع بلوميه خلاءً قواءً . وكان موت المالكين القدماء ، وانقضاء ثورة ، وانهيار السُّعود العتيقة ، والعدم ، والنسيان ، واربعون عاماً من الاهمال والترمل كافيةً لأن تدعو كرّةً اخرى الى

هذا المكان ذي الامتياز الخنشارَ ، وآذانَ الدبّ ، والشوكران السام ، والأخيليات ، والقمعيات ، والأعشاب الطويلة ، والنباتات الكبيرة المتأنقة بأوراقها العريضة ذات الجوخ الشاحب الضارب الى الخضرة ، والحراذينَ ، والخنافس ، والحشرات القلقة السريعة ؛ وكافيةٌ لأن تُبرز من أعماق الأرض ، وتعرض ضمن هذه الجدران الأربعة ، عظمة وحشية وضارية لا سبيل الى وصفها ؛ وكافيةٌ لكي يكون في ميسور الطبيعة — التي تُحْبِط تدابير الانسان الدنيئة ، والتي تهب نفسَها كاملةً ، دائماً ، كلما وهبت نفسها ، في النملة كما في النسر سواء بسواء — أن تجلو نفسَها في حديقة باريسية صغيرة حقيرة بنفس القسوة والجلال التي تتجلى بها في غابة عذراء من غابات العالم الجديد .

إن شيئاً ما ، ليس صغيراً حقاً . وكل ذي نظر نافذ في الطبيعة يعرف ذلك . وعلى الرغم من أن الارتياح المطلق لا يُتاح للفلسفة ، سواء في حصر السبب أو تعيين المسبب ، فأن المتأمل يغرق في نشوات لا قرار لها بسبب من انحلال القوى هذا كله ، المؤدي الى الوحدة . إن كل شيء يعمل من اجل كل شيء .

ان علم الجبر ينطبق على السُّحب . فاشعاع النجم يُفيد الوردة . وليس يجرؤ أيّ مفكر على القول بأن عبير الزعرور لا يفيد الأبراج السماوية . ومن ذا الذي يستطيع ، اذن ، ان يحسب مسار جُسَيم أو ذرة ؟ وما يُدرينا أن خلائق العوالم لا يقررها سقوط حبات التراب ؟ ومن الذي يعرف ، اذن ، المد والجزر المتبادلين اللذين يتكشف عنهما العظيم الى ما لا نهاية ، والحقير الى ما لا نهاية ، ودويّ الأسباب في هُوى الوجود وهيّالات ثلج الخليقة ؟ إن لدودة اللحم اهميتها ؛ الحقير عظيم ، والعظيم حقير ؛ وكل شيء متكافيء في الحاجة . رؤيا مروّعة للعقل . إن ثمة صلاتٍ رائعة بين الكائنات والاشياء . وفي هذا الكل

الذي لا ينضب ، من الشمس الى الارَق * . ليس ثمـــة ازدراء ، فكلٌ في حاجة الى الآخر . إن الضياء لا يحمل الأرائـج السماوية الى أعماق اللازورد من غير ان يعرف أي شيء يفعله بها ؛ وان الليـــل ليوزع العطر النجومي على الازهار النائمة . وجميع الطيور التي تحلق في السماء تحمل في براثنها خيط اللانهاية . إن الأفراخ يشمل نقف نيزك من النيازك ، ونقرة سنونو يكسر البيضة ، وإنه ليشرف عـلى ولادة دودة من ديدان الارض وعلى ظهور سقراط الى عالم الوجود ، في آنٍ معاً . فحيث ينتهي التلسكوب ، يبـــدأ الميكروسكوب . أيّ منهما يملك النظرة الأوسع ؟ إختر لنفسك . القطعة من العفن هي ثريـا من الازهار ، والسديم مَنمَلة ** نجوم . والاختلاط نفسُهُ ، وعـلى نحو أروع أيضاً ، قائم بين اشياء العقل ووقائع المادة . فالعناصر والمبادىء تمتزج ، وتتحد ، وتتزاوج ، ويضاعف بعضها بعضاً الى درجة تجمع ما بين العالم المادي والعالم الاخلاقي وتسلط عليهما الضوء نفسه . إن الظواهر لتُطوى على ذواتها طياً سرمدياً . وفي المقايضات الكونية الواسعـــة ، تروح الحياة المطلقة وتجيء بمقادير مجهولة ، دائرةً كلها في لغز الانبثاقات غير المنظورة ، غير فاقدة أيما حُلم من أيما رقاد ، باذرةً حيواناً مجهرياً هنا ، مفتتّة نجماً هناك ، متذبذبةً وملتويةً ، جاعلةً من الضوء قوةً ، ومن الفكر عنصراً ، متناثرةً وغير قابلة للانقسام ، مذيبة كل شيء ، ما خلا هذه النقطة الهندسية ، الأنا ؛ مُرجعة كل شيء الى الروح — الذرة ، مفتحةً اكمام كل شيء في الله ، مشبكة جميع الوان النشاط ، من اعلاها الى أدناها ، في ظلمة آلية توقع الدوار في الرأس ، معلقـةً طيران حشرة من الحشرات بحركة الأرض ، مخضعةً — ومن يدري ؟ —

* puceron وهي حشرة صغيرة .

** قرية نمل .

ولو بعينية * القانون ، تطورَ مذنَّب في فَلك السماء لدوران النقاعية ** في قطرة الماء . ماكينة مصنوعة من عقل . تداخلٌ هائل أول محرك فيه الذبابة الصغيرة ، وآخر دولاب فيه منطقة البروج .

٤
تغير الباب الحديدي المقضب

لقد بدا وكأن هذه الحديقة ، التي جُعلت باديء الأمر لتستر الغوامض الداعرة ، قد حُولت وعدلت لتلائم الغوامض العفيفة . لم يبق ثمة فيها لا عرائش ، ولا مروج ، ولا خيام ، ولا كهوف . كان ثمة ظلمة بهية شعثاء تهبط كالحجاب من كل جانب . بافوس *** قد أمست جنة عَدْن كرة اخرى . وليس يدري أحدٌ أي توبة كانت قد طهرت هذه الخلوة . إن صانعة باقات الرياحين هذه لتقدمُ الآن رياحينها الى الروح . كانت هذه الحديقة المغناجة ، التي كانت من قبل مشوهة السمعة الى حد بعيد ، قد انقلبت الى البتولية والاحتشام . كان رئيس يساعده بستاني ، رجل طيب يحسب نفسه لاموانيون **** ثانياً ، ورجل طيب آخر يحسب نفسه لو نوتر ثانياً قد شوهاها ، وشذباها ، ودعكاها ، وزيناها ، وكيّفاها للغزَل . ثم عادت الطبيعة فاستردتها من جديد ،

---

* Identité اي كون الشيء عين الشيء الآخر .

** انقاعيات دويبات مجهرية وحيدة الخلية تحيا في السوائل .

*** Paphos مدينة قديمة بجزيرة قبرص ، اشتهرت بهيكل فينوس الذي كان قائماً فيها .

**** Lamoignon اول رئيس لبرلمان باريس ، أي محكمتها قبل الثورة . وكان قاضياً مستنيراً وفاضلاً (١٦١٧ – ١٦٧٧) .

***** Le Nôtre مصمم جنائن فرنسي شهير عرف بتنظيمه حدائق فرساي (١٦١٣ – ١٧٠٠) .

وملأتها بالظلّ ، وأعدّتها للحب .

وكان في تلك العزلة أيضاً قلب على أتمّ الاستعداد . ولم يكن على الحب غير الاعلان عن نفسه . كان ثمة هيكل مؤلف من اخضرار ، من عشب ، من طحلب ، من تنهدات الطير ، من ظلٍ رقيقٍ ، من اغصان مهتاجة ، من نفس مكوّنةٍ من لطافة ، من إيمان ، من سلامة سريرة ، من أمل ، من شوق ، ومن أوهام .

كانت كوزيت قد غادرت الدير وهي ما تزال طفلةً أو تكاد . كان عمرها يزيد على الرابعة عشرة شيئاً ما ، وكانت في « السنّ العقوق » . وبصرف النظر عن عينيها ، بَدت كما قلنا من قبل بشعة اكثر منها مليحة . إن ملامحها لم تكن مجمة بجال ، ولكنها كانت خرقاء ، مهزولة ، حيية وجَسُوراً في آنٍ معاً ؛ كانت بكلمة واحدة طفلة كبيرة .

كانت قد اتمت ثقافتها ؛ يعني أنها قد لُقّنت الدين ، ولُقّنت ايضاً فوق كل شيء ، التقوى ؛ ثم « التاريخ » ، يعني الشيء الذي يسمونه هكذا في الدير ، والجغرافية ، والنحو ، واسماء الفاعل ، واسماء المفعول ، وملوك فرنسة ، وشيئاً من الموسيقى ، ورسم الصُوَر الجانبية الخ . ولكنها في ما وراء ذلك كانت تجهل كل شيء ، وتلك رُقية وخطر . إن روح الفتاة الصغيرة ينبغي ان لا تُترك في الظلام ، ففي حياتها المقبلة سوف تنبثق ضروب السراب المفاجئة جداً ، الناشطة جداً ، وكأنها المصوّرة ذات الحجرة المظلمة . ينبغي ان تنوّر في رفق وفي لباقة ، بانعكاس الحقائق لا بضوئها المباشر القاسي . ضوءٌ نصفيّ مُجدٍ وصارمٌ على نحو بشوش ، يبدّد المخاوف الصبيانية ويحول دون الانزلاق . والغريزة الأمومية ، ذلك الحدسُ العجيب الذي تدخل فيه ذكريات العذراء وتجربة المرأة ، هي وحدها التي تعرف كيف ينبغي لهذا الضوء النصفي ان يُصطنع ، ومن ايّ شيء ينبغي ان يؤلّف .

إن شيئاً ما ، لا يستطيع ان يسدّ مسدّ هذه الغريزة . وفي تكوين عقل الفتاة الصغيرة تعجز جميع راهبات العالم عن مضاهاة امّ واحدة .

ولم تكن لكوزيت أمّ . كان لها أمهات ليس غير ، امهات بصيغة الجمع .

أما جان فالجان فكانت تنطوي نفسه حقاً على ضروب الحنان كلها وضروب العناية الودود كلها ؛ ولكنه لم يكن غير عجوز لا يعرف شيئاً على الاطلاق .

والآن ، في عمل التربية هذا ، في هذه المسألة الخطيرة ، مسألة إعداد المرأة للحياة ، ما أوسع المعرفة التي نحتاج اليها للنضال ضد ذلك الجهل الذي ندعوه البراءة .

ليس ثمة ما يُعد الفتاة الصغيرة للانفعالات مثل الدير . الدير يحوّل الافكار في اتجاه المجهول . والقلب ، وقد طُويَ على نفسه ليتقهرُ بسبب من عجزه عن التدفق ، وإنه ليزداد عمقاً بسبب من عجزه عن الانطلاق . ومن هنا تنشأ الرؤى ، والاوهام ، والظنون ، والخيالات المرسومة رسماً أولياً ، والتوق الى المغامرات ، والمنشآت الوهمية ، والقصور الكاملة التي تشيد داخل ظلمة العقل ، والمواطن القاتمة السرية حيث تجد الانفعالات مأوى مباشراً حالما يُعبر الحاجز ذو القضبان الحديدية ، ويُجاز لها الدخول . إن الدير ضغطٌ يحتاج ، لكي ينتصر على القلب البشري ، الى أن يستمر طوالَ الحياة .

ولم يكن في ميسور كوزيت ان تجد ، لدن مغادرتها الدير ، شيئاً أبهج وأخطر من المنزل الذي في شارع بلوميه . كان هو استمرارَ العزلة مع بدء الحرية ؛ حديقة مقفلة ، ولكنْ طبيعةٌ حرّيفة ، غنية ، مُغرية ، ذات أرج . الأحلام نفسها التي رأتها في الدير ، ولكن مع لمحات من شبان يافعين . باب حديدي ذو قضبان ، ولكنه يطلّ على الشارع .

ومع ذلك فنحن نكرر انها حين وفدت الى هناك لم تكن اكثر من طفلة . لقد أعطاها جان فالجان هذه الحديقة غير المحروثة . قال لها « إفعلي بها ما تشائين » . وأبهجها ذلك . لقد تنقلت فيها من بقعة معشوشبة الى بقعة معشوشبة ، وقلبت كل حجر من الاحجار ، وانشأت تبحث عن « الحيوانات » . لقد لعبت فيها هي تحلم . لقد أحبت هذه الحديقة للحشرات التي وجدتها في العشب تحت قدميها ، فيما أحبته للنجوم التي رأتها في الاغصان التي فوق رأسها .

ثم إنها أحبت اباها ، يعني جان فالجان ، من صميم قلبها ، بعاطفة بنوّية صادقة جعلت الرجل الطيب رفيقاً لها فاتناً ومرغوباً فيه . ونحن نذكر ان مسيو مادلين كان مولعاً بالمطالعة ؛ ولقد واصل جان فالجان على ذلك ؛ ومن خلال هذا أمسى محدّثاً بارعاً . كانت له تلك الثروة السرية وتلك الفصاحة اللتان تكونان عادة لعقل متواضع صادق اكتسب ثقافته بنفسه . ولقد احتفظ من الخشونة بمقدار كافٍ لتتبيل طيبته ؛ كان له عقل قاسٍ وفؤاد رقيق . وفي احاديثهما في اللوكسومبورغ ، كان يقدم اليها شروحاً طويلة لكل شيء ، مستقياً مما سبق له أن قرأه ، ومما كان قد قاساه أيضاً . وكانت عينا كوزيت تليه حالمة فيما هي تصغي الى حديثه .

لقد كان هذا الرجل البسيط كافياً لعقل كوزيت ، مثلما كانت هذه الحديقة المهملة كافية لعينيها . فما إن تطارد الفراشاتِ مطاردة ناشطة حتى تهرع اليه لاهثة وتقول : « اوه ، كم قد ركضت ! » وكانت تطبع على جبينه قبلة .

كانت كوزيت تعبد هذا الرجل . كانت تعدو ابداً في اثره . فحيث كان جان فالجان كانت السعادة . واذ لم يكن جان فالجان يحيا في المنزل الصيفي أو في الحديقة فقد كانت تجد في الفناء الخلفيّ المرصوف بالحجارة متعة اكثر من تلك التي تجدها في الحديقة الحافلة بالزهور ، وتجد

في حجرة النوم الصغيرة ذات الكراسي القشية متعة اكثر من تلك التي تجدها في غرفة الاستقبال الكثيرة المزينة جدرانها بالسجاد ، حيث كان في استطاعتها ان تتكىء على كراسيّ حريرية ذوات أذرع . وكان جان فالجان يقول لها في بعض الاحيان ، مبتسماً بالسعادة الناشئة عن شعوره بأنها تضايقه : « لماذا لا تذهبين الى البيت ؟ لماذا لا تتركينني وشأني ؟ »

كانت توجه اليه ضروباً من ذلك التوبيخ اللطيف المليء بالكياسة ، الصادر من البنت الى الأب .

— « ابي ، أنا اشعر بالبرد الشديد عندك . فلماذا لا تضع هنا سجادة وموقداً ؟ »

— « يا طفلتي العزيزة ، هناك كثير من الناس الذين هم خيرٌ مني ، ومع ذلك فليس عندهم مجرد سقف فوق رؤوسهم . »

— « واذن ، فلماذا أنعم انا بالنار وبكل ما احتاج اليه ؟ »

— « لانك فتاة ، وطفلة . »

— « عجيب ! معنى ذلك ان الرجال يجب ان يبردوا ، وان يحرموا كل اسباب الراحة ؟ »

— « بعض الرجال . »

— « حسن . سوف أكثر من المجيء الى هنا لكي تُضطر الى إيقاد النار . »

وقالت له ذات يوم ايضاً :

— « أبي ، لماذا تأكل خبزاً رديئاً مثل هذا ؟ »

— « لأنه ، يا ابنتي . »

— حسن . اذا اكلتَ انتَ من هذا الخبز أكلتُ منه أنا . »

ثم ان جان فالجان ، لكي لا تأكل كوزيت خبزاً اسود ، اخذ يأكل خبزاً ابيض .

ولم تكن لدى كوزيت غير ذكرى غامضة عن طفولتها . لقد صلّت

صباحاً ومساءً من اجل امها ، التي لم تعرفها قط . كان تينارديه وزوجته لا يزالان عندها اشبه بصورتين مروّعتين من صُور الاحلام . لقد ذكرت انها قد أرسلت « ذات يوم ، في موهن من الليل » الى الغابة التماساً الماء . ولقد حسبت ان ذلك كان في مكان بعيد جداً عن باريس . لقد بدا لها انها استهلت الحياة في هوّة ، وان جان فالجان قد انتشلها منها . وإنما تمثّلت طفولتَها عهداً لم يُحط بها خلاله غير أُمّات اربع واربعين ، وعناكب ، وثعابين . وحين كان النعاس يُلمّ بها ليلاً قبل ان تأوي الى سريرها ، واذ لم تكن لها فكرة واضحة عن كونها بنت جان فالجان وكونه اباها ، فقد تخيلت أن روح أمها قد انتقلت الى هذا الرجل الطيب وأقبلت لتحيا معها .

وكانت اذا ما جلس تريح خدها على شعره الاشيب ، وتسفح دمعة في صمت ، قائلةً لنفسها : « لعله ..؟ لعل هذا الرجل أمي ! »

وعلى الرغم من ان هذا يبدو غريباً فان كوزيت ، في جهلها الشديد بوصفها فتاةً نُشّئت في الدير ، وباعتبار ان الامومة الى ذلك تستغلق على العذارى استغلاقاً كاملاً ، كانت قد انتهت الى التخيل أنه كان لها اقلّ قدْر ممكن من الأمّ . إنها لم تعرف حتى اسمَ تلك الام . وكانت كلما سألت جان فالجان عنها اعتصم جان فالجان بالصمت . حتى اذا كررت سؤالها ، اجابها ببسمة . وذات مرة الحت في السؤال ، فانتهت البسمة بدمعة .

وصمتُ جان فالجان هذا غطى فانتين بحجاب من الظلام .

أكان ذلك فطنة ؟ أكان احتراماً ؟ أكان خوفاً من اسلام ذلك الاسم الى أقدار ذاكرة اخرى غير ذاكرته هو ؟

ويوم كانت كوزيت صغيرة ، كان جان فالجان مولعاً بتحديثها عن امها . اما حين غدت شابة فقد امسى ذلك متعذراً عليه . لقد بدا له

أنه لم يعد يجرؤ على هذا . أكان ذلك بسبب من فانتين ؟ لقد استشعر شبه ذعرٍ تقَويّ من إدخال ذلك الظل الى افكار كوزيت ، وجعْل الميتة شريكاً ثالثاً في قدَرهما . وكلما تعاظمت قداسة ذلك الظلّ عنده بدت له اشدّ هولاً . لقد فكر بفانتين واحسّ انه مُرهق بالصمت . لقد رأى في الظلام ، وعلى نحوٍ غير واضح ، شيئاً يشبه إصبعاً على فم . أكان ذلك الحياء كله ، الذي كان في يوم من الايام حياء فانتين ، والذى أكره خلالَ حياتها على ان يفارقها عنوةً ، قد عاد بعد وفاتها ليقع عليها ، وليسهر ، ساخطاً ، على طمأنينة المرأة الميتة ، وليحرسها بضراوة في قبرها ؟ هل احس جان فالجان بضغط ذلك من غير ان يدري ؟ انا نحن الذين نؤمن بالموت لسنا من الذين يرفضون هذا التفسير الخفيّ . ومن هنا استحالة النطق ، حتى من اجل كوزيت ، بهذا الاسم : فانتين .

وذات يوم ، قالت له كوزيت :

— « ابي ، لقد رأيت أمي في المنام ، الليلةَ البارحة . كان لها جناحان . ولا ريب في ان أمي قد اشرفت في حياتها على القداسة . »

فأجابها جان فالجان :

— « من خلال الألم العظيم . »

ومع ذلك ، فقد كان جان فالجان سعيداً .

وكانت كوزيت اذا ما خرجت معه اتكأت على ذراعه ، فخوراً ، سعيدة بكامل جوارحها . ولدنْ أمارات هذا الحنان كلها ، هذه الامارات المقصورة عليه من دون الناس جميعاً والتي لم تكن لتُشْبع على نحو كامل إلا معه ، كان جان فالجان يستشعر ان تفكيره قد ذاب في البهجة . كان الرجل البائس يرتعد ، وقد غمره حبور ملائكيّ ، وكان يعلن في جذله ان ذلك سوف يستمر مدى الحياة . كان يقول في ذات نفسه إنه لم يَلْقَ من العذاب ، في الواقع ، مقداراً كافياً لجعله

مستحقاً مثل هذه السعادة المشرقة ، وكان يشكر الله ، في أعماق روحه ، على ما أجاز له ، هو الرجل البائس ، ان ينعم بحب مثل هذه المخلوقة البريئة .

٥
الوردة تكتشف أنها ماكينة حرب

واتفق لكوزيت ان نظرت ، ذات يوم ، في مرآتها ، فقالت في ذات نفسها : « ماذا ! » لقد بدا لها ، تقريباً ، انها كانت جميلة . وقذف ذلك في فؤادها قلقاً غريباً . فحتى تلك اللحظة ، لم تكن قد فكرت بوجهها . كانت قد رأت نفسها في مرآتها ، ولكنها لم تكن قد رأت الى نفسها . والى هذا ، فكثيراً ما كان يقال لها إنها قبيحة . وكان جان فالجان هو وحده الذي يقول لها في تؤدة : « ولكنْ لا ، ولكن لا ! » وايّاً ما كان ، فقد تعوّدت كوزيت ان تعدّ نفسها بشعة ، ونشأت على تلك الفكرة باستسلام الطفولة السهل . وها هي ذي مرآتها تقول لها ، مثل جان فالجان : « ولكن لا ! » ولم يغمض لها جفن تلك الليلة . وقالت في ذات نفسها : « لو كنت جميلة ! كم يكون مضحكاً ان اكون جميلة ! » واستعادت في ذاكرتها صُور رفيقاتها اللواتي كان جمالهن يلفت الانظار في الدير ، وقالت : « ماذا ! سوف اكون مثل الآنسة فلانة ! »

وفي اليوم التالي نظرت الى نفسها في المرآة ، ولكن ليس مصادفة ، وأخذها الشك . لقد قالت : « أين كان عقلي ؟ لا ، انا قبيحة . » كانت ، بكل بساطة ، قد نامت نوماً قلقاً ، وكانت عيناها داكنتين ، وكان وجهها شاحباً . انها لم تستشعر الليلة البارحة كثيراً من السعادة لتفكيرها بانها جميلة ، ولكنها كانت محزونة لتفكيرها بأنها لم تعد كذلك . ولم تعاود

النظر الى نفسها في المرآة ، وطوال اكثر من خمسة عشر يوماً حاولت ان تصفف شعرها مديرة ظهرها الى المرآة .

وفي المساء ، بعد تناول العشاء ، كانت تقوم وفقاً لعادتها ببعض أعمال التطريز أو ببعض الأعمال الدوية في حجرة الاستقبال ، فيما يقرأ جـان فالجان الى جانبها . وذات مرة ، رفعت عينيها عن عملها فأخذهـا اعظم الدهش للطريقة التي كان أبوها ينظر بها اليها .

وفي مناسبة اخرى ، كانت تجتاز بالشارع فبدا لها أن شخصاً لم تره كان سائراً خلفها وانه قال : « امرأة جميلة ، ولكنها رديئة الـبزة ! » فقالت في ذات نفسها : « لا ، لا . لست انا المقصودة . انا حسنة الـبزة وقبيحة الصورة . » كانت آنذاك تعتمر بقبعتها المصنوعة من نسيج وبر وترتدي ثوبها المخيط من نسيج مريني .

واخيراً ، كانت في الحديقة ذات يوم ، فسمعت توسين البائسة العجوز تقول : « سيدي ، أتلاحظ الى ايّ حد غدت الآنسة جميـلة ؟ » ولم تسمع كوزيت جواب أبيها . واوقعت كلمات توسين في اوصالها شبه هزة . فغادرت الحديقة راكضة ، واسرعت الى المرآة ـ وكانت قـد انقضت ثلاثة اشهر هجرتها خلالها فلم تنظر الى نفسها فيها ـ وأطلقت صيحة . لقـد بهرتها نفسها .

كانت جميـلة ومليحة . ولم يكن في وسعها إلا أن تُقرّ توسين ومرآتها على رأيها . كان قوامها كاملًا ، وكانت بشرتهـا قد أصبحت بيضاء ، وكان شعرها قد غدا صقيلًا ، وكان بهاء مجهول يضيء في عينيها الزرقاوين . وكان وعيها لجمالها قد ألمّ بها دفعةً واحـدة ، في دقيقة واحدة ، مثل وضح النهار حين يطلع علينا . والى هـذا ، فقد لاحظ الآخرون ذلك ، ولقد قالته توسين . وحديث عابر السبيل لم يكن إلا عنها ؛ فلم يبق ثمة شك . وعاودت الهبوط الى الحديقة من جديد ، حاسبةً نفسها ملكة ، سامعةً الطيور تغني ، فقد كان الفصل شتاء ، مشاهدةً

السماء مذهّبة والشمس في الاشجار ، والأزهار وسط الأدغال ، مستهامة ، مجنونة ، يغمرها جذل لا سبيل الى وصفه .

أما جان فالجان فاستشعر ، من ناحيته ، حصراً في الفؤاد عميقاً مستغلقاً .

كان قد شرع يفكر في رعب منذ فترة ، بذلك الجمال الذي بدا وكأنه يزداد اشراقاً ، يوماً بعد يوم ، على وجه كوزيت العذب . كان ذلك الفجر ، الضاحك في وجوه الناس جميعاً ، مأتمياً في نظره . وكانت كوزيت جميلة فترة ما ، قبل أن تلمح ذلك . ولكنْ ، منذ اليوم الاول ، جرح ذلك الضياء غير المتوقع الذي ارتفع بطيئاً والذي احاط بشخص الفتاة الصغيرة كله نقول جرح ذلك الضياء عيني جان فالجان القاتمتين . لقد استشعر ان ذلك كان تغيراً في حياة سعيدة ، سعيدةٍ الى درجة جعلته لا يجرؤ على تحريكها خشية أن يزعج فيها شيئاً . والواقع ان هذا الرجل الذي عرف ضروب الشقاء على اختلافها ، والذي كان لا يزال مضرّجاً بصنوف التمزيق التي انزلها به قَدَرُه ، والذي كان من قبلُ شريراً او يكاد ، والذي كان قد أمسى قدُسياً او يكاد ، والذي يجرّ الآن ، بعد أن سبق له جرّ سلاسل سجن الاشغال الشاقة ، سلاسلَ العار اللانهائي غير المنظورة وإن تكن ثقيلة ، هذا الرجل الذي لم يُعتقه القانون ، والذي قد يعاد القاء القبض عليه في كل لحظة ، ويُرجَع به من ظلمة فضيلته الى وَضَح عاره الاجتماعي ، هذا الرجل ارتضى كل شيء ، والتمس العذر عن كل شيء ، وغفر كل شيء ، وبارك كل شيء ، وتمنى الخير لكل إنسان ، ولم يسأل العناية الالـهية ، والناس ، والقوانين ، والمجتمع ، والطبيعة ، والعالم ، غير شيء واحد ، هو أن تحبه كوزيت !

ان تقيم كوزيت على حبه ! ان لا يحرم الله فؤاد هذه الطفلة من ان يُقبل عليه ، وان يظل له ! كان يستشعر ، اذ يغمره حب كوزيت

انه معافى ، منتعش ، مطمئن النفس ، مرتاح الضمير ، مُثاب ، موفق الى النجاح . كان يستشعر ، اذ يغمره حب كوزيت ، انه سعيـــد . كان لا يطمع في اكثر من ذلك البتة . ولو ان اي امرىء قال له : « هل ترغب في شيء افضل ؟ » اذن لأجاب : « لا » . ولو ان الله قال له : « هل ترغب في الجنة ؟ » اذن لأجاب : « عندئذ اكون أنا الخاسر . »

وكان كل ما قد يمسّ هذه الحالة ، ولو مجرد مسّ سطحي ، يوقع في اوصاله الرعدة ، وكأنه بدء حالة اخرى . انه لم يعرف قط ، على نحو واضح جداً ، ايّ شيء كان جمال المرأة ، ولكنه ادرك ، بالغريزة ، انه شيء فظيع .

وهذا الجمال الذي كانت أكمامه تتفتح أمامه ، تحت بصره ، تفتحاً يزداد ظفراً وجلالاً ، على جبين هذه الطفلة الساذج الرهيب — هذا الجمال نظر اليه جان فالجان من اعماق بشاعته ، وشيخوخته ، وبؤسه ، ونفوره الشديد ، وضناه ، في ذعر .

لقد قال في ذات نفسه : « ما أجملها ! ما الذي سيحلّ بي ؟ »

ههنا في الواقع كان الفرق بين حنانه وحنان الام . ان ما رأى اليه في غصة مريرة كان خليقاً بالأم ان ترى اليه في جذل .

ولم تبطىء الاعراض الاولى في الاعلان عن نفسها .

فمنذ اليوم التالي لذلك الذي قالت فيه : « أنا جميلة حقاً ! » شرعت كوزيت تعتني بملابسها . لقد ذكرت كلمات عابر السبيل : « جميلة ولكنها رديئة البزة » ، نفثة من هتاف الغيب مرت بها ثم تلاشت بعد أن اوقعت في فؤادها احدى البذرتين اللتين ينبغي ان تملآ في ما بعد كامل حياة المرأة : الدلال . اما البذرة الاخرى فهي الحب .

وفي ايمان بجمالها ، تفتحت نفسها الانثوية كلها في باطنها . لقد أخذها الذعر من النسيج المريني وعصف بها الخجل من النسيج الوبر ، ولم يضنّ

عليها والدها بشيء ما ، في يوم من الايام . لقد عرفت في الحال كامل علم القبعة ، والفستان ، والرداء القصير ، والحذاء العالي ذي الرباط ، وزينة طرف كمّ القميص ، والقماش الملائم ، واللون اللائق ، ذلك العلم الذي يجعل المرأة الباريسية شيئاً فاتناً جداً ، عميقاً جداً ، وخطراً جداً . ان عبارة **المرأة المسكوة** قد اخترعت للباريسية .

وفي أقل من شهر لم تغدُ كوزيت احدى الفتيات الاكثر جمالاً في شارع بابل المنعزل ذاك فحسب ، وهو شيء ليس بقليل ، ولكن واحدة من احسن الفتيات بزة في باريس ، ايضاً ، وهو شيء اعظم شأناً. وكان خليقاً بها ان تتوق الى الالتقاء بـ « عابر سبيلها » لتسمع ما الذي يمكن ان يقوله ، ولكي « تُريه »! والحق أنها كانت فاتنة من كل ناحية . وانها كانت تميز على نحو رائع ما بين « قبعة جيرار » و « قبعة هيربو » .

وراقب جان فالجان هذه الاعمال المخربة في قلق . لقد رأى ـ هو الذي استشعر انه لم يكن قادراً قط على غير الزحف ، أو على غير المشي في الاكثر – رأى جناحين ينموان لكوزيت .

ومع ذلك ، فمن مجرد الملاحظة البسيطة لزينة كوزيت كان في ميسور ايما امرأة أن تدرك أن لا أمّ لها . فقد كانت ثمة بعض اللياقات الصغيرة وبعض المتواضعات الخاصة التي لم تكن كوزيت تراعيها . ولو كان لها أمٌ اذن لانبأتها ، مثلاً ، ان الفتيات الصغيرات لا يرتدين الدمقس البتة .

واول مرة خرجت فيها كوزيت بفستانها وردائها القصير المصنوعين من الدمقس الأسود وبقبعتها المصنوعة من « كريب » أبيض ، اقبلت على جان فالجان لتأخذ بذراعه ، بهجة النفس ، مشرقة المحيا ، متوردة الوجنتين ، معتزة ، ناضرة ، وقالت : « أبي ، كيف تراني الآن ؟ » فاجابها جان فالجان بصوت كان أشبه بصوت الحسد المرير : « فاتنة ! » لقد بدت كعادتها ، خلال تلك النزهة . وحين انقلبا الى المنزل سأل كوزيت :

– « ألن ترتدي فستانك وقبعتك بعد الآن ؟ »

وكان ذلك في غرفة كوزيت . واستدارت كوزيت نحو خزانة الملابس حيث كان فستانها المدرسي معلقاً وقالت :

ـ « هذا القناع ! ابي ، ماذا تريد مني ان افعل به ؟ أوه ، لا ، من غير شك ، أنا لن ارتدي هذه الاشياء المروّعة بعد الآن . اني حين أعتمر بهذا الشيء البغيض أبدو مثل مدام « الكلبة المسعورة . »

واطلق جان فالجان زفرة عميقة .

ومنذ ذلك الحين لاحظ ان كوزيت التي كانت من قبل تطلب دائماً ان تلزم بيتها قائلة : « أبي ، اني أسعد بالبقاء معك هنا اكثر » أمست الآن تسأله دائماً أن ينطلقا الى الخارج . وفي الواقع ، ما جدوى ان يكون للفتاة محيا جميل وزينة بهيجة إن لم يرهما الناس ؟

ولاحظ ايضاً أن كوزيت لم تعد تأنس بالفناء الخلفي كدأبها من قبل . لقد أضحت الآن تؤثر البقاء في الحديقة ، متنزهة من غير اكتئاب أمام الباب الحديدي . أما جان فالجان ، النّفور ، فلم تطأ قدمه الحديقة . لقد ظل في فنائه الخلفيّ ، ككلب من الكلاب .

واذ عرفت كوزيت انها جميلة فقدَت ملاحةَ جهلها لذلك . ملاحة بديعة ، لأن الجمال ، حين يُعلّى بالبساطة ، يكون فائقاً الوصف . وليس شيء اروع من البراءة الباهرة للابصار ماضيةً في سبيلها ، حاملةً في يدها ، من غير ان تعي ، مفتاح جنة من الجنان . ولكن ما فقدته من ملاحةٍ ساذجة عوّضته فتنةٌ جدية مروّىً فيها . كان كيانها كله ، وقد غلبت عليه مباهج الشباب ، والبراءة ، والجمال ، يعبق بكآبة بهيّة .

في هذه الفترة بالذات ، رآها ماريوس من جديد ، بعد انقضاء ستة أشهر ، في حديقة اللوكسومبورغ .

٦
المعركة تبدأ

كان كوزيت ، في عزلتها ، مثل ماريوس في عزلته ، على أتم الاستعداد للاشتعال . وكان القدر ، بأناته الخفية المحتومة ، يقرّب شيئاً بعد شيء ما بين هذين الكائنين المشحونين كل الشحن الواهنين كل الوهن بكهرباء الهوى العاصفة — هاتين النفسين اللتين حملتا الحب مثل سحابتين تحملان البرق ، واللتين كان لهما أن تجتمعا وتمتزجا في نظرة ، كما تجتمع سحابتان وتمتزجان في ومضة .

لقد بالغنا في تشويه قوة النظرة في القصص الغرامية الى درجة جعلتنا نفقد ايماننا بها . فقليل من الناس يجرؤون اليوم على القول ان شخصين قد أحبا لانهما تبادلا النظر . ومع ذلك ، فالحب إنما يبدأ بهذه الطريقة ، وبهذه الطريقة وحسب . والبقية ليست غير البقية ، وهي تأتي في ما بعد . إن شيئاً ليس اكثر واقعيةً من هذه الهزات العظمى التي تتبادلها نفسان اثنتان إذ تتبادلان هذه الشرارة .

في تلك اللحظة التي نظرت فيها كوزيت ، لا واعيةً ، تلك النظرة التي عصفت بماريوس ، لم يستشعر ماريوس انه هو ايضاً قد ألقى نظرة أورثت كوزيت حيرةً وقلقاً .

لقد تلقّت منه الشرّ نفسه ، والخير نفسه .

كانت قد سلخت فترة طويلة وهي تنظر اليه وتتأمل فيه ، كما تتأمل الفتيات وينظرن ، فيما هنّ يتطلعن في الاتجاه الآخر .

وكان ماريوس لا يزال يحسب كوزيت قبيحة ، وكانت كوزيت قد بدأت ترى ماريوس جميلاً . وإذ لم يلتفت ذلك الشاب اليها فانها لم تبالِ به .

ومع ذلك فلم تتمالك عن ان تقـــول في ذات نفسها إن له شعراً جميلًا ، وعينين جميلتين ، واسناناً جميلة ، وصوتاً ساحراً ، عندما سمعته يتحدث الى رفاقه ؛ وإنه يمشي مشية خرقاء ، اذا شئت ، ولكن في ملاحة خاصة به ؛ وإنه لم يبدُ أحمق بحال من الأحوال ؛ وإن شخصه كله كان نبيلًا ، لطيفاً ، بسيطاً ، فخوراً ؛ وأخيراً انه كان ذا مظهر بائس ، ولكنه مظهر حسن .

ويوم التقت عيونهما وقالت لهما "فجاءة" ، آخر الأمر ، أولى هـــذه الاشياء الغامضة التي لا سبيل الى وصفها والتي تتمتم بهـــا النظرةُ ، لم تفهم كوزيت للوهلة الأولى . لقد انقلبت ، مشغولة البال ، الى البيت الذي في شارع الغرب حيث كان جان فالجان يقضي ، وفقاً لعادتـه ، ستة أسابيع . وفي اليوم التالي ، عند نهوضها من النـوم ، فكرت في هذا الشاب المجهول ، الذي طالما كان لامبالياً مثلوجاً ، والذي بـــدا الآن وكأنه يلتفت اليها بعض التفات ، ولم يبدُ لها ان هذا الاهتمام كان محموداً بحال من الاحوال . بل لقد اخذهـا الغضب ، بعض الشيء ، من هذا المتأنق المحتقر للناس . لقد أثيرت في ذات نفسها حرب خفية . ولقد بدا لها – واستشعرت في ذلك بهجة ما تزال صبيانية كلها – أنه سوف يؤخذ بثأرها آخر الامر .

واذ ادركت انها بهية الطلعة ، فقد استشعرت في قوة – ولو على نحو غامض – انها تملك سلاحـــاً . إن النساء يلعبن بجمالهن كما يلعب الاطفال بمداهم . إنهن يجرحن أنفسهن به .

ونحن نذكر ضروب التردد التي عاناها ماريوس ، وخفقان فؤاده ، وصنوف الذعر التي ألمت به . لقد لزم مقعده ولم يقترب ، وهذا مـا أسخط كوزيت . وذات يوم قالت لجان فالجان : « أبي ، دعنا نمشي قليلًا في هذه الناحية . » ذلك انها حين رأت الى ماريوس لم يُقبـــل نحوها ، قصدت هي اليه . وعلى أية حال ، فمن عجب ان أول أعراض

الحب الصحيح ، عند الفتى ، هو الخجل ، على حين أنه عند الفتاة الجسارة . هذا شيء يدعو الى الدهش ، ومع ذلك فليس ثمة ما هو أكثر طبيعية . إنهما الجنسان وقد نزعا الى الاتحاد ، فكل منهما يكتسب صفات الآخر .

وذلك اليوم أثارت نظرة كوزيت جنون ماريوس ، واثارت نظرة ماريوس الرعدة في أوصال كوزيت . ومضى ماريوس لسبيله واثقاً من نفسه ، ومضت كوزيت لسبيلها قلقة . ومنذ ذلك الحين عبد كل منهما الآخر .

كان أول ما استشعرته كوزيت حزناً غامضاً ولكنه عميق . لقد بدا لها أن نفسها قد أمست — منذ البارحة — سوداء . إنها لم تعد تعرف نفسها . فبياض نفوس الفتيات ، المؤلف من برودة وبهجة ، اشبه بالثلج . إنه يذوب أمام الحب ، الذي هو شمسه .

ولم تكن كوزيت تدري ما الحب . إنها لم تسمع قطّ هذه الكلمة تلفظ في معناها الأرضي . ففي كتب الموسيقى الدنيوية التي دخلت الدير كانت كلمة *amour* (الحب) تحذف ويوضع مكانها كلمة *tambour* (الطبل) او كلمة *pandour* (الرجل الفظ) . وهذا ما أحدث أحاجي كانت تمرن خيال الفتيات الكبيرات ، مثل : « أوه ، ما أحلى الطبل ! » أو : « الشفقة ليست رجلاً فظاً ! » ولكن كوزيت غادرت الدير وهي بعدُ أصغر من أن يشغل بالها أمر « الطبل » . واذن ، فما كانت لتدري ايّ اسم ينبغي أن تخلعه على خبرتها الجديدة هذه . أيكون المرء اقلّ مرضاً لمجرد جهله اسم مرضه ؟

ولقد احبت بهيام أعنف إذ أحبت في جهالة . انها لم تدرِ أكان ذلك خيراً أم شراً ، مفيداً أم خطِراً ، ضرورياً أم عارضاً ، سرمدياً ام انتقالياً ، مباحاً أم محرماً ؛ لقد أحبت . ولقد كان خليقاً بها أن تدهش أعظم الدهش لو ان أحداً قال لها : « أنتِ أرقة ؟ ولكن هذا

محظّر ! انت لا تأكلين ؟ ولكن هذا ضرر كبير ! ان قلبك ليغور ويخفق خفقاً سريعاً ؟ ولكن هذا غير حسن ! ان وجهك ليحمرّ وإن الشحوب ليستبدّ بك حين يبرز كائن ما ، مُرقد بذلة سوداء ، عند نهاية مجاز أخضر ؟ ولكن هذا مستهجن ! » كان خليقاً بها ان لا تفهم هذا الكلام ، وان تجيب قائلة : « وكيف يجوز ان ألام على شيء لا قِبَل لي به ، ولست اعرف عنه شيئاً ! »

لقد اتفق ان الحب الذي برز لها كان على وجه الضبط ذلك الذي لاءم أحسن الملاءمة حالتها النفسية . كان ضرباً من عبادة قصيّة ، تأمل أبكم ، تأليه من مجهول . كان تجلّي المراهقة للمراهقة ، حلمَ لياليها وقد غدا قصة وظلّ حلماً ، الطيفَ المتمنّى وقد تحقق آخر الأمر ، وجُعِل من لحم ودم ، ولكنه ظلّ من غير اسم ، فليس هو خطأ ، وليس هو نقيصة ، وليس هو حاجة ، وليس هو شائبة ؛ وبكلمة ؛ محبّ ناءٍ عائشٌ في المثل الاعلى ، وهمٌ متخذٌ شكلًا . والواقع ان أيما لقاء اوثق من هذا اللقاء وأقرب الى الحس كان خليقاً به ، في هذه الفترة الأولى ، ان يروّع كوزيت ، وهي التي كانت ما تزال نصف مدفونة في سراب الدير المضخّم . كانت خاضعة لجميع مخاوف الاطفال وجميع مخاوف الراهبات ممتزجة . كانت روح الدير ، التي أُشربت بها طوال خمس سنوات ، لا تزال تتبخر من شخصها كله في بطء ، فتجعل كل شيء من حولها يرتجف . وفي هذه الحال ، لم يكن المحبّ هو ما تحتاج اليه ، بل لم يكن المعجَب هو ما تحتاج اليه . كانت في حاجة الى رؤيا . وشرعت تهيم بماريوس كشيء فاتن ، ساطع ، مستحيل .

واذْ كان اقصى السذاجة يجاور اقصى الدلال ، فقد ابتسمت له في صراحة بالغة .

كانت تنتظر موعد النزهة كل يوم ، في نفاد صبر ، فتجد هناك ماريوس ، وتستشعر أنها سعيدة على نحو لا يوصف . واعتقدت صادقةً

انها عبرت عن كامل تفكيرها عندما قالت لجان فالجان : « ما أروع اللوكسومبورغ من حديقة ! »

كان ماريوس وكوزيت يعيشان في ظلام متبادل . إنهما لم يتطارحا الكلام ، ولم يتبادلا الانحناء ، ولم يتعارفا . لقد رأى احدهما الآخر ليس غير . وكنجوم السماء التي يفصل ما بينها ملايين الفراسخ ، عاشا على تبادل النظرات .

وعلى هذا النحو استوى شباب كوزيت ، شيئاً بعد شيء ، ونمت ، جميلةً عاشقةً ، واعيةً جمالها ، جاهلةً حبّها . وشبّت ، الى جانب ذلك ، مغناجة ، من خلال البراءة .

٧
للحزن ، حزن ونصف

لكل حال غريزتها . ومن هنا فأن الأم العجوز السرمدية ، الطبيعة ، انذرت جان فالجان بوجود ماريوس . وارتعد جان فالجان في اعماق تفكيره . إنه لم يرَ شيئاً ، ولم يعرف شيئاً ، ومع ذلك فقد حدّق في انتباه موصول الى الظلام الذي أحاط به ، وكأنما كان يلمح في ناحية شيئاً يُشيّد ، وفي ناحية شيئاً ينهار . وأنذر ماريوس ايضاً ، ووفقاً لقانون الرب العميق ، من قِبَل الأمّ نفسها ، الطبيعة ، فبذل غاية جهده للاحتجاب عن « الأب » . ومع ذلك ، فقد كان يتفق ان يلمحه جان فالجان في بعض الاحيان . ولم تعد مسالك ماريوس طبيعية البتة . كانت له فطنة مريبة ، وجسارة خرقاء . لقد كفّ عن الاقتراب منها كعادته من قبل ؛ أمسى يجلس على مسافةٍ ما ، ويستغرق ثمّةَ في نشوة روحية . وكان يحمل كتاباً ، فهو يتظاهر بالقراءة فيه . لمن كان

يتظاهر بالقراءة ؟ كان من قبل يَفِد ببذلته العتيقة ؛ أما الآن فقد غدا من دأبه ان يرتدي بذلته الجديدة كل يوم . ومن يدري ، فلعله كان يجعد شعره ، وكانت له عينان غريبتان ، وكان يلبس قفازين . وعلى الجملة فقد كره جان فالجان هذا الشاب في ودّ .

ولم تدع كوزيت أيما مجال للريبة . ومن غير ان تدري على وجه الضبط ما الذي ألمّ بها ، فقد استشعرت شعوراً واضحاً جداً بانه كان شيئاً ما ، وان عليها ان تخفيه .

وكان بين الرغبة في التبرج التي نشأت عند كوزيت وبين عادة ارتداء البذلات الجديدة التي نشأت عند هذا الرجل المجهول توازٍ اوقع القلق في نفس جان فالجان . وقد تكون مجرد مصادفة ، من غير شك ، ولكنها مصادفة تنذر بخطر .

ولم ينبس قط ببنت شفة ، امام كوزيت ، عن هذا الرجل المجهول. بيد انه لم يملك نفسه ، ذات يوم ؛ وبذلك اليأس الغامض الذي يُلقي بالمسبار ، فجأةً في خضمّ التعاسة ، قال لها : « أيّ سيما مدّعية تبدو على وجه هذا الشاب ! »

وقبل عام واحد كان خليقاً بكوزيت ، الفتاة الصغيرة اللامبالية . ان تجيب : « ولكن لا ؛ إنه فاتن . » وبعد عشر سنوات ، وقد عمر فؤادها حبُّ ماريوس ، كان خليقاً بها ان تجيب : « مدّعٍ لا تطيقه العين ! انت على صواب ! » اما في مرحلة العمر والقلب التي كانت تجتازها آنذاك فقد اجتزأت بمجرد القول في هدوء بالغ : « ذلك الشاب ! »

لكأنما رأته للمرة الاولى في حياتها .

وفكّر جان فالجان : « ما اشدّ حماقتي ! انها لم تلمحه مجرد لمح . لقد اريتها اياه بنفسي . »

فيا لبساطة المسنين ! ويا لعمق الشباب !

وثمة قانون آخر لهذه السنوات الفتية من العذاب والشجن ، او هذه الصراعات العنيفة التي يقوم بها الحب الاول ضد العقبات الاولى ، وهو أن الفتاة لا تدع نفسها تسقط في أيا شرك ، على حين ان الشاب يسقط فيها جميعاً . وكان جان فالجان قد شنّ حرباً نكدةً على ماريوس ، حرباً لم ينتبه لها ماريوس بسبب من الحماقة الرفيعة التي يتميز بها هواه وعمره . لقد نشر جان فالجان من حوله جمهرةً من الاشراك ؛ لقد غيّر مواعيده ، وغيّر مقعده ، ونسي منديله ، ومضى الى حديقة اللوكسمبورغ منفرداً . وسقط ماريوس عمودياً في كل من تلك الاشراك، وعن جميع علامات الاستفهام التي زرعها جان فالجان في طريقه اجاب في سذاجة : نعم . وفي غضون ذلك كانت كوزيت ما تزال مسورة في لامبالاتها الظاهرية ، وهدوئها الثبت الجنان ، حتى لقد انتهى جان فالجان الى هذا الاستنتاج : « ان هذا الفتى الاحمق يحب كوزيت حباً جنونياً ، ولكن كوزيت لا تحسّ حتى بوجوده ! »

ومع ذلك فقد كانت في فؤاده رعدة أليمة . فالدقيقة التي ستقع فيها كوزيت في الحب قد تأتي بين لحظة ولحظة . أليس يبدأ كلُّ شيء باللامبالاة ؟

ومرةً واحدة اقترفت كوزيت غلطةً ، وروّعته . لقد نهض من مقعده ليذهب ، بعد ان جلس هناك ثلاث ساعات ، فقالت : « في مثل هذه السرعة ! »

ولم يكن جان فالجان قد اقلع عن التنزه في اللوكسمبورغ ، غير راغب في ان يأتي عملاً شاذاً ، وخائفاً قبل كل شيء من ان يثير ارتياب كوزيت . ولكن خلال هذه الساعات البالغة العذوبة عند العشاق ، فيما كانت كوزيت ترسل بابتسامتها الى ماريوس المدلّه ، الذي لم يلمح شيئاً غير ذلك ، والذي لم يعد يرى في العالم غير وجه مشرق معبود كان جان فالجان يسمّر على ماريوس عينين متوهجتين فظيعتين . كانت

له ، وهو الذي انتهى الى الاعتقاد بانه امسى عاجزاً عـن كل شعور شرير ، لحظاتٌ خطر له فيها – كلما كان ماريوس هناك – انه قد انقلب وحشياً وضارياً كرةً اخرى ، واستشعر أنه يفتح ويهيج في وجه هذا الشاب أعماق روحه القديمة حيث كان في وقت من الاوقات ركام مـن الحقد هائل . لقد بدا له ، او كاد ، وكأن فوهات براكـين مجهولة كانت تتشكل في ذات نفسه من جديد .

ماذا ؟ أكان ذلك المخلوق هناك ؟ لأي غرض أقبل ؟ لقد أقبـل ليسترق السمع ، ليستروح ، ليدرس ، ليجرّب ! لقد اقبـل ليقول : « ايه ؟ ولمَ لا ؟ » لقد أقبـل ليطوّف حول سعادته ، لـكي يخطفها ويسلبه اياها !

واضاف جان فالجان : « أجل ، هو ذلك ! عمّ يبحث ؟ مغامرة ؟ ماذا يريد ؟ محبوبة ! أما أنا ؟ ماذا ! أنا ، بعد أن كنت ابأس الناس ، سوف أصبح اتعس الناس ! لقد قضيت ستين عاماً من الحيـاة على ركبتيّ ! لقد قاسيت كل ما يستطيع انسان ان يقاسيه ! لقد شخت من غير ان اعرف الشباب ! لقد عشت من غير اسرة ، من غير انسباء ، من غـير اصدقاء ، من غير زوجة ، من غير اولاد ! لقـد تركت شيئاً من دمي على كل حجر ، على كل شوكة ، على كل مَعْلم ، وعلى كل جدار ! لقـد كنت دمثاً على الرغم من ان العالم كان قاسياً عليّ ، وخيّراً على الرغم من ان العالم كان شريراً ، ولقد اصبحت رجلاً اميناً على الرغم من كل شيء ! لقد تبتُ عن الاثم الذي ارتكبته ، وغفرت المظالم التي أنزلت بي ، ولحظةَ عُوّضتُ من ذلك كله ، ولحظةَ انتهى ذلك كله ، ولحظة بلغتُ الغاية ، ولحظة فزت بما ارغب فيه ، في عدل وحق – فقد دفعت ثمنـه وكسبته كسباً – يوشك كل شيء ان يزول ، يوشك ان يتـلاشى ، واذا بي أكاد أخسر كوزيت ، أخسر حياتي ، وبهجتي ، وروحي ، لمجرد ان أحمق كبيراً راق له ان يجيء ويتسكع في حديقة اللوكسومبورغ ! » .

ثم إن عينيه حفلتا بضياء غريب حداديّ . انه لم يعد رجلاً ينظر الى رجل . إنه لم يكن عدواً ينظر الى عدوّ ، كان اشبه ما يكون بكلب ينظر الى لصّ .

ونحن نعرف البقية . وتواصل جنون ماريوس . وذات يوم لحق بكوزيت الى شارع الغرب . وفي يوم آخر تحدّث الى البواب . وتحدث البواب بدوره ، وقال لجان فالجان : « سيدي ، من ذلك الشاب الغريب الذي كان يسأل عنك ؟ » وفي اليوم التالي ألقى جان فالجان على ماريوس تلك النظرة التي لمحها ماريوس آخر الامر . وبعد اسبوع ، كان جان فالجان قد انتقل من منزله . لقد وطّن العزم على ان لا يطأ منذ اليوم لا حديقة اللوكسمبورغ ولا شارع الغرب . ورجع الى شارع بلوميه .

ولم تتشكّ كوزيت ، ولم تقل شيئاً . انها لم تسأل ايما سؤال ، ولم تسعَ الى ان تعرف السبب البتة . كانت قد انتهت الى تلك المرحلة التي يخشى المرء فيها الانكشاف والانفضاح . ولم تكن لجان فالجان خبرة بهذا الشقاء ، وهو الشقاء الوحيد الفاتن ، والشقاء الوحيد الذي لم يعرفه . ومن اجل ذلك لم يفهم المغزى العميق الذي انطوى عليه صمت كوزيت . لقد لاحظ أنها امست حزينة ، ليس غير ، فأظلمت الدنيا في عينيه . كانت في كل من الناحيتين غرارة * مسلحة .

وذات يوم ، قام بمحاولة . لقد سأل كوزيت :

— « أتحبين ان تذهبي الى اللوكسمبورغ ؟ »

واضاء شعاع من نورٍ وجهَ كوزيت الشاحب .

وقالت :

— « نعم . »

ومضيا . كانت ثلاثة اشهر قد تصرمت . وكان ماريوس قد انقطع عن الذهاب الى الحديقة . إن ماريوس لم يكن هناك .

---

* عدم خبرة .

وفي اليوم التالي ، سأل جان فالجان كوزيت ايضاً :
— « أتحبين ان تذهبي الى اللوكسومبورغ ? »
فأجابت في حزن وفي لطف :
— « لا . »
واغتمّ جان فالجان لهذا الحزن ، وابتأس لهذا اللطف .
اي شيء كان يدور في هذه الروح الغضة الى ابعد الحدود ، العسير فهمها ، برغم ذلك ، الى أبعد الحدود ? ما الذي كان على وشك ان يتمّ فيها ? ماذا ألمّ بنفس كوزيت ? وفي بعض الاحيان ، كان جان فالجان ، بدلاً من ان يأوي الى النوم ، يجلس بجانب فراشه الحقير ، واضعاً رأسه بين يديه ، ويمضي ليالي بطولها سائلاً نفسه : « ما الذي يدور في خَلَد كوزيت ? » ، ومستعرضاً اي الاشياء يمكن ان تشغل بالها .
اوه ! أيّ نظرات فاجعة سدّدها ، في تلك اللحظات نحو الدير ، هذه القمة الطاهرة ، ذلك النزل الذي تأوي اليه الملائكة ، كتلة الفضيلة الجليدية التي لا سبيل الى بلوغها ! وبأيّ ذهول مُونس تأمّل حديقة الدير ، الملأى بالرياحين المجهولة ، والعذارى المطوّقات ، حيث كل الاطياب وكل النفوس ترتفع مباشرة نحو السماء ! كم قد هام بجنة عَدْن تلك ، الموصدة في وجهه الى الابد ، والتي غادرها بطوعه ، وهبط منها في حماقة ! كم قد ندم على انكاره لذاته ، وخَبَلِهِ الذي حمله على ان يرجع بكوزيت الى العالم ! — يا له بطلاً من ابطال التضحية البائسين ، يُمسك به تفانيه نفسُه ويطرحه ارضاً ! — وكم قال في ذات نفسه : « ما الذي اقدمت عليه ? »
ومع ذلك فانه لم يصرح لكوزيت بشيء من ذلك : فلا دمامة ولا قسوة . لقد احتفظ ابداً باسارير وجهه الرائعة اللطيفة نفسها . بل إن مسالكه كانت اكثر حناناً وأشدّ أبوية من أي وقت مضى .

واذا كان شيء يستطيع ان يثير الريبة في أن ثمة نقصاً في السعادة فانما هو الزيادة في الرفق .

اما كوزيت فوهنت وذبلت . لقد قاست من غياب ماريوس ، كما ابتهجت لوجوده ، بطريقة فريدة ، من غير ان تعرف ذلك على وجه التحقيق . فحين كفّ جان فالجان عن اصطحابها في نزهتها المألوفة غمغمت غريزتها النسوية ، غمغمةً غامضة ، في اعماق فؤادها تقول لها ان عليها ان لا تُظهر التشبث باهداب اللوكسومبورغ . وانها اذا ما أبدت لامبالاةً بها فعندئذ يعاود أبوها أخذها الى هنـــاك . ولكن الايام تصرّمت ، وتبعتها الاسابيع ، ثم الأشهر . وكان جان فالجان قد ارتضى ، ضمناً ، موافقة كوزيت الضمنية . وندمت على ذلك . كان الاوان قد فات . فيوم رجعت الى اللوكسومبورغ لم يكن ماريوس هناك . كان ماريوس قد اختفى . وكان كل شيء قد انتهى . ما الذي تستطيع ان تفعله ؟ أيقدّر لها ان تعثر عليه في يوم من الايام ؟ واستشعرت انقباضـــاً في صدرها ، انقباضاً لم يفرّج شيء من كربته ، فهو يتعاظم يوماً بعـــد يوم . لم تعد تعرف ما اذا كان الفصل شتاء ام صيفاً ، وما اذا كان الجو مشرقاً ام ممطراً ؛ ما اذا كانت الطير تغرد ام لا ، وما اذا كان الموسم موسم الدهلية ام الاقحوان الصغير ؛ ما اذا كانت اللوكسومبورغ اشد سحراً من التويلري ام لا ؛ وما اذا كانت الانسجة الكتانية التي عادت بها الغسالة الى البيت منشّاة اكثر مما ينبغي ام اقلّ مما ينبغي ، وما اذا كانت توسين تتسوّق حاجات المنزل على نحو حسن أم غير حسن . وغدت متعَبَة ، شاردة اللبّ ، مستغرقة في فكرة واحدة ، مهتاجة العين مسدّدتها ، كشأن المرء حين ينظر في الظلام الى المكان العميق الاسود حيث تلاشت رؤيا من الرؤى .

ومع ذلك ، فلم تدع جان فالجان يرى ايّ شيء ما خلا شحوبها . ان ابتسامتها له لم تفارق محياها .

وكان هذا الشحوب كافياً ، بل اكثر من كافٍ ، لأن يُقلق جان فالجان . وسألها ذات مرة :

— « ما خطبكِ ؟ »

فأجابت :

— « لا شيء . »

وبعد صمت ، اردفت وقد استشعرت انه محزونٌ ايضاً :

— « وانت يا أبي ، ألست تشكو شيئاً ؟ »

فقال :

— « انا ؟ لا ، على الاطلاق . »

وفي الحق أن هذين الكائنين ، الذين تبادلا اعظم الحب على نحــو مقصور ، وعلى نحو مؤثّر الى أبعد حد ، واللذين عاش كل منهما طوال تلك الفترة من اجل صاحبه ، كانا قد انتهيا الى ان يتــألم كل منهما بالآخر ، ومن خلال الآخر ، من غير أن يبوحا بذلك ، ومن غير أن تقربها أثارة من حقد ، ومن غير ان تفارق الابتسامة شفاههما .

٨
الأغلال

وكان جان فالجان أشدهما تعاسة . فللشباب حتى في أحزانه ، إشراق خاص به دائماً .

وفي بعض اللحظات بلغت آلام جان فالجان حداً جعله صبيانياً . ومن خصائص الأسى انه يُبرز الجانب الصبياني من الانسان . لقــد استشعر على نحو لا يقاوَم ان كوزيت كانت تُفلت منه . ولقد كان خليقاً به ان يكون سعيداً لأن يبذل جهداً للتشبث بهــا ، ولاثارة

حماستها بشيء خارجيّ مرنان . وهذه الافكار ، الصبيانية كما ذكرنا اللحظة ، والشيخية في آن معاً ، أعطته بأطفاليتها نفسها ، فكرة صحيحة عن تأثير صناعة القياطين في خيال الفتيات الصغيرات . فقد اتفق له مرة ان التقى في الشارع بالكونت كوتار ، قائد قوات باريس ، وقد ارتدي لباسه الرسمي الكامل وامتطى صهوة جواده . لقد حسد هذا الرجل المذهّب ، وفكّر ايّ سعادة يبعثها في نفس المرء ارتداء هذه السترة التي كانت شيئاً لا يمكن انكاره ، قائلاً في ذات نفسه : لو ان كوزيت رأته في مثل هذا الثوب اذن لفتنها ذلك ، حتى اذا اخذ بذراع كوزيت ومرّ أمام باب التويلري فعندئذ يؤدون اليه التحية ، وعندئذ ترضى كوزيت وينزع من رأسها فكرة النظر الى الشبان .

وألمّت به ، وسطَ هذه الافكار الحزينة ، صدمةٌ غير متوقعة .

ففي الحياة الانعزالية التي كانا يعيشانها ، ومنذ ان انتقلا الى شارع بلوميه ، تكونت لديهما عادة جديدة . كانا يبتهجان بالذهاب رغبةً في الاستمتاع بمشهد الشمس وهي تشرق . وانها لبهجةٌ رفيقة تلائم اولئك الداخلين الى الحياة ، واولئك الخارجين منها .

إن التنزه سيراً على القدمين ، عند ارتفاع الضحى ، يَعدِل – بالنسبة الى من يحب العزلة – التنزهَ بالليل مضافاً اليه بهجة الطبيعة . فالشوارع خالية ، والطير تغرّد . وكان من عادة كوزيت – وهي نفسها طائر من الطيور – ان تفيق باكراً . وكانت هذه النزهات الصباحية تُعَدّ في العشية . كان هو يقترح ، وكانت هي توافق . كانت تبيّت كالمؤامرات ؛ وكانا ينطلقان قبل الفجر ، وكانت تلك ساعاتٍ سائغة جداً في نفس كوزيت . فمثل هذا الشذوذ البريء يفتن نفوس الشباب .

وكان جان فالجان ينزع ، كما عرفنا ، الى التوجه نحو المواطن الآهلة بقليل من السكان ، والزوايا المنعزلة ، والاماكن المهجورة .

وكانت آنذاك ، في جوار ابواب باريس ، بعض الحقول الفقيرة ، التي كادت ان تكون جزءاً من المدينة ، والتي كان ينمو فيها ، اثناء الصيف ، محصول من القمح هزيل ، حتى اذا جُمع هذا المحصول بدت تلك الحقول وكأنها لم تُحصَد حصداً ، ولكن جُرّدت تجريداً . وكان جان فالجان يؤثر التردد الى هذه الحقول . وما كانت كوزيت لتكرهها . كانت بالنسبة اليه عزلةً ، وكانت بالنسبة اليها حرية . هناك كانت تنقلب الى فتاة صغيرة من جديد ، وكان في ميسورها ان تعدو بل ان تلعب تقريباً . كانت تنزع قبعتها ، وتضعها على ركبتي جان فالجان ، فتجمع الرياحين . كانت تنظر الى الفراشات فوق الازاهير ، ولكنْ من غير ان تلتقطها . إن الوداعة والرقة تولدان مع الحب ، والفتاة الصغيرة التي ينطوي فؤادها على فكرة راجفة قصِفة ، تأخذها الشفقة على جناح فراشة . كانت تنسج أكاليل من المنثور تعصب بها رأسها ، فما إن تضيئها اشعة الشمس وتتوهج مثل شعلة ، حتى تُبدع لوجهها النَضْر الورديّ تاجاً من نار .

وحتى بعد أن ألمّ الاسى بحياتهما ، أقاما على عادة التنزه الصباحيّ هذه .

وهكذا انطلقا في صباح يوم من أيام تشرين الاول ، وقد أغراهما خريف ١٨٣١ ذو الصفاء الكامل ، فألفيا نفسيهما في صدر النهار قرب « باب مَين » . ولم يكن ذلك مع الصبح ، ولكنْ عند الضحى . لحظةٌ جذِلة وضارية . كانت هنا وهناك بعض النجوم في اللازورد الشاحب العميق ، وكانت الارض سوداء كلها ، وكانت السماء بيضاء كلها . كانت الرعدة تعصف بنصال العشب ، وكانت رعشة السَّحَر الغريبة تلفّ المواطن كلها . وغنّت قُبّرة ، بدت وكأنها بين النجوم ، على ذلك الارتفاع الهائل ، وكان خليقاً بالمرء ان يقول ان ترنيمة الحقارة تلك للا ّنهاية هدّأت المدى الرحب . وفي المشرق ، كان « وادي

الشفقة ، ينحت على الافق الصافي ، بمثل مضاء الفولاذ ، جِرْمه الغامض . وكانت الزُهرة ترتفع باهرةً خلف تلك القبة مثل روح تفلت من صرح مظلم .

كان كل شيء آمناً صامتاً . لم يكن ثمة أحد في الطريق . وعلى المجازات الضيقة كان بعض العمال المتناثرين يمضون الى عملهم من غير ان تلمحهم العين او تكاد .

وجلس جان فالجان في المجاز الجانبي ، على بضعة ألواح خشبية طُرحت عند باب مستودع للخشب . كان موجِّهاً وجهه نحو الطريق ، مولّياً ظهره للنور . كان قد أنسي الشمس التي ارتفعت منذ لحظة ، وكان قد استسلم لتأمل عميق من ذلك الضرب الذى يستغرق العقل كله ، بل يأسر الحواسّ ، فكأنه اربعةٌ من الجدران . ان ثمة بعض التأملات التي نستطيع ان ندعوها التأملات العمودية ؛ وحين يكون المرء في القاع ، فانه يحتاج الى شيء من الوقت حتى يرجع الى سطح الارض . كان جان فالجان قد هبط الى واحد من تلك التأملات الحالمة . كان يفكر في كوزيت ؛ في السعادة الممكنة اذا لم يفصل ما بينه وبينها شيء ؛ في ذلك الضياء الذي ملأت به حياته ، وهو ضياء كان متنفّس روحه . وكان سعيداً بهذه الأحلام ، او يكاد . وكانت كوزيت واقفة قربه ، تراقب السحب التي اصطبغت بلونٍ أزهر .

وفجأة ، صاحت كوزيت :

— « أبي ، يخيّل اليّ ان شخصاً ما ، كان يهبط هذا المكان . »

ورفع جان فالجان بصره . كانت كوزيت على صواب .

ان الطريق التي تقود الى « باب مَين » القديم هي ، كما يعرف كل امرىء ، امتداد لشارع سيفر ، وهي تتعارض على زاوية قائمة مع الجادة الداخلية . وعند زاوية الطريق والجادة ، عند النقطة التي يفترقان فيها ، سُمِع صوت من العسير ان يجد له المرء تعليلاً في مثل تلك الساعة ،

وبرز ضرب من الازدحام المضطرب . كان شيء شائه مقبل من جانب الجادة يتقدم نحو الطريق .

وتعاظم ذلك الشيء ، وبدا وكأنه يتحرك في نظام ، ومع ذلك فقد كان مغتاظاً مرتعداً . لقد بدا ذلك اشبه بعربة ، ولكن لم يكن في ميسور المرء أن يتبين حملها . كانت ثمة خيل ، ودواليب ، وصيحات . وكانت السياط تفرقع . وشيئاً بعد شيء تحددت خطوط ذلك الشيء الكبرى ، على الرغم من غرقه في الظلام . كانت في الواقع عربة انعطفت اللحظة من الجادة الى الطريق ، واتخذت سبيلها نحو باب المدينة ، الذى كان جان فالجان على مقربة منه . وتبعتها عربة ثانية ، تتسم بالمظهر نفسه ، فعربة ثالثة فرابعة . سبع عربات استدارت ، على التعاقب ، وقد مست رؤوس الخيل مؤخرات العربات. وكانت اشكال داكنة تتحرك فوق هذه العربات ، وتبدت بوارق في السحر كأنها سيوف مسلولة ، وسمعت خشخشة اشبه ما تكون بأصفاد تتلوى . وتقدمت العربات ، وازدادت الاصوات ارتفاعاً ، وكان ذلك شيئاً رهيباً كأنما يخرج من كهف الأحلام .

وفيما ذلك الشيء يتقدم اتخذ شكلاً ، وارتسمت خطوطه خلف الاشجار بمثل شحوب الطيف . وابيضت الكتلة ، وبسط الصباح ، الذي كان يرتفع شيئاً بعد شيء ، ضياء شاحباً فوق ذلك الشيء الزاحف القبري الحي في آن معاً . لقد اصبحت رؤوس الظلال وجوه جثث ، واليك حقيقة الأمر :

كانت سبع عربات تجري في الشارع ، واحدة اثر اخرى . وكانت ست منها ذات بنية خاصة . لقد أشبهت عربات صانعي البراميل . كانت كل منها اشبه بسلم طويلة موضوعة بين دولابين مشكلة عريش عربة عند اقصاها الداخلي . وكانت كل عربة ، او على الاصح كل سلم ، قد قرنت الى اربعة خيول تجري في صف واحد . وعلى هذه

العربات كانت تحمل عناقيد غريبة من الرجال . وفي الضوء الضئيل الذي انتشر آنذاك لم يكن في استطاعة المرء ان يرى هؤلاء الرجال ؛ كان يحزر انهم هناك ليس غير . اربعة وعشرون رجلاً في كل عربة ، اثنا عشر في كل جانب ، ظهراً لظهر ، موجهين وجوههم نحو عابري السبيل ، مرخين اقدامهم في الفراغ - هكذا ارتحل هؤلاء الرجال . وكان مِنْ خلفهم شيء يصل ولم يكن غير سلسلة حديدية ، وفي أعناقهم شيء يلتمع ولم يكن غير غل . كان لكلٍ غلّه ، ولكن السلسلة كانت لهم جميعاً . بحيث ان هؤلاء الرجال الاربعة والعشرين ، اذا ما اتفق لهم ان نزلوا من العربة ومشوا ، أخضعوا لوحدةٍ لا ترق ولا ترحم ، وتعيّن عليهم ان يتلوّوا على الارض ، والسلسلة بمثابة العمود الفقري لهم ، وكأنهم الحُرُش أو كثيرةُ الارجل . وفي مقدم كل عربة ومؤخرها كان يقف رجلان يتنكب كل منهما بندقيته ، ويدوس احد طرفي السلسلة بقدمه . وكانت الاغلال مربعة . أما العربة السابعة - وهي عجلة ضخمة ذات درابزون ، ولكن من غير غطاء - فكانت لها اربعة دواليب وستة أفراس ، وكانت تحمل ركاماً مرناناً من القدور الحديدية ، ومراجل السبك ، والأفران ، والسلاسل ، انتثر فوقها عدد من الرجال ، المشدودي الوثاق ، منطرحين على طولهم ، وقد بدوا وكأنهم مرضى . وكانت هذه العجلة ، المعروضة للعيان عرضاً كاملاً ، مزدانة بحُصر من صفصاف مهشمة بدت وكأنها خدمت في عقوبات عتيقة .

والتزمت هذه العربات منتصف الشارع . وعلى كلٍّ من الجانبين سار صفٌ من الحرس ذو مظهر مرذول ، وقد اعتمر افراده بقبعات مثلثة القرون مثل جنود حكومة الادارة - حرسٌ ملطخ ، ممزق ، متسخ ، بزيه الغريب المؤلف من ملابس مشوهي الحرب النموذجية وسراويل القبّارين ، فهي نصف رمادية ونصف زرقاء ، وتكاد ان تكون خرقاً

ممزقة ، مع كِتافات حمراء ، وحِمالات صفراء ، ومُديً مغمدة ، وبنادق وهراوات : نوع من الجند الخدم . لقد بدا هؤلاء الجلاوزة وكأنهم مزيجٌ من حقارة الشحاذ وسلطان الجلاّد . وكان ذلك الذي بدا رئيساً عليهم يحمل في يده سوطاً من سياط العربات . وانما كانت كل هذه التفاصيل التي سوّدها السحَر ، قد اخذت في الوضوح شيئاً فشيئاً مع الضياء . وفي مقدّم هذه القافلة وفي مؤخرها ، مضى الدرك على صهوات جيادهم ، صارمي الوجوه ، شاهري السيوف .

كان هذا الموكب طويلًا جداً ، فحين وصلت العربة الأولى الى باب المدينة كانت العربة الاخيرة قد انعطفت ، او كادت ، حول الجادة .

واقبل حشدٌ من مكان لا يستطيع أحدٌ تعيينه ، وتشكّل في مثل لمح البصر ، كالذي يقع دائماً في باريس ، وأنشأ افراده يتزاحمون على جانبي الطريق ويتطلعون . وفي الازقة المجاورة سُمع الناس يصيحون وينادي بعضهم بعضاً ، وسُمع وقع الاحذية الخشبية التي ينتعلها زارعو البقول في السّباخ ، وقد هرعوا ليسرحوا الطرف وينظروا .

كان الرجال المركومون على العربات معتصمين بالصمت فيما الخيل تسوقهم سوقاً مرتجاً . كان لونهم ازرق ضارباً الى السواد بسبب من قرّ الصباح . وكانوا كلهم يرتدون سراويل قنبّية ، وينتعلون في اقدامهم العارية احذية خشبية . اما بقية زيهم فكانت نسيج البؤس . كانت ملابسهم متغايرة على نحو مروّع ؛ وليس شيء اشدّ مأتميّةً من مرقعات الثياب البالية . قبعات لبدية مهشمة ، قلانس مزفتة ، قلانس كتانية مخيفة . والى جانب السترات القنبية القصيرة ، كانت السترات السوداء الممزقة عند المرفق . كان كثير منهم يعتمرون بقبعات نسائية ، وكان آخرون يضعون على رؤوسهم سلالاً . كان في ميسور المرء ان يرى صدوراً كثة الشعر ، ومن خلال ثقوب ملابسهم كان في ميسوره أن يرى ضروباً من الوشم ، وهياكل غرام ، وقلوباً ملتهبة ، وآلهة حب . ليس هذا فحسب ، بل لقد

كان في امكان الناظر ان يرى طفحاً جلدياً وقروحاً محمرّة ايدماً . وكان لاثنين أو ثلاثة منهم حبلٌ من تبن مشدودٌ الى عوارض العربة ، فهو يتدلى تحتهم كالرّكاب ، وهو يسند اقدامهم . وكان احدهم يمسك بيده ويحمل بفمه شيئاً بدا مثل خنجر أسود ، فكأنه يعضه . كان خبزاً يأكله ذلك الرجل . ولم يكن بينهم غير عيون جافة ، خامدة ، أو مضاءة بنور شرير . واطلق الحرس الشتائم ، ولم يهمس المكبلون . وبين الفينة والفينة كان يُسمع صوت ضربة هراوة على اكتافهم ورؤوسهم . وتثاءب بعض هؤلاء الرجال . كانت اسمالهم رهيبة ، وكانت اقدامهم تتدلى ، وكانت مناكبهم تتذبذب ، وكانت رؤوسهم تتصادم ، وكانت قيودهم تقعقع ، وكانت عيونهم تتقد في ضراوة ، وكانت أجماع أكفهم تنقبض أو تنفتح من غير ما حياة مثل أيدي الاموات . وخلف القافلة كان حشد من الأطفال ينفجر بالضحك .

وكان قطار العربات هذا ، كائناً ما كان ، مأتمياً . وكان واضحاً ان وابلاً سوف ينهمر من غد ، بعد ساعة ، وانه سوف يُتبع بآخر ، ثم بثالث ، وان هذه الملابس المتهرئة سوف تُنقع بالماء ، وانه اذا ما ابتلّ هؤلاء الرجال مرة فلن يجفّوا اذن ابداً ، وانهم اذا ما ارعشهم البرد فلن يدفأوا اذن ابداً ، وان سراويلهم القنّبية سوف يلصقها المطر بجلودهم ، وان الماء سوف يملأ احذيتهم الخشبية ، وان ضربات السياط لن تحول دون اصطكاك اسنانهم ، وان السلسلة لن تبرح تمسك بهم من اعناقهم ، وان اقدامهم لن تكف عن التدلي . وكان من المتعذر على المرء ان لا يرتعد لرؤية هذه المخلوقات البشرية موثقة هكذا ومستسلمة هكذا تحت سُحب الخريف الباردة ، وقد تُركت للمطر ، للريح ، لمختلف سَورات الطبيعة ، كالاشجار والحجارة

ولم تعفّ الهراوات حتى عن المرضى الذين طُرحوا مكبّلين بالحبال ،

من غير ما حراك ، في العربة السابقة ، والذين كأنما قُذف بهم الى هناك مثل أكياس ملأى بالشقاء .

وفجأة ، برزت الشمس . لقد انحبس ضياء المشرق المائل ، وكأنما كان يريد ان يضرم النار في جميع هذه الرؤوس الضارية . وأُطلقت الألسن من عقالها ، وانفجر حريق من السخريات ، والتجديفات ، والاغاني . وقسمَ الضياء الافقيّ المريضُ الوكبَ كله قسمين ، منيراً رؤوسهم وأجسادهم ، تاركاً أقدامهم ودواليب العربات في الظلام . وتراءت افكارهم على وجوههم ؛ كانت اللحظةُ راعبة ؛ أبالسةٌ منظورة سقطت اقنعتها ، ونفوس ضارية عارية بالكلية . حتى اذا سُلط الضوء على هذه الجماعة ظلت مظلمة . وكان بعضهم – وهم المرحون – يحملون في افواههم انابيب من ريش فهم يقذفون البراغيث منها على الحشد ، وعلى النسوة من افراده بخاصة . وكشّف الفجر هذه الصور الجانبية الفاجعة بسواد الظلّ . ولم يكن بين هذه المخلوقات واحد لم يشوّهه البؤس ؛ وكان ذلك رهيباً الى درجة خليقة بأن تخيّل للمرء أنه حوّل ضياء الشمس الى وميض برق . وكان حَمْل العربة التي تصدرت الموكب قد استهل الغنـــاء ، فراح افراده ينشدون بأعلى اصواتهم ، وفي جذل شكس ، اغنية لـ « ديزوجييه » مختلفة الألحان كانت مشهورة آنذاك ، واسمها « فتاة المعبد الطاهرة » . وارتعدت الاشجار في المجازات الجانبية على نحو حـــدادي . واصغى البورجوازيون ، بوجوه تعلوها غبطة بلهاء ، لهذه الدعابات البذيئـــة تنشدها أشباح .

كانت جميع ضروب الشقاء ماثلة في هذا الموكب الهيولاني ؛ كانت ثمة الزاوية الوجهيّة للبهائم كلها ، شيوخ ، وشبان ، ورؤوس صلعاء ، ولحى شائبة ، وأخلاق نكدة وقحة ، واستسلام كالحٌ ، وانفغار فمٍ وحشيّ ، وهيئاتٌ بلهاء ، وخُطومٌ معتمرة بقبعات ، ورؤوس كرؤوس الفتيات الواضعات مبازل الزجاجات فوق أصداغهن ، ووجوهٌ أطفاليـة

فهي ، لهذا السبب ، رهيبة ، ووجوه هيكلية مهزولة لا يُعوزها شيء غير الموت . وكان في العربة الأولى زنجي امله كان في ما مضى عبداً رقيقاً ، وكان قادراً على المقارنة ما بين السلاسل . كان المسوّي الرهيب ، العار ، قد مرّ بهذه الجباه كلها ؛ وفي هذه المرحلة من الذل كانت التحولات الاخيرة قد حدثت بأقصى درجاتها ، وكان الجهل - وقد انقلب الى بلاهة - معادلاً للذكاء وقد انقلب الى يأس . ولم يكن الاختيار ممكناً بين هؤلاء الرجال الذي بدوا ، من حيث المظهر ، صفوةَ الوحل . كان واضحاً ان قائد هذا الموكب القذر ، كائناً من كان ذلك القائد ، لم يصنّف رجاله . لقد شُدّ بعض هؤلاء الرجال الى بعضهم وقُرن بعضهم ببعض كيفما اتفق ، ولعل ذلك ان يكون على الفوضى الابجدية ، وحُملوا من غير تبصّر على هذه العربات . بيد أن اجتماع المشاهد الرهيبة ينتهي دائماً بإحداث ناتج ما . فكل جَمْع للبؤساء يُعطي حاصلاً . لقد انبثقت من كل سلسلة روحٌ مشتركة ، وكانت لكل حمل من أحمال العربات سيماؤه العامة . فالى جانب الحمل الذي كان يغني ، كان حملٌ ينبح ، وثالث يتسوّل . لقد رئي واحد يصرّ بأسنانه ، وآخر يتوعد الواقفين على جانبي الطريق ، وسادس يجدّف على الله . أما الحمْل الاخير فكان صامتاً كالقبر . ولو ان دانتي رأى ذلك الموكب اذن لخيّل اليه ان حلقات الجحيم السبع تسير أمامه .

كان سيراً من الأدانة الى العقوبة ، سيراً مشؤوماً ، ولكنْ لا على عربة آبوكاليبس البرقية الرهيبة ، بل على عربة جلاّد فهي اشد شؤماً .

وكان أحد الحرس الحاملين هراوات في اعقابها كلاليب يبدو وكأنه يحرك بين الفينة والفينة هذه الاوساخ البشرية . واشارت عجوز من عجائز الحشد بأصبعها اليهم قائلة لصبيّ صغير في الخامسة من العمر : « أيها النذل ، هذا يعطيك درساً ! »

وفيما الاغاني والتجديفات تتعاظم أطلق ذلك الذي بدا قائداً للموكب

سوطه ، ولدنّ هذه الاشارة انقضت على العربات السبع ضربات غضيّ رهيبة نكدة عمياء كان لها جَرْس البَرَد المنهمر . وزمجر كثيرٌ من الرجال وأرغوا ، وذلك ما ضاعف بهجة المتشردين المحتشدين : جمعٌ من الذباب فوق هاتيك الجراح .

كانت عين جان فالجان قد غدت مروّعة . إنها لم تعُدْ حدَقة . اصبحت تلك النافذةَ العميقة التي تحلّ محل النظرة عند بعض المخلوقات البائسة ، التي تبدو غير واعية للواقع ، والتي تتقد بانعكاس المخاوف والكوارث . لم يكن يرى الى مشهد ؛ كانت رؤيا تتبدّى له . وحاول أن ينهض ، أن يفر ، ان يولي هارباً . ولكنه لم يستطع ان يحرك اياً من قدميه . ففي بعض الاحيان تتشبث بك الأشياء التي تراها وتُلجمك . لقد ظلّ مسمّراً ، متحجراً ، سائلاً نفسه ، من خلال ألم نفسي غامض لا سبيل الى وصفه ، ما معنى هذا التشكيل القبريّ ؟ ومن اين اقبلت هذه الجماعة الشريرة التي تلاحقه ؟ وفي الحال ، رفع يده الى جبينه ، وهي حركة مشتركة بين اولئك الذين تعاودهم الذاكرة فجأة . لقد تذكّر ان هذه هي الطريق حقاً ، وان العادة كانت قد جرت بالقيام بهذه الدورة اجتناباً للقاء الملك ، الذي كان ممكناً دائماً على طريق فونتينبلو ، وانه اجتاز قبل خمس وثلاثين سنة بباب المدينة هذا ، نفسه .

وروّعت كوزيت — ولو بسبب آخر — ترويعاً مماثلاً . إنها لم تفهم شيئاً . وأعوزها النَّفَس . فما رأته لم يبدُ ممكناً في نظرها . واخيراً صاحت :

— « ابي ، ايّ شيء يمكن ان يكون في هذه العربات ؟ »

فأجابها جان فالجان :

— « جماعة من المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . »

— « والى اين هم ذاهبون ؟ »

— « الى سجنهم . »

وفي بعض اللحظات انتهت ضربات العصيّ ، وقد ضوعفت بمئة يد ، الى ذروتها . وانضافت اليها ضربات بصفحة السيف . كانت اشبه بسورة سياط وهراوات . وتلوّي رقيق الاشغال الشاقة ، فقد احدثت العقوبة عبوديةً رهيبة ، وران الصمت على الجميع وبدت عليهم سيما الذئاب المكبّلة . وارتعدت اوصال كوزيت . وتابعت :

— « ابي ، ألا يزالون رجالاً ؟ »

فقال الرجل البائس :

— « احياناً . »

وفي الواقع ان قافلة الاسارى المنطلقة قبل الفجر من بيسيتر اتخذت طريق مانس اجتناباً لطريق فونتينبلو ، حيث كان الملك آنـذاك . وهذه الدورة جعلت الرحلة الفظيعة تتطاول ثلاثة ايام او اربعة ايام او اكثر . ولكن لا بأس في إطالتها ما دامت توفّر على الذات الملكية رؤية عقوبة من العقوبات .

وانقلب جان فالجان الى منزله مثقلاً بالغمّ . فمثل هذا اللقاء صدمة ، والذكرى التي يخلّفها تشبه زلزلة .

ومع ذلك ، ففي طريق عودته مع كوزيت الى شارع بابل لم يلاحظ انها وجهت اليه اسئلة اخرى عما رأياه منذ لحظات ؛ ولعله كان مستغرقاً في ضناه الى حدّ جعله لا يدرك كلماتها ، ويجيب عنها . حتى اذا هبط الليل ، وفارقته كوزيت لتأوي الى فراشها ، سمعها تقول في همس ، وكأنها تتحدث الى نفسها : « يخيل اليّ اني اذا لقيتُ واحداً من هؤلاء في طريقي — اوه ، يا الٓهي — فسوف اموت من مجرد رؤيته قريباً مني ! »

ولحسن الحظ اتفق ان شهدت باريس في اليوم الذي تلا ذلك النهار الفاجع ، وبمناسبة احتفال رسمي لم اعد ادري ما هو — نقول اتفق ان

شهدت باريس سلسلة من الاعياد : استعراض في ساحة مارس ، ومسابقات في التجذيف بنهر السين ، وحفلات تمثيلية في الـ « شان زيليزيه » ، وألعاب نارية في ساحة النجمة ، واضواء في كل مكان . وخرق جان فالجان مألوف عادته واخذ كوزيت الى هذه الاحتفالات لكي يصرف ذهنها عن ذكريات اليوم السابق ، ولكي يمحو ، تحت جلبة باريس الضاحكة كلها ، ذلك الشيء الرهيب الذي مرّ امامها . وكان في الاستعراض الذي زاد العيد حياة ، ما جعل الظهور في الزي العسكري طبيعياً . وارتدى جان فالجان بزته الخاصة بالحرس الوطني بمثل الشعور الباطني الغامض الذي يُحسه رجل يفزع الى ملجأ . ومع هذا فقد بدا ان الغاية من هذه النزهة قد تحققت . ذلك بان كوزيت التي كانت سُنّتها إرضاء ابيها ، والتي كان كل مشهد شيئاً جديداً عليها ، ارتضت هذا التحويل بارتياح الشباب السهل الطروب ، ولم تنظر في ازدراء مغالىً فيه الى قصعة الابتهاج التي ندعوها عيداً عمومياً ؛ وهكذا كان في ميسور جان فالجان ان يعتقد انه قد نجح ، وأن لم يبقَ في نفسها ايما اثر من آثار ذلك المشهد الرهيب .

وذات صباح من احد الايام القليلة التي تلت ، فيما كانت الشمس مشرقة ، وفيما كانا كلاهما على سلم الحديقة — وهو خروج آخر على القواعد التي بدا ان جان فالجان قد فرضها على نفسه ، وللعادة التي فرضها الحزن على كوزيت فجعلها تؤثر البقاء في غرفتها — وقفت كوزيت ، في مئزرها الذي تلبسه حين تأخذ زينتها ، بمباذل الصباح تلك التي تلفّ الفتيات على نحو رائع ، والتي تبدو وكأنها سحابة فوق كوكب . وفيما كان رأسها مغموراً بالضياء ، وقد تورّد من حُسن الرقاد ، تحت نظرات الرجل الطيب اللطيف الرفيقة ، راحت تنتزع اوراق اقحوانة . كانت كوزيت تجهل الاسطورة الفاتنة ، « احبكِ ، بعض الشيء ، في هيام » الخ ... فمن الذي علّمها اياها ؟ كانت تداعب هذه

الزهرة بأصابعها ، بالغريزة ، وفي براءة ، من غير ان تدري ان انتزاع اوراق الاقحوان يعني امتحان القلب . ولو قد كان ثمة إلاهة رابعة من آلهات الاغريق تدعى **الكآبة** ، وكانت تلك الالاهة باسمة ، إذن لكانت كوزيت تلك الالاهة .

وُفتن جان فالجان بالتأمل في اصابعها النحيلة على تلك الزهرة ، ناسياً كل شيء أمام إشعاع تلك الطفلة . وهمس « ابو الحنّاء » في الدغل القريب منهما . وكانت السحب البيضاء تعبر السماء في كثير من البهجة حتى لقد كان في ميسور المرء ان يقول إنها قد أُطلقت اللحظة من عقالها . وواصلت كوزيت نزع اوراق اقحوانتها في انتباه . لقد بدت وكأنها تفكر في شيء . ولكن ذلك الذي فكرت فيه كان عذباً من غير شك . وفجأة ادارت رأسها فوق كتفها في مثل حركة الاوزة الرقيقة ، وقالت لجان فالجان : « ابي ، من هم اذن ، رفيق الاشغال الشاقة ؟ »



الكتاب الرابع

العون السفلي قد يكون عوناً علوياً



١

جرح من خارج ، شفاء من باطن

وهكذا اظلمت حياتهما شيئاً بعد شيء .

لم يبق لهما غير ألهية واحدة ، وكانت من قبل متعة : وهي ان يحملا الخبز إلى الجائعين ، والملابس إلى المقرورين . وفي هذه الزيارات إلى اكواخ الفقراء ، وكانت كوزيت كثيراً ما تصحب فيها جان فالجان ، وجدا بقية من جذلهما القديم . وفي بعض الاحيان ، حين كانا يمضيان نهاراً طيباً ، حين كانا يسرّيان عن كثير من أحزان الناس ويدخلان العافية والدفء على قلوب الاطفال الصغار ، كانت كوزيت تستشعر مع

المساء شيئاً من البهجة . وفي هذه الفترة بالذات ، قاما بزيارتهما إلى وكر جوندريت .

وفي اليوم الذي تلا تلك الزيارة بـدا جان فالجان في البيت الصغير ، صباحاً ، بمثل هدوئه المـألوف ، ولكنْ كان في ذراعه اليسرى جرح كبير ، شديد الالتهاب ، شديد الاذى . كان ذلك الجرح يبدو وكأنه حرق ، وكان جان فالجان يفسره على نحو ما . وحجزه جرحه ضمن الجدران اكثر من شهر ، استبدت بـه الحمى خلاله . ولم يرغب في استدعاء طبيب ما . وحين ألحت عليه كوزيت في ذلك قال : «استدعي طبيب الكلاب ! »

وضمدت كوزيت جرح جان فالجان صباح مساء في سيماء الـتّهيـة وسعادة ملائكية بالغة استمدتها من شعورها بأنها كانت ذات نفـع له ، حتى لقد أحس جان فالجان بجذله القديم يعاوده ، وبمخاوفه وضروب قلقه تزايله ، ونظر إلى كوزيت قائلا : . « آه ! يا له من جرح خيّر ! آه ! يا له من أذى كريم ! »

وكانت كوزيت قد هجرت ، لمناسبة مرض ابيهـا ، البيـت الصيفي ، واستعادت أنسها بالبيت الصغير والفناء الخلفي . كانت تنفق وقتها كله ، تقريباً ، مع جان فالجان ، وتقرأ له الكتب التي يحبها . كتب الرحلات على العموم . لقد ولد جان فالجان من جديد . وانبعثت سعادته في اشراق يمتنـع على الوصف . وانقشعت اللوكسومبورغ ، والمطوّف الليلي الشاب ، وبرود كوزيت ـ انقشعت هذه السحب كلهـا عن روحـه . وقال في ذات نفسه : « لقد تخيلت ذلك . إني مجنون عجوز ! »

كانت سعادته عظيمة إلى درجة جعلت اكتشافه الرهيب لتيناردييـه وزوجته ، في وكر جوندريت ، وعلى ذلك النحو غير المتوقـع إلى أبعد الحدود ، يزلّ عنه بطريقة ما . كان قد وفّق إلى الهرب ، وكانت آثاره

قد ضاعت ، فما الذي يهمه بعد ؟ ! لقد فكر في ذلك ليأسى لاولئك البؤساء ليس غير . كان يقول بينه وبين نفسه : « انهم الآن في السجن ، وليس في استطاعتهم أن يُنزلوا الأذى في المستقبل . ولكن يا لهـــا من اسرة شقية تثير الشفقة ! »

أما مشهد « باب مَين » الرهيب فان كوزيت لم تذكره كرة اخرى .

وفي الدير ، كانت الاخت سانت ميتشيلد قد علمت كوزيت الموسيقى . وكان لكوزيت صوت دُخَّلة ذات نفس . وبعض الاحيان ، عنـــــد المساء ، في المـأوى المتواضع الذي كان يقطنه الرجل الجريح ، كانت تغني اغاني شجية تبهج نفس جان فالجان .

وأقبل الربيع . وكانت الحديقة في ذلك الفصل جميلة إلى حد بالغ جعل جان فالجان يقول : « انت لا تخرجين إلى هناك البتة . انا أريد ان تتمشي فيها . » فأجابته : « كما تريد ، يا أبت ! »

ورغبة منها في اطاعة أبيها استأنفت كوزيت نزهاتها في الحديقة ، وحيدة في الاعم الاغلب ، ذلك بان جان فالجان ، الذي خشي في ما يبدو ان يراه احد من خلال الباب ، كان كما ذكرنا نادراً ما يقصـد إلى هناك .

كان جرح جان فالجان ألهية .

وحين رأت كوزيت ان ألم أبيها قد تضاءل ، وان حاله آخـذة في التحسن ، وان أمارات السعادة بدت على وجهه ، داخلها رضـــاً مـــا كادت تلاحظه ، إذ وفد عليها وفوداً هادئاً وطبيعياً . وكان ذلك في آذار ، وكان النهار قد اخذ يتطاول ، فالشتاء كان آخذاً في الانصرام ، والشتاء يحمل معه دائماً شيئاً من أحزاننا . ثم أقبل نيسان ، وهو فجر الصيف ، غضاً ككل ضحى ، بهيجاً ككل طفولة ، باكياً بعض الشيء أحياناً كالطفل الذي هو يشبهه . إن للطبيعة في هذا الشهر بوارق تنطلق من السماء ، والسحب ، والاشجار ، والحقول ، والأزهار ، إلى

قلب الانسان .

وكانت كوزيت لا تزال أصغر من أن تضل بهجةُ نيسان ، التي كانت تشبهها ، سبيلها إلى قلبها . فرويداً رويداً ، ومن غير ما شعور ، انجلى الظلام من ذهنها . ففي الربيع تشرق النفوس الحزينة ، كما تشرق – عند الظهيرة – المغاور والكهوف . ولم تعد كوزيت شديدة الحزن الآن . كذلك كان واقع الأمر ، على اية حال ، ولكنها لم تلاحظه . ففي الصباح ، حوالى الساعة العاشرة ، بعد ان تناولت الفطور ، وبعد ان نجحت في اصطحاب أبيها إلى الحديقة ليقضي هناك ربع ساعة ، وفيما كانت تمشي في الشمس أمام درجات السلم ، مسندة ذراعه الجريح ، لم تلاحظ انها كانت تضحك في كل لحظة ، وانها كانت سعيدة .

ورآها جان فالجان ، في ثمل ، تستعيد نضرتها ولونها الازهر .

وكرر في همس :

– « اوه ، يا له من جرح مبارك ! »

وكان معترفاً بجميل تيناردييه وزوجته ايضاً .

وما إن التأم جرحه حتى استأنف نزهاته المتوحدة الغسقية .

وانه لمن الخطأ ان نعتقد أن في ميسور المرء ان يسير على هذه الشاكلة ، وحده ، في مناطق باريس غير الآهلة بالسكان ، من غير ان يلقى حادثاً غير منتظر .

٢

الأم بلوتارك لا ترتبك

عند تفسير احدى الظواهر

وذات مساء لم يكن غافروش الصغير قد اصاب طعاماً . وتذكّر أنه

لم يتبلغ البارحة بشيء ايضاً . وكان ذلك قد شرع يضايقه . فوطن العزم على أن يحاول تناول طعام العشاء . وهكذا راح يتسكع وراء « لا سالبيتريير» ، في المناطق المهجورة ، فتلك هي مواطن الحظ السعيد . فحيث لا يكون أحد ، يقع المرء على شيء . وانتهى إلى عمران عرف فيه قرية اوسترليتز .

ففي احد تسكعاته الماضية كان قد لاحظ هناك حديقة قديمة يألفها رجل عجوز وامرأة عجوز ، ولاحظ في تلك الحديقة شجرة تفاح لا بأس بها . وإلى جانب شجرة التفاح ، كان شبه مستودع للفاكهة مسيّج على نحو غير محكم ، حيث كان في امكان المرء ان يغزو تفاحة ما . التفاحة عشاء ، التفاحة حياة . إن ما أهلك آدم قد ينقذ غافروش . وكانت الحديقة قائمة عند زقاق منعزل غير معبد ، زقاق تكتنفه الادغال لفقدان المنازل . وكان سياج من نبات شائك يفصلها عن الزقاق .

ووجه غافروش خطاه نحو الحديقة . لقد وجد الزقاق ، وعرف شجرة التفاح ، وتبين مستودع الفاكهة ، ودرس السياج الشائك ؛ إنه على بعد خطوة . كان الليل يهبط ؛ ولم يكن في الزقاق هرة واحدة ؛ وكانت الساعة مناسبة . ورسم غافروش خطة الوثوب ، ثم وقف فجأة . كان شخص ما ، يتكلم في الحديقة . ونظر غافروش من خلال فتحة في السياج .

وعلى خطوتين منه ، عند ادنى السياج من الناحية الاخرى ، في النقطة التي كان جديراً بتلك الفتحة ان تقوده اليها ، انتصب حجر اتخذ منه اصحاب المنزل مقعداً . وعلى هذا الحجر كان الرجل العجوز جالساً وقد وقفت المرأة العجوز أمامه . كانت المرأة العجوز تغمغم . وأصغى غافروش ، في قليل من الترصن .

قالت المرأة :

— « مسيو مابوف ! »

وقال غافروش في ما بينه وبين نفسه : « مابوف ! إنه اسم مضحك . »

ولم يبد العجوز المخاطب حركة ما . وكررت المرأة العجوز :

— « مسيو مابوف ! »

ومن غير ان يرفع العجوز عينيه عن الارض عزم على انْ يجيبها بقوله :

— « ماذا ، ايتها الأم بلوتارك ؟ »

وقال غافروش في ما بينه وبين نفسه : « الام بلوتارك ! وهذا اسم مضحك آخر . »

واستأنفت الام بلوتارك كلامها ، واضطر الرجل العجوز إلى ان يخوض الحديث .

— « ان صاحب البيت غاضب . »

— « لماذا ؟ »

— « نحن مدينون له بثلاثة اقساط . »

— « بعد ثلاثة اشهر ستصبح اربعة . »

— « هو يقول انه سوف يخرجك فتنام في الشارع . »

— « سوف أخرج »

— « والمرأة البقالة تطالبنا بالدفع . انها تحبس عنا الوقود . بماذا تريد ان تتدفأ في هذا الشتاء ؟ لن يكون عندنا حطب . »

— « عندنا الشمس . »

— « والقصاب يرفض ان يديننا . انه لن يعطينا لحماً بعد اليوم . »

— « هذا حسن . انا لا أهضم اللحم جيداً . إنه ثقيل . »

— « ما سيكون عشاؤنا الليلة ؟ »

— « الخبز . »

— « الخباز يريد شيئاً على الحساب ، ويقول لا دراهم ، لا خبز. »

— « حسن جداً . »

— « ما الذي سوف تأكله ؟ »

— « عندنا تفاحات الشجرة . »

— « ولكن ، يا سيدي ، ليس في استطاعتنا ان نعيش هكذا من غير مال . »

— « انا لا املك شيئاً منه . »

ومضت العجوز لسبيلها ، وظل الرجل العجوز وحده . وشرع يفكر ؛ وكان غافروش يفكر هو الآخر . كان الليل قد أرخى سدوله ، أو كـاد .

وكانت اولى نتائج تفكير غافروش انه زحف تحت السياج الشائك بدلا من ان يثب فوقه . وافترقت الأغصان قليلا عند أدنى الدغل .

وهتف غافروش هتافاً باطنياً : « عجيب ! مخدع صغير ! » واختفى فيه . لقد مس مقعد الأب مابوف ، أو كاد . وسمع أنفاس ابن الثمانين .

ثم انه ، ابتغاء العشاء ، حاول ان ينام .

نام نوم الهرة ، نام بعين واحدة . كان غافروش يراقب كل شيء فيما هو جاثم هناك .

وسفحت السماء الغسقية بياضاً على الارض . ورسم الزقاق خطاً ازرق ضارباً إلى السواد بين صفين من الادغال القاتمة .

وفجأة ، بدا شكلان باهتان على تلك العصابة البيضاء . كان أحدهما في المقدمة ، وكان الثاني على مسافة قصيرة منه .

ودمدم غافروش : « هذان مخلوقان ! »

لقد بدا الشكل الأول بورجوازياً عجوزاً محدودب الظهر مستغرقاً في التفكير ، مرتدياً ملابس أكثر من بسيطة ، وكان يمشي بمثل خطوات العجائز البطيئة ، هائماً على وجهه ، ليلا ، في ظل النجوم .

وأما الشكل الثاني فكان مستقيماً ، ثابتاً ، مهزولا . لقد عدل خطاه وفقاً لخطى الأول . ولكن اللدانة والرشاقة كانتا باديتين من خلال بطء المشية الارادي . وكان لهذا الشكل ، علاوة على شيء ضارٍ مقلق ، كامل تلك السيما التي غلبت على من عُرف آنذاك بالشاب الانيق . كانت القبعة على أحدث زي ، وكانت السترة سوداء حسنة التفصيل ، ومن جوخ ممتاز في أغلب الظن ، وكانت تلف قده لفاً محكماً . كان الرأس مرفوعاً في ضرب من الجمال القوي . وتحت القبعة كان في امكان المرء أن يرى ، في الغسق ، صورة جانبية شاحبة لأحد الفتيان . وكانت في فم هذه الصورة الجانبية وردة .وكان غافروش يعرف الشكل الثاني معرفة جيدة . لقد كان مونبارناس .

أما الشكل الآخر فلم يكن في وسعه ان يقول عنه شيئاً باستثناء انه رجل عجوز طيب .

وفي الحال ، استغرق غافروش في المراقبة .

كان واضحاً ان واحداً من هذين السارين قد بيت أمراً ضد الآخر . وكان غافروش في موقع يمكنه من مشاهدة المآل . كان المخدع الصغير قد تحول — على نحو ملائم — إلى ملجأ .

وكان في ترصد مونبارناس ، في مثل تلك الساعة ، وفي مثل ذلك المكان ، شيء يتهدد بخطر . واستشعر غافروش بالشفقة على الرجل العجوز تحركُ قلب « المتشرد » الذي في صدره .

أي شيء كان يستطيع ان يعمله ؟ أيتدخل ؟ ضعف يهرع لنجدة ضعف ؟ كان ذلك خليقاً به ان يكون مدعاة لاضحاك مونبارناس . ولم يكن في مكنة غافروش ان يخفي عن نفسه ان الرجل العجوز اولا ، ثم الطفل من بعده ، ليسا عند قاطع الطريق الفظيع هذا ، البالغ من العمر الثامنة عشرة ، غير لقمتين اثنتين .

وفيما كان غافروش يقلب الرأي ، وقع الهجوم مفاجئاً رهيباً

هجوم نمر على حمار وحشي ، أو هجوم عنكبوت على ذبابة . فعلى حين غرة طرح مونبارناس الوردة ، ووثب على الرجـــل العجوز ، وامسك بتلابيبه ، وتشبث به . ولم يستطع غافروش ان يكبح ، إلا بشق النفس ، صيحة ارادت ان لتنطلق من فمه . وبعد لحظة ، كان احد هذين الرجلين تحت الاخر ، مرهقاً ، لاهثاً ، محاولا التملص ، وعلى صدره عقبٌ من رخام . بيد ان كل شيء لم يكن كما توقـــع غافروش . كان الرجل الملاصق للارض هو مونبارناس . وكان الـــذي يعلوه هو الرجل الطيب . لقد حدث ذلك كله على بضع خطوات من غافروش .

كان الرجل العجوز قد تلقى الصدمة ، وردها ، وردها في قـــوة بالغة جعلت المهاجِم والمهاجَم يتبادلان دوريهما في لمحة عين .

وقال غافروش في ما بينه وبين نفسه : « ها هنا كسيح شجاع ! »

ولم يستطع ان يحول بين كفيه وبين التصفيق . ولكنه كان تصفيقـــاً ضائعاً . إنه لم يبلغ المتقاتلين ، اللذين استغرق كل منهما في الآخـــر وأصم كل منهما الآخر ، مازجين أنفاسهما في الصراع .

وران الصمت . وكف مونبارناس عن النضال . وقال غافروش على حدة : « هل مات ؟ »

ولم يكن العجوز قد نطق بكلمة ، ولم يكن قد أطلق صيحة . لقـــد نهض . وسمعه غافروش يقول لمونبارناس :

— « إنهض . »

ونهض مونبارناس ، ولكن الرجل العجوز أمسك به . كانت تبدو على مونبارناس تلك السيما الذليلة الضارية التي تبدو على وجـــــه ذئـــب اختطفـــه خروف .

ونظر غافروش واصغى ، محاولا أن يضاعف عينيه بأذنيه . لقـــد وجد في ذلك متعة كبيرة .

لقد عُوِّض من قلقه القويم كمراقب . كان قادراً على ان يمسك بجناح الحوار التالي ، الذي استعار من الظلمة جرْساً فاجعاً غريباً . كان الرجل العجوز يستجوب ، وكان مونبارناس يجيب :

— « ما سنك ؟ »

— « تسعة عشر عاماً . »

— « انت قوي ، الجسم . فلماذا لا تشتغل ؟ »

— « الشغل يتعبني . »

— « ما صناعتك ؟ »

— « متسكع . »

— « تحدث في جد . هل استطيع ان أقدم اليك خدمة ؟ أي شيء تريد ان تكون ؟ »

— « لصاً . »

وران صمت . وبدا الرجل العجوز وكأنه مستغرق في تفكير عميق . كان جامداً من غير حراك ، ومع ذلك فانه لم يطلق وثاق مونبارناس .

وبين الفينة والفينة كان قاطع الطرق الصغير يبذل ، في قوة و خفة ، مثل جهود بهيمة وقعت في الشرك . لقد حاول أن يثب ، وان يقوم بحركة رشيقة بقدمه ، ولوى أوصاله في يأس ، مجرباً ان يهرب . وبدا الرجل العجوز وكأنه لم يلحظ ذلك . وبيد واحدة امسك بذراعي مونبارناس بلا مبالاة ذات سلطان كالتي تكون للقوة المطلقة .

وواصل العجوز تفكيره الحالم فترة ما ، ثم حدق إلى مونبارناس ، ورفع صوته في رفق ، ووجه اليه — وسط تلك الظلمة التي كانت تكتنفها — شبه خطبة فخيمة لم يفت غافروش مقطع واحد منها على الاطلاق :

— « يا بني ، أنت تتخذ سبيلك ، خلال الكسل ، نحو وجود ليس ادعى منه إلى الارهاق . آه ، أنت تعلن انك متسكع ! استعد

للعمل . هل رأيت ذات يوم ماكينة تصفيح المعادن الرهيبة ؟ حذار منها ، إنها شيء مراء وضار ، فهي إذا ما تشبثت بطرف ثوبك ، ابتلعتك بالكلية . هذه الماكينة هي البطالة . قف قبل فوات الاوان ، وأنقذ نفسك ! وإن لم تفعل انتهى كل شيء ، ووجدت نفسك بين الدواليب . حتى إذا علقتَ مرة فلا تأمل في شيء . إلى التعب ، أيها الكسول ! لا راحة بعد اليوم . إن يد العمل الحديدية الحقود قد قبضت عليك . اقول لك اكسب رزقك ، قم بعمل ، أدِّ مهمة ، فتجيب : لا أريد . اقول لك كن كالآخرين ، فتجيب : هذا يتعبني . حسناً ، سوف تكون شيئاً آخر . العمل هو القانون . ومن يرفضه بوصفه تعباً ينله بوصفه عقوبة . انت لا ترغب في ان تكون عاملا ، واذن فسوف تكون عبداً . إن العمل لا يعتقك من ناحية إلا ليستولي عليك من ناحية اخرى . انت لا تريد ان تكون صديقه ، ومن اجل ذلك سوف تكون عبده . آه ، لقد رفضت كلال الرجال الأمين ، ومن اجل ذلك سوف يكون لك عرق المغضوب عليهم . ففيما يغني الآخرون ، سوف تهذي انت . سوف ترى الرجال الآخرين ، من بعيد ومن أدنى ، منصرفين إلى العمل . ولسوف يبدو لك أنهم يستجمون . إن العامل ، والحاصد ، والملاح ، والحداد سيتراءون لك في النور مثل المباركين من اهل الجنة . أي إشعاع في السندان ! إن قيادة المحراث وحَزْم القش هما السعادة . القارب طليق أمام الريح ، يا لها من بهجة ! وانت ، ايها العاطل عن العمل ، إحفر ، واسحب ، ودحرج ، وسر إلى الامام ! جرَّ رسنك ، فلست غير بهيمة أثقال في قطار الجحيم ! أن لا تعمل شيئاً ، تلك هي غايتك . حسناً . فلن يمر بك اسبوع ، أو يوم ، أو ساعة من غير إعياء ماحق . انك لا تستطيع ان ترفع شيئاً إلا بضنى . وكل دقيقة تنقضي سوف تمزق عضلاتك . وما سيكون ريشة بالنسبة إلى الناس سوف يكون صخرة

بالنسبة اليك . وأبسط الاشياء سيصبح منحدراً وعراً . ولسوف تصبح الحياة غولا من حولك . والذهاب ، والاياب ، والتنفس ستمسي اعمالا مرهقة فظيعة . ورئتاك سوف تبدوان وكأنهما تزنان مئة رطل . وذهابك إلى هنا لا إلى هناك سيصبح مشكلة يجب ان تحل . إن اىما رجل آخر راغب في مغادرة منزله ليفتح بابه ، ويخرج ، وينقضي الأمر ، أما انت فاذا ما رغبت في الخروج اضطررت إلى ان تثقب جدارك . وما الذي يفعله اىما امريء لكي ينطلق إلى الشارع ؟ ليس عليه إلا ان يهبط السلم ! أما أنت فسوف يتعين عليك أن تمزق أغطية فراشك ، وتعمل منها حبلا ، قطعة بعد قطعة ، ثم تعبر من خلال نافذتك ، وتتدلى بذلك الخيط فوق هاوية ، ولسوف يكون هذا تحت جنح الظلام ، في العاصفة ، تحت المطر ، وسط الاعصار . وإذا ما كان الحبل اقصر مما ينبغي فلن يكون امامك غير طريقة واحدة للهبوط : ان تسقط . — أن تسقط ، مجازفاً ، في الهاوية ، من اىما ارتفاع ، وفوق ماذا ؟ فوق اىما شيء في الاسفل ، فوق المجهول . او يتعين عليك ان تتسلق من خلال مدخنة موقد ، معرضاً نفسك للاحتراق ، أو تدب خلال بالوعة ، معرضاً نفسك للغرق . أنا لا اتكلم عن الثقوب التي يتعين عليك ان تخفيها ، وعن الحجارة التي يتعين عليك ان تخرجها وتعيدها إلى مكانها عشرين مرة في النهار ، وعن الملاط الذي يتعين عليك ان تخفيه في فراشك . ويبرز قفل . إن البورجوازي يحمل مفتاحه في جيبه ، مفتاحه الذي صنعه الحداد . أما أنت فاذا ما أردت ان تجتاز باباً موصداً تحتم عليك ان تقوم برائعة رهيبة . ستجد نفسك مضطراً إلى ان تخرج فلساً كبيراً ، وتفلقه شقين . بأية ادوات ؟ انها ادوات سوف تخترعها بنفسك . فهذه مسألة خاصة بك . ثم انك تجوف باطن هذين الفلقين ، محافظاً على الجزء الخارجي في عناية ، وتسنن الحوافي كلها تسنيناً لولبياً ، بحيث ينطبق بعضها على بعض في إحكام ، مثل قعر وغطاء . حتى إذا

اذا ما اغلقا على هذا النحو المحكم لم تخامر الريبة احداً . انه سوف يكون في نظر الحرس – اذ ستخضع للمراقبة – فلساً كبيراً ، أما عندك فسوف يكون بمثابة صندوق . ما الذي ستضعه في هذا الصندوق ؟ مقداراً ضئيلا من الفولاذ . نابضَ ساعة تقطع به الاسنان ، وتستعمله منشاراً . وبهـذا المنشار ، الذي لا يزيد طوله على طول دبوس ، والمخبوء في هـــذا الفلس ، سوف يتعين عليك ان تنشر لسان قفل ما ، وزلاقة اللسان ، وعروة القفل ، والقضيب الحديدي الذي سوف يعترض نافذتك ، والحلقة الحديدية التي ستكبل قدمك . حتى اذا تمت هذه المعجزة ، وأنجزت هذه الاعجوبة ، ونُفذت معجزات الفن ، والرشاقة ، والحذاقة ، والصبر هذه كلها ، ثم اكتُشف انك انت المؤلف فأي جائزة ستنال ؟ الحبس المظلم . ذلك هو مستقبلك . الكسل ، المتعة ، يا لهما من هاويتين ! إن عدم القيام بعمل ما ، هو مسلك فاجع ، من غير شك . أن تعيش متعطلا على مادة المجتمع ! أن تكون غير ذي جدوى ، يعني مؤذياً وضاراً ! ذلك يقود مباشرة إلى الدرك الاسفل من الشقاء . الويل لمن يريد ان يكون طفيلياً ! انه سوف يكون قملة . آه ! انت لا يعجبك ان تشتغل ! آه ، سوف تراودك فكرة واحدة : أن تشرب جيداً ، وتأكل جيداً ، وتنام جيداً . سوف تشرب ماء ، سوف تأكل خبزاً أسود ، سوف تنام على لوح خشبي ، وقد طوّق الحديد أوصالك ، فأنت تستشعر برده ، ليلا ، على لحمك ! سوف تكسر هذه الأغلال ، سوف تفر . حسن جداً . سوف تدب على بطنك في الادغال ، وتأكل العشب مثل بهائم الغابة . ولسوف يقبض عليك البوليس كرة اخرى . وعندئذ تقضي سنوات في حبس مظلم ، مشدوداً إلى جدار تتحسس يدك سبيلها التماساً لجرعة من ابريقك ، عاضاً رغيفاً رهيباً أسود كالظلمات ، رغيفاً تعافه الكلاب ، آكلا فولاً كانت الديدان قد أكلته

من قبلك . سوف تكون « حمار قبان » (*) في كهف . آه ! أشفق على نفسك ، ايها الطفل البائس ، ايها الطفل الصغير ، الذي كان رضيعاً قبل عشرين عاماً ، والذي لا تزال له ، من غير شك ، أمّ حية ترزق ! إني اتوسل اليك ، فاسمعني . انت تريد ثياباً سوداء فاخرة ، وخفين مصقولين ؛ انت تريد ان تجعد شعرك ، ان تضمخ غدائرك بالزيت الزكي ، أن تدخل السرور على قلوب نسائك ، أن تكون مليحاً : فلسوف يُجز شعر رأسك جزاً ، وترتدي سترة حمراء ، وتنتعل حذاء خشبياً . انت تريد خاتماً في إصبعك ، فسوف تفوز بغلّ في عنقك . واذا ما القيت نظرة على امرأة فزت بضربة هراوة . ولسوف تدخل إلى هناك في العشرين من عمرك ، ثم تخرج منه في الخمسين ! سوف تدخل فتياً ، متورداً ، نضر العود ، مشرق العينين ، أبيض الاسنان ، ذا شعر مراهق جميل . ثم تخرج محطماً ، محدودباً ، متجعد البشرة ، عاطل الفم من الاسنان ، رهيباً ، ذا شعر ابيض ! آه ، يا بني المسكين ، انت تسلك طريقاً خاطئاً ، وإن الكسل ليقدم اليك نصيحة سيئة . السرقة اشق الاعمال وأصعبها . صدقني ، لا تنهض بعبء هذا الشغل الرهيب الذي هو البطالة . إن صيرورة المرء وغداً لا تورثه الرفاه والراحة . وليس من العسير جداً على المرء ان يكون رجلا صالحاً . فاذهب ، الآن ، وفكر في ما قلته لك . وبالمناسبة ، ما الذي كنت تريده مني ؟ حافظة نقودي ؟ دونك اياها . »

وأطلق العجوز مونبارناسّ ، ووضع حافظة نقوده في يده ، فما كان من مونبارناس إلا أن رازه لحظة . وبالحذر الآلي نفسه أزلّها مونبارناس برفق ، في جيب سترته الخلفي ، وكأنما قد سرقها .

حتى إذا قيل هذا كله وعُمل ، أدار الرجل الطيب ظهره ، واستأنف سيره في أناة .

---

* حمار القبان cloporte دويبة صغيرة لازقة بالارض ذات قوائم كثيرة .

وغمغم مونبارناس :

— « بليد ! »

من كان هذا الرجل الطيب ؟ لقد حزره القارىء من غير ريب . وفي ذهول ، راقبه مونبارناس حتى اختفى في الغسق . كان ذلك التأمل قاضياً عليه .

وفيما كان الرجل العجوز يمضي لسبيله ، كان غافروش يقترب . وبنظرة جانبية تثبت غافروش من أن الاب مابوف — ولعله كان نائماً — لا يزال جالساً على المقعد . ثم إن المتشرد انطلق من بين الأدغال ، وشرع يدب في الظل خلف مونبارناس الجامد في مكانه . وهكذا انتهى إلى مونبارناس ، من غير ان يُرى أو يسمع ، ودس يده برفق في الجيب الخلفية من السترة المخيطة من جوخ اسود نفيس ، وأخذ حافظة النقود ، وسحب يده ، وعاود الزحف منسلا مثل حنش في غمرة الظلام . ولم يلمح مونبارناس ، الذي لم يجد سبباً يدعوه إلى الاحتراس ، والذي كان يفكر للمرة الأولى في حياته — نقول ، لم يلمح مونبارناس شيئاً من ذلك . حتى اذا وصل غافروش إلى حيث كان الأب مابوف ، طرح حافظة النقود من فوق السياج الشائك ، واطلق ساقيه للريح .

وسقطت حافظة النقود على قدم الاب مابوف . وأيقظته هذه الصدمة . فانحنى والتقط الحافظة . ولم يفهم شيئاً ، وفتحها . كانت حافظة نقود ذات جيبين ، في احدهما بعض القطع النقدية الصغيرة ، وفي الآخر ست ليرات ذهبية نابوليونية .

واستبد الذهول بمسيو مابوف ، وحمل الحافظة إلى خادمته .

وقالت الأم بلوتارك :

— « لقد سقطت هذه من السماء . »



الكتاب الخامس

حيث النهاية لا تشبه البداية

١

العزلة والثكنة مجتمعتين

كان أسى كوزيت ، الذي ما يزال ممضاً والذي كان حاداً جـداً قبل اربعة أشهر أو خمسة اشهر ، قد دخل من غير ان تدري هي بذلك ، في دور النقاهة . كانت الطبيعة ، والربيع ، وشبابها ، وحبها لأبيها ، وبهجة الطير والازهار ، قد شرعت تنضح شيئاً بعد شيء ، ويوماً بعد يوم ، وقطرة بعد قطرة ، في تلك الروح الطاهرة جداً ، الغضة جـداً ، شيئاً يكاد يشبه النسيان . اكانت النار قد شرعت في الخمود بالكلية ؟ أم أنها كانت على وشك ان تصبح مجرد طبقة من رماد ؟ الحق انه لم

يكد يبقى في ذاتها شيء من ذلك الشعور المؤلم المحرق .

وذات يوم فكرت بماريوس فجأة ، فقالت :

— « ماذا ؟ أنا لا افكر فيه الآن . »

وفي خلال ذلك الاسبوع نفسه لاحظت ، اذ مرت بباب الحديقة المقضّب ، ضابطاً وسيماً جداً من ضباط الرمّاحة : قامة هيفاء ، وسترة عسكرية فاتنة ، ووجنتان كوجنتي فتاة ، وحسام تحت الذراع ، وشاربان مشمعان ، وقبعة مصقولة من قبعات الرمّاحين . وفوق ذلك شعر اشقر ، وعينان زرقاوان واسعتان ، ووجه مستدير ، مختال ، متغطرس ، مليح ، نقيض ماريوس تماماً . كان في فمه سيكار . وحسبت كوزيت ان هذا الضابط ينتسب من غير شك إلى الفرقة المعسكرة في ثكنات شارع بابل .

وفي اليوم الثاني ، رأته يمر من هناك كرة ثانية . لقد لاحظت الساعة .

ومنذ ذلك الحين اصبحت تراه — أكان ذلك مصادفة ؟ — كل يوم تقريباً .

ولاحظ رفاق الضابط انه كانت ، في تلك الحديقة « المهملة » ، خلف ذلك الباب الحديدي ،العتيق الحقير ، مخلوقة جميلة كان يتفق ان تُرى دائماً عند مرور الضابط الجميل ، الذي لا يجهله القاريء ، والذي كان اسمه تيودول جيلنورمان .

وقالوا له :

— « قف ! ههنا فتاة صغيرة تسمّر عينيها عليك ! لماذا لا تنظر اليها ؟ »

فأجابهم الرمّاح :

— « أتحسبون ان لدي متسعاً من الوقت للنظر إلى جميع الفتيات اللواتي ينظرن إلي ؟ »

وكان هذا في ذلك الوقت بالذات الذي كان ماريوس ينحدر خلاله في

جهامة نحو الألم النفسي المرير قائلا : « ليتني استطيع ان اراها مرة اخرى قبل ان اموت ! » ولو قد تحققت امنيته ، لو قد رأى كوزيت في تلك اللحظة تنظر إلى الرمّاح ، اذن لما كان قادراً على ان ينبس بكلمة ، واذن لفاضت روحه حزناً واسى .

من المسؤول عن تلك الغلطة ؟ لا أحد .

كان ماريوس من اصحاب ذلك المزاج الذي يستغرق في الأسى ، ويبقى هناك . اما كوزيت فكانت من اصحاب ذلك المزاج الذي يغوص في الحزن ثم تخرج كرة اخرى .

وكانت كوزيت تجتاز ، في الحق ، تلك اللحظة الخطرة ، ذلك الدور المشؤوم من الاستغراق الانثوي الحالم المخذول ، حيث يشبه قلب الفتاة المعزولة عطفات العريش التي تتشبث ، وفقاً للمصادفة ، بتاج عمود من أعمدة الرخام ، أو بوتد حانة من الحانات . لحظة خاطفة وحاسمة ، حرجة بالنسبة إلى كل يتيمة ، سواء أكانت فقيرة أم غنية ، ذلك لأن الثروة لا تقي من الاختيار السيء . إن الزواج غير المتكافىء كثيراً ما يقع . ولكن عدم التكافؤ الحقيقي إنما يكون بين النفوس . وكما ان غير واحد من الشبان المغمورين ، الذين لا اسم لهم ، أو مولد ، أو ثروة يكون عموداً من اعمدة الرخام يدعم هيكلا من العواطف الكبيرة والافكار الرفيعة ، كذلك قد تجد بين رجال المجتمع ، السعداء الاثرياء ، ذوي الاحذية اللماعة والحديث المصقول ، رجلا إذا نظرت لا إلى خارجه ولكن إلى داخله ، يعني إلى ما يُحفظ للزوجة ، ألفيته مجرد خُشيبة بلهاء تعصف بها اهواء عنيفة ، نملة ، غير طاهرة — وتداً من اوتاد الحانة .

أي شيء كان يجري في نفس كوزيت ؟ عاطفة ملطفة أو هاجعة ، حب في حالة متذبذبة ، شيء كان رائعاً ، وساطعاً ، كدراً على عمق معين ، مظلماً في القاع . كانت تنعكس من السطح صورة ضابط جميل.

أكانت ثمة ذكرى في القعر ؟ — في القعر نفسه ؟ ربما . إن كوزيت لم تعرف .

وتبعت ذلك حادثة غريبة .

٢
مخاوف كوزيت

في النصف الأول من شهر نيسان قام جان فالجان برحلة . وكان ذلك يتفق له ، كما ندري ، بين الفينة والفينة ، في فترات متباعدة جداً . كان يغيب عن البيت يوماً أو يومين على الأكثر . إلى اين كان يذهب ؟ إن احداً ما كان يدري ، حتى كوزيت نفسها . ومرة واحدة فقط صحبته في احدى هذه الرحلات ، فمضت بهما العربة حتى زاوية زقاق غير نافذ قرأت عليها **طريق لا بلانشيت غير النافذ** . وهناك ترجل ، ورجعت العربة بكوزيت إلى شارع بابل . وعلى العموم ، فقد كان جان فالجان يقوم بهذه الرحلات الصغيرات كلما اعوزهم مال يغطون به نفقاتهم المنزلية .

واذن ، فقد كان جان فالجان غائباً . وكان قد قال :

— « سوف أرجع في مدى ثلاثة ايام . »

وفي المساء ، كانت كوزيت وحدها في حجرة الاستقبال . وكانت قد فتحت بيانها ، التماساً للتسلية ، وشرعت تغني عازفة ، في الوقت نفسه ، لازمة « الاوريانث » : **قناصون تائهون في الغابات** ! » التي لا يبعد ان تكون أجمل قطعة في الموسيقى كلها .

وفجأة بدا لها أنها سمعت وقع اقدام في الحديقة .

لم يكن ممكناً أن يكون أباها ؛ فقد كان غائباً . ولم يكن ممكناً ان تكون توسين ، فقد كانت في فراشها . كانت الساعة العاشرة ليـــلا .

ومضت إلى نافذة الحجرة التي كان مصراعها الخشبي مغلقاً وألصقت أذنهـا بـه .

لقد بدا لها انه وقع قدمي رجل ، وان ذلك الرجل كان يمشي في اناة بالغـة .

وفي الحال هرعت مصعِّدة إلى الدور الأول ، فدخلت غرفتهـــا ، وفتحت خادعة * في مصراع نافذتها ، والقت نظرة إلى الحديقة . كـــان القمر بدراً . فكان في ميسورها ان ترى بوضوح وكأنها في وضح النهار .

ولم يكن هناك أحد .

وفتحت النافذة . كان السكون مخيماً على الحديقة ، وكان كل ما رأته من الشارع مهجوراً شأنه دائماً .

وحسبت كوزيت انها قد خُدعت عن نفسها . لقد خيل اليها انهـــا سمعت هذه الضجة . كان وهماً احدثته لازمة فيبر ** القاتمة الفخيمة التي تفتح امام العقل اعماقاً مذهلة تضطرب في نظر العين كغابة توقع الدوار في الرأس ، غابة نسمع فيها طقطقة الأغصان الميتة تحت اقدام القناصين الذين يُلمَحون اثناء الغسق على نحو باهت .

ولم تعاود التفكير في ذلك .

والى هذا ، فلم تكن كوزيت ، بطبيعتها ، سريعة إلى الذعر . كان يجري في عروقها دم الغجرية والمغامرة التي تنطلق حافية . ويجب ان نذكر انها كانت قبرة اكثر منها حمامة . كانت في اعمق اعماقها ضارية شجاعـة .

---

* الخادعة : الباب الصغير في الباب الكبير . (او النافذة الصغيرة في النافذة الكبيرة) .

** Weber (١٧٨٦ – ١٨٢٦) مؤلف موسيقى الماني يعتبر في بعض الاحيان اعظم مؤلفي المدرسة الموسيقية الالمانية الرومانتيكية .

وفي اليوم التالي ، وليس في تلك الساعة المتأخرة ، بل عند هبوط الليل ، كانت تمشي في الحديقة . وفي غمرة الافكار المشوشة التي ملأت ذهنها ، حسبت انها سمعت ، طوال لحظات ، صوتاً كصوت الليلة البارحة، وكأن امرءاً كان يمشي في الظلام ، تحت الاشجار، غير بعيد جداً عنها ، ولكنها قالت في ذات نفسها إنه ليس ثمة ما يشبه وقع الاقدام في العشب اكثر من تماسّ غصنين يتحركان تلقائياً ، ولم تلق بالا إلى ذلك . وإلى هذا ، فان بصرها لم يقع على شيء .

وغادرت « الدغل » ، وكان قد بقي عليها ان تجتاز الرقعة الصغيرة المعشوشبة الخضراء حتى تصل إلى السلم . وألقى القمر ، الذي كان قد طلع اللحظة خلفها ، — وفيما كانت كوزيت تفارق الدغل — القى ظلها أمامها على تلك الرقعة المخضوضرة .

ووقفت كوزيت مذعورة .

وإلى جانب ظلها رسم القمر رسماً واضحاً ، على العشب ، ظلاً آخر رهيباً فظيعاً إلى حد فريد ، ظلاً ذا قبعة مستديرة .

كان اشبه بخيال رجل من الجائز ان يكون واقفاً عند حافة الدغل ، على بضع خطى وراء كوزيت .

وانقضت لحظة عجزت خلالها عن ان تتكلم ، أو تصرخ ، أو تنادي أو تتحرك ، أو تدير رأسها .

واخيراً حشدت كامل شجاعتها ، واستدارت في عزم .

لم يكن ثمة احد .

لقد نظرت إلى الارض . كان الظل قد اختفى .

وعادت إلى الدغل ، وطفقت تبحث في جسارة خلال الزوايا، ومضت حتى الباب الحديدي ، فلم تجد شيئاً .

واستشعرت دمها مثلوجاً حقاً . أكان ذلك وهماً أيضاً ؟ ماذا ! في يومين متعاقبين ؟ إن وهماً واحداً قد يُحتمل ، أما إذا كانا

وهمين ؟ والذي اوقع في نفسها القلق اكثر ما يكون ان الظل لم يكن طيفاً على وجه التأكيد . فالأطياف لا ترتدي قبعات مستديرة البتة .

وفي اليوم التالي ، رجع جان فالجان . وقصت عليه كوزيت ما اعتقدت أنها سمعته ورأته . لقد توقعت ان قلبها سوف يعرف الطمأنينة ، وان اباها سوف يهز كتفيه قائلاً : « أنت فتاة صغيرة حمقاء . »

وداخل القلق جان فالجان .

وقال لها :

— « قد لا يكون ذلك شيئاً . »

وفارقها بذريعة ما ، ومضى إلى الحديقة . ورأته يفحص الباب في كثير من العناية .

وفي موهن من الليل ، افاقت من رقادها . كانت الآن موقنة ، ولقد سمعت في وضوح شخصاً يسير على مقربة دانية من السلم ، تحت نافذتها . وهرعت إلى خادعة النافذة وفتحتها . كان ثمة في الواقع رجل في الحديقة يحمل بيده هراوة ضخمة . وفي اللحظة التي اوشكت فيها على الصراخ ، اضاء القمر وجه الرجل . كان أباها !

وارتدت إلى سريرها ، قائلة :

— « واذن ، فهو قلق حقاً ! »

وأمضى جان فالجان تلك الليلة والليلتين التاليتين في الحديقة . لقد رأته كوزيت من خلال الثقب الذي في مصراع نافذتها .

وفي الليلة الثالثة كان النقصان قد ألمّ بالقمر ، وكان قد ارتفع في ساعة متأخرة ، ولعل ذلك كان في الساعة الواحدة صباحاً ، عندما سمعت ضحكة مدوية ، وصوت أبيها يناديها :

— « كوزيت ! »

فوثبت من سريرها ، وطرحت مبذلها على جسمها ، وفتحت نافذتها . كان ابوها في الرقعة المعشوشبة .

وقال :

- « لقد ايقظتك لكي أوقع في نفسك الطمأنينة . انظري . هو ذا ظلك ذو القبعة المستديرة . »

وأشار إلى ظل بسطه القمر على العشب ، ظل كان يشبه رجلا ذا قبعة مستديرة شبهاً بعيداً جداً . كانت صورة أحدثتها مدخنة موقد ذات غطاء ، صُنعت من صفائح الحديد وارتفعت فوق سطح مجاور .

وشرعت كوزيت تضحك ايضاً ، وخرّت افتراضاتها المظلمة كلها على الارض . وفي اليوم التالي ، بينا كانت تتناول الفطور مع أبيها تفكهت بحديث الحديقة الغريبة الآهلة بظلال مداخن المواقد .

واستعاد جان فالجان اطمئنانه كاملا . أما كوزيت فلم تلاحظ في كثير من العناية ما إذا كانت مدخنة الموقد فعلا في اتجاه الظل الذي رأته أو ظنت انها رأته ، وما إذا كان القمر في موقعه نفسه من السماء . ولم تتساءل قط عن غرابة تلك المدخنة التي تخشى ان يُقبض عليها متلبسة بالجريمة ، والتي تنسحب حين تنظر الى ظلها . ذلك بأن الظل كان قد اختفى حين استدارت كوزيت ، وكانت كوزيت قد اعتقدت حقاً انها على ثقة من ذلك . لقد عمرت الطمأنينة فؤاد كوزيت . فقد بدا الدليل كاملا في نظرها ، ولم تخامرها منذ ذلك الحين تلك الفكرة القائلة بأن شخصاً من الاشخاص كان يمشي في الحديقة ذلك المساء أو تلك الليلة ، على الاطلاق .

ومع ذلك ، فقد وقعت بعد بضعة ايام حادثة جديدة .

٣
تعليقات كوسين تذكي جذوة مخاوفها

وكان في الحديقة ، قرب الباب الحديدي المؤدي إلى الشارع ، مقعد حجري يحجبه سياج شائك عن أعين الفضوليين ، ولكن في استطاعة يد عابر السبيل ، مع ذلك ، ان تبلغه ببعض الجهد ، من خلال الباب الحديدي والسياج الشائك .

وذات مساء من نيسان نفسه ، غادر جان فالجان المنزل ايضاً . وكانت كوزيت قد جلست ، بعد غروب الشمس ، على هذا المقعد . كانت الريح تشتد في الاشجار ، وكانت كوزيت مستغرقة في التفكير. كان حزن غامض قد شرع يستحوذ عليها قليلا قليلا ، ذلك الحزن القهار الذي يخلعه المساء ، والذي ينبثق — فمن يدري ؟ — من سر القبر نصف المفتوح في تلك الساعة .

ولعل فانتين كانت في ذلك الظل .

ونهضت كوزيت ، ودارت حول الحديقة في أناة ، ماشية على العشب الذي كان مثقلاً بالندى ، قائلة لنفسها من خلال تلك النيدلة* الكئيبة التي اكتنفتها : « ان المرء ليحتاج إلى حذاء خشبي يسير به في الحديقة في مثل هذه الساعة . إني سوف اصاب بزكام . »

وانقلبت إلى المقعد .

ولحظةَ كانت تجلس عليه ، لاحظت في المكان الذي فارقته حجراً ضخماً لم يكن هناك ، من غير ريب ، قبل لحظة .

وتأملت كوزيت هذا الحجر ، سائلة نفسها عن المعنى الذي ينطوي عليه . وفجأة خطر لها أن هذا الحجر لم يجيء بنفسه إلى ذلك المقعد ، وأن شخصاً ما قد وضعه هناك ، وان ذراعاً قد مرت من خلال الباب

---

* النيدلة : السير اثناء الرقاد .

الحديدي المقضب . وعصف بها الذعر . كان ذعراً حقيقياً هذه المرة . لا مجال للشك على الاطلاق ؛ فالحجر كان هناك . ولم تمسه . وولت هاربة من غير ان تجروء على النظر إلى وراء . وفزعت إلى البيت . وفي الحال أوصدت باب السلم الزجاجي بالمصراع الخشبي ، وبالمتراس والمزلاج . وسألت توسين :

— « هل رجع ابي ؟ »

— « لا ، إنه لم يرجع بعد ، يا آنسة . »

(لقد اشرنا مرة إلى تمتمة توسين . فليسمح لنا القاريء أن لا نصور ذلك من جديد . فنحن نكره العلامات الموسيقية الخاصة بعاهة من العاهات .)

وكان من دأب جان فالجان — وهو رجل يألف التفكير والمشي في موهن من الليل — ان لا يؤوب إلا في ساعة متأخرة .

واضافت كوزيت :

— « توسين ، اهتمي كل مساء باغلاق المصاريع جيداً بالحديد ، فوق الحديقة على الاقل ، ولا تنسي ان تُدخلي الاشياء الحديدية الصغيرة في الحلقات الصغيرة التي توصد الابواب والنوافذ . »

— « اوه ، لا تخافي ، يا آنسة . »

ولم تكن توسين لتهمل ذلك ، ولقد كانت كوزيت تعرف هذا جيداً ، ولكنها لم تتمالك أن تضيف :

— « لأن المنطقة منعزلة جداً . »

فقالت توسين :

— « لستِ مخطئة من هذه الناحية . إننا قد نُذبح قبل ان نجد متسعاً من الوقت لنقول آخ ! ثم إن السيد لا ينام في البيت . ولكن لا تخافي ، يا آنسة . إني اوصد النوافذ كالباستيل . أمرأتان متوحدتان ! أنا أعتقد جيداً أن هذا كاف لأن يحملنا على الارتعاد . فكري ، مجرد تفكير ،

بأنك ترين رجالا يدخلون إلى الغرفة ليلا ، ويقولون لك : « هش ! » ويشرعون في حز حنجرتك . ليس خوفنا من الموت . فالناس يموتون ، هذا حسن ، ونحن نعرف جيداً ان علينا ان نموت ، ولكنه الذعر من ان يمسنا مثل هؤلاء الناس . وفوق هذا ، فعندك سكاكينهم . انها تحز على نحو رديء من غير شك ! آه ، يا الٓهي ! »

فقالت كوزيت :

— « اسكتي ! اغلقي كل شيء جيداً . »

ولم تجرؤ كوزيت ، وقد روعتها المأساة التي ارتجلتها توسين — ولعلها رُوعت ايضاً بذكرى أطياف الاسبوع الماضي التي عاودتها — لم تجرؤ حتى على ان تقول لها : « اذهبي وانظري إلى الحجر الذي وضعه شخص ما على المقعد ! » بسبب من خوفها ان يفتح باب الحديقة كرة اخرى ، وخشية ان يدخل « الرجال » من جديد . لقد أغلقت جميع الابواب والنوافذ في عناية ، وطلبت إلى توسين أن تطوف بالبيت كله ، من القبو إلى العلية ، واحتبست نفسها في غرفتها ، وأحكمت إيصاد الباب بالحديد ، ونظرت تحت السرير ، واستلقت عليه ، ونامت نوماً قلقاً . وطوال الليل ، رأت الحجر الكبير كالجبل ، مليئاً بالكهوف .

وعند شروق الشمس — ومن خصائص شروق الشمس أنه يجعلنا نضحك على مخاوفنا الليلية كلها ، وضحكتنا تكون دائماً متناسبة مع الخوف الذي ألم بنا — نهضت كوزيت ، ناظرة إلى ذعرها وكأنه كابوس من الكوابيس ، وقالت في ذات نفسها : « ما الذي رأيته في الحلم ؟ إنها مثل تلك الخطى التي اعتقدت أنني سمعت وقعها ليلا ، خلال الاسبوع الماضي ، في الحديقة ! إنه مثل خيال مدخنة الموقد ! هل سأغدو جبانة منذ اليوم ؟ »

واشرقت اشعة الشمس من خلال فروج النافذة الخشبية ، وخلعت على الستائر الدمقسية لون الارجوان ، فأعادت الطمأنينة إلى نفس كوزيت

حتى لقد زايلتها تلك الأفكار كلها ، ونسيت حتى الحجر .

— « لم يكن ثمة حجر على المقعد ، كما انه لم يكن في الحديقة رجل ذو قبعة مستديرة . لقد رأيت الحجر في منامي ، كما رأيت سائر الاشياء في منامي أيضاً . »

وارتدت ثيابها ، ونزلت إلى الحديقة ، ومضت إلى المقعد ، وأحست بالعرق البارد يتصبب منها . كان الحجر هناك .

ولكن ذلك لم يدم غير لحظة . فما هو ذعر في الليل يصبح فضولاً في النهار . وقالت :

— « عجيب ! دعني أرى ! »

ورفعت الحجر الذي كان كبيراً الى حد لا بأس به ، فاذا تحته شيء اشبه ما يكون برسالة .

كان ظرفاً ورقياً أبيض . وأمسكت به كوزيت . لم يكن على احد جانبيه عنوان ، ولم يكن على جانبه الآخر خاتم . ومع ذلك ، فالظرف على الرغم من انه كان مفتوحاً لم يكن فارغاً . كان في امكانها أن ترى الاوراق فيه .

وقلبته كوزيت بين يديها . لم يعد ثمة ذعر ، ولم يبق ثمة فضول . كان ثمة بدء شوق قلق .

وأخرجت كوزيت ما في الظرف ، كان دفتراً مرقمةً صفحاته كلها ، وقد انطوى كل منها على بضعة اسطر كتبت بخط جميل بعض الشيء ، كما اعتقدت كوزيت ، ودقيق جداً .

وبحثت كوزيت عن اسم ، فلم تجد شيئاً . وعن توقيع ، فلم تجد شيئاً . إلى من كانت الرسالة موجهة ؟ اليها في اغلب الظن ، ما دامت يد قد وضعت الرزمة على مقعدها . من الذي أرسلها ؟ واستبدت بها فتنة لا سبيل إلى مقاومتها ، وحاولت أن تشيح ببصرها عن تلك الاوراق التي ارتعشت في يدها ، ونظرت إلى السماء ، إلى الشارع ،

إلى شجرات الطلح الندية بالضياء ، وإلى حمائم كانت تطير فوق سطح مجاور ، ثم انخفض بصرها ، فجأة ، وفي لهفة ، ملتمساً المخطوطة ، وقالت في ذات نفسها ان عليها ان تعرف ما الذي كان فيها .

واليك ما قرأت :

٤
قلب تحت حجر

اختصار الكون إلى كائن فرد ، وبسط الكائن الفرد حتى الاله... ذلك هو الحب .

*

الحب تحية الملاك للنجوم .

*

ما اعظم حزن الروح حين تكون محزونة من الحب !

*

ايّ فراغ هو غياب الكائن الذي يملأ وحده العالم كله ! أوه ! ما اصدق قولهم ان الكائن المحبوب يصبح رباً ! إن المرء ليدرك ان الله خليق به ان يكون شديد الغيرة إذا لم يخلق أبو الجميع الكون من اجل النفس ، والنفس من اجل الحب !

*

حسبُ النفس ومضة ابتسامة تحت قبعة من الكريب الأبيض ذات تُويج زنبقي حتى تدخل إلى قصر الاحلام .

*

إن الله من وراء كل شيء ، ولكن كل شيء يخفي الله . الاشياء

سوداء ، والكائنات غير شفافة . وحبك كائناً ما ، يعني انك تحيله شفافاً .

*

بعض الأفكار صلوات . هناك لحظات تكون فيها النفس جاثية على ركبتيها مهما كان وضع الجسد .

*

إن المحبين اللذين باعد ما بينهما الزمان يخدعان الغيبة بالف شيء وهمي لها برغم ذلك حقيقتها . لقد حُرم احدهما رؤية صاحبه ، وليس في ميسورهما أن يتراسلا ، ولكنهما يجدان جمهرة من وسائل المراسلة الغريبة . انهما يحمّلان تغريد الطيور ، وشذا العطور ، وضحك الاطفال ، وضياء الشمس ، وتنهدات الريح ، وأشعة الكواكب ، والكون كله رسائلهما تلك . ولم لا ؟ إن جميع ما أبدعه الله إنما جُعل لخدمة الحب . والحب هو من القوة بحيث يستطيع ان يحمّل الطبيعة كلها رسائله .

ايه ايها الربيع ! انت رسالة أدبجها لها .

*

لا يزال المستقبل للقلب اكثر مما هو للعقل . فالحب هو الشيء الوحيد القادر على أن يحتل الأبدية ويملأها . إن اللانهائي لفي حاجة إلى اللانافد .

*

الحب يشارك النفس نفسها . إنه من الجبلة ذاتها . هو مثلها شرارة الـلهية . وهو مثلها ممتنع على الفساد ، ممتنع على التجزئة ، ممتنع على الزوال . إنه معين نار في باطننا ، خالد ولا نهائي ، فليس في استطاعة شيء ان يضع حداً له ، وليس في استطاعة شيء أن يطفئه . نحن نحس به يضطرم حتى في مخ عظامنا ، ونحن نراه يشع

حتى إلى أعماق السماء .

*

ايه ايها الحب ! لك المجد ! يا ضياء عقلين متفاهمين ، وقلبين متقايضين ، ونظرتين متداخلتين ! إنك سوف تقبل علي ، اليس كذلك، أيها اليُمن ؟ نزهات مشتركة في المناطق المتوحدة ! ايام مباركة مشعة ! لقد حلمت احياناً بأن الساعات كانت تنفصل ، بين الفينة والفينة ، عن حياة الملائكة وتهبط إلى هنا ، على الارض ، لكي تنفذ في مصائر الناس واقدارهم .

*

ليس في استطاعة الرب ان يضيف شيئاً إلى سعادة اولئك الذين يحب بعضهم بعضاً ، غير اعطائهم الديمومة اللامتناهية . فبعد حياة الحب تكون ابدية الحب زيادة حقاً . أما زيادة كثافة السعادة التي لا سبيل إلى وصفها ، السعادة التي يضفيها الحب على النفس في هذا العالم ، فذلك امر متعذر حتى على الاله . إن الله كمال السماء ، وإن الحب كمال الانسان .

*

انك تنظر إلى النجم بدافعين ، لأنه ساطع ، ولأنه ممتنع على الفهم . إن إلى جانبك شعاعاً الطف ، ولغزاً اعظم : المرأة .

*

ان لنا جميعاً ، كائناً من كنا ، اجهزتنا التنفسية . فاذا ما أعوزتنا ، أعوزنا الهواء ، وعندئذ نقضي نحبنا . والموت من فقرنا إلى الحب شيء مروع . إنه اختناق النفس .

*

حين يذيب الحب كائنين ويمزج ما بينهما في وحدة ملائكية مقدسة ينكشف لهما سر الحياة . انهما لا يعدوان ، عندئذ ، أن يكونا تعبيرين

اثنين لقدر مفرد . إنهما لا يعدوان ، عندئذ ، ان يكونا جناحين لروح مفردة . فلأن تحب يعني ان تحلّق !

*

يوم تمر بك امرأة تسفح الضياء عليك فيما هي تمضي لسبيلهـا ، فيأخذك الذهول ، فعندئذ تكون قد أحببت . وليس امامك ، بعدئذ ، غير شيء واحد ينبغي ان تعمله : أن تفكر فيها بتركيز بالغ يكرههـا آخر الأمر على ان تفكر فيك .

*

ما يبدأه الحب فليس في ميسور أحد غير الله أن ينهيه .

*

الحب الحقيقي يغالي في الحزن ويأخذه الجذل من أجل قفاز ضائـع أو منديل يعثر عليه ، وهو محتاج في تفـانيه وآمـاله إلى الأبـديـة . إنـه يتألف من العظيم إلى ما لا نهاية ومن الصغير إلى ما لا نهاية فـي وقت معـاً .

*

اذا كنت صخرة فكن ودوداً . واذا كنت نبتة فكن حساساً . واذا كنت رجلا فكن حباً .

*

ليس يكفي الحبَّ شيء . فحين نفوز بالسعادة نطمع بالجنة . وحين نفوز بالجنة نطمع بالسماء .

إيه يا من تحبون بعضكم بعضاً ، هذا كله في الحب . كونوا مـن الحكمة بحيث تعثرون عليه . إن في الحب من التأمل مثل ما في الجنة ، ومن الجذل اكثر مما في الجنة .

*

— « ألا تزال تجيء إلى اللوكسومبورغ ؟ » — « لا ، يا سيدي . » —

« إنها تسمع القداس في هذه الكنيسة ، أليس كذلك ؟ » — « إنهـــا ما عادت تجيء إلى هنا . » — « ألا تزال تعيش في هذا البيت ؟ » — « لقد انتقلت ! » — « إلى أين انتقلت ؟ » — « إنها لم تقل ! »
ما أقتم جهل المرء عنوانَ روحه !

*

للحب صبيانياته ، أمـا العواطف الاخرى فلها صغائرهـا . الخزي للعواطف الـتي تحيل الانسان صغيراً ! والمجـد لتلك الـتي تردّه طفــلا !

*

هذا شيء عجيب ، اتعرف ذلك ؟ أنا في الظلام . إن ثمـة مخلوقـة مضت لسبيلها حاملة السماء معها .

*

أوه ! لأن أرقد معها جنباً إلى جنب في الجدث نفسه ، ويدي في يدها ، ولأن ألمس في الظلام ، بين القينة والقينة ، اصبعاً من اصابعها في لطف ، كافيان لتحقيق سرمديتي .

*

يا من تتألمون لأنكم تحبون ، أحبوا اكثر . فالموت حبـــاً هـــو الحيــاة بــه .

*

أحبوا . إن تجلياً كوكبياً كئيباً ليمتزج بهذا النكال . إن ثمـــة نشوة روحية في الحشرجة .

*

يا لابتهاج الطيور ! إن لها تغريدها لأن لها أعشاشها .

*

الحب تنفس سماوي لهواء الجنة .

*

إن القلوب الكبيرة والعقول الحكيمة تتقبل الحياة كما أبدعها الله . إنها تجربة طويلة ، استعداد خفي للقدر المجهول . وهذا القدر - الحقيقي - يبدأ بالنسبة إلى الانسان عند الخطوة الأولى في داخل القبر . . وعندئذ يتبدى له شيء ، ويشرع في تبين النهائي . النهائي ، فكّر في هذه الكلمة . الأحياء يرون اللانهائي ، أما النهائي فلا يتكشف إلا للاموات . وفي غضون ذلك ، أحبوا وتألموا ، وأمّلوا وتأملوا . والويل ، والأسفاه ، لذلك الذي لم يحب إلا اجساداً ، واشكالا ، وظواهر كاذبة ! ان الموت سوف ينتزع ذلك كله منه . حاولوا ان تحبوا نفوساً ، فلسوف تجدون تلك النفوس كرة اخرى .

*

لقد التقيت في الشارع شاباً معدماً تيمه الحب . كانت قبعته عتيقة ، وكانت ثيابه متهرئة . وكان مرفقاه مثقوبين . لقد تسرب الماء من خلال حذائه ، وتسربت النجوم من خلال روحه .

*

ما اعظم أن يكون المرء محبوباً ! واعظم من ذلك ان يحب ! إن القلب ليغدو باسلا بفضل الهيام . إنه لا يعود مؤلفاً من شيء غير ما هو محض وخالص ، وانه لا يعود ناهضاً على شيء غير ما هو رفيع وعظيم . عندئذ يتعذر على الفكرة غير اللائقة ان تنبثق فيه إلا بمقدار ما ينبت القرّاص على سطح جبل من جليد . إن النفس الشامخة الرائعة ، الممتنعة على الشهوات والانفعالات المبتذلة ، المرتفعة فوق سُحب هذا العالم وظلاله - الحماقات ، والاكاذيب ، والاحقاد ، والاباطيل ، وضروب الشقاء - لتقيم في زرقة السماء ، ولا تستشعر غير ارتجاجات القدر العميقة الخفية ، كما تستشعر قمم الجبال هزات الارض .

*

لو لم يكن ثمة من يحب ، لانطفأت الشمس .

٥
كوزيت بعد الرسالة

وخلال تلك التلاوة انخرطت كوزيت ، تدريجياً ، في دنيا الأحلام . ولم تكد ترفع عينيها عن السطر الاخير من الصفحة الاخيرة حتى اقبل الضابط الوسيم – فقد حان وقته – ومر بالباب الحديدي مظفراً . ووجدته كوزيت بشعاً مروّعاً .

وعاودت تأملها في الرسالة . كانت مرقومة بخط فاتن ، كذلك فكرت كوزيت . لقد كتبتها يد واحدة ، ولكن باحبار مختلفة ، هي حيناً سوداء فاحمة ، وهي حيناً ضاربة إلى البياض ، عند وضع الماء في المحبرة ، مما يؤذن بأن ذلك قد تم في ايام متعددة . كانت اذن فكرة سُفحت هناك ، زفرةً زفرةً ، من غير ما نظام ، من غير ما نسق ، من غير ما اختيار ، من غير ما غاية ، وكيفما اتفق . ولم يقدر لكوزيت أن تقرأ شيئاً مثل هذا من قبل . وتركت هذه المخطوطة ، التي وجدتها كوزيت مع ذلك وضوحاً اكثر منها غموضاً ، أثراً في نفسها مماثلا لأثر معبد نصف مفتوح . كان كل من هذه الاسطر العجيبة يتألق امام عينيها ، ويغمر فؤادها بضياء غريب . وكانت التربية التي أخضعت لها قد حدثتها عن الروح دائماً ، ولم تحدثها قط عن الحب ، فهي اشبه ما تكون بشخص يتكلم عن الجذوة ولا يتكلم عن الشعلة البتة . وكشفت لها هذه المخطوطة ذات الصفحات الخمس عشرة ، فجأة وفي عذوبة ، عن الحب كله ، وعن الألم ، والقدر ، والحياة ، والابدية ، والبداية ، والنهاية . كانت مثل يد انفتحت وألقت عليها ، فجأة ، حفنة من شعاع الشمس . لقد استشعرت في تلك الاسطر القليلة طبيعة منفعلة ، محتدمة ، سخية ، صادقة ، وارادة متفانية ، وأسى ضخماً ، وأملا لا

حد له ، وقلباً منقبضاً ، ونشوة روحية بهيجة . أي شيء كانت تلك المخطوطة ؟ رسالة . رسالة من غير عنوان ، من غير اسم ، من غير تاريخ ، من غير توقيع ، ملحة وغير مغرضة ، احجية مؤلفة من حقائق . رسالة حب جُعلت لكي ينقلها ملاك وتقرأها عذراء ، موعد مضروب وراء الارض ، رسالة غرامية من طيف إلى ظل . كان شخصاً غائباً هادئاً ، وإن يكن مرهقاً ، شخصاً بدا وكأنه مستعد لأن يجد في الموت ملجأ ، وقد بعث إلى الغائبة سر القدر ، مفتاح الحياة ، الحب . لقد كُتبت والقدم في القبر ، والأصبع في السماء . إن تلك الاسطر ، الهابطة واحداً اثر واحد على الورق ، كانت ما يمكن ان ندعوه قطرات النفس .

والآن ، عمن يمكن ان تكون هذه الصفحات قد صدرت ؟ من الذي يمكن ان يكون قد كتبها ؟

ولم تتردد كوزيت لحظة . رجل واحد ليس غير .

هو !

كان الضياء قد بُعث في ذهنها ، وتبدى لها كل شيء كرة اخرى . لقد شعرت بابتهاج رائع وحصر نفسي عميق . كان هو ! هو الذي كتب اليها ! هو الذي كان هناك ! هو الذي مرت ذراعه عبر ذلك الباب الحديدي المقضب ! ففيما كانت هي تنساه ، عثر هو عليها من جديد ! ولكن هل نسيته حقاً ؟ لا ، على الاطلاق ! كانت مخبولة إذ ظنت ذلك لحظة واحدة . لقد أحبته دائماً ، وتدلهت به دائماً . كانت النار مغطاة بالرماد ، وكانت قد ُخنقت فترة من الزمان ، ولكنها كانت تراها جيداً . إنها لم تزد على ان غاصت إلى الأعماق ، وها هي ذي الآن تنفجر من جديد وتلهب كيانها كله . كانت تلك الرسالة أشبه بشرارة سقطت من تلك الروح الاخرى إلى روحها . وأحست بالحريق تضطرم نيرانه كرة اخرى . وتشبعت بكل كلمة من كلمات المخطوطة .

وقالت : « آه ، اجل ! كيف أدرك ذلك كله ! ذلك ما سبق لي ان قرأته في عينيه . »

وحين أتمت تلاوة الرسالة للمرة الثالثة عاود الملازم الاول تيبودول الظهور أمام الباب الحديدي المقضب ، وصلّ مهمازُه على حصباء الطريق . ورفعت كوزيت عينيها على نحو آلي . لقد خالته تافهاً ، أبله ، سخيفاً ، لا غناء فيه ، مغروراً ، بغيضاً إلى النفس ، وبشعاً جداً . وحسب الضابط ان الواجب يقتضيه ان يبتسم ، فأشاحت بوجهها خجلة مغيظة . وكانت خليقة بأن تبتهج لو استطاعت ان تقذف رأسه بشيء ما .

وولت فراراً ، وانقلبت إلى المنزل ، واوصدت على نفسها باب غرفتها لكي تعيد تلاوة المخطوطة ، ولكي تحفظها عن ظهر قلب ، ولكي تستسلم إلى التأمل . حتى إذا قرأتها قراءة جيدة ، قبلتها ووضعتها في صدرها .

وقضي الأمر . لقد استحوذ الحب الاثيري العميق على كوزيت ، مرة ثانية . كانت هاوية عدْن قد فُتحت امامها من جديد .

وطوال ذلك النهار ، غلب على كوزيت ضرب من الذهول . لقد تعذر عليها التفكير ، أو كاد . كانت الافكار اشبه شيء بكبة غزل مشوشة متشابكة في دماغها . ولم تستطع ان تحدس بشيء . ورجت ، حتى من خلال رعدتها — ماذا ؟ — اشياء غامضة . ولم تجرؤ على ان تعد نفسها بشيء ، ولم ترغب في ان تأبى على نفسها شيئاً . وران الشحوب على وجهها بعد الشحوب ، وعصفت الرعدة بجسدها بعد الرعدة . لقد بدا لها في بعض اللحظات انها دخلت في دنيا الأوهام . وقالت في ذات نفسها : « هل هذا حقيقي ؟ » ثم لمست الورقة الحبيبة تحت ثوبها ، وضغطتها على فؤادها ، واستشعرت زواياها فوق لحمها . ولو قد رآها جان فالجان في تلك اللحظة اذن لارتعد أمام ذلك الابتهاج الساطع

المجهول الذي أومض من مقلتيها . وفكرت قائلة : « اوه ، أجل ! إنه هو حقاً ! لقد جاءتني هذه منه ! »

وقالت في ما بينها وبين نفسها إن تدخلاً من جانب الملائكة ، إن حظاً سماوياً قد أعاده اليها .

يا لتجلي الحب ! يا للأحلام ! إن هذا الحظ السماوي ، إن تدخل الملائكة هذا ، كان كُرَيَّة الخبز التي القاها لص إلى لص من محكمة شارلمان إلى « حفرة الاسود » ، فوق سطوح سجن لا فورس .

٦

لقد جعل العجائز للخروج حين يكون ذلك ملائماً

وحين هبط المساء ، غادر جان فالجان المنزل . وارتدت كوزيت فستانها ، ورجلت شعرها على النحو الذي كان يلائمها اكثر الملاءمة ، وارتدت ثوباً كان عنقه — بعد أن اقتطع منه المقص اكثر مما ينبغي فهو يكشف بهذا التجويف عن أصل العنق — « غير محتشم بعض الشيء » كما تقول الفتيات الصغيرات . ولم يكن ذلك الثوب غير محتشم بحال من الاحوال ، ولكنه كان اجمل من اي ثوب من طراز آخر . وإنما اتخذت هذه الزينة كلها من غير أن تدري لماذا .

أكانت تعتزم مغادرة المنزل ؟ لا .

أكانت تنتظر ان يزورها أحد ؟ لا .

وعند الزوال ، هبطت إلى الحديقة . كانت توسين مشغولة في مطبخها المطل على الفناء الخلفي .

وشرعت تمشي تحت الاغصان ، مقصية اياها جانباً ، بين الفينة والفينة ، لأن بعضها كان خفيضاً جداً .

وهكذا انتهت إلى المقعد .

كان الحجر ما يزال هناك .

وقعدت ، ووضعت يدها البيضاء الناعمة على ذلك الحجر وكأنما كانت تلاطفه وتشكره .

وفجأة ، استشعرت ذلك الاحساس ، الممتنع على التحديد ، الذي نستشعره – على الرغم من عدم رؤيتنا شيئاً – حين يكون شخص ما ، واقفاً خلفنا .

وادارت رأسها ، ونهضت .

كان هو .

كان حاسر الرأس . وكان يبدو شاحباً ومهزولا . ولم تتبين بذلته السوداء إلا بشق النفس . فقد أبهت الغسق جبينه الوسيم ، وغطى عينيه بالظلام . كان فيه ، تحت حجاب من العذوبة لا يضاهى ، شيء من الموت ومن الليل . وكان وجهه مضاء بنور يوم محتضر ، وبتفكير نفس مفارقة .

لقد بدا وكأنه لمّا يُمسِ طيفاً ، ولكنه لم يعد بعد رجلا .

كانت قبعته مطروحة على بضع خطوات ، في وسط الأدغال .

وأشرفت كوزيت على الاغماء ، فلم تطلق صيحة واحدة . لقد ارتدت إلى الوراء ، في مهل ، اذ احست وكأن شيئاً يجذبها إلى أمام . ولم يأت هو بحركة . ومن خلال ذلك الشيء المحزون الممتنع على الوصف ، والذي كان يلفه ، استشعرت نظرة عينيه اللتين لم ترهما .

والتقت كوزيت ، في تراجعها ، بشجرة ما، فاستندت اليها . ولولا هذه الشجرة لسقطت على الارض .

ثم إنها سمعت صوته ، ذلك الصوت الذي لم تسمعه سماعاً حقيقياً

من قبل قط ، مرتفعاً ، وما يكاد ، فوق حفيف الاغصان ، مغمغماً :

— « عفواً ، أنا هنا . ان قلبي ليتفطر، ولم يكن في ميسوري أن أحيا كما كنت أحيا ، ومن اجل ذلك اقبلت . هل قرأتِ ما وضعته هناك ، على هذا المقعد ؟ هل عرفتني ولو معرفة بسيطة ؟ لاَ تخافي مني . لقد انقضت على ذلك فترة طويلة ، فهل تذكرين يوم نظرتِ الي ؟ كان ذلك في حديقة اللوكسومبورغ ، قرب « المقاتل » . ويوم مررت بي ؟ كان ذلك في السادس عشر من حزيران ، والثاني من تموز . وبعد فترة قصيرة يكون قد انقضى على ذلك عام كامل . أنا لم أرك منذ زمن طويل . لقد سألت مؤجرة الكراسي فأنبأتني انها ما عادت تراك البتة . لقد عشتِ في « شارع الغرب » ، في الدور الثاني من مقدّم البناء ، في منزل جديد ، أرأيتِ ، اني أعرف ! لقد تبعتك . واي شيء كان ينبغي ان افعله ؟ وخيل الي اني رأيتك تمرّين ذات يوم وأنا أقرأ الصحف تحت أقواس الاوديون . وركضت . ولكن لا . كان شخصاً يعتمر بقبعة مثل قبعتك . وعندما يهبط الليل ، اجيء إلى هنا . لا تخافي ، إن احداً لا يراني . اني اجيء لأرى إلى نوافذك عن كثب . انا أمشي في كثير من الرفق لكي لا تسمعيني ، فقد تروّعين لو لم أفعل . وفي احدى الليالي الماضية كنت خلفك ، واستدرتِ ، فوليت فراراً . وذات يوم ، سمعتك تغنين . وغمرتني السعادة . هل يزعجك سماعي غناءك من خلال مصراع النافذة ؟ ان ذلك لا يمكن ان يصيبك بأذى ما . أجل لا يمكنه ان يصيبك بأذى ، أليس كذلك ؟ انظري ، انت ملاكي . دعيني اجيء في بعض الاحيان ، أنا اعتقد اني سوف اموت . ليتك فقط تعرفين ! اعذريني ، انا اخاطبك ، انا لا أدري ما الذي أقوله لك . جائز ان يكون في صنيعي هذا ما يغضبك . هل أغضبك حقاً ؟ »

وقالت :

— « اوه ، واأماه ! »

وتمايلت خائرة القوى ، وكأنما كانت تحتضر .

وامسك بها ، وخرّت على الارض ، فضمها بين ذراعيه ، وهصرها في شدة ، غير واع ما الذي كان يعمله . واسندها فيما كان هو نفسه يتمايل . فقد استشعر وكأن رأسه مليء بالدخان . واخترقت جفنيه ومضات من ضياء . وتلاشت أفكاره . لقد بدا له وكأنه يؤدي فريضة دينية ، وينتهك حرمة شيء مقدس . وإلى هذا ، فأنه لم يحس العاطفة عارمة نحو هذه الفتاة الفاتنة التي كان يستشعر صورتها على فؤاده . كان الحب قد أفقده صوابه .

وأمسكت بيده ، ووضعتها على فؤادها . وأحس بالورقة هناك ، وتمتم :

— « أنتِ تحبينني ، اذن ؟ »

فأجابته بصوت خفيض جداً ، فهو لا يعدو ان يكون نفَساً ما يكاد يُسمع :

— « صه ! أنت تعرف ذلك ! »

وخبأت رأسها المحمرّ في صدر الشاب الفخور الثمل .

وارتمى على المقعد ، وهي إلى جانبه . وتعطلت لغة الكلام . كانت النجوم قد شرعت تشع . كيف اتفق ان التقت شفتاهما ؟ كيف يتفق للعصفور ان يغرد ، وللثلج ان يذوب ، وللوردة ان تنوّر ، ولنوار ان تتفتح أكمامه ، وللفجر ان يبيضّ خلف الاشجار السوداء على قمة التلال المرتعدة ؟

قبلة واحدة ، ذلك كان كل شيء .

وارتعدا جميعاً ، ونظر كل منهما إلى الآخر ، وسط الظلام ، بعينين ملتمعتين .

ولم يحسا لا بالليل المعتدل البرودة ، ولا بالحجر البارد ، ولا بالارض الرطبة ، ولا بالعشب الندي . لقد تبادلا النظرات وفؤاد

كل منهما طافح بالافكار . وكانا قد شبكا يديهما ، من غير أن يدريا .

ولم تسأله – بل ان ذلك لم يخطر لها على بال – كيف وبأيما طريقة وفّق للدخول إلى الحديقة . لقد بدا لها أن من الطبيعي جداً ان يكون هناك !

ومن حين إلى حين كانت ركبة ماريوس تمس ركبة كوزيت . وارتعدا جميعاً .

وبين الفينة والفينة كانت كوزيت تتلجلج بكلمة . وارتجفت روحها على شفتيها ، كما ترتجف قطرة من ندى على ريحانة من الرياحين .

وشيئاً بعد شيء ، شرعا يتكلمان . وخلَفَ التدفقُ الصمتَ الذي هو افراط . كان الليل رائعاً سنياً فوق رأسيهما . وتناجى هذان الكائنان ، الطاهران طهارة الارواح ، بكل شيء : باحلامهما ، وخبالاتهما ، ونشواتهما ، واوهامهما ، وقنوطهما ، وكيف عبد كل منهما الآخر عن بعد ، وكم قد تاق كل منهما إلى الآخر ، واليأس الذي غلب عليهما حين فرقت ما بينهما الأيام . لقد تطارحا ، في حميمية مثالية لم يستطع شيء الآن ان يزيدها قوة ، كلَّ ما عندهما من محجوب إلى ابعد الحدود ، وغريب إلى أبعد الحدود . وروى احدهما للآخر ، بأيمان ساذج باوهامهما ، كل ما اوحاه إلى تفكيرهما الحب ، والشباب ، وما بقي لديهما من طفولة . لقد تدفق احد هذين القلبين في الآخر ، حتى إذا انقضت ساعة من الزمان كان الشاب قد أشرِب روح الفتاة ، وكانت الفتاة قد أشرِبت روح الشاب . لقد تداخلا ، وتساحرا ، وبهر احدهما الآخر .

وحين انتهيا ، حين فرغا من قول كل شيء ، وضعت رأسها على كتفه وسألته :

– « ما اسمك ؟ »

فقال :

– « اسمي ماريوس . وانت ؟ »

– « اسمي كوزيت . »

الكتاب السادس

غافروش الصغير

١

حيلة شريرة من حيل الريح

منذ عام ١٨٢٣ ، فيما كان فندق مونفيرماي يغرق ويبتلع شيئاً بعد شيء ، لا في هاوية الافلاس ، ولكن في بالوعة الديون الصغيرة ، رزق تيناردييه وزوجته ولدين اضافيين ، كلاهما ذكر . وهكذا أمسى عدد اولادهما خمسة : بنتين وثلاثة صبيان . وكان ذلك كثيراً .

وكانت تيناردييه الزوجة قد تخلصت من هذين الاخيرين ، وهما بعد صغيران جداً ، بمصادفة سعيدة فريدة .

« تخلصت » هي الكلمة الملائمة . فقد كان في هذه المرأة كسرة من

الطبيعة ليس غير . وفوق هذا ، فتلك ظاهرة تجد لها اكثر من مثل واحد . فمثل « المارشالة دو لا موث — هو دانكور » * كانت تيناردييه الزوجة أماً لبنتيها فحسب . لقد انتهت امومتها هناك . ومع صبيانها ، بدأت كراهيتها للجنس البشري . فمن ناحية صبيتها ، كانت نزعتها الشريرة عمودية شديدة التحدر ، وكان لقلبها عند تلك النقطة منحدر رهيب . وكما رأينا من قبل ، كانت تكره الولد الاكبر ، وتمقت الولدين الآخرين . لماذا ؟ لأنه . أفظع الدوافع وأشد الأجوبة استعصاء على المناقشة : لأنه . لقد قالت هذه الام : « انا لست في حاجة إلى رزمة صيّاحة من الاولاد . »

ويتعين علينا ان نشرح كيف وفق تيناردييه وزوجته إلى التخفف من ولديهما الاصغرين ، بل إلى استدرار الربح منهما ايضاً .

نحن نذكر تلك الفتاة ، مانيون ، التي تحدثنا عنها في صفحات سابقة ، والتي وفقت إلى حمل جيلنورمان الطيب على ان يكفل ولديها ويُجري عليهما رزقاً . كانت تحيا في الـ « كي دي سيليستين » عند زاوية شارع « بيتي موسك » القديم الذي بذل غاية جهده لكي يحول سمعته البغيضة إلى شذا عاطر . وكثير من الناس يذكرون وباء الذبحة الذي أحزن ، منذ خمسة وثلاثين عاماً ، تلك الاحياء القائمة على ضفاف السين في باريس ، والذي افاد العلم منه لكي يختبر ، على نطاق واسع ، فعالية إدخال حجر الشب بالنفخ ، هذا العلاج الذي استعيض عنه اليوم ، لحسن الحظ ، بصبغة اليود مستعملةً استعمالا خارجياً . ففي ذلك الوباء فقدت مانيون ولديها ، وهما بعد صغيران ، في يوم واحد ، الاول في الصباح ، والثاني في المساء . وكانت تلك ضربةً . فقد كان هذان الطفلان ذَوَيْ قيمة بالنسبة إلى امهما . كانا يمثلان ثمانين فرنكاً

* زوجة المارشال لاموث — هودانكور La Mothe — Houdancourt (١٦٠٥–١٦٧٢) مارشال فرنسة وقد دافع عن « بايون » ، في رسالة ، عام ١٦٥٢

كل شهر . وكانت هذه الفرنكات الثمانون تدفع بكثير من الدقة ، باسم مسيو جيلنورمان ، من قبل وكيل أملاكه ، مسيو بارج ، وهو حاجب محكمة متقاعد ، شارع ملك صقلية . واذ مات الولدان ، فقد دُفن الدخل . والتمست مانيون وسيلة جديدة . ففي ماسونية الشر التي كانت هي جزءاً منها كان كل القوم يعرفون كل شيء ، ويصونون السر ، ويساعد بعضهم بعضاً . لقد احتاجت مانيون إلى ولدين ! وكان عند تيناردييه وزوجته اثنان . اثنان من الجنس نفسه ، والعمر نفسه . وهكذا أمسى الصغيران تيناردييه ، الصغيرين مانيون . وغادرت مانيون الـ « كي دي سيليستين » ، ومضت لتسكن في شارع كلوشبيرس . وفي باريس تنقطع الهوية التي تشد الفرد إلى نفسه من شارع إلى شارع .

واذ لم تُحَط الحكومة علماً فانها لم تعترض ، وبذلك تمت عملية الاستبدال من أيسر الطرق . كل ما في الامر ان تيناردييه طلب ، مقابل إعارته ولديه ، عشرة فرنكات شهرياً ، فوعدته مانيون ذلك ، بل لقد دفعت اليه الجُعل . ولسنا في حاجة إلى القول إن مسيو جيلنورمان واصل الدفع . كان يفد عليهم مرتين كل عام ، لكي يرى الولدين الصغيرين . ولم يلاحظ التغير . وقالت له مانيون : « سيدي ، ما أعظم شبههما بلك ! »

وانتهز تيناردييه ، الذي كان التجسد سهلا عليه ، الفرصة لكي يصبح جوندريت . وما كادت ابنتاه وغافروش يجدون متسعاً من الوقت ليدركوا أن لهم اخوين صغيرين . وفي درك معين من البؤس ، يستحوذ على الناس ضرب من اللامبالاة الشبحية ، فهم ينظرون إلى الكائنات البشرية نظرتهم إلى يرقانات . إن اشد الناس قرابة منك كثيراً ما لا يكونون بالنسبة اليك غير اشكال من الظل غامضة لا تكاد تتبينها على خلفية الحياة الكثيرة الضباب ، ومن اليسير مزجها ثانية بالمجهول .

وعشية تسليمها ولديها الصغيرين إلى مانيون ، مسترسلة في التعبير عن

رغبتها في التخلي عنهما إلى الأبد ، عرفت تيناردييه الزوجة ، أو تظاهرت بأنها عرفت ، شكاً وتردداً . لقد قالت لزوجها : « ولكن هذا يعني تخلي المرء عن ولده ! » فما كان من تيناردييه ، إلا أن كوى هذا الشك وذاك التردد بهذه الجملة التي قالها في جزم وفي فتور : « لقد فعل جان جاك روسو شيئاً افضل ! » ومن الشك انتقلت الام إلى القلق : « ولكن لنفرض ان الشرطة اقبلت لتنكل بنا ؟ فهل ما صنعناه الآن ، يا مسيو تيناردييه ، قانوني ؟ أجب ! » واجابها تيناردييه : « كله قانوني . لن يرى ذلك احد غير السماء . وإلى هذا ، ففي موضوع الاطفال الذين لا يملكون فلساً لن تجدي شخصاً يهمه ان ينظر اليهم عن كثب . »

وكان لمانيون ضرب من التأنق في الجريمة . كانت تتخذ زينتها . وكانت تقاسمها بيتها ، المؤثث على نحو مزخرف ولكنه بائس ، لصة انكليزية متفرنسة ذكية . وهذه المرأة الانكليزية المتفرنسة ، المعروفة بعلاقاتها الواسعة ، الوثيقة الصلة بعداليات المكتبة الوطنية وجواهر « مدموازيل مارس » * ، اشتهرت في ما بعد في السجلات القضائية . كانت تدعى « الآنسة مس » .

ولم يكن ثمة ما يشكو منه الولدان اللذان أنزلا على مانيون . لقد شفعت بهما الفرنكات الثمانون فهما موضع العناية شأن كل سلعة من سلع التجارة . لقد أُلبِسا على نحو غير سيء ، وغُذيا تغذية غير رديئة ، وعوملا معاملة « سيدين صغيرين » تقريباً . وبكلمة ، فقد عاملتهما الأم الزائفة خيراً مما كانت تعاملهما الأم الحقيقية . وكانت مانيون تمثل امامهما دور السيدة ، فهي لا تتكلم امامهما بلغة السوقة .

وأنفقا بضع سنين على هذه الشاكلة . وتوسم تيناردييه في ذلك خيراً . وخطر له ذات يوم ان يقول لمانيون ، التي حملت اليه فرنكاته الشهرية

---

* Mlle. Mars ممثلة فرنسية مشهورة (١٧٧٩ – ١٨٤٧) .

العشرة : « ينبغي ان يدخلهما الوالد في احدى المدارس . »

وفجأة قُذف بهذين الطفلين البائسين ، اللذين عني بهما حتى ذلك الحين بفضل قدَرهما السيء نفسه ، في خضم الحياة ، وأكرِها على ان يبدآها من جديد .

إن اعتقالا جماعياً للمجرمين ، كذلك الذي جرى في علية جوندريت، والذي عقّدته بالضرورة مباحث واعتقالات تالية ، ليشكلُ في الواقع كارثة بالنسبة إلى ذلك « المجتمع المعاكس » الخفي ، الفظيع ، الذي يحيا تحت المجتمع العلني . فحادثة مثل هذه تنطوي على مختلف ضروب البلاء في ذلك العالم المظلم . لقد أدت كارثة تيناردييه وزوجته إلى كارثة مانيون .

وذات يوم ، بعد فترة قصيرة تقضت على تسليم مانيون المذكرة المتصلة بشارع بلوميه إلى ايبونين ، داهم رجال الشرطة شارع كلوشبيرس. واعتُقلت كل من مانيون و « الآنسة مس » . وعلق سائر افراد البيت ، وكانوا موضع الريبة ، في الشرك . وكان الصبيان الصغيران يلعبان ، آنذاك ، في الفناء الخلفي ، فلم يريا شيئاً من الغزوة . حتى إذا رغبا في الدخول إلى المنزل ، وجدا الباب موصداً ، والمنزل فارغاً . وناداهما اسكاف ، تقع دكانه تجاه المنزل ، وسلمهما ورقة كانت « امهما » قد تركتها لهما . وعلى الورقة كان هذا العنوان : مسيو بارج ، وكيل ممتلكات ، شارع ملك صقلية ، رقم ٨ . وقال صاحب الدكان لهما : « أنتما لن تقطنا هنا بعد اليوم . اذهبا إلى هناك . إنه قريب جداً . اول شارع ، إلى اليسار . إهتديا إلى المنزل بمعونة هذه الورقة . »

ومضى الولدان ، وقد قاد كبيرهما الصغيرَ ، ممسكاً بيده تلك الورقة التي كان عليها ان تهديه سواء السبيل . كان مقروراً ، وكانت اصابعه الصغيرة التي أقرسها البرد تنطبق في عسر ، وتمساك بالورقة في غير حكام . وفيما هما ينعطفان حول شارع كلوشبيرس ، انتزعتها منه ريح

عاصفة . وإذ كان الليل قد أخذ يهبط فقد عجز الطفل عن العثور عليها .

وشرعا يتيهان ، كما شاءت المصادفة ، في الشوارع .

٢

حيث يفيد غافروش الصغير من نابوليون الكبير

كثيراً ما يرافق الربيع ، في باريس ، رياح شمالية شرسة حادة ، لا تحيل المرء منجمداً على وجه الضبط ، ولكن مصقوعاً . ولهذه الرياح ، التي تكدر اجمل الايام ، مثل اثر تيارات الهواء البارد التي تدخل غرفة حارة من خلال فروج نافذة أو باب لم يُحكم اغلاقه . ويبدو ان باب الشتاء الكالح كان مفتوحاً على نحو جزئي ، وان الريح كانت تندفع من هناك . وفي ربيع ١٨٣٢ ، حين انتشر اول وباء كبير من اوبئة هذا القرن في اوروبة ، كانت هذه الرياح اكثر حدة واشد لذعاً منها في ايما وقت مضى . كان ثمة باب مشرع آخر ، باب أقسى ثلجية من باب الشتاء . إنه باب القبر . فقد كانت انفاس الكوليرا تُشَم في تلك الرياح .

ومن وجهة النظر الميتريولوجية كانت لتلك الرياح الباردة هذه الخاصة ، وهي انها لا تطرد التوتر الكهربائي القوي . لقد كثرت في هذا العصر الرياح المصحوبة بالرعد والبرق .

وذات مساء ، حين هبت هذه الرياح عنيفة ، إلى درجة بدا معها وكأن كانون الثاني قد عاد ، وارتدى البورجوازيون معاطفهم

من جديد ، كان غافروش الصغير ، المرتجف ابداً ، في مرح ، تحت اسماله البالية ، واقفاً في مثل نشوة روحية قرب دكان من دكاكين اللمم المستعارة بجوار الـ « أورم سان جيرفيه » . كان مزداناً بشال صوفي نسوي،لا يدري احد من اين التقطه ، متخذاً منه لثاماً . وبدا غافروش الصغير وكأنه معجب اشد الاعجاب بعروس من الشمع ، ذات عنق عار وغطاء رأس من زهر البرتقال . كانت تدور خلف الزجاج ، عارضة ابتسامتها – بين مصباحين اثنين – على عابري السبيل – ولكنه في الواقع كان يراقب الدكان لكي يرى ما اذا كان في استطاعته ان يسرق قطعة صابون من الواجهة ، لكي يبيعها بعد بفلس واحد لحلاق في الضاحية . وكان يتفق له في كثير من الأحيان ان يفطر على واحدة من قطع الصابون هذه . وكان يدعو هذا الضرب من العمل ، الذي كانت له فيه بعض الموهبة « حلق لحى الحلاقين » .

وفيما هو يتأمل العروس ويختلس النظر إلى قطعة الصابون ، غمغم من بين اسنانه : « الثلاثاء . ليس الثلاثاء . أهو الثلاثاء ؟ لعله الثلاثاء اجل ، انه الثلاثاء . »

ولم يكتشف احد قط إلى اي شيء كانت مناجاة الذات هذه تشير . واذا صادف ان كان في ذلك الكلام اشارة إلى آخر مرة تناول فيها طعاماً فعندئذ يكون قد انقضى على هذا ثلاثة ايام ، إذ كانت وقفته تلك ، أمام الدكان ، يوم الجمعة .

وفي تلك الدكان المدفأة بموقد عامر ، كان الحلاق يحلق لحية احد الزبائن ، ويلقي بين الفينة والفينة نظرة على هذا العدو ، هذا « المتشرد » المثلوج الخالع العذار ، الواضع كلتا يديه في جيبه ، ولكن عقله كان خارج غمده من غير شك .

وفيما كان غافروش يراقب العروس ، والنوافذ ، وصابون وندسور تقدم ولدان متفاوتا الطول ، يرتديان ثياباً ، نظيفة ، ويصغرانه هو

نفسه سناً ، فأحدهما على ما يبدو في السابعة والآخر في الخامسة ، وادارا تفاحة الباب على استحياء ، ودخلا الى الدكان ، ملتمسين شيئاً ، لعله الصدقة ، في همس كان اقرب إلى الانين منه إلى الصلاة . وتحدثا كلاهما في آن معاً ، وكانت كلماتهما غير مفهومة لان الزفرات خنقت صوت الاصغر ، ولان البرد جعل اسنان الاكبر تصطك . وادار الحلاق وجهاً ضارياً ، ومن غير ان يترك موساه ، رد اكبرهما إلى الوراء بيده اليسرى ، واصغرهما بركبته ، وقذف بهما إلى الشارع ، وأوصد الباب قائلا :

— « يأتون ويثلّجون الناس من اجل لا شيء ! »

ومضى الولدان لسبيلهما باكيين . وفي غصون ذلك انتشرت في السماء سحابة . وشرع المطر يهطل .

ولحق بهما غافروش الصغير ، وحاذاهما .

— « ما قصتكما ، ايها الصبيان الصغيران ؟ »

فأجابه الاكبر :

— « نحن لا ندري اين ننام ؟ »

فقال غافروش :

— « اهذا كل شيء ؟ هذا ليس بشيء . وهل يبكي الانسان لأمر كهذا ؟ إنه إن فعل يكون أشبه بالعصافير ! »

واصطنع ، من خلال تعاليه الساخر بعض الشيء ، نبرة سلطان رقيقة ، وحماية رفيقة :

— « تعالا معي ! »

فقال اكبرهما :

— « نعم ، يا سيدي ! »

وتبعه الولدان وكأنهما يتبعان رئيس اساقفة . كانا قد كفا عن البكاء .

وصعّد غافروش بهما في شارع سان انطوان باتجاه الباستيل .

وفي طريقه هذه ، القى غافروش نظرة تراجعية ساخطة ، على دكان الحـلاق .

وتمتم :

— « إنه بلا قلب ، هذا البوري ! إنه انقليس ! »

وبصرت بهم فتاة وهم يسيرون ثلاثتهم في صف ، وغافروش على رأسهم ، فانفجرت بضحك صارخ . وكان ضحكها ذاك يعوزه الاحترام للجماعـة .

وقال غافروش مخاطباً اياهـا :

— « صباح الخير ، ايتها الانسة أومنيبوس ! * »

وبعد لحظـة ، اضاف وقـد تمثلت صورة الحلاق ، في ذهنـه ، من جديـد :

— « لقد اخطأت في امر ذلك الحيوان . إنه ليس بورياً . إنـه ثعبان : ايها الصانع للّمم المستعارة ، انا ذاهب إلى دكان حداد ، ولسوف أعلق جرساً في ذنبك ! »

كان هذا الحلاق قد أحاله إلى شخص عدواني . فوجه الخطاب ، بلهجة لاذعـة ، فيما كان يثب من فوق جدول ، إلى بوابـة ذات لحيـة جديره بأن تلتقي فاوسته على الـ « بروكن » ، وكانت تحمـل مكنستها :

— « سيدتي ، لقد انطلقت انتِ وجوادك ، أليس كذلك ؟ »

وهنا لطخ بالوحل حذاء مصقولاً كان ينتعله احد عابري السبيل .

وصاح الرجل ، مغيظـاً :

— « يا لك من حقير ! »

ورفع غافروش انفـه فوق لثامه

* الاومنيبوس : العربة العمومية .

— « سيدي يتشكى ؟ »

فقال عابر السبيل :

— « هذا انت ؟ »

فقال غافروش :

— « المكتب قد اقفل . انا لا اتلقى شكاوى اضافية . »

وفي غضون ذلك ، وبينا هو يواصل التصعيد في الشارع ، رأى تحت باب من ابواب العربات شحاذة مثلوجة في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ترتدي ملابس كانت من القصر بحيث كشفت عن ركبتيها . وكانت الفتاة الصغيرة قد بدأت تصبح أعلى سناً من أن يلائمها ذلك . والواقع ان نمو الجسم هو الذي يعابثنا هذا النوع من العبث . فاذا بالتنورة تمسي قصيرة لحظة يصبح العري معيباً .

وقال غافروش :

— « مسكينة هذه الفتاة ! انها لا تملك حتى بنطلوناً ! ولكن ، خذي هذا . »

ونزع كل ذلك الصوف الصالح المطوِّق رقبته ، وطرحه على كتفي الشحاذة المهزولتين البنفسجيتين ، حيث تحوّل اللثام إلى شال .

ونظرت الصغيرة اليه نظرة ذاهلة ، وتقبلت الشال في صمت . فعند نقطة ما في اعماق البؤس ، يكف الفقراء — في غمرة من انشداههم — عن الانتحاب من الشر ، والشكر على الخير .

حتى إذا تم ذلك ، قال غافروش وهو يرتجف على نحو اسوأ من ارتجاف القديس مارتان ، الذي احتفظ على الاقل بنصف معطفه :

— « بررر ! »

ولم يكد يطلق هذه الـ « بررر ! » حتى ضاعفت العاصفة غضبتها ، فاصبحت عنيفة . إن هذه السموات الرديئة لتعاقب المرء على العمل الطيب .

وهتف غافروش :

— « آه ، ما معنى ذلك ؟ ايها الرب الرحيم ، إذا تواصل هـذا ، فعندئذ اضطر إلى ان اقطع اشتراكي ! »

وتابـع مسيره .

واضاف ، ملقياً نظرة على الشحاذة التي كانت تتجمع تحت الشال :

— « سيان ، ها هنا شخص يحمل قشرة شهيرة . »

ونظر إلى السحب ، وصاح :

— « لقد وقع في الشرك ! »

وعرج الولدان وراءه .

وفيما هم يجتازون بواحد من تلك الشبابيك الكثيفة المقضبة التي تؤذن بوجود فرن من الافران ، لأن الخبز كالذهب يحفظ خلف قضبـــان حديدية ، التفت غافروش وقال :

— « آه ، ها ، ايها الولدان الصغيران ، هل تعشيتما ؟ »

فأجاب اكبرهما :

— « سيدي ، اننا لم نذق الطعام من الصباح الباكر . »

واستأنف غافروش كلامه ، في جلال :

— « اذن ، فليس لكما لا اب ولا أم ؟ »

— « عفواً ، يا سيدي . ان لنا أباً وأماً ، ولكننـا لا نعـرف أين هما . »

فقال غافروش ، الذي كان من اهل الفكر :

— « في بعض الاحيان يكون هذا خيراً من المعرفة . »

وتابـع أكبر الولدين :

— « لقد سلخنا ساعتين حتى الآن ونحن نمشي . لقد بحثنا عن الاشياء في كل زاوية ، ولكننا لم نجد شيئاً . »

فقال غافروش :

– « ادري . إن الكلاب تأكل كل شيء . »

وبعد لحظة صمت ، أضاف قائلا :

– « آه ، لقد خسرنا مؤلفينا . اننا لا ندري ما الذي فعلناه بهم . وهذا غير مناسب ، ايها المتشردان . إن من البلاهة ان يتيه المرء ، على هذا النحو ، مهما تكن سنه . آه ، نعم ، يجب ان نشرب برغم ذلك. »

ثم انه لم يوجه اليهما اما سؤال . انهما شريدان من غير مأوى ، وهل ثمة ما هو طبيعي اكثر من ذلك ؟

وصاح اكبر الطفلين ، وقد ارتد ارتداداً كاملا تقريباً إلى لامبالاة الطفولة السريعة :

– « انه غريب جداً برغم ذلك كله . ماما التي وعدت بأن تأخذنا لنجيء ببعض البقس * المبارك يوم احد الشعانين . »

فأجاب غافروش : neurs

واردف الطفل الاكبر :

– « ان امي سيدة تقطن مع الآنسة مس . »

فأضاف غافروش : Tanflûte

وكان قد كف ، في غضون ذلك ، عن السير . وطوال بضع دقائق انهمك في جس مختلف زوايا اسماله والبحث فيها .

واخيراً ، رفع رأسه بسيماء لم يرد بها إلى شيء اكثر من الارتياح ، ولكنها كانت في الواقع مظفرة .

– « فلنعتصم بالهدوء ، ايها الطفلان . هو ذا ما نتعشى به ثلاثتنا . »

واخرج من احد جيوبه فلساً .

ومن غير ان يترك للطفلين مجالا للدهش دفعهما أمامه إلى المخبز ، ووضع فلسه على منضدة الخباز قائلا :

---

* البقس : شجر كالآس ورقاً وحباً .

— « ايها الولد ! اعطني خبزاً بخمسة سنتيمات . »

فما كان من الرجل ، الذي كان هو صاحب المخبز نفسه ، إلا أن تناول رغيفاً وسكيناً .

واستأنف غافروش الكلام :

— « اجعله ثلاث قطع ، ايها الولد ! »

ثم اضاف في وقـار :

— « نحن ثلاثـة . »

وحين رأى ان الخباز تناول ، بعد ان درس ثياب كل منهم ، رغيفاً أسود ، أقحم إصبعه في انفه مستنشقاً على نحـو متغطرس وكأنمـا كانت عند طرف إبهامه قبصة من سعوط فريدريك الكبير ، وقـذف وجه الخباز بهاتين الكلمتين المغيظتين :

— « ايش هذا ؟ » Keksekça ?

ونحن نحب ان نُعلم قراءنا الذين قد ينزعون إلى ان يروا في هـذ السؤال الذي وجهـه غافروش إلى الخباز كلامـاً روسياً أو بولونيـاً أو واحدة من تلك الصيحات الوحشية التي يتبادلها الـ « يـوويـز » والـ « بوتوكودوس » من احدى ضفتي النهر إلى الاخرى في بقاعهـم المقفرة — نقول اننا نحب ان نعلم هؤلاء القراء انها كلمة يقولونهـا (هم ، القراء) كل يوم وتقوم مقام هذه الجملة : « ما هذا الذي بين يديك ؟ » وفهم الخباز ذلك الكلام احسن الفهم ، وأجاب :

— « ولكن ! هـذا خبز . خبز جيد جداً من الدرجة الثانية . »

فقال غافروش ، في ازدراء هادىء بارد :

— « انت تعني خبزاً أسود ! خبز مُصَوَّبن ! اني أمزح ! »

ولم يتمالك الخباز أن يضحك ، وفيما هو يقطع الخبز الابيض نظر اليهم نظرة رؤوفـاً أثارت سخط غافروش .

وقـال :

— « آه ها ، يا صبي الخباز ! لماذا تقيسنا على هذه الصورة ؟ »

ولو قد شكلوا ثلاثتهم خطاً مستقيماً لما بلغ طولهم ستة اقدام .

حتى إذا أنجز الخباز تقطيع الخبز ، وضع الفلس في درج المنضدة . وقال غافروش للطفلين الصغيرين :

— « ازيلا القُراضة عن الموسى المسنونة . »

ونظر الطفلان الصغيران إليه مشدوهين .

وشرع غافروش يضحك :

— « آه ، هذا صحيح ! انهما لا يعرفان ذلك . انهما لا يزالان اصغر من ان يعرفاه . »

ثم أضاف :

— « كُلاَ ! »

وفي الوقت نفسه ، قدم إلى كل منهما قطعة من خبز .

واذ حسب ان اكبرهما — الذي بدا له أجدر بأن يحادثه — يستحق بعض التشجيع الخاص ، وينبغي ان يحرَّر من اي تردد في ما يتصل باشباع شهوته إلى الطعام ، فقد اضاف مقدماً اليه القطعة الكبرى :

— « ألصِق هذه في بندقيتك . »

وكان ثمة قطعة اصغر من القطعتين الاخريين . فاحتفظ بها لنفسه .

كان الاطفال جائعين ، وفيهم غافروش . وفيما هم يمزقون الخبز باسنانهم الجميلة ، سدوا الطريق إلى دكان الخباز الذي راح ينظر اليهم ، بعد ان قبض الثمن ، في غير ارتياح .

وقال غافروش :

— « هيا بنا إلى الشارع ! »

ومضوا في اتجاه الباستيل .

وبين الفينة والفينة ، وكلما اجتازوا بدكان مضاء ، كان الطفل الأصغر

يقف ليستطلع الوقت بساعة رصاصية كانت تتدلى من شريطة طوّقت عنقه .

وقال غافروش :

— « هو ذا كنار حقيقي من غير شك . »

ثم انه تمتم ، متفكراً ، من بين اسنانه :

— « الأمر سواء ، لو كان عندي أولاد صغار لهصرتهم هصراً اكثر إحكاماً . »

حتى إذا أتوا على قطع الخبز ، وانتهوا إلى زاوية « شارع باليه » المظلم ، الذي كان بويب سجن « لا فورس » المنخفض البغيض يُرى من طرفه الاقصى قال بعضهم :

— « هالو ، هذا انت يا غافروش ؟ »

فقال غافروش :

— « هالو ، هذا أنت يا مونبارناس ؟ »

كان رجل قد اجتاز بـ « المتشرد » منذ لحظة ، ولم يكن ذلك الرجل غير مونبارناس متقنعاً بنظارتين زرقاوين ولكن غافروش استطاع ان يتبينه .

واضاف غافروش :

— « عجباً ! إن لك قشرة بلون لصقة بزر الكتان ، ونظارتين زرقاوين مثل طبيب من الاطباء ، انت في أحسن زي . اقسم لك قسم رجل عجوز ! »

فقال مونبارناس :

— « صه ! لا ترفع صوتك هكذا ! »

وسارع إلى سحب غافروش بعيداً عن ضوء الدكاكين .

وتبعهما الطفلان الصغيران ، على نحو آلي ، وقد أمسك كل منهما بيد الآخر .

حتى إذا انتهوا إلى قوس باب العربات الأسود ، وأمسوا في نجوة من النظر ومن المطر قال مونبارناس :

— « أتعرف إلى أين أنا ذاهب ؟ »

فقال غافروش :

— « إلى المشنقة ! »

— « يا لك من مهرج ! »

قال مونبارناس ذلك ، ثم استأنف كلامه :

— « أنا ذاهب أبحث عن « بابيه » .

فقال غافروش :

— « آه ! اسمها بابيه ! »

فخفض مونبارناس صوته :

— « ليس اسمها . ولكن اسمه . »

— « آه ، بابيه ! »

— « نعم ، بابيه ! »

— « لقد ظننته سجيناً . »

فأجابه مونبارناس :

— « لقد فر من السجن . »

وروى للمتشرد ، في عجل ، كيف ان بابيه حين نقل في صباح ذلك اليوم نفسه إلى الكونسيرجيري ولى هارباً بأن استدار إلى اليسار بدلا من ان يستدير إلى اليمين في « رواق حجرة التحقيق . »

وأعجب غافروش بتلك البراعة ، وقال :

— « يا له من طبيب أسنان ! »

واضاف مونبارناس بعض التفاصيل عن فرار بابيه ، ثم ختم حديثه قائلا :

— « أوه ، هذا ليس كل شيء . »

وفيما كان غافروش يصغي استولى على عصاً كانت في يد مونبارناس وسحب جزأها الأعلى ، اوتوماتيكياً ، فبدت شفرة خنجر .

وقال وهو يسارع إلى إعادة الخنجر إلى موضعه :

— « آه ! لقد جئت بدركيّك متقنعاً في لباس بورجوازي . »

وغمزه مونبارناس بعينه .

واستأنف غافروش كلامه :

— « اذن سوف نشتبك مع الشرطة ؟ »

فأجابه مونبارناس في لامبالاة :

— « لست أدري . ولكن من الخير دائماً ان تكون مزوداً بدبوس . »

وأصر غافروش :

— « وما الذي ستعمله الليلة ؟ »

وارتد مونبارناس إلى صعيد الجد ، مرة اخرى ، فقال غير لافظ بعض المقاطع :

— « اشياء متعددة . »

وغيّر الحديث فجأة :

— « بالمناسبة ؟ »

— « ماذا ؟ »

— « إحدى القصص التي وقعت لي في يوم ماض . فكر في هذا مجرد تفكير . تخيل أني التقيت بأحد البورجوازيين ، فقدم الي هدية : عظة دينية ومحفظة دراهمه . ووضعت ذلك في جيبي . وبعد دقيقة جسست جيبي فلم أجد فيه شيئاً . »

فقال غافروش :

— « غير العظة الدينية . »

وأضاف مونبارناس :

— « ولكن أنت .. إلى أين أنت ذاهب الآن ؟ »
وأشار غافروش إلى محميّيْه ، وقال :
— « أنا ذاهب لأرقد هذين الطفلين . »
— « وأين ذلك ؟ »
— « في منزلي . »
— « إن عندك غرفة إذن ؟ »
— « أجل ، إن عندي غرفة . »
— « وأين غرفتك ؟ »
فقال غافروش :
— « في الفيل . »
فلم يتمالك مونبارناس أن صاح ، على الرغم من انه كان بفطرته نادراً ما يأخذه الدهش :
— « في الفيل ! »
فأجابه غافروش :
— « ولكن ، اجل ! في الفيل ! إيش في هذا ؟ » *Kekçaa*
وهذه كلمة اخرى من كلمات اللغة التي لا يكتبها أحد والتي يتكلمها كل أحد ، *Kekçaa* ، يعني ، وما الغريب في هذا ؟
وكان في ملاحظة « المتشرد » العميقة مـا رد مونبا، ناس إلى الهدوء، وإلى الرشاد . لقد بـدا وكأنـه اخـذ بأهداب عواطف اكثر احتراماً لمنزل غافروش .
وقـال :
— « حقـاً ! أجل ، الفيل ... وهل أنت سعيد هناك ؟ »
فقال غافروش :
— « سعيد جداً . هنـا يعيش الإنسان عيشاً ممتازاً حقـاً . وليس هناك رياح متسربة من الثقوب كما هي الحال تحت الجسور . »

— « وكيف تدخل إلى هناك ؟ »

— « أدخــل . »

وتساءل مونبارناس :

— « واذن فهناك ثقب ؟ »

— « يا سلام ! ولكن ينبغي أن لا أفشي سر ذلك . إنه بين القائمتين الاماميتين . إن رجال الشرطة لم يروه . »

— « وانت تتسلق ؟ اجل ، لقد فهمت . »

— « في لمحــة عين . كريك ، كراك . وينتهي كــل شيء . كــل شيء . »

وبعد لحظـة أضاف غافروش :

— « أمــا من أجــل هذين الصبيين الصغيرين فسوف أحتــــاج إلى سـلم . »

وشرع مونبارناس يضحك .

— « ومن اين ، بحق الشيطان ، جئت بهذين الطفلين ؟ »

فأجابه غافروش في بساطـة :

— « إنهما صبيان أهداهما إلي أحد صانعي اللمم المستعارة . »

وفي غضون ذلك كان مونبارناس قد استغرق في التفكير .

وغمغم :

— « لقد تبيّنتني في كثير من السهولة . »

واخرج من جيبه شيئين صغيرين لم يكونا غير قلمين مغلفين بالقطن وأدخــل واحــداً منهما في كــل منخر . وهكذا جعــل لــه أنفــاً جديــداً .

فقال غافروش :

— « لقد غيّرك هذا . انت لست بشعاً إلى هــذا الحـد . يجب أن تبقى هكذا دائمـاً . »

كان مونبارناس فتى وسيماً ، ولكن غافروش كان مزوحاً .
وقال مونبارناس :
— « دع المزاح جانباً . هل أعجبك هذا ؟ »
وكان جرْساً جديداً أيضاً . وفي لمحة عين ، كان مونبارناس قد غدا شخصاً آخر لا سبيل إلى معرفته .
وهتف غافروش :
— « اوه ! إعمل لنا بورّيشينيل ! »
ولم يكد ينطق بذلك حتى لفت هذا الاسم انتباه الصبيين الصغيرين — اللذين لم يسمعا شيئاً حتى ذلك الحين ، واللذين كانا منهمكين في إقحام اصابعهما في أنفيهما — ونظرا إلى مونبارناس في استهلال بهجة واعجاب .
وكان مونبارناس قلقاً لسوء الحظ .
ووضع يده على كتف غافروش ، وقال له مؤكداً كل كلمة :
— « اسمع ما أقوله لك ايها الغلام . لو كنتُ في الساحة ، وكان معي « دوغ » و « داغ » و « ديغ » ولو تكرمت علي بعشرة « سو » كبيرة ، لما رفضت أن أعمل ذلك . ولكننا لسنا في ثلاثاء المرفع . »
وتركت هذه الجملة الغريبة اثراً فريداً في نفس « المتشرد » . فالتفت على عجل ، وأجال عينيه الصغيرتين اللامعتين في ما حوله بانتباه عميق فرأى على بضع خطوات شرطياً مولياً اياه ظهره . وندّت من غافروش زفرة « آه ، اجل ! » ما لبث أن كبحها في الحال ، وقال وهو يهز يد مونبارناس :
— « حسناً ، طاب مساؤك . انا ذاهب إلى الفيل مع طفلي الصغيرين . وعلى افتراض انك احتجت إلي ذات ليلة ففي امكانك ان تأتي وتبحث عني هناك . أنا اسكن في الطابق الثاني . ليس هناك بواب . في استطاعتك

أن تسأل عن مسيو غافروش . »

فقال مونبارناس :

— « حسن . »

وافترقا ، فاتخذ مونبارناس سبيله نحو « لا غريف » ، واتخذ غافروش سبيله نحو الباستيل . والتفت الصغير البالغ من العمر خمس سنوات ، والذي كان يسحبه اخوه الاكبر — هذا الذي كان غافروش بجره — عدة مرات ، ليمتع نظره بمشهد الـ « بوريشينيل » .

ولم تكن الجملة الغامضة التي أعلم مونبارناس بها غافروش بوجود الشرطي — لم تكن تلك الجملة تنطوي على طلسم غير ذلك المقطع « ديغ » مكرراً خمس مرات أو ست مرات في أشكال مختلفة . وهذا المقطع ، غير ملفوظ على حدة ، ولكن ممزوجاً في فن بكلمات جملة ، ما يفيد هذا المعنى : **انتبه ، ليس في استطاعتنا ان نتحدث في حرية .** والى هذا فقد كان في جملة مونبارناس جمال أدبي فات غافروش الانتباه اليه . وهو قوله : و *mon dogue* و *ma dague* و *ma digue* التي كانت تعني في لغة السوقة في الـ « تامبل » **كلبي** ، **ومديتي** ، **وزوجتي** ، والتي كانت كثيرة الاستعمال بين مهرجي العصر العظيم ، الذي كتب فيه موليير ، ورسم فيه كالو (*) .

قبل عشرين عاماً كان لا يزال يرى في زاوية « ساحة الباستيل » الجنوبية الشرقية ، قرب حوض القناة الذي حفر في الخندق القديم من « السجن القلعة » نصب غريب كادت ذاكرة الباريسيين ان تنساه ، نصب خليق به ان يترك أثراً ما ، ذلك أنه كان من بنات افكار « عضو الاكادمية ، القائد الأعلى لجيش مصر . »

وانما نقول « نصب » على الرغم من انه كان تصميماً ليس غير . ولكن هذا التصميم نفسه ، هذا الرسم الاولي الضخم ، تلك الجثة

---

* Jacques Callot نقاش ورسام فرنسي (١٥٩٢-١٦٣٥) .

الضخمة لفكرة من فكرات نابوليون التي ذهبت بها هبّتان أو ثلاث من هبات الريح المتعاقبة وطرحتها بعيداً عنا ، أمسى اليوم شيئاً تاريخياً ، واكتسب شخصية محدودة تغايرت مع مظهره الموقت . كان فيلاً ، طوله أربعون قدماً ، وله هيكل وبناء ، وكان يحمل برجه على ظهره ، وهو برج أشبه ببيت ، وكان قد دهنه في عهد مضى احد الدهانين باللون الأخضر ، ولكن الشمس ، والمطر ، والجو أحالت لونه الآن إلى سواد . في زاوية تلك الساحة المكشوفة المهجورة كانت مقدمة ذلك التمثال الهائل العريضة ، وخرطومه وانيابه ، وضخامته ، وكفله الجسيم وقوائمه الاربع الشبيهة بالأعمدة تلقي في الليل ، تحت السماء ذات الكواكب ، ظلاً مذهلاً وفظيعاً . ولم يكن احد ليدري ما الذي عناه ذلك النصب . كان شبه رمز لقوة الشعب . كان قاتماً ، ملغزاً ، مترامياً . كان طيفاً غريباً جباراً ، ناهضاً على نحو منظور إلى جانب شبح الباستيل غير المنظور .

كان نفر قليل من الاجانب يزورون هذا الصرح ، ولم يكن اي من عابري السبيل ينظر اليه . كان يتداعى إلى الاندثار . وفي كل فصل ، كان الملاط الذي يتناثر من جوانبه يحدث في جسمه جراحاً بشعة . كان « نُظار الابنية والانصاب » ، كما يقولون في اللهجة الانيقة ، قد نسوه منذ عام ١٨١٤ . كان هناك ، في زاويته ، كئيباً عليلاً ، منهاراً ، مطوقاً بسياج متهرىء يدنسه في كل لحظة سائقو العربات السكارى . كانت الشقوق تبدو على بطنه ، وكان لوح من خشب طويل ضيق ينبثق من ذيله ، وكان العشب قد نبت عالياً بين رجليه . واذ كان مستوى الساحة قد ارتفع من حوله ، طوال ثلاثين عاماً ، بتلك الحركة البطيئة المستمرة التي ترفع تربة المدن الكبرى على نحو غير محسوس فقد كان ذلك النصب غائراً ، ولقد بدا وكأن الارض قد خُسفت به . كان ضخماً ، مزدرىً ، كريهاً ، شامخاً ، بشعاً في

عيني البورجوازي ، كئيباً في عيني المفكر . كـان فيـه شيء مـن الدنس سوف يُزال وشيكاً ، وشيء مـن الجـلال سوف يُستأصل وشيكاً أيضاً .

وكان الليل ، كما قلنـا ، يغيّر مظهره . والليل هو الوسيط الحقيقي لكل ما هو مظلم . فما إن يهبط الغسق حتى يستحيـل الفيل العجـوز كائناً آخر . كان يتخذ شكلا هادئاً وفظيعاً في صفـاء الليـل الرهيب . وإذ كان جزءاً من المـاضي فقـد كان جزءاً من الليل . وكانت هـذه الظلمة ملائمة لعظمته .

إن هذا النصب الشكس ، المكتّل ، المتثاقل ، القاسي ، الصـارم ، شبه الشائه ، وإن يكن جليلا حقـاً ، المتسم بطابـع من الجد الرائـع الفظيع — إن هذا النصب قد زال ، تاركاً السلطان كله ، السلطـان الآمن ، لذلك الموقد الهائل المزدان بمدخنته والذي حل محل القلعـة البغيضة ذات الابراج التسعة ، كما تحل البورجوازية محل الاقطاعيـة تقريباً . وطبيعي جداً ان يكون موقد ما رمزاً لحقبة ينطوي فيها المرجـل على قوة . وهذه الحقبة سوف تنقضي ، ولقد بدأت تنقضي فعـلا . ولقد بدأنا نفهم انه اذا ما كانت في المرجل قوة فلن يكون ثمـة سلطـة إلا في العقل . وبكلمة اخرى ، فأن ذلك الذي يقود العالم ويسيطر عليه ليس القاطرات ، ولكن الفكرات . إقرن القاطرات إلى الفكرات ، ذلك حسن . ولكن حذار ان تخدعك الفرس عن الفارس .

وأياً مـا كان ، فلنعد إلى ساحة البـاستيل لنقول إن مهندس الفيـل قد ُوفق إلى ان يصنع من الجبس شيئاً عظيماً. وان مهندس المدخنة قد وفق إلى ان يجعل من البرونز شيئاً حقيراً .

هذه المدخنة التي ُعمِّدت باسم مرنان ودعيت عمود تموز ، هـذا النصب الذي لم يتم لثورة جهيض ، كان لا يزال مغلفاً ، في عام ١٨٣٢ ، بهيكل بناء ضخم لا نفتـأ نحن ، من ناحيتنا ، نأسف عليه ، وبسور

عريض من ألواح الخشب جعل عزلة الفيل كاملة .

نحو هذه الزاوية من الساحة ، المضاءة على نحو باهت بانعكاس أشعة مصباح قصي ، ساق « المتشرد » الطفلين الصغيرين .

ويتعين علينا ان نقف هنا لنعلن أننا ضمن نطاق الواقع ، وأن محاكم الجنح كانت خليقة بأن تحكم ، قبل عشرين سنة ، وباسم منع التشرد واقتحام نصب عمومي ، على طفل قد يلقى عليه القبض متلبساً بالنوم حتى في داخل فيل الباستيل .

حتى إذا نصصنا على هذه الحقيقة ، أمسى في ميسورنا أن نتابع الكلام .

وإذ اقتربوا من التمثال الهائل ، ادرك غافروش الاثر الذي قد يحدثه ما هو ضخم إلى أبعد الحدود في نفس ما هو صغير إلى ابعد الحدود ، وقال :

— « ايها الطفلان الصغيران ! لا تخافا ! »

ثم دخل من خلال ثغرة في السياج إلى سور الفيل ، وساعد الطفلين على اجتياز الثغرة . وتبع الصبيان الصغيران غافروش ، مروعين بعض الشيء ، من غير ان ينطقا ببنت شفة ، وفوضا أمرهما إلى تلك «العناية» الصغيرة ذات الأسمال ، التي قدمت اليهما الخبز ووعدتهما بمأوى .

وكانت قد انطرحت إلى جانب السياج سلم كان العمال يستعملونها نهاراً ، في مستودع الخشب المجاور . فرفعها غافروش في قوة عجيبة ، ونصبها مسنداً إياها على احدى قائمتي الفيل الاماميتين . وفي النقطة التي انتهت عندها السلم ، كان في استطاعة المرء ان يتبين شبه ثقب أسود في جوف التمثال الهائل .

ولفت غافروش نظر ضيفيه إلى السلم والثقب ، وقال لهما :

— « إصعدا وادخلا . »

وتبادل الصبيان الصغيران النظرات في ذعر .

وصاح غافروش :

— « انتما خائفان ، ايها الصغيران ؟ »

ثم أضاف :

— « سوف تريان . »

وربت على قدم الفيل المتغضنة . وفي لمحة عين ، ومن غير ان يتنازل للافادة من السلم ، انتهى إلى الثغرة . ودخلها كما يدب حنش إلى جحر ، واختفى . وبعد لحظة رأى الطفلان وجهه الشاحب يبدو على نحو غامض مثل شكل باهت كامد عند حافة الثقب المليء بالظلام .

وصاح :

— « حسن ، لماذا لا تصعدان ، ايها الصغيران ؟ سوف تريان ما أجمل هذا المكان . »

ثم التفت إلى أكبرهما ، وقال :

— « إصعد ، انت . سوف أمد اليك يدي . »

وحث كل من الولدين صاحبه على التقدم . لقد أخافهما « المتشرد » وبعث الاطمئنان في نفسيهما في آن معاً . وإلى هذا فقد كان المطر يهطل بغزارة . وغامر اكبر الولدين . ولم يكد اصغرهما يرى إلى اخيه يصعد ، تاركاً اياه بين براثن هذا الوحش الهائل ، حتى استشعر رغبة قوية في البكاء ، ولكنه لم يجرؤ على ذلك .

وتسلق اكبرهما درجات السلم مترنحاً . وفيما كان غافروش يتابع طريقه شجعه بمثل الصيحات التي يوجهها معلم المسايفة إلى تلامذته ، أو سائق البغال إلى بغاله :

— « لا تخف ! »

— « أجل ، هكذا ! »

— « هيا ، تقـدم ! »
— « ضع قدمك هنا ! »
— « ضع يدك هناك ! »
— « كن شجاعـاً ! »

وحين أمسى في متناوله ، سارع إلى الامساك بذراعه ، في قـــوة وعزم ، وجذبه نحوه .

وقـال :

— « لقد بُلعت ! »

كان الغلام قد اجتاز الثغرة .

وقال غافروش :

— « والآن ، انتظرني . تفضل واجلس ، يا سيدي . »

وخرج من الثغرة كما دخلها ، وانزلق بمثل رشاقة القرد على طول رجل الفيل ، وهبط واقفاً على قدميه فوق العشب ، وامسك بطفـل الخمس سنوات من خصره ، ورفعه إلى منتصف السلم . ثم بـــدأ يتسلق خلفه صائحاً لأكبرهما :

— « وسوف أدفعه . وعليك انت أن تسحبه . »

وفي لحظـة ، رُفـع الطفل الصغير ، ودُفـع ، وجُر ، وسُحب ، وحشر ، وأقحم في الثغرة من غير ان يجد متسعاً من الوقت لادراك ما كان يجري . ثم ان غافروش دخل وراءه ورد السلم برفسة جعلتهـا تسقط على الارض ، وراح يصفق بيديه صائحاً :

— « ها نحن قد وصلنا ! مرحى للجنرال لافاييت ! »

حتى إذا انتهى هذا الانفجار ، أضاف :

— « ايها الصغيران ، انتما في بيتي . »

وكان غافروش في بيته حقـاً .

ايه ، يا فـائدةً غير متوقعة يسديها ما لا غناء فيه ! يا محبة الاشياء

العظيمة ! يا طيبة العمالقة ! إن هذا الاثر الهائل الذي سبق ان انطوى على فكرة من فكرات الامبراطور انتهى الآن إلى أن يصبح علبة متشرد من المتشردين . كان التمثال الضخم قد ارتضى الطفلَ وآواه . وكان البورجوازيون ، المرتدون ثياب الأحد ، كثيراً ما يمرون بفيل الباستيل فيقولون وهم يحدجونه في ازدراء باعينهم المحدّقة : « ما فائدة هذا ؟ » كانت فائدته ان ينقذ من البرد ، ومن الصقيع ، ومن البرَد ، ومن المطر ، وان يصون من ريح الشتاء ، ويقي من النوم في الوحل الذي يورث الحمى ، ومن النوم في الثلج الذي يورث الموت ، مخلوقاً صغيراً لا أب له ولا ام ، ولا خبز عنده ولا ملابس ولا مأوى . كانت فائدته أن يستقبل البريء الذي نبذه المجتمع . أن يخفف من وطأة الجريمة العمومية . كان وكراً مفتوحاً في وجه من أوصدت في وجهه الابواب جميعاً . لقد بدا وكأن ماستودوناً (*) عجوزاً بائساً غزاه القمل والنسيان ، وعلته الثآليل والعفن والقُرَح ، ماستودوناً مترنحاً ، نخراً ، مهجوراً ، مذموماً ، ضرباً من الشحاذ الهائل يلتمس الصدقات عبثاً من نظرة كريمة في منتصف الساحة قد اخذه هو نفسه العطف على هذا الشحاذ الآخر ، هذا القزم التعس الذي لا حذاء في قدمه ، ولا سقف فوق رأسه ، النافخ على أصابعه ، المرتدي اسمالا بالية ، المتغذي بما يطرحه الناس . تلك كانت فائدة فيل الباستيل . إن فكرة نابوليون هذه التي احتقرها الناس ، قد تلقفها الله . فما كان شهيراً ليس غير ، أمسى الآن فخيماً .وكان ينبغي للامبراطور ، لكي يحقق ما جال في خاطره ، رخام سماقي ، ونحاس أصفر ، وحديد ، وذهب ، ورخام . أما الله فكان حسْبه تلك المجموعة القديمة من ألواح ، ودعائم خشبية وجبسين . لقد حلم الامبراطور بحلم من احلام الامبراطورية . إنه بواسطة هذا الفيل الجبار ، المسلح ، الاعجوبي ، الناصب خرطومه

* الماستودون ، حيوان منقرض يشبه الفيل .

الحامل برجَه ، الجاعل مياهاً مرحةً محيية تنبجس من جميع أطرافه ، أراد ان يجسد الشعب . أما الله فقد فعل به شيئاً أعظم : لقد آوى طفلا .

وكان الثقب الذي ولجه غافروش ثلمة ما تكاد تُلحظ من الخارج ، مخبوءة كما سبق منا القول ، تحت بطن الفيل ، وضيقة إلى درجة تجعل ولوجها شبه متعذر إلا على القطط والاطفال الصغار .

وقال غافروش :

— « فلنبدأ بأن نخبر البواب اننا لسنا هنا . »

وإذ انغمس في الظلمة ، باطمئنان ، مثل امرىء يألف غرفته ، تناول لوحاً خشبياً وسدّ الثقب .

وعاود غافروش الانغماس في الظلمة من جديد . وسمع الطفلان زفير الشمعة المستدقة في الزجاجة الفوسفورية . ولم تكن الشمعة الكيميائية قد وُجدت بعد . وكان زند « فوماد » يمثل تقدماً في تلك الحقبة .

وانطلق ضوء مفاجىء طرفت له عيون الاطفال . وكان غافروش قد أشعل منذ لحظات واحداً من ذينك الخيطين المنقوعين في صمغ الصنوبر ، واللذين ندعوهما جرذي الكهف . وهذان الجرذان ، اللذان أطلقا دخاناً اكثر مما أطلقا لهباً ، جعلا باطن الفيل مرئياً على نحو باهت .

وأجال ضيفا غافروش بصرهما في ما حولهما ، واستشعرا شيئاً أشبه ما يكون بذلك الذي يستشعره المرء إذا ما حبس في برميل هايدلبرغ الكبير ، أو على الأصح أشبه ما يكون بما قد استشعره يونس في جوف الحوت الوارد ذكره في التوراة . لقد بدا لهما هيكل هائل كامل ، وأحاط بهما من اطرافهما . وفوقهما ، امتدت عارضة طويلة

قائمة انطلقت منها عند مسافات نظامية ألواح خشبية ضخمة مطوقة تمثل العمود الفقري بأضلاعه ، وتدلت نوازل من الجبس مثل الاحشاء ، ومن جانب إلى آخر رسمت خيوط العنكبوت الضخمة حجباً مغبرّة . وهنا وهناك ، في الزوايا ، كانت تُرى بقع كبيرة ضاربة إلى السواد ، كان يبدو وكأنها على قيد الحياة ، وكانت تغيّر اماكنها بسرعة في حركة ضارية مشدوهة .

كان الحطام الساقط من ظهر الفيل على جوفه قد ملأ التجويف بحيث أمسى في ميسورهم ان يسيروا فوقه كما يسير المرء فوق أرضية بيت من البيوت .

والتصق أصغر الولدين بأخيه وقال في صوت خفيض :

— « المكان مظلم . »

وانتزعت هذه الكلمة صيحة من غافروش . وكان في سيما الطفلين المتحجرة ما اضطره إلى أن يهزهما هزاً .

وهتف :

— « ما هذا الذي ترمي اليه ؟ أتكذب ؟ انتظاهر بالتقزز ؟ اتريدان ان تكونا في التويلري ؟ هل انتما مجنونان ؟ هاي ، إني اعلمكما اني لست من كتيبة الحمقى . هل أنتما ابنا صانع مزيج الخردل للبابا ؟» (*)

ان قليلا من الخشونة ليفيد عند الهلع . إنه يوقع الطمأنينة في الفؤاد . واقترب الطفلان من غافروش .

وعلى نحو أبوي ، انتقل غافروش — وقد رققت هذه الثقة من حاشيته — « من الوقور إلى العذب » ، فوجه الخطاب إلى أصغر الولدين مخرجاً الاهانة في جرْس ملاطف ، قال :

— « ايها الاحمق ، الظلمة هي في الخارج . هناك ، في الخارج ،

* تعبير يفيد معنى الاعجاب الشديد بالنفس .

يهطل المطر ، أمـا هنا فلا يهطل المطر . وهناك ، في الخارج ، يشعر الانسان بالبرد ، أما هنا فلا توجد كسرة من ريح . في الخارج حشود من الناس ، أما هنا فلا يوجد شخص ما . وفي الخارج لا يوجد حتى القمر ، أما هنا فتوجد شمعتي ، وحق الشيطان ! »

وبدا الولدان ينظران إلى ذلك المسكن نظرة تنطوي على قـدر أقـل من الذعر . ولكن غافروش لم يترك لهما متسعاً آخر من الوقت للتـأمل والتفكير .

وقـال :

— « أسرعـا ! »

ودفعهما نحو ما نجد أنفسنا سعداء جداً بأن نستطيع أن ندعوه قعر الحجرة .

هنـاك كان سريره .

وكان سرير غافروش كاملا . يعني انه اشتمل على حشية ، وغطاء ، ومخـدع ذي ستائر .

وكانت الحشية حصيراً من القش ، وكان الغطـاء تنورة عريضة من صوف رمادي غليظ ، شديدة الدفء ، جديدة أو تكاد . أما المخدع فكان على هـذه الصورة :

ثلاثة أوتاد اقرب إلى الطول ، مغروزة ومثبتة في انقاض الأرضية ، يعني جوف الفيل ، اثنـان قدام ، وواحد إلى الوراء ، وقد شد بعضها إلى بعض بحبل عند قمتها ، بحيث شكلت هيكلا هرمياً . وكان هـذا الهيكل يحمل عريشاً دقيقاً من سلك نحاسي رُفع فوقه ببساطة ، ولكنه رُكّب في فن وثُبّت بمثبتات من الاسلاك الحديدية بحيث غلف الاوتـاد الثلاثة تغليفاً كاملا . وكان قد رسخ في الارض صف من الحجـارة الضخام يحيط بهـذا العريش فليس يدع شيئاً يمر . ولم يكن هذا العريش غير قطعة من تلك الشباك النحاسية التي تُصطنع لتغطية بيوت الطير في

حدائق الحيوان . وكان سرير غافروش تحت تلك الشبكة وكأنه في قفص . وكان مجموع ذلك كله يبدو أشبه شيء بخيمة من خيام الاسكيمو .

كانت هذه الشبكة هي التي حلت محل الستائر .

وازاح غافروش بعض الشيء تلك الحجازة التي أبقت الشبكة متقدمة إلى أمام ، وهكذا انفتحت طيّتا العريش المتراكبتان .

وقال غافروش :

— « ايها الولدان ، إركعا على أيديكما وركبكما ! »

وفي عناية ، ادخل ضيفيه إلى القفص ، ثم دخله خلفهما ، زاحفاً على الارض ، ورد الحجارة إلى الوراء ، وسد الفجوة سداً محكماً .

وتمددوا ثلاثتهم على القش .

وعلى الرغم من صغرهم فأن احداً منهم لم يستطع ان يقف منتصباً في المخدع . وكان غافروش لا يزال يحمل « جرذ الكهف » في يده .

وقال :

— « والآن ، ارقدا ! أنا ذاهب لاطفيء الشمعدان الكبير ! »

فتساءل أكبر الاخوين ، مشيراً إلى الشبكة :

— « سيدي ، ما هذا ؟ »

فقال غافروش :

— « هذا ؟ إنه للجرذان . ارقدا » .

ومع ذلك فقد وجد نفسه مضطراً إلى ان يضيف بضع كلمات لتعليم هذين الطفلين اللذين ما كادا يشبان عن الطوق ، فتابع :

— « إنها أشياء من « حديقة النبات » . إنها تستعمل للوحوش المفترسة . وهناك مخزن كامل مليء بها . وليس عليك إلا ان تتسور جداراً ، وتتسلق نافذة ، وتمر من تحت باب . وعندئذ تحصل على

قدر ما تريد . »

وفيما هو يتكلم لف، جزءاً من الغطاء حول اصغر الولدين ، الذي غمغم بقوله :

— « أوه ! هذا شيء حسن ! إنه دافيء ! »

ونظر غافروش إلى الغطاء ، في ارتياح .

وقال :

— « وهذا أيضاً من حديقة النبات . لقد أخذت هذا من القرَدة . »

وأطلع اكبرَ الولدين على الحصير الذي كان متمدداً فوقه ، وهو حصير رائع الصنعة شديد الكثافة ، وأضاف :

— « وهذا كان للزرافة . »

وتمهل قليلا ، ثم واصل الكلام :

— « كانت الوحوش تملك هذا كله . لقد أخذته منها . إنها لم تبال بذلك . لقد قلت لها : هذا من اجل الفيل . »

وصمت من جديد ، ثم استأنف :

— « نحن نتسلق الجدران ، ونسخر من الحكومة ، هذا كل ما هنالك . »

ونظر الولدان في احترام جازع مشدوه إلى هذا المخلوق الشجاع المبتدع ، المتشرد مثلهما ، المنبوذ مثلهما ، البائس مثلهما ، الذي كان شيئاً رائعاً كليّ القدرة ، والذي بدا في أعينهما خارقاً للطبيعة ، والذي كانت سيماه مؤلفة من جميع تغضنات وجه المشعوذ المضحكة ممزوجةً بابتسامة ليس اعذب منها ولا اكثر طبَعيّة .

وقال اكبرهما في جزع :

— « اذن فأنت غير خائف ، يا سيدي ، من الشرطة ؟ »

فاكتفى غافروش بالقول :

— « ايها الولدان ، نحن لا نقول الشرطة . ولكن نقول

البوليس . »

كان الولد الاصغر مفتوح العينين ، ولكنه لم يقل شيئاً . واذ كان على حافة الحصير ، على حين كان الولد الاكبر في منتصفه ، فقد ثنى غافروش الغطاء من تحته كما كان يخلق بأم ان تفعل ، وعلّى الحصير تحت رأسه ببعض الاسمال البالية بحيث يصنع وسادة للولد . ثم التفت نحو اكبرهما وقال :

— « نحن هنا في خير حال ، أليس كذلك ؟ »

فأجاب اكبر الولدين ، ناظراً إلى غافروش في انطباعة ملاك منقَذ :

— « آه ، نعم . »

كان الطفلان الصغيران البائسان المبللان بللا كاملا قد بدءا يستشعران الدفء .

وتابع غافروش كلامه :

— « آه ، والآن ، من أجل ماذا كنت تبكي ؟ »

وأشار إلى الولد الاصغر وهو يقول مخاطباً أخاه :

— « إذا بكى طفل مثل هذا فلا بأس . أما إذا بكى ولد كبير مثلك فتلك هي البلاهة . انه يجعلك تبدو مثل عجل . »

فقال الطفل :

— « حسن ، لم يكن عندنا غرفة نذهب اليها . »

فأجابه غافروش :

— « ايها الطفل . نحن لا نقول غرفة ، ولكن نقول مأوى . »

— « وفوق هذا فقد كنا نخاف ان نكون وحدنا على هذا الشكل في الظلمة . »

— « نحن لا نقول الظلمة . ولكن نقول العتمة . »

فقال الطفل :

— « شكراً ، يا سيدي . »

فتابع غافروش :

- « أصغ لي . يجب ان لا تهرّ ابداً من اجل لا شيء . سوف أتولى أمرك . ولسوف ترى كم سنتسلى . وفي الصيف سوف نذهب إلى « لا غلاسيير » مع « نافيه » ، وهو احد رفاقي ، وسوف نسبح في ملجأ السفن ، ونركض عاريين تماماً على خط السكة الحديدية أمام جسر أوسترليتز ، وهذا ما سيثير حنق النسوة الغسالات . انهن سوف يصحن ، سوف يغتظن ، وليتك تعرف كم هن مضحكات ! سوف نذهب لنرى الرجل الهيكل العظمي . إنه حي يرزق . في الـ « شان زيليزيه » . إن ذلك الابرشيّ مهزول كأي شيء . وبعد ذلك سوف أذهب بك إلى المسرح . سوف اصحبك إلى « فريدريك لوميتر » . ان عندي بطاقات . أنا اعرف الممثلين . بل لقد مثلت مرة في احدى الروايات . لقد كنا اطفالا لا يزيد طولنا على هذا القدر ، وكنا نركض تحت قطعة من القماش ، وكان هذا يعني البحر . سوف استخدمك في مسرحي . وسنذهب ونرى المتوحشين . ان هؤلاء المتوحشين ليسوا حقيقيين . إن لهم « مايوهات » متجعدة ، وفي استطاعتك ان ترى مرافق ايديهم مرفوّة بخيطان بيضاء . وبعد هذا سوف نذهب إلى الاوبرا . سوف ندخل مع المصفقين المستأجرين . ان جماعة المصفقين في الاوبرا مختارة احسن اختيار . وانا لا ارضى ان انضم إلى جماعة المصفقين في الشوارع . ويكفي ان تفكر أن في الاوبرا من يدفع عشرين « سو » ، ولكنهم مجانين . انهم يسمونهم « ممسحة الصحون » . واخيراً سوف نذهب لنرى كيف تحتز المقصلة الرؤوس . سوف أريك الجلاد . إنه يسكن في شارع الـ « ماريه » . مسيو سانسون . إن في باب بيته صندوق بريد . أوه ! نحن نتسلى تسلية شهيرة . »

وفي هذه اللحظة سقطت قطرة من الشمع على اصبع غافروش ، فاذكرته بوقائع الحياة .

وقال :

— « يا للشيطان ! ها هي الفتيلة قد استُهلكت . انتبه ! أنا لا استطيع ان انفق اكثر من « سو » شهرياً ، على الاضاءة . وحين نذهب إلى الفراش يتعين علينا ان ننام . ليس عندنا متسع من الوقت لقراءة روايات مسيو بول دو كوك * . أضف إلى هذا ، أن الضوء قد يمر من خلال شقوق باب العربات ، فلا يستطيع الشرطة إلا ان يرونا . »

وفي جزع ، لاحظ اكبر الولدين الذي جرؤ وحده على الكلام مع غافروش وإجابته :

— « وإلى هذا ، فقد تسقط شرارة على القش . يجب ان نحذر إحراق المنزل . »

فقال غافروش :

— « نحن لا نقول إحراق المنزل . ولكن نقول اشعال النار في ساحقة المعادن . »

وتضاعفت العاصفة قوة وعنفاً . وفي الفترات الفاصلة ما بين الرعد والرعد ، سمعوا العاصفة تصفع مؤخر التمثال الهائل .

وقال غافروش :

— « اهطل ، ايها المطر الملعون . إن مما يمتعني ان أسمع الزجاجة تُفرغ في سيقان البيت . الشتاء مجنون . إنه يضيع بضاعته ، إنه يضيع جهوده . فهو غير قادر على ان يبللنا ، وهذا ما يجعل ذلك السقاء العجوز يتذمر ! »

هذا التعريض بالرعد ، الذي ارتضى غافروش — كفيلسوف من فلاسفة القرن التاسع عشر — جميع عواقبه أُتبع ببرق قوي كان من السطوع بحيث تسرب بعضه من خلال الثغرة إلى جوف الفيل . وفي اللحظة نفسها تقريباً ، انفجر الرعد على نحو مروع جداً . وأطلق

* Charles - Paul de Kock روائي فرنسي غزير الانتاج (١٧٩٤ — ١٨٧١)

الطفلان الصغيران صيحة ، ونهضا في سرعة بالغة زحزحت العريش عن موضعه أو كادت . ولكن غافروش أدار وجهه الباسل نحوهما ، وانتهز فرصة انفجار الرعد لكي ينفجر هو بالضحك .

— « الزما الهدوء ، ايها الطفلان . لا تُقلقا الصرح . لقد كان ذلك رعداً رائعاً . أعطنا مزيداً من ذلك . إن ذلك البرق لم يكن عديم الفائدة . مرحى للرب ! باسم الشيطان ! إنه لا يقل روعة عن ذلك الذي نراه في المسرح . »

حتى إذا قال ذلك أعاد العريش إلى مكانه ، ودفع الولدين برفق نحو مقدم العريش ، وضغط على ركبهما لكي يمددهما على مداهما ، ثم هتف :

— « ما دام الرب قد اشعل شمعته ففي استطاعتي ان اطفيء شمعتي . ايها الطفلان ، يجب أن تناما ، يا صاحبيّ البشريين . إن عدم النوم شيء رديء جداً ؛ إنه يصفعك على مصفاتك ، أو كما يقولون في المجتمعات الراقية ، ينتن في شدقك . التفا جيداً بالقشر ! سوف اطفيء . هل أنتما في حال حسنة ؟ »

فغمغم اكبر الطفلين :

— « نعم . أنا في حال حسنة . أحس وكأن شيئاً مثل الريش تحت رأسي . »

فصاح غافروش :

— « نحن لا نقول رأس . ولكن نقول أرومة . »

والتصق كل من الولدين بأخيه . وانهى غافروش توضيبهما فوق الحصير ، وجذب الغطاء حتى آذانهما ، وكرر الوصية للمرة الثالثة في لغة كهنوتية :

— « ارقدا ! »

ونفخ على الشمعة .

ولم يكد الضوء ينطفىء حتى شرع ارتجاف شديد يحـــرك العريش الذي نام الاطفال الثلاثة تحته . كانت جمهرة من ضروب الدعك المكظوم الذي اطلق صوتاً معدنيـاً ، فكأن بعض المخالب والاسـنان كـانـت تحـاول سحق سلك نحـاسي . وكان يصاحب ذلك مختلف ضروب الصيحات الحـادة الصغرى .

وغلب الخوف على الطفل الصغير ابن الخامسة حين سمع هـذه الضجـة فوق رأسه ، فدفـع أخـاه الأكبر بمرفقه ، ولكن الأخ الاكبر كـان قـد « رقد » ، كما أمره غافروش . وعندئذ غامر الصغير ، بعد ان لم يعد قادراً على ان يخافه ، وسأل غافروش ، ولكن في صوت خفيض جداً ، حابساً أنفاسه :

— « سيدي ؟ »

فقال غافروش ، وكان قد اغمض عينيه منذ لحظـة :

— « هيه ؟ »

— « ما هذا ؟ »

فأجابه غافروش :

— « إنها الجرذان . »

ووضع رأسه ، من جديد ، على الحصير .

والواقع ان الجرذان التي تـكاثرت بالآلاف في جثة الفيل ، والتي كانت هذه البقع السوداء الحية المشار اليها آنفـاً ، ظلت جامدة فـي مواطنها ، يلفها الذعر ، طوال اشتعال الشمعة . ولكن ما إن اعيـــد هذا الكهف ، الذي كان مدينتها ، حتى استروحت هناك ما دعاه بيرو،* القصصي المجيد ، « بعض اللحم الطازج » . فاندفعت زرافات زرافات إلى خيمة غافروش ، وتسلقت حتى القمة ، وراحت تقرض عُقَدهــا

---

* Charles Perrault كاتب فرنسي (١٦٢٨ — ١٧٠٣) ألف « عصر لويس الكبير » و « حكايات الجن » وغيرها .

وكأنها كانت تحاول الدخول من خلال هذه الناموسية الحديثة الطراز .

ومع ذلك فلم يستسلم الصغير للرقاد .

وقال كرة ثانية :

— « سيدي ! »

فقال غافروش :

— « هيه ؟ »

— « ما هي الجرذان ؟ »

— « إنها فيران . »

وهذا الشرح أعاد الاطمئنان إلى نفس الطفل بعض الشيء . كان قد رأى بعض الفئران خلال حياته ، ولم يكن ليخاف منها . بيد أنه ما لبث أن رفع صوته من جديد :

— « سيدي ؟ »

فقال غافروش :

— « هيه ؟ »

— « ولماذا لا يوجد عندك هرة ؟ »

فأجابه غافروش :

— « كانت عندي واحدة . لقد جئت بواحدة إلى هنا ، ولكنهم اكلوها لي . »

ونقض هذا الشرح الثاني ما كان قد أقامه الشرح الأول ، وبدأ الطفل الصغير يرتعد من جديد . واستأنف الحديث بينه وبين غافروش للمرة الرابعة :

— « سيدي ! »

— « هيه ؟ »

— « ما هذا الذي أكل ؟ »

— « الهرة . »
— « ومن الذي أكل الهرة ؟ »
— « الجرذان . »
— « الفيران ؟ »
— « نعم ، الفيران . »
وتابع الطفل اسئلته وقد روعته هذه الفئران التي تأكل القطط :
— « سيدي ، وهذه الفيران هل تأكلنا ؟ »
فقال غافروش :
— « يا للشيطان ! »
كان ذعر الطفل كاملا . ولكن غافروش أضاف :
— « لا تخف . انها لا تستطيع ان تدخل . وفوق هذا ، فأنا هنا . والآن ، هذه يدي أمسك بها . اسكت وارقد ! »

وفي الوقت نفسه أمسك غافروش بيد الولد الصغير من فوق أخيه . وضغط هذه اليد على جسده ، فاستشعر الأمن . إن للشجاعة والقوة مثل هذه العدوى الغريبة . وران الصمت من حولهم كرة اخرى ، كانت الأصوات الناطقة قد اذهلت الجرذان وطردتها . ولعلها قد رجعت بعد بضع دقائق وشنت حربها من جديد ، ولكن الغلمان الثلاثة ، المستغرقين في النوم ، لم يسمعوا شيئاً .

وتقضت ساعات الليل . وخيم الظلام على ساحة الباستيل المترامية الاطراف . وهبت نفحات من ريح شتوية يمازجها المطر ، وداهم العسس الابواب ، والازقة ، والأفنية المسيجة ، والزوايا المظلمة بحثاً عن متشردي الليل ، واجتازوا بالفيل في صمت . وبدا ذلك الجبار — المنتصب الجامد الفاتح عينيه في الظلام — وكأنه مستغرق في تفكير حالم ، مرتاح إلى ما قام به من عمل حميد ، وعصم من السماء ومن الناس اولئك الأطفال الثلاثة النائمين .

ولكي نفهم ما سوف نقصه بعد ، يتعين علينا أن نذكر ان حرس الباستيل كان مقره ، في تلك الحقبة ، في اقصى الطرف الآخر من الساحة ، وان ما وقع قرب الفيل ما كان في ميسور الخارس ان يراه أو يسمعه .

وحوالى نهاية الساعة التي تسبق الفجر مباشرة ، انطلق رجل من شارع سان انطوان راكضاً ، واجتاز الساحة ، ودار من حول السياج العريض المطوق لـ « عمود تموز » ، وانسل من بين اشجار السياج إلى ما تحت جوف الفيل . ولو ان ضوءاً مهما يكن قد أشرق على هذا الرجل ، بثيابه المبللة تبللا كاملا ، اذن لحزر المرء انه قد سلخ الليل تحت المطر . حتى إذا انتهى إلى الفيل أطلق نداء غريباً لا يمت بنسب إلى اية لغة بشرية ، وليس في استطاعة احد غير الببغاء ان يحاكيه . وأعاد مرتين ذلك النداء الذي لا يعطي هذا الرسم إلا فكرة ناقصة عنه إلى أبعد الحدود :

— « كيريكيكيو ! »

وعند النداء الثاني اجاب صوت واضح بهيج غضّ ، من بطن الفيل :

— « نعم ! »

وفي الحال تقريباً ، انزاح اللوح الخشبي الذي يسد الثقب ، وفتح الطريق لطفل هبط على طول قدم الفيل ووثب في خفة قرب الرجل . كان هو غافروش . وكان الرجل هو مونبارناس .

أما هذا النداء ، كيريكيكيو ، فكان فيه من غير شك ما أراد الطفل أن يقوله بـ : سوف تسأل عن مسيو غافروش .

ولم يكد يسمع النداء حتى استيقظ واثباً ، وزحف خارجاً من « مخدعه » ، منحياً الشبكة قليلا ، مغلقاً اياها بعد ذلك في إحكام ، ثم فتح الباب الافقي وهبط .

وعرف كل من الرجل والطفل صاحبه ، في صمت ، وسط الظلام . واجتزأ مونبارناس بالقول :

— « نحن في حاجة اليك . تعال ومد الينا يد المساعدة . »

ولم يطلب « المتشرد » أيما ايضاح .

وقال :

— « حاضر . »

واتجها كلاهما نحو شارع سانت انطوان الذي اقبل منه مونبارناس ، متلوّين في سرعة عبر عربات المزارعين ، المنتظمة في صف طويل ، والهابطة في تلك الساعة نحو السوق .

والواقع ان زارعي البقول هؤلاء ، الجاثمين في عرباتهم بين البقول والخضر ، نصف النائمين ، المدفونين حتى عيونهم في ثياب سائقي العربات بسبب من المطر المنهمر ، نقول ان زارعي البقول هؤلاء لم يلاحظوا هذين المارين الغريبين ولو مجرد ملاحظة .

٣
سعود الفرار ونحوسه

ودونك ما كان قد جرى ، في تلك الليلة نفسها ، في سجن لا فورس :

كان « بابيه » و « بروجون » و « غولوميه » قد دبروا أمر الفرار ، على الرغم من ان تيناردييه كان في المحبس الانفرادي . وكان « بابيه » قد قام بذلك لحسابه ، في وضح النهار ، كما رأينا مما رواه مونبارناس على غافروش .

وكان على مونبارناس ان يساعدهم من الخارج .

وكان بروجون قد وجد ، وهو الذي قضى شهراً في غرفة من غرف العقوبة ، متسعاً من الوقت لأن يُبرم حبلا ، أولا ، ولأن يضع خطة كاملة ، ثانياً . وفي ما مضى كانت هذه الحجيرات القاسية التي يُسلم فيها نظام السجن المذنبَ المحكوم عليه إلى نفسه ، تتألف من اربعة جدران حجرية ، وسقف حجري ، وأرضية مرصوفة بالبلاط ، وسرير من سرر المعسكرات ، وكوة مقضّبة بالحديد ، وباب حديدي مزدوج ، وكانت تدعى **الزنزانات** . ولكن الزنزانة اعتبرت رهيبة اكثر مما ينبغي . فهي الآن تتألف من باب حديدي ، وكوة مقضّبة ، وسرير من سرر المعسكرات ، وأرضية مرصوفة بالبلاط ، وسقف حجري ، واربعة جدران حجرية ، وتدعى **غرفة العقوبة** . انها لا تنطوي إلا على قليل من النور عند الظهيرة . وعيب هذه الغرف ، وهي كما رأينا ليست زنزانات ، هو انها تسمح بالتفكير لمخلوقات كان ينبغي ان تُحمل على العمل .

وإذن فقد فكر بروجون ، وغادر غرفة العقوبة بحبل من الحبال . وإذ عُرف في محكمة شارلمان بشدة الخطر فقد وُضع في « البناية الجديدة » . وكان أول ما وجده في « البناية الجديدة » غولوميه ، وكان ثاني ما وجده مسماراً . غولوميه ، يعني الجريمة . ومسماراً يعني الحرية .

وكان بروجون ، الذي آن لنا ان نعطي القارىء فكرة عنه ، ذا مظهر من المزاج الرقيق ، ومن الانحطاط الجسمي المتعمَّد على نحو محكم . وكان لصاً ذكياً حازماً مصقول الحواشي ، تتسم طلعته بالملاطفة ، وابتسامته بالقسوة . كانت سيماه ثمرة لارادته ، وكانت ابتسامته ثمرة فطرته . وكانت اولى دراساته في فنه موجهة نحو السطوح . وكان قد اجرى تحسيناً كبيراً في صناعة قلاّعات الرصاص التي تجرّد السطوح وتسلخ جلد الميازيب بالعملية المدعوة : الشحم المزدوج .

وكان الذي جعل تلك اللحظة ملائمة على نحو خاص لمحاولة من محاولات الفرار أن بعض العمال كانوا ينزعون ويعيدون وضع جزء من حجارة السجن الضاربة إلى الزرقة في ذلك الوقت بالذات . ولم يكن فناء سان برنارد معزولا عزلا كاملا عن فناء شارلمان وفناء سان لويس . كانت ثمة صقالات ومراق . وبكلمة اخرى جسور وسلالم تقود نحو الخلاص .

وكانت « البناية الجديدة » ، وهي اكثر بنايات العالم تشققاً وهرماً ، نقطة الضعف في السجن . كانت جدرانها مقرّضة بملح البارود إلى درجة اضطرت القيّمين عليه إلى أن يُلبسوا عقود المهاجع وجهاً خشبياً ، لأن الحجارة كانت تتداعى إلى السقوط فتقع على سرر السجناء . وعلى الرغم من هذا التداعي ، اقترفت السلطة هذه الغلطة : لقد احتبست في « البناية الجديدة » السجناء الاشد خطراً ، ووضعت « الحالات الصعبة » هناك ، كما يقولون في لغة السجون .

كانت « البناية الجديدة » تنتظم اربعة مهاجع احدها فوق الآخر ، وعليّة كانت تدعى « الهواء العليل » . وكانت مدخنة كبيرة ، اغلب الظن انها منتزعة من مطبخ قديم من مطابخ دوقات لا فورس ، تنطلق من الدور الارضي ، وتخترق الطوابق الاربعة قاسمة إلى قسمين جميع المهاجع التي بدت فيها وكأنها ضرب من عمود مسطح ، ومضت ثاقبةً السطح .

كان غولوميه وبروجون في مهجع واحد . كانا قد وُضعا في الدور السفلي حذراً واحتياطاً . واتفق ان مقدّمي سريريهما استندا إلى مدخنة الموقد .

وكان تيناردييه فوقهما مباشرة ، في العلّية المعروفة بـ « الهواء العليل . »

إن عابر السبيل الذي يقف في شارع « كولتور سانت كاترين » خلف

ثكنات رجال الاطفاء ، أمام باب العربات المؤدي إلى الحمام العام ، ليرى فناء حافلاً بالرياحين والشجيرات الموضوعة في الصناديق — فناء في طرفه الاقصى بناء مدور صغير ذو قبة وجناحان مزدانان بمصاريع نوافذ خضراء — * حُلم جان جاك الرعائي . وقبل عشر سنوات ليس غير كان ينهض فوق هذا البناء المدور جدار أسود — جدار هائل ، رهيب ، أجرد كان البناء مستنداً اليه . ذلك كان سور لا فورس المطوّق .

هذا الجدار قائماً خلف ذلك البناء المدور كان هو ميلتون ** منظوراً اليه خلف بيركين ***

وعلى الرغم من ارتفاع هذا الجدار فقد كان يعلوه سطح اشد سواداً كان يمكن ان يُرى وراءه . كان سطح « البناية الجديدة » . وكنت تبصر اربعاً من كوى غرف النوم ذات القضبان الحديدية . كانت هذه هي نوافذ « الهواء العليل » . واخترقت مدخنةٌ هذا السطح ، كانت هي المدخنة التي اجتازت المهاجع .

وكان « الهواء العليل » ، علّية « البناية الجديدة » تلك ، شبه قاعة من قاعات العلالي الواسعة ، موصدة بحاجز مثلث ذي قضبان وبأبواب حديدية مصفحة على نحو مزدوج تناثرت فيها المسامير الضخام . حتى إذا تقدمتَ نحو الطرف الشمالي ، وجدتَ إلى يسارك الكوى الاربع ، وإلى يمينك تجاه الكوى اربعة اقفاص مربعة عريضة ، بعيداً بعضها عن بعض ، وقد فصلت ما بينها مجازاتٌ ضيقة ، بغيت حتى النحر بمواد بناء ، وشُيد سائرها حتى السطح من أعمدة حديدية .

وكان تيناردييه قد حُبس حبساً منفرداً في واحد من هذه الاقفاص

* جان جاك روسو .

** Milton هو جون ميلتون الشاعر الانكليزي العظيم (١٦٠٨ — ١٦٧٤)

*** Berquin اديب فرنسي (١٧٤٧ — ١٧٩١)

منذ ليل الثالث من شباط . ولم يكتشف احد قط كيف ، أو بأية وسيلة، وفق إلى الفوز بزجاجة من تلك الخمر التي يقال ان « ديرو » اخترعها ، واخفائها في مكان ما ، تلك الخمر التي يمتزج بها المخدر ، والتي جعلتها عصابة « الشريرين المنوّمين » ذات شهرة واسعة .

إن في كثير من السجون مستخدمين خونة ، كل منهم نصف سجان ونصف لص — مستخدمين يسهلون عمليات الفرار ، ويبيعون الشرطة خدمات غير أمينة ، ويكسبون اكثر من مرتباتهم بكثير .

واذن في تلك الليلة نفسها ، ليلة تلقف غافروش الصغير الولدين التائهين ، نهض بروجون وغولوميه في رفق — وقد عرفا ان بابيه الذي سبقهما إلى الهرب ذلك الصباح نفسه كان ينتظرهما هو ومونبارناس في الشارع — وشرعا يثقبان بالمسار الذي وجده بروجون مدخنة الموقد التي كان سريراهما يمسانها . وسقط النثار على سرير بروجون ، فلم يسمع أحد له صوتاً . وهزت عاصفة البرد وهز الرعد الأبواب على رزاتها ، فأحدثت هديراً رهيباً وملائماً في السجن . وتظاهر السجناء الذين أفاقوا بأنهم قد استسلموا للرقاد من جديد ، وتركوا غولوميه وبروجون وشأنهما . وكان بروجون رشيقاً ، وكان غولوميه ذا حزم . وقبل ان ينتهي ايما صوت إلى الحارس ، الذي كان نائماً في الحجيرة المقضبة ذات النافذة المطلة على المهجع ، كان الجدار قد ثقب ، والمدخنة قد تسلقت ، والشبكة الحديدية التي توصد منفذ المدخنة الاعلى قد اقتحمت ، وكان قاطعا الطريق الرهيبان قد بلغا السطح . وتضاعف المطر والريح شدة ، وكان السطح زلقاً .

وقال بروجون :

— « يا لها من ليلة ملائمة للفرار ! »

كانت هوة عرضها ستة اقدام وعمقها ثمانون قدماً تفصلها عن السور المطوّق ، وفي قعر هذه الهوة رأيا بندقية احد الحرس تلتمع

في الظلام . وشدّا احد طرفي الحبل الذي أبرمه بروجون في حجيرته إلى فلذ قضبان المدخنة التي سبق لهما ان لوياها منذ لحظة ، وطرحا الطرف الآخر من فوق الجدار المطوّق ، وعبرا الهوة بوثبة ، وتعلقا بالعوارض المنحدرة التي تعلو الجدار ، واجتازاها وانزلق احدهما خلف الآخر على طول الحبل فوق سطح صغير ملاصق للحمام ، وجذبا حبلهما إلى ادنى ، ووثبا إلى فناء الحمام ، واجتازاه ، وفتحا خادعة* البواب ، التي تدلى الحبل قربها ، وجذبا الحبل ، وفتحا باب العربات ، فاذا هما في الشارع .

وإنما تم ذلك ولما يمضِ ثلاثة ارباع الساعة على نهوضهما من سريرهما في الظلام ، ومسمارهما باليد ، ومشروعهما في الرأس .

وبعد لحظات قليلة ، التحقا ببابيه ومونبارناس اللذين كانا يطوّفان في المنطقة المجاورة .

وكانا قد قطعا حبلهما فيما هما يجذبانه ، وكانت قطعة منه قد بقيت معلقة بالمدخنة على السطح . ولم يكن قد اصابهما أيما اذى غير تخدش ايديهما تخدشاً شديداً .

وفي تلك الليلة ، كان تيناردييه قد تلقى تحذيراً ليس في امكان أحد ان يؤكد كيف انتهى اليه ، فلم يغمض له جفن .

وحوالى الساعة الواحدة صباحاً ، وكان الليل حالكاً جداً ، رأى شبحين يجتازان السطح ، تحت المطر ، وفي وجه العاصفة ، أمام الكوة المواجهة لقفصه . ووقف احدهما عند النافذة فترة كافية لالقاء نظرة . كان ذلك هو بروجون . وعرفه تيناردييه ، وفهم . كان ذلك حَسْبَهُ .

وكان تيناردييه ، وقد اعتُبر سفاحاً وحُبس بتهمة إقامة كمين

* الخادعة هي الباب الصغير ضمن باب كبير .

ليلي مسلح ، خاضعاً لرقابة شديدة . كان احد الحرس ، الذين كانوا يبدلون مرة كل ساعتين ، يسير حاملا بندقية مشحونة أمام قفصه . وكان « الهواء العليل » يضاء بعاكسة للنور . وكانت قدما السجين مثقلتين باغلال حديدية تزن خمسين ليبرة . وكل يوم ، في الساعة الرابعة بعد الظهر ، كان حارس يواكبه كلبان — فقد كان ذلك معتاداً في تلك الحقبة — يدخل إلى قفصه ، فيضع قرب سريره رغيفاً أسود يزن ليبرتين ، وابريق ماء ، وطبقا مليئاً بحساء بالغ الهزال كانت تسبح فيه بعض حبات من الحمص ، ويفحص أغلاله ، ويضرب على القضبان . وكان هذا الرجل ، وكلباه الاثنان ، يرجعان مرتين في الليلة الواحدة .

وكان تيناردييه قد استصدر اذناً بالاحتفاظ بشبه رزة حديدية كان يستعملها لكي يسمر رغيفه في ثقب في الجدار « لكي يحفظه » — كما قال — « من الجرذان » . وإذ كان تيناردييه موضوعاً تحت الحراسة الموصولة فأن القيمين على السجن لم يجدوا في احتفاظه بتلك الرزة ايما بأس . بيد انهم تذكروا في ما بعد أن احد الحرس كان قد قال : « من الخير أن لا تسمحوا له بشيء غير وتد خشبي . »

وفي الساعة الثانية صباحاً استعيض عن الحارس ، الذي كان جندياً عجوزاً ، برجل حديث عهد بالجندية . وبعد بضع لحظات قام الرجل ذو الكلبين بزيارته ، ومضى من غير ان يلاحظ غير « الحداثة البالغة » و « السيما الريفية » اللتين غلبتا على الجندي . وبعد ساعتين اثنتين ، في الساعة الرابعة ، حين أقبل من يحل محل الجندي الحدث ، وُجد هذا الجندي نائماً ، طريحاً على الارض مثل قرمة من الحطب ، قرب قفص تيناردييه . أما تيناردييه ، فلم يكن هناك . كانت اغلاله المحطمة على الارض . وكان ثمة ثقب في سقف قفصه ، وفوقه كان ثقب

آخر في السطح . كان لوح قد انتُزع من سريره ، وذُهب به من غير شك ، ذلك بأنهم لم يعثروا عليه بعد . وعثروا في الحجيرة أيضاً على زجاجة نصف فارغة ، تحتوي على بقية الخمر المخدرة التي أكره بها الجندي على النوم . كانت حربة الجندي قد اختفت .

ولحظةَ تم هذا الكشف ، اعتقد القوم ان تيناردييه كان بعيداً عن متناولهم بكل ما في الكلمة من معنى . والواقع انه لم يكن في « البناية الجديدة » ، ولكنه كان لا يزال في خطر عظيم .

ولم يكد تيناردييه يبلغ سطح « البناية الجديدة » ، حتى وجد بقية حبل بروجون معلقاً بقضبان باب المدخنة الأفقي الاعلى ، ولكن هذا الطرف الابتر كان قصيراً اكثر مما ينبغي ، فلم يستطع الفرار من فوق مجاز الحرس ، كما فعل بروجون وغولوميه .

إنك حين تنعطف من شارع الـ « باليه » إلى شارع « ملك صقلية » تجد إلى اليمين ، وفي الحال تقريباً ، حفرة قذرة . هناك ، كان في القرن الماضي منزل لم يبق منه غير الجدار الخلفي ، وهو جدار متهدم حقاً ينهض إلى ارتفاع الدور الثالث بين الابنية المجاورة . وفي استطاعة المرء ان يتعرف هذا الجدار من نافذتين مربعتين كبيرتين لا تزالان تشاهدان إلى اليوم . وتلك التي في الوسط ، والاشد قرباً إلى حائط الجملون الأيمن مسدودةٌ بخشبة نخرة عُدلت على شكل عارضة من عوارض الدعائم . ومن خلال هاتين النافذتين كان في ميسور الناظر ، قديماً ، ان يتبين جداراً حِدادياً عالياً كان جزءاً من سور « لا فورس » المطوّق .

والفراغ الذي تركه في الشارع ذلك المنزل المقوض قد ملىء على نحو جزئي بسياج ذي الواح خشبية نخرة تدعمها أنصاب حجرية خمسة . وخلف هذا السياج احتجب كوخ صغير مستند إلى ذلك الجزء الذي لا يزال ناهضاً

من البناء الخرب . وكان للسياج باب لم يكن يوصد ، قبل بضعة اعوام ، إلاّ بمزلاج ليس غير .

وكان تيناردييه قد انتهى إلى قمة هذه الخرائب بعد الساعة الثالثة ، صباحاً ، بقليل .

كيف استطاع الوصول إلى هناك ؟ ذلك ما لم يوفق احد قط إلى شرحه أو فهمه . وليس من ريب في ان البرق قد أربكه وساعده في آن معاً . هل اصطنع السلالم وصقالات السقف للانتقال من سطح إلى سطح ، ومن سياج إلى سياج ، ومن بيت إلى بيت ، إلى ابنية محكمة شارلمان ، ثم إلى فناء سان لويس ، إلى الجدار المطوق ، ومن هناك إلى المنزل الخرب في شارع ملك صقلية ؟ ولكن كانت في هذه الطريق فجوات بدت وكأنها تجعل ذلك متعذراً . هل اتخذ من لوح سريره الخشبي جسراً عبر عليه من سطح « الهواء العليل » إلى الجدار المطوق ، وهل زحف على بطنه فوق عوارض الجدار ، على مدار السجن حتى المنزل الخرب ؟ ولكن جدار لا فورس المطوّق كان يجري على خط مسنن غير مستو ، كان يرتفع وينخفض ، كان يغور إلى ثكنات رجال الاطفاء ، ويعلو إلى الحمام ، وكانت الابنية تعترض سبيله ، ولم يكن ارتفاعه عند اوتيل لاموانيون مثل ارتفاعه في شارع بافيه ، وكانت له انحدارات وزوايا قائمة في كل مكان. وإلى هذا فقد كان الحراس جديرين بان يروا ظل الهارب الداكن . وعلى هذا الافتراض ايضاً تظل الطريق التي سلكها تيناردييه ممتنعة على التفسير تقريباً . وفي أي من الحالين، كان الفرار متعذراً . هل اخترع تيناردييه ، مستديراً بذلك الظمأ الرهيب إلى الحرية الذي يحوّل الهُوّى * إلى خنادق . والحواجز الحديدية المقضبة إلى قضبان من خيزران ، والكسيح إلى رياضي ، والمصاب بنقرس القدمين إلى طائر ، والحماقة إلى غريزة ، والغريزة إلى ذكاء ، والذكاء إلى عبقرية — هل اخترع تيناردييه وارتجل طريقة ثالثة ؟ ذلك ما لم يقدّر

* جمع هوّة .

لأحد ان يعرفه البتة .

إن المرء لا يستطيع دائماً ان يفهم اعاجيب الهروب . فالرجل الذي يهرب ، ولنكرر ذلك ، يكون ملهماً . إن ثمة شيئاً من التجم ومن البرق في وميض الفرار العجيب . والسعي نحو الانعتاق ليس اقل إدهاشاً من الانطلاق نحو الأسمى . ونحن نقول عن اللص الهارب : كيف وفق إلى أن يتسلق ذلك السطح ؟ تماماً كما قيل عن كورني : كيف اهتدى إلى **انه سوف يموت** ؟

وأياً ما كان فقد انتهى تيناردييه – وقد سال منه العرق ، وتقنع بالمطر ، ومُزقت ملابسه ، وخُدشت يداه ، وجرى الدم من مرفقيه ، ومزقت ركبتاه – انتهى على تلك الحال إلى ما يدعوه الاطفال في لغتهم المجازية ، « حد » جدار المنزل الخرب ، وتمدد على طوله فوقه ، وهناك خانته قواه . كان منحدراً وعر ، يبلغ ارتفاعه ثلاثة أدوار ، يفصله عن حصباء الطريق .

كان الحبل الذي معه أقصر مما ينبغي .

كان ينتظر هناك ، شاحباً ، منهوك القوى ، فاقداً كل أمل كان يراوده ، متلفعاً – ما يزال – بحجاب الليل ، ولكنْ قائلا في ذات نفسه ان الفجر على وشك ان ينبلج ، مذعوراً لتفكيره بانه سوف يسمع بعد بضع لحظات دقات « ساعة القديس بولس » المجاورة تعلن الرابعة ، وهو موعد مجيئهم لاستبدال الحارس ، وعندئذ يجدونه نائماً تحت السطح المثقوب ، محدقاً في انشداه – خلال العمق الرهيب ، وعلى ضوء المصابيح – إلى حصباء الطريق الندية السوداء ، هذه الحصباء التي كانت رغبة ورهيبة ، والتي كانت الموت وكانت الحرية .

وتساءل ما إذا كان شركاؤه الثلاثة في الهرب قد نجحوا ، وما إذا كانوا قد سمعوه ، وما إذا كانوا سيهرعون إلى نصرته . وأصغى . وباستثناء احد الحراس لم يجتز الشارع ، منذ ان انتهى إلى هناك ،

شخص ما ، وإنما تتم الكثرة العظمى من تنقلات مزارعي مونتروي ، وشارون ، وفينسان ، وبيرسي إلى السوق من خلال شارع سانانطوان .

واعلنت الساعةُ الرابعةَ . وارتعد تيناردييه . وبعد بضع لحظات، اندلعت في السجن تلك الضجـة الضارية المشوشة التي تعقب اكتشاف الهرب . وبلغت سمع تيناردييه أصوات الابواب تفتح وتغلق ، وصريف الابواب الحديدية على رزاتها ، والجلبة في مركز الحرس ، ونداءات البوابين المبحوحة ، وصدى ارتطام اعقـاب البنادق بحصباء الافنية.وارتفعت الاضواء وانخفضت في نوافذ المهاجع المقضبة بالحديد ، وجرى مشعل عبر علّية « البناية الجديدة » ، واستدعي رجال الاطفاء من ثكناتهم المحاذية . وكانت خوذهم ، التي اضاءتها المشاعل تحت المطر ، تروح وتجيء على طول السطوح . وفي الوقت نفسه رأى تيناردييه في اتجـاه الباستيل سحابة شاحبة تبيّض الجزء الادنى من السماء على نحو حدادي .

كان في ذروة جدار عرضه عشر بوصات ، ممدداً تحت العاصفة تكتنفه هوتان عن يمين وشمال ، غير قادر على ان يتحرك ، جزعاً من شبح السقوط ، مذعوراً ليقينه أن الحرس سوف يقبضون عليه لا محالة . وانتقلت افكاره ، مثل رقاص الساعة ، من احدى هاتين الفكرتين إلى الاخرى : « سأموت إذا وقعتُ ، وسيقبض علي إذا بقيتُ . »

وفي غمرة من هذا الألم النفسي المرير رأى فجـأة — وكان الظلام لا يزال يلف الشارع — رجلا ينزلق على الجدران مقبلا من ناحية شارع « بافيه » ، ويقف فوق الحفرة التي كان تيناردييه شبه معلق فوقها. وكان يتبع هذا الرجل رجل ثان ، كان يمشي بالحذر نفسه ، ثم ثالث فرابع . حتى إذا التقى هؤلاء الرجال رفع احدهم مزلاج باب السياج ، ودخل الاربعة إلى الفناء المنطوي على الكوخ . كانوا تحت تيناردييه تماماً . وواضح ان هؤلاء الرجال قد اختاروا تلك الحفرة لكي يكون في

ميسورهم ان يتحدثوا من غير ان يراهم عابرو السبيل ، أو الخفير الذي يحرس باب « لا فورس » على بضع خطوات من هناك . ويجب ان نص ايضاً على ان المطر أبقى هـذا الخفير مسمراً في محرسه . واذ لم يكن في استطاعة تيناردييه ان يتبين وجوههم ، فقد أصغى إلى كلماتهم بمثل الانتباه اليائس الذي يغلب على بائس يستشعر أنه هالك عما قريب .

وطاف بعيني تيناردييه شيء يشبه الامل. كان هؤلاء الرجال يتكلمون لغة السوقة . *

قال اولهم ، في صوت خفيض ، ولكن في وضوح :

— « فلنذهب . ما الذي نفعله هنا ؟ *icigo* »

فأجاب الآخر :

— « انها تمطر مطراً كافياً لاطفاء نار الشيطان . وإلى هذا فالشرطة تجوب الشوارع . ان هناك جندياً يقوم بالحراسة . هل ندعهم يقبضون علينا هنا *icicaille* ؟ »

هاتان الكلمتان *icigo* و *icicaille* اللتان تفيدان معنى « هنا » *ici* ، واللتان تنتسب اولاهما إلى لغة « ابواب المدن » السوقية ، وتنتسب اخراهما إلى لغة الـ « تامبل » السوقية ، كانتا بصيصاً من النور في عين تيناردييه . ففي *icigo* عرف بروجون ، الذي كان يطوف بالليل قرب مداخل المدينة ، وفي *icicaille* عرف بابيه الذي كان ، بالاضافة إلى صناعاته الاخرى ، بائعاً من باعة الـ « تامبل » .

إن لغة السوقة القديمة التي كانت شائعة في عصر لويس الرابع عشر لا يُتحدث بها اليوم إلا في الـ « تامبل » ، وكان بابيه هو الشخص الوحيد الذي يتكلمها في صفاء كلي . ولو لا *icicaille* لما استطاع تيناردييه ان يعرفه لأنـه كان قد قنّع صوته تقنيعاً كاملا .

وفي غضون ذلك تدخل الرجل الثالث في الحديث :

---

* argot

— « لا داعي إلى العجلة . فلننتظر قليلا . ما أدرانا أنه غير محتاج إلى معونتنا ؟ »

ومن هذه العبارات ، التي لم تكن إلا كلاما فرنسياً ، أستطاع تيناردييه ان يعرف مونبارناس الذي كانت لباقته تقوم على فهمه جميع اللهجات السوقية وعدم النطق بأي منها .

أما رابعهم فاعتصم بالصمت ، ولكن كتفيه الضخمتين نمتا عليه. ولم يتردد تيناردييه . كان ذلك الرجل هو غولوميه .

واجاب بروجون ، في لهجة تكاد تكون حماسية ، ولكن في جرْس خفيض ايضاً :

— « ما الذي تقوله لنا هنا ؟ إن الفندقي لم يستطع الفرار . انه لا يعرف الصناعة ، حقاً ! فلكي يمزق الانسان قميصه ، ويقطع غطاء السرير ليجعل منه حبلا ، ويحدث ثقوباً في الأبواب ، ويصنع اوراقاً زائفة ، ويعمل مفاتيح مزورة ، ويقطع الحديد ، ويدلّي حبله في الخارج ، ويختبىء ويتقنع — لكي يفعل الانسان ذلك ينبغي ان يكون شيطاناً ! إن الرجل العجوز لم يستطع ان يفعل ذلك . إنه لم يعرف كيف يعمل . »

واضاف بابيه ، بتلك اللغة السوقية الكلاسيكية الحكيمة نفسها التي تكلمها بولاييه وكارتوش ، والتي كانت بالنسبة إلى لهجة بروجون الجريئة الجديدة ، الموشاة ، المخاطِرة ، ما كانته لغة راسين بالنسبة إلى لغة آندريه شينييه :

— « إن صاحبك الفندقي لا بد ان يكون قد قبض عليه وهو يحاول الفرار . يجب ان يكون الواحد منا عفريتاً . أما هو فليس غير تلميذ في هذه الصناعة . لقد خدعه احد الجواسيس ، او ربما احد الخراف ، بعد ان اتخذ منه صديقاً . انتبه ، يا مونبارناس ، هل تسمع هذه الصيحات في السجن ؟ لقد رأيتَ هذه الاضواء كلها . لقد

قبضوا عليه ، هيا ! لقد أعـادوه ليقضي سنواته العشرين في السجن . أنا لست خائفاً ، أنا لست جباناً ، هذا شيء معروف ، ولكن ليس ثمـة شيء آخر يمكن ان نعرفـــه ، وإلا أكرهونـا عـلى الرقص . لا تغضب ، تعال معنا . فلنذهب ونشرب زجـــاجـة مـــن الخمـر المعتقة معـاً . »

فغمغم مونبارناس :

— « إن الانسان لا يتخلى عن اصدقائه في الشدة والضيق . . »

فأجابه بروجون :

— « اقول لهم انهم قـد عاودوا القبض عليه . ففي اللحظة الحاضرة لا يساوي الفندق فلساً . نحن لا نستطيع ان نفعل شيئاً هنا . فلنذهب . أنا اتوقـع ، في كـل لحظـة ، أن يقبض عليّ رجـل من رجـــال الشرطـة ! »

ولم يقـاوم مونبارناس إلا في وهن . والحق ان اولئك الرجال الاربعة ، بذلك الوفاء الذي يجعل قطـاع الطرق لا يتخلى بعضهم عن بعض البتة ، كانوا قد طوّفوا طوال الليل حول « لا فورس » ، متعرضين لضروب المخاطر ، أملا في ان يروا تيناردييه يُطلع رأسه من فوق جدار مـــا . ولكن الليل الذي كان قد غدا جميلا اكثر مما ينبغي ، وقد هبط وابل كاف لأن يجعل الشوارع مقفرة تماماً ، والبرد الذي شرع يستبد بهم ، وثيابهم المبللة ، واحذيتهم الندية ، والهدير المقلق الذي انطلق مــــن السجن ، والساعات المتصرمة ، والحراس الذين التقوا بهم ، وضيـــاع الأمل ، وعودة المخاوف ، كل اولئك أكرههم على الانسحاب . ورضخ مونبارناس نفسه ، الذي كان إلى حد ما صهر تيناردييه . ومـــا هي إلا لحظـة حتى مضوا لسبيلهم . ولهث تيناردييه فوق جداره مثـــل ملاحي الـ « ميدوز » الغرقى فوق طوفهم حين رأوا السفينة التي برزت لهم تختفي عند الافق .

ولم يجرؤ على ان يناديهم . فان صيحة مسموعة قد تفسد كل شيء . وخطرت له فكرة ، فكرة اخيرة ، وميض من نور . وآخرج من جيبه بقية حبل بروجون ، وكان قد انتزعه من مدخنة « البناية الجديدة » ، وطرحه إلى السياج .

وسقط ذلك الحبل عند أقدامهم .

وقال بابيه :

— « حبل . »

وقال بروجون :

— « حبلي . »

وقال مونبارناس :

— « هو ذا الفندقي . »

ورفعوا أعينهم . وأتلع تيناردييه رأسه .

فقال مونبارناس :

— « عجّل ! أتحمل الطرف الآخر من الحبل ، يا بروجون ؟ »

— « نعم . »

— « إربط الطرفين معاً . سوف نقذف اليه بالحبل . ولسوف يشده إلى الجدار ، وسيكون لديه مقدار كاف يمكنه من الهبوط . »

وحاول تيناردييه ان يتكلم :

— « ان فرائصي ترتعد . »

— « سوف تدفئك . »

— « أنا لا استطيع ان أتحرك . »

— « حاول ان تنزلق انزلاقاً . سوف نتلقاك بأيدينا . »

— « ان يديّ متصلبتان . »

— « شد الحبل إلى الجدار ليس غير . »

— « لا استطيع . »

فقال مونبارناس :

– « يجب على واحد منا ان يصعد . »

فقال بروجون :

– « ثلاثة طوابق ! »

كانت ثمة مدخنة عتيقة من جص ، استُخدمت من قبل لموقد كان يستعمل في الكوخ . وكانت هـذه المدخنة تزحف على طول الجدار مرتفعة إلى النقطة التي رأوا تيناردييه عندها تقريباً . وكانت آنـذاك متصدعة كل التصدع منشققة كل التشقق ، وقـد سقطت منذ ذلك الحين ، ولكن في ميسور المرء ان يرى آثارهـا إلى الآن . كـانت صغيرة جـداً .

وقال مونبارناس :

– « في استطاعتنا ان نصعد من هنا . »

فصاح بابيه :

– « من خلال هذه المدخنة ؟ رجل ؟ مطلقـاً ! إنهـا تحتـاج إلى طفـل . »

فقال غولوميه :

– « اين نستطيع ان نجد طفلا ؟ »

فقال مونبارناس :

– « انتظروا . عندي هذا الشيء . »

وفتح باب السياج ،في رفق ، وتثبت من ان احداً لم يكن يجتاز بالشارع . وخرج في حذر ، واغلق الباب خلفه ، ومضى راكضاً في اتجاه الباستيل .

وتصرمت سبع دقائق أو ثماني دقائق كانت ثمانية آلف قرن بالنسبة إلى تيناردييه . وأحكم بابيه ، وبروجون ، وغولوميه إطباق اسنانهـم بعضها على بعض . وأخيراً فُتح الباب من جديد ، وبرز مونبارناس ،

لاهثاً ، مع غافروش . كان المطر لا يزال ينهمر جاعلا الشوارع مقفرة بالكلية .

ودخل غافروش الصغير السياج ، والقى نظرة على وجوه اولئك اللصوص في سيما هادئة . كانت المياه تقطر من شعره . ووجّه غولوميه الخطاب اليه ، قائلا :

— « ايها الطفل ، هل انت رجل ؟ »

وهز غافروش كتفيه واجاب :

— « ان طفلا مثلي هو رجل . وان رجالا مثلك هم اطفال . »

فصاح بابيه :

— « ما ابرع لسان هذا الطفل ! »

وأضاف بروجون :

— « إن الطفل الباريسي ليس مصنوعاً من قش رطب . »

فقال غافروش :

— « ولكن ، ما الذي تريده مني ؟ »

فأجابه مونبارناس قائلا :

— « ان تتسلق الجدار من خلال هذه المدخنة . »

وقال بابيه :

— « ومعك هذا الحبل . »

وتابع بروجون :

— « وان تعلق الحبل . »

واضاف بابيه :

— « بأعلى الجدار . »

فقال غافروش :

— « ثم ماذا ؟ »

فقال غولوميه :

— « هذا كل مــا هنالك . »

وتأمل « المتشرد » الحبل ، والمدخنة ، والجدار ، والنوافذ ، وأطلق من بين شفتيه ذلك الصوت المستهزيء الذي لا سبيل إلى التعبير عنه ، والذي يريد ان يقول :

— « ولم ذاك ؟ »

فأجابه مونبارناس :

— « ان هناك رجلاً سوف تنقذه انت . »

وأضاف بروجون :

— « هل ترغب في ذلك ؟ »

فأجاب الطفل ، وكأنما بدا السؤال أحمق في نظره :

— « أبله . »

ونزع حذاءه .

وأمسك غولوميه بغافروش من احدى ذراعيه ، ووضعه على سطـح الكوخ ، فالتوت ألواحه النخرة تحت ثقل الطفل ، وناوله الحبل الذي كان بروجون قد وصله خلال غيبة مونبارناس . ومضى « المتشرد » نحو المدخنة ، التي كان من اليسير دخولها بفضل ثقب كبير في السقف . ولحظة شرع يصعد انحنى تيناردييه — الذي رأى السلامة والحيـــاة تقتربان — فوق حافة الجدار . واضاءت اشعة الفجر الاولى جبينـــه الغارق في العرق ، وخديه الشاحبين إلى ابعد الحدود ، وانفه المهزول الوحشي ، ولحيته الشائبة الشائكة ، وعرفه غافروش :

— « عجيب ! هذا أبي ! حسناً ، ذلك لا يحول بيني وبين العمل ! »

واخذ بالحبل باسنانه ، وبدأ الصعود في عزم .

وانتهـى إلى أعلى المنزل الخرب ، وامتطى الجدار وكأنه جواد ، وشد الحبل في إحكام إلى قضيب النافذة المعترض الاعلى .

وبعد لحظة كان تيناردييه في الشارع .

ولم يكد يمس حصباء الطريق ، ولم يكد يستشعر انه في نجوة مـن الخطر ، حتى زايله التعب ، والخدر ، والارتعاد جميعاً . لقد تلاشت الاشياء الرهيبة التي مر بها وكأنها الدخان ، واستيقظ كل ذلك الذكـاء الغريب الضاري ، ووجـد نفسه منتصب القـامـة ، طليـق السراح ، مستعداً للسير إلى أمـام . وكانت أولى كلمـات هذا الرجل هي التالية :

— « والآن ، من الذي سوف نأكله ؟ »

ومن غير المجدي ان نفسر معنى هذه الكلمة الشفافة إلى حـد مروع ، والتي تعني في آن معاً القتل ، والاغتيال ، والسلب . ان « أكَلَ » تفيد في معناها الحقيقي : التَهمَ

فقال بروجون :

— « دعنا نختبىء اولا . فلنقل ثلاث كلمات ، ولنفترق في الحال . كانت ثمـة صفقة تبدو عليها دلائل الجودة في شارع بلوميه : شارع مهجور ، ومنزل منعزل ، وباب حديدي عتيق صدىء على الشارع ، وبعض النسوة المتوحدات . »

وتساءل تيناردييه :

— « حسناً ، ولم لا ؟ »

فأجابه بابيه :

— « ان ابنتك ايبونين ذهبت لترى المسألة . »

واضاف غولوميه :

— « وحملت إلى مانيون قطعة بسكويت . ليس هنـاك عمـل نقوم بـه . »

فقال تيناردييه :

— « البنت ليست بلهاء . ومع ذلك فيجب ان نرى . »

فقال بروجون :

— « اجل ، اجل ، يجب ان نرى . »

وفي الوقت نفسه لم يبد ان احداً من اولئك الرجال كان لا يزال راغباً في ان يرى غافروش الذي كان ، خلال هذه المحادثة ، قد جلس على احدى دعائم السياج الحجرية . وانتظر بضع لحظات ، ولعله فعل ذلك رجاة أن يستدير أبوه نحوه ، ثم انتعل حذاءه ، وقال :

— « لقد انتهى كل شيء ؟ الم تعد بكم حاجة إلي ، ايها الرجال ؟ لقد خرجتم من ورطتكم . أنا ذاهب . يجب ان اذهب وأوقظ طفلي . »

ومضى لسبيله .

ومضى الرجال الخمسة ، من السياج ، واحداً بعد واحد .

وحين اختفى غافروش عند منعطف شارع الـ « باليه » انتحى بابيه بتيناردييه جانباً .

وسأله :

— « هل رأيت ذلك الطفل ؟ »

— « أي طفل ؟ »

— « الطفل الذي تسلق الجدار وحمل اليك الحبل . »

— « لم أره جيداً . »

— « حسناً . لست ادري ، ولكن يبدو لي أنه ابنك . »

— « عجيب ! هل تُظن ذلك ؟ »

ومضى لسبيله .



الكتاب السابع

لُغَةُ الثُّورَة



بيغريشيا *Pigritia* كلمة رهيبة .

إنها تلد عالماً : جماعة السارقين *la pégre* ، اقرأ اللصوصية وجحيماً ؛ جماعة السارقات *la pègrenne* ، اقرأ الجوع .

وهكذا فالبطالة أمّ .

إن لها ولداً هو اللصوصية ، وابنة هي الجوع .

أين نحن الآن ؟ في لغة السوقة .

ما هي لغة السوقة ؟ انها في الوقت نفسه الأمة واللسان . انهـــا

اللصوصية في شكليها الاثنين ، الشعب واللغة .

منذ اربع وثلاثين سنة ، عندما عمد راوي هذه القصة الكئيبة القاتمة إلى إدخال لص يتكلم بلغة السوقة في أثر * ادبي كُتب لمثل الغاية التي كتب لها هذا الاثر تعجب الناس واحتجوا ، وقالوا :

— « ماذا ؟ كيف ؟ لغة السوقة ! ولكن لغة السوقة مروعة ! ولكنها لغة المحكوم عليهم ، لغة سجون الاشغال الشاقة ، لغة السجون العادية ، لغة كل ما هو مرذول في المجتمع ! » الخ . الخ . الخ .

إننا لم نفهم ، في يوم من الايام ، هذا الضرب من الاعتراض .

ومنذ ذلك الحين ، عمد روائيان قويان — احدهما ملاحظ عميق للقلب البشري والآخر صديق باسل للشعب ، بالزاك واوجين سو ** إلى انطاق قطاع الطرق بلسانهم الطبيعي كما فعل مؤلف « آخر ايام سجين » عام ١٨٢٨ ، فارتفعت الصيحات نفسها . لقد كرر الناس : « ما الذي يقصده هذان الكاتبان بهذه العامية المنغصة ؟ ان لغة السوقة لرهيبة ! ان لغة السوقة لتوقع الرعدة في اوصالنا ! »

من الذي ينكر ذلك ؟ هذا شيء لا ريب فيه .

وحين يكون الغرض سبر جرح ، أو هوة ، أو مجتمع ، من الذي يستطيع ان يزعم أن من الاجرام ان يتعمق المرء ، أن يذهب إلى القعر ؟ لقد اعتقدنا دائماً بأن ذلك هو في بعض الاحيان عمل من أعمال الشجاعة ، أو على الاقل عمل بسيط ومفيد ، جدير بالانتباه العاطف الذي يستحقه واجب منجَز مقبول . يريدون ان لا نرود الكل ، ان لا ندرس الكل ، ان نقف في منتصف الطريق . لماذا ؟ ان الوقوف في منتصف الطريق من شيمة المسبار ، لا من شيمة السابر .

* « آخر أيام سجين » Le Dernier Jour d'un Condamné

** Eugène Sue (١٨٠٤ — ١٨٥٧) مؤلف « اليهودي التائه » .

وليس من ريب في أن الغوص إلى اعماق النظام الاجتماعي السفلي ، حيث تنتهي الارض ويبدأ الوحل ، والبحث في تلك المياه الغليظة ، ومطاردة هذا اللسان المرذول ، واصطياده والقاءه وهو لا يزال يرتعش على الحصباء ، هذا اللسان الدّملي الذي يرشح قذارة إذ يرى النور على هذا النحو ، والذي تبدو كل كلمة من كلماته وكأنها خاتم هائل لغول الطين والظلمة — نقول إن هذا كله ليس مهمة جذابة ، ولا مهمة سهلة . فليس شيء أفجع من التأمل على هذا الشكل العاري ، وعلى ضوء الفكر ، في دبيب العامية الرهيب . لكأنها نوع من بهيمة رهيبة مخلوقة للظلام انتُزعت من بالوعتها . ويخيل الينا اننا نرى عُليقة مروّعة حية شائكة ، عليقة ترتجف ، وتتحرك ، وتضطرب ، وتطالب بظلامها من جديد ، وتهدد ، وتحدق . هذه الكلمة تشبه برثناً ، وتلك تشبه عيناً هامدة دامية . وهذه الجملة تبدو وكأنها تتحرك مثل كلاّبة سرطان . وكل ذلك ينبض بمثل الحيوية الرهيبة التي تنبض بها الاشياء المنظمة في الفوضى .

والآن ، متى كان الذعر حائلا دون الدرس ؟ متى كان المرض طارداً للطبيب ؟ تخيل عالماً طبيعياً يرفض ان يدرس الافعى ، والخفاش ، والعقرب ، وأم اربعة واربعين ، والرتيلاء ، ويردها إلى ظلماتها قائلا : « أوه ما ابشعها ! » والمفكر الذي ينأى بجانبه عن لغة السوقة اشبه بالجراح الذي ينأى بجانبه عن قرحة أو ثؤلول . إنه يكون عالماً لغوياً يتردد في فحص واقعة من وقائع اللغة ، وفيلسوفاً يتردد في تعمق واقعة من وقائع الانسانية . إذ يتعين علينا ان نقول لمن يجهل هذا ان لغة السوقة هي في آن معاً ظاهرة لغوية ونتيجة اجتماعية . ما هي لغة السوقة ، على حقيقتها ؟ لغة السوقة هي لغة البؤس .

وهنا قد يعترضنا معترض . في استطاعتنا ان نعمم الوقائع ، وتلك في بعض الاحيان وسيلة إلى التخفيف من وطأتها . وفي استطاعتنا ان

نزعم ان لجميع المهن ، ولجميع الحرف ، بل ولجميع آعراض المراتب الاجتماعية وجميع اشكال الفكر لغاتها السوقية الخاصة . فالتاجر الذي يقول : **مونبيلييه في المتناول** ، **ومرسيليا بضاعة جيدة** ؛ والدلال الذي يقول : **للبائع ستين . والعمولة**؛ والمقامر الذي يقول : **عشرة بستوني . هل تريد ان تقاتل النمر** ؛ وحاجب الجزر النورمندية الذي يقول : **ان الموظف امواله في اقطاعة ، المشدود الى ارضه ، لا يستطيع ان يدعي ملكية ثمار هذه الاراضي عند الحجز الوراثي على املاك المتخلي** ؛ والفودفيلي الذي يقول : **لقد صفروا للمسرحية** ؛ والكوميدي الذي يقول : **لقد اخفقتُ** ؛ والفيلسوف الذي يقول : **ثلاثية ظاهراتية** ؛ وصائد الحوت الذي يقول : **هوذا يمضي ، هوذا يهرب** ؛ والعالم بالفراسة الذي يقول : **النزعة التناسلية ، والنزعة العدوانية ، والنزعة الى كتمان السر** ؛ والجندي الراجل الذي يقول : **الكلارينيت التي املكها** ؛ والفارس الذي يقول : **فرّوجي الهندي** ؛ ومعلّم المسايفة الذي يقول : **هجوم ، اربعة ، انسحِبْ** ؛ والطابع الذي يقول : **قطعة فطيرة** ، كل هؤلاء — الطابع ، ومعلم المسايفة ، والفارس ، والجندي الراجل ، والعالم بالفراسة ، وصائد الحوت ، والفيلسوف ، والكوميدي ، والفودفيلي ، والحاجب ، والمقامر ، والدلال ، والتاجر — يتكلمون لغة السوقة . والرسام الذي يقول **صغيري** ، والكاتب العدل الذي يقول : **تلميذي** ، وصانع اللمم المستعارة الذي يقول : **مستخدمي** ، والاسكاف الذي يقول : **صانعي** ، كلهم يتكلمون لغة السوقة . وعلى وجه التدقيق ، واذا اردناها الاطلاق ، فان مختلف الطرائق للتعبير عن اليمين والشمال ، — قول الملاح : يسار السفينة للناظر إلى مقدمها ، وميمنة السفينة ، وقول الميكانيكي : جانب الفناء وجانب الحديقة ، وقول المستخدم في كنيسة العوام : جانب الرسالة وجانب الانجيل — كلها من لغة السوقة . ان ثمة لغة سوقة للنسوة المتصنعات كما ان ثمة لغة سوقة للنسوة الانيقات . لقد تاخم اوتيل

دو رامبوييه *فناء العجائب ** بعض الشيء . إن للدوقات عامية ، تشهد على ذلك هذه العبارة الواردة في رسالة غرامية لسيدة كبيرة جداً ، وامرأة جميلة جداً من نساء عهد عودة آل بوربون إلى العرش : « انت واجد في هذا اللغو جمهرة من الاسباب التي تدعوني إلى ان آخذ حريتي ». والشيفرة الديبلوماسية هي لغة سوقة . والديوان البابوي ، اذ يقول ۲٦ بدلا من رومة و *grkztntgzyal* بدلا من رسالة ، و *abfxustgrnogrkzutu XI* بدلا من **دوق دو مودين** انما يتكلم لغة السوقة . واطباء القرون الوسطى ، للذين كانوا إذا ارادوا ان يقولوا : جزر ، وفجل ، ولفت ، قالوا :

opoponach , perfroschinum , reptitalmus , dracatholicum angelorum , postmegorum

إنما يتكلمون لغة السوقة . ومنتج السكر الذي يقول : **مستقطَر** ، **رغيف** ، **مصفى** ، **مسحوق** ، **كتلة** ، **دبس** ، **فاسد** ، **مشترك** ، **محروق** ، **مخبوز** — ان هذا المنتج الأمين يتكلم لغة السوقة . وبعض المدارس النقدية التي قالت منذ عشرين سنة : « نصف شيكسبير هو تلاعب بالالفاظ ونكات جناسية . » انما تكلمت بلغة السوقة . والشاعر والفنان اللذان يصفان ، بمغزى عميق ، مسيو دو مونمورانسي بأنه « بورجوازي » إذا لم يكن يألف الشعر والتماثيل ، إنما يتكلمان لغة السوقة . وعضو الاكاديمية الكلاسيكي الذي يدعو الازهار **فلورا*****والفاكهة **بومونا** **** والبحر **نبتون*******، والحب **النيران** ، والجمال **الجواذب** ، والحصان **جوادحروب**، والشارة البيضاء أو المثلثة الالوان **وردة بلونا** ، والقبعة ذات الزوايا الثلاث

---

* Hôtel de Rambouillet قصر في باريس بناه المركيز دو رامبوييه (۱٥۸۸ – ١٦٦٥) وكان يجتمع فيه نخبة من نجوم المجتمع في ذلك العهد . وكان لهذه النخبة اثر محمود في تصفية اللغة الفرنسية وتقدم الادب في ما بين عام ١٦٢٠ وعام ١٦٦٥.

** Cour des Miracles حي في باريس القديمة كان يأوي اليه الشحاذون والمتشردون خلال القرون الوسطى .

*** الاهة الازهار .

**** الاهة الفاكهة .

***** الاهة الحرب عند الرومان .

مثلث مارس – هذا الاكاديمي الكلاسيكي إنما يتكلم لغة السوقة . وللجبر ، والطب ، وعلم النبات لغاتها السوقية . واللغة المصطنعة على متون السفن ، لغة البحر الرائعة تلك ، الكاملة جداً المعجبة جداً ، والتي كان يتكلمها جان بارت * ، ودوكين ** ، وسوفرين *** ودوبريه **** ، والتي تمتزج بدوي العتاد البحري ، وبصخب البوق ، وبضربات فأس الهجوم على المراكب ، وباضطراب السفينة من جانب إلى جانب ، وبالريح وباندفاع العاصفة المفاجئة ، وبالمدفع – هي لغة سوقة باسلة مجيدة نسبتها إلى لغة الاجرام السوقية الوحشية كنسبة الأسد إلى ابن آوى .

لا ريب في ذلك . ولكن مهما استطعنا ان نقول في هذا الموضوع فأن هذه الطريقة في فهم كلمة « لغة السوقة » هي توسع لا يقره حتى سواد الناس انفسهم . اما نحن فنحفظ لهذه الكلمة مفهومها القديم ، الدقيق ، الضيق المحدود ، ونقصر لغة السوقة على لغة السوقة . إن لغة السوقة الحقيقية ، لغة السوقة بمعناها الأعلى ، إذا كان في الامكان ان نزاوج ما بين هاتين الكلمتين ، لغة السوقة العريقة في القدم التي كانت مملكة ، ليست شيئاً – ونحن نكرر ذلك – غير لغة البؤس البشعة ، القلقة ، المرائية ، الخؤون ، السامة ، الوحشية ، الملتوية ، الدنيئة ، العميقة ، المهلكة . إن في أقصى كل ذل وكل شقاء ، بؤساً نهائياً يثور ويعتزم الدخول في نضال مع مجموعة الوقائع السعيدة كلها ، والحقوق المهيمنة كلها ، نضال رهيب تهاجم به – حيناً بالخداع وحيناً بالقوة ، وعلى نحو سقيم وضار في آن معا – النظامَ الاجتماعي بوخز الدبابيس من طريق الرذيلة ، وبضرب الهراوة

---

* Jean Bart بحار فرنسي شهير (١٦٥١ – ١٧٠٢) خدم الملك لويس الرابع عشر .

** Duquesne بحار فرنسي شهير ايضاً (١٦١٠ – ١٦٨٨) .

*** Suffren بحار فرنسي (١٧٢٦ – ١٧٨٨) حارب في الهند ، ببسالة ضد الانكليز .

**** Duperré اميرال فرنسي (١٧٧٥ – ١٨٤٦) لمع نجمه في عهد الامبراطورية .

من طريق الجريمة . ولضرورات هذا الصراع ، اخترع البؤس لغة حرب هي لغة السوقة .

وإبعاد شبح النسيان ، شبح الهاوية ، ولو عن جزء من أيما لغة قدّر للانسان ان يتكلم بها وقد تضيع إذا حُرمت هذا العون ، يعني عن احد العناصر ، خيراً كان ام شراً ، التي تتألف منها الحضارة أو التي تتعقد بها — إن هذا الابعاد بسطٌ لمعطيات الملاحظة الاجتماعية ؛ إنه خدمة للحضارة ذاتها . وهذه الخدمة أسداها بلوتوس * ، على نحو ارادي أو غير ارادي ، بأن أنطق جنديين قرطاجيين باللغة الفينيقية . وهذه الخدمة أسداها موليير بأن جعل كثيراً من شخوصه يتكلمون اللغة المشرقية ومختلف ضروب اللهجات الاقليمية . وهنا تعود الاعتراضات إلى الحياة . اللغة الفينيقية ، حسن جداً ! اللغة المشرقية ، شيء عظيم ! وحتى اللهجة الاقليمية ، ليكن ذلك ! إن هذه اللغات كانت ذات نسب بأمم وأقاليم . أما لغة السوقة ؟ أي فائدة ترتجى من الاحتفاظ بلغة السوقة ؟ اي فائدة ترتجى من انقاذ لغة السوقة ؟

وعن هذا سوف نجيب بكلمة واحدة . ومن غير شك ، إذا كانت اللغة التي تكلمتها أمة أو أقليم جديرة بالاهتمام ، فثمة شيء يستحق الانتباه والدرس اكثر ، وليس ذلك غير اللغة التي تكلمها بؤس ما .

إنها اللغة التي نُطق بها في فرنسة ، مثلا ، منذ اكثر من اربعة قرون ، لا من جانب شكل بعينه من اشكال البؤس ، ولكن من جانب البؤس ، جميع اشكال البؤس البشري الممكنة .

وإلى هذا — ونحن نصر على ذلك — فان دراسة العلل والاسقام الاجتماعية والاشارة اليها لكي يصار إلى علاجها ليس صنيعاً يجوز فيه

* Titus Maccius Plautus شاعر كوميدي لاتيني (حوالى ٢٥٠ — ١٨٤ ق . م) اشتهر بتصوير الاخلاق والطبائع .

الاختيار . فلمؤرخ الاخلاق والفكرات رسالة ليست أقل صرامة من رسالة مؤرخ الأحداث . فهذا الاخير له سطح الحضارة ، والصراع بين التيجان ، وولادة الامراء ، وزواج الملوك ، والمعارك ، والبرلمانات ، ورجال الدولة الكبار ، والثورات في وضح النهار ، وكل ما هو خارجي . أما المؤرخ الأول فله الباطن ، والاساس ، والشعب الذي يعمل ، الذي يتألم ، الذي ينتظر ، والمرأة المرهقة ، والطفولة المحشرجة ، والحروب الخفية بين الانسان والانسان ، والوحشيات المبهمة ، والأحقاد ، والمظالم المقررة ، وردود فعل القانون المستورة ، وتطور النفوس السري ، وارتعادات الجماهير الغامضة ، والجوعى ، والحفاة ، واشباه العراة ، والمحرومون من الارث ، واليتامى ، والبائسون ، والمرذولون ، وجميع الديدان التائهة في الظلام . إن عليه أن يهبط ، بقلب حافل بالرحمة وبالقسوة في آن واحد ، كأخ وكقاض ، إلى تلك السراديب التي لا سبيل إلى ولوجها ، حيث يزحف ، كيفما اتفق ، اولئك الذين تسيل الدماء من جراحهم واولئك الذين يضربون ، اولئك الذين يبكون واولئك الذين يلعنون ، اولئك الذين يصومون واولئك الذين يلتهمون ، اولئك الذين يقاسون الأذى واولئك الذين يُنزلونه . افتكون واجبات مؤرخي القلوب والنفوس هؤلاء اقل من واجبات مؤرخي الوقائع الخارجية ؟ أتظن ان ما عند دانتي مما يجب ان يقال اقل من الذي عند ماكيافيلي ؟ ايكون عالم المدنية السفليّ ، بسبب من انه اكثر عمقاً واشد قتامساً ، اقل خطراً من عالم المدنية العلوي ؟ وهل نعرف الجبل ، حقاً ، حين لا نعرف الكهف ؟

بيد ان علينا ان نقول ، بالمناسبة ، إن المرء قد يستنتج من بعض الكلمات السالفة تفريقاً قاطعاً بين هاتين الطبقتين من المؤرخين ، وهو شيء لا مكان له في ذهننا . فليس في ميسور رجل ما ، أن يكون مؤرخاً صالحاً لحياة الامة العامة ، الصاخبة ، المرئية ، الجلية إذا لم يكن

في الوقت نفسه ، إلى حد ما ، مؤرخاً لحياتها الخفية والاشد عمقاً .
وليس في ميسور رجل ما أن يكون مؤرخاً صالحاً للباطن إذا كان لا يحسن ان يكون ، كلما قضت الحاجة ، مؤرخاً للظاهر . ان تاريخ الاخلاق والفكرات ليتداخل في تاريخ الاحداث ، والعكس بالعكس . إنهما نظامان من وقائع مختلفة — نظامان يتوازيان ، ويتشابكان دائماً ، ويتوالدان في كثير من الاحيان . وإن لجميع الأسارير التي ترسمها العناية الالهية على سطح الأمة ما يوازيها ، على نحو قاتم ولكنه واضح ، في القعر ، وجميع اختلاجات القعر تحدث تموجات في السطح . وإذ كان التاريخ الحق يبحث في كل شيء ، فأن المؤرخ الحق يبحث في كل شيء .

الانسان ليس دائرة ذات مركز وحيد . إنه شكل اهليلجي ذو مركزين . فالوقائع هي المركز الاول ، والفكرات هي المركز الآخر .

إن لغة السوقة ليست غير خزانة ملابس من خزائن الملاهي تتقنع بها اللغة ، إذ ان لها عملا سيئاً تريد ان تقوم به . إنها تتخذ اقنعة لفظية واسمالاً مجازية .

بحيث تصبح رهيبة .

اننا ما نكاد نتبينها . اهي اللسان الفرنسي حقاً ، اللسان الانساني العظيم ؟ ها هي ذي مستعدة للدخول إلى المسرح وتوجيه الكلمة الاخيرة إلى الجريمة ، ومؤهلة لتنفيذ فهرست الشر كله . إنها ما عادت تمشي ؛ إنها تعرج بعض الشيء . هي تظلع على عكاز « فناء العجائب » ، وهو عكاز يمكن أن يتحول إلى هراوة . انها تتخذ اسم التشرد . لقد لوثتها الاشباح كلها ، التي هي مساعدتها على ارتداء الملابس . إنها تجرر نفسها ، وتنتصب ، وتلك خاصة الثعبان المزدوجة . إنها جديرة بأن تمثل كل الادوار منذ اليوم ، بعد أن جعلها المزور حولاء ، والمسمم صدئة ، وسخام مضرم النيران مفحمة ، وبعد ان خضبها الفاتك بلونه

الأحمر .

وحين نصغي ، من جانب الناس الامناء ، عند باب المجتمع ، نسمع إلى محاورات الذين في الخارج . إننا نتبين اسئلة واجوبة . اننا نتلقف من غير ان نفهم ، دمدمة رهيبة تبدو وكأنها نبرة انسانية أو تكاد ، ولكنها أدنى إلى النباح منها إلى الكلام . تلك هي لغة السوقة . إن الكلمات لشائهة ، تطبعها بهيمية غريبة لا سبيل إلى وصفها . وان المرء ليخيَّل اليه انه يسمع افاعي هيدرية تتكلم .

إنها المبهم في الظلام . إنها تَصِرّ وتهمس ، مكملة الغسق بالاحجية . إنها تغدو سوداء في الشقاء ، وإنها لتمسي اشد سواداً في الجريمة . وهذان السوادان مندغمين يشكلان لغة السوقة . ظلمة في الجو ، ظلمة في الافعال ، ظلمة في الاصوات . لغة ضفادع راعبة ، تذهب ، وتجيء ، وتثب ، وتزحف ، وتلعب ، وتنساب على نحو رهيب في ذلك الضباب الرمادي الذي لا حد له ، والذي يتألف من المطر ، والظلام ، والجوع ، والرذيلة ، والكذب ، والظلم ، والعري ، والاختناق ، والشتاء ، رابعة نهار البؤساء .

فلتأخذنا الرحمة على المعاقَبين . وا أسفاه ! من نحن انفسنا ؟ من أنا ، أنا الذي اخاطبكم ؟ من انتم ، انتم الذين تستمعون الي ؟ من اين جئنا ؟ وهل نحن على يقين من اننا لم نفعل شيئاً قبل آن نولد ؟ إن الارض لا تخلو من شبه بسجن من السجون . ومن ذا الذي يستطيع ان يثبت ان الانسان ليس سجين العدالة الاجتماعية ؟

انظر إلى الحياة ملياً . انها مركبة على نحو يجعلنا نلمس العقوبة في كل مكان .

هل انت ما يدعونه رجلا سعيداً ؟ حسن ، انت محزون كل يوم . فلكل يوم أساه العظيم أو همه الصغير . أمس كنت ترتعد جزعاً على صحة شخص أثير لديك ، واليوم يستبد بك الجزع على صحتك انت.

وغـــداً سوف يكون المـــال هـو موضوع قلقك ، وبعد غـد قـــد يكون مطاعنَ نمام ، واليوم الذي بعده تعاسةَ صديق ، ثم الاحـوالَ الجوية ، ثم شيئاً انكسر او ضاع ، ثم يعقب ذلك سرور يعنّفك عليه ضميرك أو عمودك الفقري ، وفي مرة اخرى يكون السبب في حزنك سير الشؤون العامة . هذا إذا أغفلنا متاعب الفؤاد . وهكذا دواليك . ما إن تتبدد سحابة حتى تتجمع سحابة . فلا تكاد تعرف يوماً واحداً في كل مئة تستمتع خلاله ببهجة موصولة وشمس غير محتجبة . ومـــع ذلك ، فانت واحد من تلك القلة التي تنعم بالسعادة ! أما سائر الناس فالظلام الراكد مخيم عليهم .

إن العقول المفكرة قليلا ما تصطنع هذين التعبيرين : السعـداء والاشقياء . ففي هذا العالم ، وهو مدخل إلى عالم آخر من غير ريب ، ليس أحد سعيداً .

ان التقسيم الحـق للنـاس هو الذي يجعلهم نوعـين : مشرقـين ومظلمين .

والعمل على انقاص عـدد المظلمين ، وزيادة عـدد المشرقين هـو الغاية . من اجـل ذلك نصيـح : التعليم ، المعرفة ! إن تعليم القراءة أشبه شيء باضرام النار . وكل مقطع يهجّى إنما يطلق شرارة .

ولكن من يقول « نور » لا يقول « بهجـة » بالضرورة . فالمرء قـد يتألم في الضياء . إن شدته تحرق . واللهب عدوّ الجناح . ومن هنا كانت القدرة على الاحتراق من غير الكف عن الطيران هي معجزة العبقرية .

وحين تعرف وحين تحب فلن ينقطـع ألمك . فالنهار يولد في غمرة الدموع . والمشرقون من الناس يبكون ، ولو على المظلمين على الاقـل .

٣
الجذور

ولغة السوقة هي لغـة المظلمين .

إن الفكر ليستثار في اعماقه الاشد إظلامـاً ، وان الفلسفة الاجتماعية لتحرّض إلى تأملاتها الاكثر إيلامـاً أمام هـذه اللهجة الملغزة التي تتصف بالذبول وبالتمرد في آن معـاً . ههنا عقوبـة منظورة . إن لكل مقطـع سيماء مميزة . وكلمات اللغة العامية تبدو هنا وكأنها متغضنة متصلبة تحت مكواة الجلاد الحامية . وبعضها يبدو وكأن الدخان ما يزال ينبعث منها . وتترك عبارة ما ، في نفسك مثل ذلك الاثر الذي تتركه كتف لص موشاة بالسوسن عُرّيت على نحو فجائي . وتكاد الفكرات ترفض ان يعبّر عنها بتلك الاسماء التي دانتها العدالة . إن استعاراتها تكون وقحـة في بعض الاحيان حتى لتحس ان اعناقها كانت مطوقة بالاغـــــــلال الحديدية .

ومع ذلك ، فعلى الرغم من هذا كله ، وبسبب من هذا كله ، فان لهـذه اللهجة الغريبة ، غيرَ منازَعة ، ركنها في تلك الخزانة الضخمـة المحايدة حيث يوجد مكانٌ للفلس الصدىء كما يوجد مكان للمداليـة الذهبية ، تلك الخزانة التي تدعى الأدب . وللغة السوقة ، سواء ارتضيناها أم لم نرتضها ، نحوُها وشعرها . إنها لغـة . واذا كنا ندرك ، مـن تشوه بعض التعابير ، ان لسان ماندرين * قد لاكها ، فان روعة بعض كناياتها تجعلنا نشعر ان فيون ** قد تكلمها .

فهذا البيت البارع جداً ، الشهير جداً :

---

* Mandrin زعيم عصابة فرنسي . (١٧٢٤ – ١٧٥٥)

** Villion شاعر فرنسي قديم سبق التعريف به .

« ولكن اين هي ثلوج آنتان ؟

هو بيت من اللغة السوقية . وآنتان *Ante annum — Antan* من لغة سوقة « تون » ، وتعني « السنة الماضية » ، وبالتوسع في الزمن السالف . ومنذ خمس وثلاثين سنة ، في عهد ذهاب السلسلة الكبرى عام ١٨٢٧ ، كان لا يزال في ميسور المرء ان يقرأ في احد زنزانات الـ « بيسيتر » هذه الحكمة وقدنقشها بالمسمار احد ملوك الـ « تون » المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة : *Les dabs d'antan trimaient siempre pour la pierre de Cõesre* وهي تعني : **إن ملوك الزمن السالف يذهبون دائماً الى حيث يُحكَوَّسون .** وكان التكريس ، في ذهن ذلك الملك ، هو سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة .

وكلمة *décarade* ، التي تعبر عن انطلاق عربة ثقيلة تخبّ جيادهــا خبباً تعزى إلى فيون ، وانها لجديرة بـه . هذه الكلمة ، التي تقـدح النار باربع قوائم ، تختصر في اسم صوتي بارع ، كامل بيت لا فونتين الرائـع :

« ستة جياد قوية جرت عربة . »

ومن وجهة النظر الأدبية الخالصة ، يندر ان يكون ثمـة دراسـات ادعى إلى استثارة الفضول واكثر خصباً من دراسة لغة السوقة . انهــا لغة كاملة ، ضرب من نامية مرَضية ، لقاحٌ سقيم قد احدث نباتـاً ، طفيلي تمتد جذوره في الجذع الغـاليّ العتيق ، وتدب اوراقه المشوومـة فوق جانب كامل من اللغة . وهذا ما يمكن ان يدعى المظهر الأوليّ ، المظهر العام من لغـة السوقة . أما بالنسبة إلى اولئك الذين يدرسون اللغة كما ينبغي ان تدرس ، يعني كما يدرس الجيولوجي الأرض ، فان لغة السوقة تبدو وكأنها طمي حقيقي . وتبعاً لغوصنا في لغة السوقة عميقاً أو اقـل

عمقاً ، نقع فيها — تحت الفرنسية الشعبية العتيقة — على اللغات البروفنسالية ، والاسبانية ، والايطالية ، والمشرقية — لغة موانيء البحر الأبيض المتوسط — والانكليزية ، والالمانية ، والرومانية بضروبها الثلاثة — الرومانية الفرنسية ، والرومانية الايطالية ، والرومانية الرومانية — واللاتينية ، واخيراً البشكنسية والسلتية . تشكّلٌ عميق وغريب . صرح خفي بناه جميع البؤساء مشتركين . لقد وضع فيه كل عرق لعين طبقته الجيولوجية ، واسقط فيه كل ألم حجره ، وقدم اليه كل قلب حصاته . إن جمهرة من النفوس الشريرة ، الوضيعة أو المهتاجة التي اجتازت الحياة وتلاشت في الأبدية ، لمحفوظة هنا كاملةً تقريباً ، أو مرئيةً — ما تزال — على نحو ما ، في شكل كلمة رهيبة .

أتريد الاسبانية ؟ ان لغة السوقة القديمة لتغص بها . دونك *boffette* ، منفخ ، التي تتحدر من *bofeton* ؛ و *vantane* ، نافذة (وفي ما بعد *vanterne*) التي تتحدر من *vantana* ؛ و *gat* هرة ، التي تتحدر من *gato* ؛ و *acite* زيت ، التي تتحدر من *aceyte* . أتريد الايطالية ؟ دونك *spade* ، سيف ، التي تتحدر من *spada* ؛ و *carvel* ، مركب ، التي تتحدر من *caravella* . اتريد الانكليزية ؟ دونك *bichot* ، أسقف ، التي تتحدر من *bishop* ؛ و *raille* ، جاسوس ، التي تتحدر من *rascal* ، *rascalion* نذل ؛ و *pilche* ، صندوق ، التي تتحدر من *pilcher* غمد . أتريد الالمانية ؟ دونك *caleur* ، نادل ، *kellner* ، و *hers* استاذ ، *herzog* (دوق) . اتريد اللاتينية ؟ دونك *frangir* ، كسّر ، *frangere* ؛ و *affurer* سرق ، *fur* ؛ و *cadène* سلسلة ، *catena* . وهناك كلمة تظهر في جميع لغات القارة بضرب من القوة والسلطان العجيب ، تلك هي كلمة *magnus* فالاسكتلندي اشتق منها لفظة *mac* التي تفيد معنى رئيس العشرة : مثلا ، *mac - farlane* و *mac . calummore* اي الفارلان الكبير ، والكالومور الكبير* ؛ ولغة السوقة اتخذت منها لفظة *meck* ثم لفظة *meg* ، يعني الله . اتريد

* بيد ان علينا ان نلاحظ ان *mac* في اللغة السلتية تعني الابن .

البشكنسية ؟ دونك *gahisto* ، الشيطان ، التي تتحدر من *gaiztoa* الشرير ؛
و *sorgabon* مساء الخير ، التي تتحدر من *gabon* ، عم مساءً . اتريد السلتية ؟
دونك *blavin* ، منديل ، التي تتحدر من *blavet* ، الماء المنبجس ؛
و *ménesse* ، امرأة (بمعنى رديء) التي تتحدر من *meinec* مليء بالحجارة ؛
و *barant* ، جدول ، من *baranton* نبع ؛ و *goffeur* قفال ، من *goff* ، حداد ؛
و *guédouze* الموت ، التي تتحدر من *guenn-du* ، بيضاء — سوداء . واخيراً أتريد
التاريخ ؟ ان لغة السوقة تدعو التيجان *maltaises* ، ذكرى القطع النقدية
التي كانت متداولة في سجون مالطة الخاصة بالمحكوم عليهم بالاشغال الشاقة .

وللغة السوقة ، الى جانب الاصول الفيلولوجية التي اشرنا اليها اللحظة ،
اصول اخرى طبيعية اكثر من تلك ، اصول تنبثق اذا جاز التعبير من
عقل الانسان نفسه .

أولا ، تخلّق الكلمات المباشر . وههنا يكمن سرّ اللغات . أن نرسم ،
من غير ان نعرف كيف ولمَ ، بكلمات ذات أشكال . ذلك هو
الاساس البدائي لكل لغة انسانية — ما نستطيع ان ندعوه الصوان . ولغة
السوقة تغصّ بكلمات من هذا النوع ، كلمات جذرية ، صُنعَتْ من
قطعة واحدة ، لسنا ندري اين أو لمن ، من غير اشتقاق ، من غير
قياس ؛ من غير منشأ ، كلمات متوحّدة ، بربرية ، واحياناً رهيبة ،
ذات قدرة على التعبير فريدة ، وذات اهلية للحياة . فالجلاّد *le taule*
— والغابة ، *le sabri* ، — والخوف ، القرار *taf* ، — والرجل الوضيع ،
le larbin ، — والجنرال ، الوالي ، الوزير ، *pharos* ، — والشيطان *le rabouin* ،
وليس شيء اكثر غرابة من هذه الكلمات التي تتقنع وتتكشّف برغم
ذلك ، للعيان . وبعضها ، كلفظة *le rabouin* مثلا ، هي مضحكة وفظيعة
في آن معاً ، وتترك في النفس مثل الاثر الذي تخلّفه تكشيرة سيكلوبية *

* نسبة الى السيكلوب Cyclopes وهم عمالقة ذوو عين وحيدة في منتصف الجبين ، وقد
اوردت « اوديسة » هوميروس كثيراً من الخرافات المتصلة بهم .

ثانياً ، المجاز . إن من خصائص اللغة التي تريد قول كل شيء وإخفاء كل شيء إن تزخر بالصُوَر . والمجاز احجية يفزع اليها اللص الذي يبيّت ضربة ، والسجين الذي يدبّر فراراً . وليس من لسان هو اكثر مجازية من لغة السوقة . — اعتبرْ قولها : فك لوالب جوزة الهند *dévisser le coco* اي لوى الرقبة ؛ وانفتل *tortiller* اي أكلَ ؛ وحُزِمَ *être gerbé* اي حُوكِمَ ؛ وهرة *un rat* اي سارق الخبز ؛ و *il lansquine* ، اي ان السماء تمطر ، وهي صورة عتيقة رائعة تحمل بطريقة ما تاريخها معها ، وتعقد مشابهة بين خطوط المطر الطويلة المنحرفة وبين حراب الـ *lansquenets* الغليظة المنحنية ، وتشمل بكلمة واحدة الكناية الشعبية القائلة : **السماء تمطر حراباً** *il pleut des hallebardes* . وفي بعض الاحيان ، وكلما انتقلت لغة السوقة من المرحلة الاولى الى المرحلة الثانية ، تنتقل الكلمات من الحال الوحشية والبدائية الى المعنى المجازي . فلا يعود الشيطان هو *le rabouin* ، ولكن يصبح *le boulanger* (الخباز) ، اي ذلك الذي يضع في الفرن . وهذا اشد مجازية ، ولكنه اقل فخامة ؛ شيء مثل راسين بعد كورني ، او مثل يوريبيديس بعد ايشيلوس . وبعض عبارات لغة السوقة ، التي تنتسب الى كلتا المرحلتين ، والتي تتسم في الوقت نفسه بالطابع البربري والطابع المجازي تشبه أشباح الفانوس السحري . *les sorgueurs vont sollicer des gails à la lune* (المطوّفون في الليل ذاهبون لسرقة بعض الخيول في الليل) . ان هذا ليمرّ امام الذهن مرور جمهرة من الاشباح . اننا لا نعرف ما الذي نراه .

ثالثاً ، الوسيلة . إن لغة السوقة تعيش على اللغة . إنها تستعملها على هواها ، وهي تقتبس منها بلا تبصّر ولا قصد ، وكثيراً ما تقنع — عندما تنشأ الحاجة — بأن تحرّفها في اختصار وفي فظاظة . وفي بعض الاحيان ، وبكلمات مألوفة مشوهة على هذه الشاكلة ومعقّدة بكلمات من

* وهم الجنود الالمان الراجلون في القرن الخامس عشر .

لغة السوقة الخالصة ، تشكل تعابير فاتنة نلمس فيها امتزاج العنصرين الآنف ذكرهما ، الابتداع المباشر والمجاز كقولهم : *le cab jaspine, je marronne, que la roulotte de Pantin trime dans le sabre* ، اي : « الكلب ينبح وأحسب أن عربـة باريس العموميـة تجتاز الغابـة » . وقولهم : *le dab est sinve, la dabuge est merloussière, la fée est bative* اي ، البروجوازي ابله ، والبرجوازية ماكرة ، والفتاة جميلـة . وفي الاعم الاغلب ، ولكي تضلّل السامعين تقنع لغة السوقة بان تضيف الى جميع كلمات اللغة ، من غير تمييز ، ضرباً من الذيل الخسيس ، نهاية" بـ *aille* ، أو بـ *orgue* أو بـ *iergue* ، أو بـ *uche* ، ومن هنا قولهم *trouvaille vousiergue bonorgue ce gigotmuche* أي : هل تحب فخذ الخروف هذه ؟ وهي جملة وجهها كارتوش الى احد السجانين ليعلم هل اعجبه المبلغ الذي عرضه مقابل الفرار ، أما انهاء الكلمة بـ *mar* فحديث العهد .

واذ كانت لغة السوقة هي لغة التحريف فأنها تُحرَّف في يُسْر . والى هذا ، فلما كانت تسعى دائماً الى ان تتقنع حالما تُدرِك انها قـد فُهمت ، فانها تنقلب الى هيئة اخرى . وعلى خلاف جميع ضروب النمو" الاخرى ، لا يكاد اثما شعاع يمس" شيئاً منها حتى يقتله . وهكذا تظل لغة السوقة تنحل" ثم تتكون من جديد في غير انقطاع ؛ عملية غامضة وسريعة لا انتهاء لها . إنها تتغير في عشر سنوات اكثر مما تتغير اللغة في عشرة قرون . وهكذا فأن الـ *larton* * تصبح *le lartif* والـ *gail* ** تصبح *le gaye* ، والـ *fertanche* *** تصبح *la fertille* ، والـ *momignard* **** تصبح *le momacque* والـ *siques* ***** تصبح *les frusques* والـ

---

* الخبز .

** الحصان .

*** القش .

**** الطفل

***** الثياب

chique * تصبح *l'égrugeoir* والـ *colabre* ** تصبح *le colas* . والشيطان هو باديء الامر *Gahisto* ، ثم *le rabouin* ، ثم الخباز . والكاهن هو باديء الأمر *le ratichon* ، ثم الخنزير البري . والخنجر هو الاثنان والعشرون ، ثم *le surin* ثم *le lingre* وضباط البوليس هم *railles* ثم *roussins* ثم *rousses* ، ثم تجار الأحابيل ، ثم *coqueurs* ، ثم *cognes* . والجلاد هو *le Taule* ، ثم *Charlot* ، ثم *L'atigeur* ، ثم *le becquillard* . وفي القرن السابع عشر كان فعل « قاتلَ » يُعبَّر عنه بـ « تناول قليلاً من التبغ » ، وفي القرن التاسع عشر بـ « مضغ الفك » . ومرّ بين هذين الطرفين عشرون تعبيراً مختلفاً . ولقد تكلم كارتوش العبرية مع لاسينير . إن جميع كلمات هذه اللغة هي على فرار موصول مثل اولئك الذين يستعملونها .

ومع ذلك ، فبين الفينة والفينة ، وبسبب من هذا التفسير نفسه ، فان لغة السوقة القديمة تعاود الظهور من جديد وتصبح جديدة كرة اخرى . ان لها مراكزها التي تتصل فيها وتستمر . فلقد صان الـ « تامبل » لغة القرن السابع عشر السوقية ؛ والـ « بيسيتر » حين كان سجناً صان لغة سوقة الـ « تون » . هناك سُمعت كلمات التونيين القدماء المنتهية بـ *anche* كقولهم *Boyanches tu?* *** (هل تشرب ؟) و *il croyanche* **** (هو يعتقد) ، ولكن الحركة السرمدية ، برغم ذلك ، هي القاعدة .

ولو ان الفيلسوف وفق لحظة الى ان يثبّت للمراقب هذه اللغة التي ما تنفك تتبخر ، اذن لاستغرق في تأملات أليمة ولكنها مفيدة . فليس ثمة دراسة اكثر فعالية واخصب منها بالفوائد والدروس . وليس هناك مجاز من مجازات لغة السوقة او اشتقاق من اشتقاقاتها لا ينطوي على امثولة ، فعند

---

* الكنيسة .

** المنق .

*** بدلا من Bois - tu

**** بدلا من il croit

أولئك الناس تعني لفظة «ضربة» ، «تظاهر» . إنهم يتظاهرون بمرض ما . فالاحتيال هو قوتهم .

ان فكرة الانسان عندهم لا تنفصل عن فكرة الظل . فالليل يدعونه la sorgue والانسان يدعونه l'orgue . الانسان مشتق من الظل .

لقد اكتسبوا عادة النظر الى المجتمع كجو يقتلهم ، كقوة مهلكة ، وهم يتحدثون عن حريتهم كما يتحدث المرء عن صحته . فالرجل الذي يُلقى عليه القبض مريض ، والرجل الذي دانته المحكمة ميت .

ان افظع ما في الجدران الحجرية الأربعة التي تكفّنُ السجين هو ضرب من الطهر المثلوج . وهو يدعو الزنزانة le castus . وفي هذا الموطن الجنائزي ، تكون الحياة الخارجية ، في ابهى مظاهرها دائماً . ان الاغلال تكبّل قدميه ، ولعلك تظن انه قد يفكر ان الناس يسيرون بأقدامهم ؟ لا ، إنه يفكر ان الناس يرقصون باقدامهم . واذن دعه يوفق الى نَشْر أغلاله ، واول فكرة تخطر له عندئذ هي ان في ميسوره الآن ان يرقص . وهو يدعو المنشار الفَنْدغ * . والاسم عنده مَرْكز ، وتلك مماثلة عميقة . ان لقاطع الطريق رأسين ، احدهما ينظم اعماله ويسيطر عليه طوال حياته ، والثاني يحمله على كتفيه يوم وفاته . وهو يدعو الرأس الذي ينصحه بالجريمة السوربون ، والرأس الذي يكفّر عنها اورمة الشجر التي تُشْعَل عشية الميلاد . وحين لا يملك المرء غير أسمال على جسده ورذائل في فؤاده ، حين ينتهي الى تلك الذلة المزدوجة ، المادية والمعنوية ، التي تميز بمعنييها الاثنين كلمة « مسكين » فعندئذ يكون على شفا الجريمة . إنه اشبه شيء بمدية مشحوذة شحذاً جيداً ؛ إن له حدين ، بؤسه وخبثه . ومن هنا فأن لغة السوقة لا تقول « مسكين » ولكن تقول réguisé . ما هو سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ؟ إنه جَمر الهلاك الأبدي ، انه جحيم . والمحكوم عليه بالاشغال الشاقة يدعو نفسه fagot (حزمة حطب) . واخيراً ، أيّ اسم

* الفندغ أو fandango ضرب من الرقص الاسباني .

يخلعه الأشرار على السجن ؟ انهم يخلعون عليه اسم collège (الكلية) : ان نظاماً كاملاً خاصاً باصلاحيات السجون يمكن ان ينبثق من هذه الكلمة .

أتريد ان تعرف أين نشأت معظم اغاني سجون الاشغال الشاقة ، تلك الكلمات المكرورة التي تدعى في المعجمية الخاصة lir onfa ؟ اسمع الى ما يلي :

كان في « حُصين باريس » (شاتوليه دو باري) قبو طويل واسع . وكان هذا القبو يقع على عمق ثمانية أقدام تحت مستوى نهر السين ، ولم يكن له لا نوافذ ولا متنفّسات ، فليس فيه من فتحة غير الباب . كان في ميسور الناس ان يدخلوا ، أما الهواء فلم يكن ذلك في ميسوره . وكان سقف القبو عقداً حجرياً ، وكانت أرضيته عشرة إنشات من الوحل . لقد رُصفت بالبلاط ، ولكن تنبُّع المياه أتلف ذلك البلاط وشققه . وعلى ارتفاع ثمانية اقدام من الارضية كانت عارضة خشبية طويلة ضخمة تمتد من جانب ذلك العقد إلى جانبه الآخر . ومن تلك العارضة كانت تتدلى، على مسافات معينة ، سلاسل يبلغ طولها ثلاثة اقدام ، وفي اطراف تلك السلاسل كانت أغلال من حديد . وكان المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة يوضعون في هذا القبو حتى يوم سفرهم إلى طولون . كانوا يُدفعون تحت تلك العارضة حيث كانت لكل منهم حديدة متدلية في الظلام تنتظره . كانت السلاسل ، تلك الاذرع المعلقة ، والاغلال ، تلك الايدي المفتوحة ، تأخذ بخناق اولئك البؤساء . كان وثاقهم يُشد ، وكانوا يخلَّفون هناك . وإذ كانت السلسلة أقصر مما ينبغي فلم يكن في ميسورهم ان يضطجعوا على الارض . كانوا يبقون من غير حراك في ذلك القبو ، في تلك الظلمة ، تحت تلك العارضة ، نصف مشنوقين ، مضطرين إلى أن يبذلوا جهداً جباراً لكي تبلغ أيديهم الخبز أو ابريق الماء ، العقد فوق رؤوسهم ، والوحل يرتفع إلى ركبهم ، وغائط كل منهم يجري على رجليه ، وقد هدهم الاعياء ، وخانتهم اوراكهم وركبهم ، وتعلقت ايديهم بالسلسلة ابتغاء الراحة ، وعجزوا عن النوم إلا وقوفاً ، وعملت الاغلال الآخذة

بخناقهم على إيقاظهم في كل لحظة ، ومع ذلك فأن بعضهم لم يــكن يغمض لهــم جفن . ولكي يتناولوا الطعام ، كان عليهم ان يسحبــوا خبزهم ، الذي كان يلقى في الوحل ، بأعقاب ارجلهم على طول عظم الساق الاكبر ، إلى متناول ايديهم . كم كانوا يبقون على هذه الحال ؟ شهراً ، شهرين ، وفي بعض الاحيان ستة أشهر . ولقد ظل احــدهم عاماً كاملا . كان ذلك القبو غرفة انتظار يوضع فيها السجين ريثما يساق إلى سجن الاشغال الشاقة . وكان يُقذف اليه بالرجال لسرقتهم ارنباً من الملك . وفي ذلك الجحيم ــ القبر ، ما الذي كانوا يعملون ؟ ما يمكن ان يُصنع في قبر : لقد حشرجوا ، وما يمكن ان يُصنع في جحيم : لقــد غنوا . لأنه حيث لا يبقى شيء من أمل يبقى الغناء . ففي مياه مالطة ، حيث كانت السفينة المقلة المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة تتقدم مقتربة ، سُمع الغناء قبل أن تُسمع المجاذيف . وقال سورفنسان المسكين ، الصائد في أرض الآخرين من غير استئذان ، والذي كان قد اجتاز قبــو الـ « شاتوليه دو باري » : **كانت القوافي هي التي جعلتني اتماسك** . عــدم فائدة الشعر . واي فائدة للقوافي ؟ وجميع اغاني لغــة السوقة ، تقريباً ، ولدت في هذا القبو . ومن زنزانة « شاتوليه دو باري الكبير » هــذه جاءتنا هــذه اللازمــة الكئيبة الخــاصة بسجن مونغومري الخاص بالمحكوم عليهم بالاشغال الشاقــة : **Timaloumisaine, timoulamison** ومعظم هذه الاغـــاني حدادية ، وبعضها بهيـج ، وواحدة لدنة :

icicaille est le théatre
Du petit dardant *

وعبثاً تحاول ، فليس في استطاعتك ان تمحق ذلك الاثر السرمدي من آثار القلب البشري : الحب .

---

* ههنا عندنا مسرح
رامي السهام الصغير (كيوبيد).

وفي عالم الافعال القائمة هذا يصان السر ، فالسر أثر على الجميع . والسر عند اولئك البائسين هو الوحدة الّتي تنهض اساساً للاتحاد . وانتهاك حرمة السر يعني ان تنتزع من كل عضو من اعضاء ذلك المجتمع الضاري شيئاً من ذات نفسه . والوشاية ، في لغة السوقة الصارمة ، تدعى * manger le morceau فكأن الواشي قد استولى على فلذة من جوهر الجميع ، واغتذى بقطعة من لحم كلٍّ .

وما تلقّي اللطمة ؟ إن المجاز المبتذل ليجيب . إنه أن ترى ستاًوثلاثين شمعة ** . وهنا تتدخل لغة السوقة وتقول : chandelle, camoufle وفي هذا تقدم اللغة الدارجة لفظة camouflet مرادفاً للضربة . وهكذا ، وبضرب من النفاذ من أدنى إلى أعلى ، وبمعونة المجاز ، ذلك المسار الماثل ، ترتفع لغة السوقة من الكهف إلى الاكاديمية . وقول بولاييه : « إني أشعل شمعتي » (ma camoufle) يجعل فولتير يقول : « إن لانغلوفييل لا بوميل يستحق مئة إهانة » camouflet .

والتنقيب في لغة السوقة يفضي عند كل خطوة إلى اكتشاف ما . ودراسة هذا اللسان العجيب والتعمق فيه يؤديان إلى نقطة تقاطع غريبة بين المجتمع الشعبي والمجتمع المنبوذ .

إن لغة السوقة هي الكلام متحولاً إلى محكوم عليه بالاشغال الشاقة .

ولأن يكون في الامكان أن يُترَك مبدأ الانسان المفكر إلى هذا الدرك، ولأن يكون ممكناً تصفيده وجرّه إلى هناك بطغيان القدر الغامض ، ولأن يكون ميسوراً شد وثاقه في تلك الهاوية بقيود مجهولة — ذلك شيء يثير الشجن .

إيه ، يا فكر البؤساء المسكين !

وا أسفاه ! ألا يهرع أحد لنجدة النفس البشرية في تلك الظلمة ؟

---

* أكل القطعة.

** voir trente — six chandelles

أيكون مقدراً لها إلى الابد ان تنتظر العقل ، والمحرر ، والراكب الماثل لأفراس ذوات جناحين وافراس مجنحة نصفها حصان ونصفها عُقـاب ، والمقاتل المصبَّغ بلون الفجر الذي يهبط من السماء بجناحين ، وفـــارس المستقبل المشع ؟ ايكون مقدرا لها أن تستنجد دائماً ولكن على غير طائل برمح المثل الاعلى المتلألىء ؟ أيكون مقضياً عليها ان تسمع الشر يتقـدم على نحو فظيـع من خلال أعماق الهاوية ، وان ترى اقرب اليها فأقرب ، تحت الماء الرهيب ، ذلك الرأس التنّيني ، وذلك الشدق المزبد ، وتموّج البراثن ، والتمددات ، والحلقات على نحو افعواني ؟ اينبغي ان تبقـى هناك من غير ضياء ، من غير أمل ، مسلّمة إلى هذا المجاز المروع ، قد استروحها العملاق على نحو غامض ، مرتعدةً ، شعثاء الشعر ، ملوية الايدي ، مشدودة الوثاق إلى صخرة الليل إلى الابد ، اشبه شيء بـ « آندروميديا » * يائسة ، بيضاء عارية ، في الظلام ؟

٣

لغة السوقة التي تبكي ولغة السوقة التي تضحك

إن لغة السوقة كلها ، كما ترى ، لغة السوقة منذ اربعمئة عام ولغة السوقة اليوم . تتخللها تلك الروح الرمزية القاتمة التي تخلع على كل لفظة سيماً محزونة حيناً ، وسيماً مهدّدة حيناً . إنا نستشعر فيها تلك الكآبة العتيقة الوحشية التي تسم متشردي « فناء العجائب » الذين لعبوا الورق

* Andromède ، في الميثولوجيا الاغريقية ، ابنة كاسيوبيا وزوجة بيرسيوس الذي انقذها من اشداق غول من غيلان البحر .

بورق خاص بهم حُفظ لنا بعضه . فشمانية « السباتي » مثلا كانت شجرة كبيرة تحمل ثماني ورقات هائلة من ورق البرسيم ، وذلك ضرب من تشخيص الغابة على نحو خيالي غريب . وعند جذع تلك الشجرة بدت نار مضطرمة كانت ثلاث أرانب تشوي عليها صياداً في سفود ؛ وفي الخلفية ، فوق نار اخرى ، كانت قدرٌ داخنة يطل منها رأس كلب . وليس شيء افجع من هذا الانتقام المصور ، على ورق اللعب ، في تلك الايام التي كان المهربون يُشوَون فيها على النار ، ومزيفو العملة يُسلقون فيها في القدور المعدنية الكبيرة . والواقع ان مختلف الاشكال التي اتخذها الفكر في دنيا لغة السوقة ، حتى الاغنية ،حتى السخرية ، حتى الوعيد، تتسم كلها بهذه الصفة العاجزة المرهقة . وجميع الاغاني ، التي حُفظت لنا بعض الحانها ، كانت ضارعة تهز المشاعر حتى البكاء . فالـ **pègre** (جماعة اللصوص) تدعو نفسها دائماً الـ **pauvre pègre** (جماعة اللصوص البائسة) ، وهي ابداً الأرنبُ هاربةً ، والجرذ فاراً ، والطائر مطلقاً ساقيه للريح . ونادراً ما تتشكى ، فهي تقنع بزفرة . ولقد وصلتنا احدى أناتها :

je n'entrave que le dail comment meck, le daron des orgues, peut atiger ses mômes et ses momignards et les locher criblant sans être atigé lui-même * والكائن البائس ، كلما وجد متسعاً من الوقت للتفكير ، يتخيل انه حقير امام القانون ، ومسكين أمام المجتمع. إنه يُذل نفسه ، إنه يتوسل ، إنه يتطلع إلى الشفقة . نحن نحس بانه يدرك أنه على خطأ .

وحوالى منتصف القرن الماضي ، حدث تغير . ذلك ان أغاني السجن ، مكرورات اللصوص ، اكتسبت ، إذا جاز التعبير ، معنى ماجناً مرحاً . لقد حل الـ **larifla** محل الـ **maluré** . وفي القرن الثامن عشر،

* أنا لا افهم كيف يستطيع الله ، ابو الناس ، ان يعذب أولاده واحفاده ، ويسمعهم يبكون من غير ان يتعذب هو نفسه .

نجد في اغاني السجون الخاصة بالاشغال الشاقة كلها تقريباً ، واغاني السجون بهجة شيطانية ملغزة . إننا نسمع هذه اللازمة الصارّة الترقة التي يخيل إلى المرء أنها مضاءة بوميض فسفوري ، والتي تبدو وكأنها مقذوفة إلى الغابة بشهاب غازيّ يعزف على زمارة :

Mirlababi, surlababo ,
Mirliton ribou ribette,
Surlababi, mirlababo,
Mirliton ribon ribo.

وكانت هذه الكلمات تنشد عندما يحتزون عنق رجل في قبو ، أو في زاوية من زوايا غابة .

عرَض خطير . في القرن الثامن عشر تبددت تلك الكآبة القديمة التي كانت تغلب على هذه الطبقات الفاجعة . لقد بدأت تضحك . لقد سخرت من الـ meg * الكبير ، والـ dab ** الكبير . فاذا ما تحدثوا عن لويس الخامس عشر دعوا ملك فرنسة « مركيز بانتين » *** : انهم مبتهجون أو يكادون . وان ضوءاً من الضياء الواهن ينبعث من هؤلاء البائسين ، فكأن الضمير لم يعد ينقض ظهورهم . إن قبائل الظلمة المحزنة هذه ليست تملك الجسارة المستميتة في الاعمال فحسب ، بل تملك جسارة العقل غير المبالية أيضاً . وهي أمارة تؤذن بأنهم شرعوا يفقدون الشعور بجرعتهم ، وبأنهم يلمسون حتى بين المفكرين والحالمين تأييداً غريباً يقدَّم اليهم على نحو لا واعٍ . أمارة تؤذن بان اللصوصية والسلب قد أخذا يتسربان حتى إلى العقائد والسفسطات بحيث يفقدان شيئاً من بشاعتهما بأن يعطيا كثيراً منها للسفسطات والعقائد . واخيراً ،

---

* الله .

** الكلب .

*** مركيز باريس .

أمارة تؤذن – إذا لم ينشأ انحراف – ببزوغ أعجوبي قريب .

ولنتمهل لحظة . من الذي نتهمه هنا ؟ أهو القرن الثامن عشر ؟ أهي الفلسفة ؟ لا ، طبعاً . فالعمل الذي قام به القرن الثامن عشر سليم وصالح . فالموسوعيون ، وعلى رأسهم ديدرو ، والاقتصاديون الفيزيوقراطيون *، وعلى رأسهم تورغو ، والفلاسفة ، وعلى رأسهم فولتير ، وأصحاب المدينة الفاضلة ، وعلى رأسهم روسو – اولئك أربع فرق مقدسة . فاليهم يرجع الفضل في تقدم الانسانية الهائل نحو النور . إنهم طلائع النوع البشري الاربع إلى نقاط التقدم الرئيسية : ديدرو نحو الجميل ، وتورغو نحو النافع ، وفولتير نحو الحقيقي ، وروسو نحو العادل . ولكن إلى جانب الفلاسفة وتحتهم ، كان السفسطائيون ، وهم نبتة سامة امتزجت بالنباتات السليمة ، شوكران سام في الغابة العذراء . ففيما كان الجلاد يحرق فوق سلم قصر العدل الرئيسية كتب العصر المحرِّرة الكبرى كان بعض الكتاب المنسيين اليوم ينشرون ، برعاية من الملك ، كتابات كثيرة مشوَّشة على نحو غريب قرأها البائسون في نهم . ومن عجب ان بعض هذه المنشورات ، المتمتعة بتأييد أميري – لا تزال في « المكتبة السرية » . وهذه الحقائق ، العميقة الجذور ، برغم إهمالها ، لم يكن ممكناً إدراكها على السطح . فمجرد غموض حقيقة من الحقائق يكون في بعض الاحيان هو الخطر الذي تنطوي عليه . إنها غامضة لأنها سرية . ولعل ريستيف دو لا بروتون كان الكاتب الذي حفر ، تحت الجماهير ، اشد الدهاليز تضليلا .

وهذا العمل الذي تبنَّته اوروبة كلها ، كان اعظم إفساداً في المانية منه في اي قطر آخر . ففي ألمانية ، خلال فترة معينة اختصرها شيلر في مسرحيته الشهيرة « اللصوص » ، اتخذت اللصوصية والسلب ، وقد رُفعا

---

* القائلون بأن الارض هي مصدر الثروة والضرائب الاوحد ، والمنادون بحرية الصناعة والتجارة .

إلى مقام الاحتجاج على الملكية والعمل ، بعض الافكار الابتدائيـــة ، المموّهـة ، الباطلة ، الصحيحة في الظاهر ، الفاسدة في الواقع ، وأحاطا نفسيهما بهذه الافكار . واختفيا فيها بطريقة ما ، واصطنعا اسماً مجرداً وانتقلا إلى حالة نظرية من النظريات ، وعلى هذه الشاكلة طوّفا في الجماهير العاملة ، المتألمـة ، الفاضلة ، خافيّين حتّى على الكيميائيين العديمي الفطنة الذين أعدوا المزيـج ، مجهولين حتّى من الجماهير التي قبلتهما . وكلمـا حدث شيء من هذا الضرب يكون الموقف خطيراً . إن العذاب يولد الحقد . وفيما الطبقات الموسرة تتعامى ، أو تستسلم للرقاد ، يعني تغمض عينيها في كلتا الحالين ، تضيء كراهية الطبقات البائـة مشعلهـا أمام بعض العقول المحزونة المشوهة الحالمة في زاوية ما ، وتسرع في دراسة المجتمع . والدراسة إذا ما قامت بها الكراهية ، شيء رهيب حقـاً .

ومن هنا — إذا شاءت نحوس العصر — هذه الارتجاجات المروعـة التي كانوا يدعونها « الجاكيات » jacqueries * — وليست الاضطرابات السياسية الخالصة غير لعب اطفال بالنسبة اليها — والتي لا تقتصر على صراع المظلوم ضد الظالم ، بل تعدو ذلك إلى ثورة الضيق على اليسر . وعندئذ ينهـار كل شيء .

ان « الجاكيات » هي « هزات شعبية » .

وهذا الخطر ، الذي ربما كان كامناً في اوروبة في أواخر القرن الثامن عشر ، إنمـا عاقته الثورة الفرنسية . ذلك العمـل الطهري الضخـم .

ذلك ان الثورة الفرنسية ، وهي المثل الاعلى مسلحاً بالسيف لا اكثر ولا اقل ، انتصبت على قدميها . وبتلك الحركة نفسها ، أوصدت باب

* الجاكية لفظ يطلق على كل ثورة طائشة يلعب فيها إعدام الناس ، على نحو اعتباطي، الدور الرئيسي ، وقد سبقت الاشارة اليها .

الشر وفتحت باب الخير .

لقد أوضحت المسألة ، واعلنت الحقيقة اعلاناً رسمياً ، وزدت الأبخرة الوبيئة ، وطهرت القرن ، وتوجت الشعب .

ونستطيع ان نقول إنها خلقت الانسان من جديد ، بأن منحته نفساً ثانية ، منحته حقوقه :

إن القرن التاسع عشر ليرثُ ويفيد من عمله ذاك ، وهكذا فان الكارثة الاجتماعية التي اشرنا اليها اللحظة هي اليوم — بكل بساطة — أمر متعذر . وأعمى هو ذلك الذي يتهمه ! وأحمق هو ذلك الذي يخافه ! إن الثورة لقاح الجاكية .

فبفضل الثورة تغيرت الاحوال الاجتماعية . إن الامراض الاقطاعية والملوكية لم تعد في دمنا . ولم يبق شيء من القرون الوسطى في دستورنا . إننا ما عدنا نعيش في العصر الذي كانت التألبات الداخلية الرهيبة تشن الغارات فيه ، العصر الذي كان الناس يسمعون فيه ، تحت اقدامهم ، انطلاقاً غامضاً لضجة نكدة ، العصر الذي بدت فيه على سطح المدنية ارتفاعات مناجذ غريبة ، العصر الذي تشققت فيه الارض ، العصر الذي انفتحت فيه أفواه الكهوف ، العصر الذي رأى فيه الناس رؤوساً هائلة تنبثق فجأة من باطن الارض .

إن المعنى الثوري معنى اخلاقي ، ذلك بأن الاحساس بالحق يولد الاحساس بالواجب . وقانون كل شيء هو الحرية ، التي تنتهي حيث تبدأ حرية الآخرين ، وفقاً لتعريف روبسبير الرائع . فمنذ عام ٨٩ كان الشعب كله يتبسط في الفرد المعلّى . فليس ثمة فقير يعوزه الاشعاع حين يفوز بحقوقه ؛ والرجل الجائع يستشعر في داخله شرف فرنسة ؛ وكبرياء المواطن درعٌ باطني ، والرجل الذي يتمتع بالحرية يصبح كثير التدقيق ؛ ومن يصوت يتقلد ملكاً . ومن هنا الامتناع عن الفساد ، ومن هنا اجهاض المطامع المضللة ، ومن هنا انحسار العيون ، على نحو

بطوني ، أمام ضروب الاغراء . إن الجو الصحي الذي تخلقه الثورة هو من القوة بحيث ينعدم في يوم من ايام الخلاص ،يوم كالرابع عشر من تموز ، أو العاشر من آب ، ما يدعونه الرعاع . وأول صيحة تطلقهـا الجماهير المستنيرة المتعاظمة هي : الموت للصوص ! التقدم انسان أمين ، والمثالي والمطلق لا يقدم على النشل . من الذي خفر ، عام ١٨٤٨ ، الصناديق التي انطوت على كنوز التويلري ؟ إنهم ملتقطو الخرق الباليـة في ضاحية سان انطوان . لقد قامت الاسمال بمهمة الحراسة على الثروة . إن الفضيلة قد جعلت هذه الثياب الخلقة متألقة . لقد كان هناك ، في تلك الصناديق الكبيرة ، في علب لم تغلق إلا بشق النفس ، علب كان بعضها نصف مفتوح ، وسط مئة من علب الجواهر المذهلة ، تاج فرنسة العتيق المصوغ كله من الماس ، يعلوه ياقوت « الوصي على العرش» الجمري، الـذي كـانت قيمتـه تبلغ ثلاثين مليوناً . لقـد حرسوا حفـاة ، ذلك التـاج .

لم يبـق ثمة « جاكية » اذن . وأنا أتحسر عليها بسبب من اصحاب الدسائس . إنها الارهاب القديم الذي خلف آخر آثاره ، والذي لم يعـد ممكناً اصطناعه في السياسة .لقد تحطم نابض الشبح الاحمر الضخم. وكل امرىء يعرف ذلك . إن الفزاعة لم تعد تفزع احداً . لقد صارت للطير دالة على الدمية ، ولقد امست الحشرات تحط عليها ، والبورجوازيـة تسخر منهـا .

٤
الواجبان : الحراسة والأمل

وإذا كان ذلك كذلك ، فهل ، تبدد الخطـر الاجتماعي كـله ؟

لا ، طبعاً . لا « جاكية » . قد يستطيع المرء ان يُطَمْئِن المجتمع من هذه الناحية . إن الدم لن يندفع إلى رأسه بعد اليوم ، ولكن يتعين على هذا المجتمع ان يعنى بالطريقة التي يتنفس بها . إن السكتة ما عادت موضع مخافة . ولكن السل ما يزال هناك . وسلّ المجتمع يدعى البؤس .

إننا نموت ملغومين كما نموت مصعوقين ، سواء بسواء .

ولنكرر هنا — من غير ان نمل — ان التفكير قبل كل شيء بالجماهير المنبوذة المثيرة للشفقة ، ومؤاساتها ، وتهويتها ، وتنويرها ، وحبها ، وتوسيع افقها في بهاء ، وإمطارها بالتربية على اختلاف اشكالها ، وإعطائها مثل العمل لا مثل الكسل بحال من الاحوال ، وانقاص عبء الفرد بتكثيف فكرة الهدف العام ، ووضع حد للفقر من غير وضع حد للغنى ، وانشاء حقول واسعة للنشاط الجماعي والشعبي ، وان تكون لنا — مثل بريياروس * — مئة يد لكي نبسطها في كل اتجاه إلى المرهقين والضعفاء ، واصطناع القوة الجماعية للقيام بالواجب الكبير الذي يقتضينا ان نفتح المعامل لجميع الاذرع ، والمدارس لجميع القابليات ، والمختبرات لجميع العقول الذكية ، وزيادة الاجور ، وإنقاص العذاب ، واقامة التوازن بين ما للمرء وما عليه ، يعني مراعاة النسبة بين المتعة والجهد ، والاشباع والحاجة ، وبكلمة ، ان نجعل البنية الاجتماعية — لمصلحة اولئك الذين يتعذبون واولئك الذين يترددون في مهاوي الجهل — تطلق قدراً من النور أعظم ، وقدراً من الرفه اكبر ، ذلك هو — وليذكر اصحاب النفوس الرقيقة هذا ، — أول الالتزامات الاخوية ، وهذا هو — وليعرف أصحاب القلوب الانانية ذلك — أول الضرورات السياسية .

وهنا يتعين علينا ان نقول ان هذا كله ليس غير بداية . ان القضية

---

* Briareus في الميثولوجيا اليونانية ، عملاق ذو مئة ذراع وخمسين رأساً ساعد زيوس على جماعة الـ « تيتان » Titans وهم ابناء « السماء » و « الارض » الذين ثاروا على الآلهة .

الحقيقية هي هذه : العمل لا يستطيع ان يكون قانوناً من غير أن يكون حقاً .

ولسنا نرغب في التوكيد على ذلك . فليس هذا هو مجال هذا الصنيع .

وإذا كانت الطبيعة تدعى العناية ، فالمجتمع ينبغي ان يدعى التبصر والنظر إلى بعيد .

والنمو الفكري والاخلاقي ليس أقل ضرورة من الاصلاح المادي . فالمعرفة زاد ، والتفكير من الضرورات الماسة ، والحقيقة غذاء كالحنطة نفسها . والعقل ، إذا ما صام عن المعرفة والحكمة ، يصاب بالهزال . فلنتحسر على العقول التي لا تأكل ، كما نتحسر على المعد الفارغة . وإذا كان ثمة ما هو اشد مضاضة من الجسد المحشرج لفقدان الخبز ، فتلك هي النفس التي تموت جوعاً إلى الضياء .

إن التقدم كله لينزع نحو الحل . ولسوف نصاب ، ذات يوم ، بالذهول . ففيما يرتفع الجنس البشري ، سيقدر للطبقة الدنيا ان تخرج ، على نحو طبيعي جداً ، من منطقة الشقاء . إن محو البؤس سيتم برفع بسيط للمستوى .

ولسوف نخطىء إذا نحن شككنا في هذا الحل المبارك .

ان الماضي — هذا صحيح — قوي جداً في هذه اللحظة . إنه يحيا من جديد . واستعادة الجثة شبابها شيء يدعو إلى الدهش . ها هي ذي تمشي وتتقدم . إنها تبدو مظفّرة . إن هذا الرجل الميت غازٍ . إنه يفدُ مع كتيبته ، الخرافات ، وسيفه ، الطغيان ، ورايته : الجهل . وفي فترة يسيرة ربح عشر معارك . إنه يتقدم ؛ إنه يهدد ؛ إنه يضحك . إنه على أبوابنا . أما نحن ، فلن نيأس ، فانبيع الميدان الذي يعسكر فيه هنيبعل .

ونحن الذين نؤمن ، من أي شيء يمكن ان نخاف ؟

ليس من ارتداد في الافكار إلا بقدر ما يكون الارتداد في الأنهار .

ولكن دع اولئك الذين لا يريدون المستقبل يفكرون في ذلك . إنهم حين يقولون « لا » للتقدم لا يدينون المستقبل ولكن يدينون انفسهم . إنهم يقدمون إلى أنفسهم مرضاً كئيباً ، ويلقحون انفسهم بالماضي . والحق أنه ليس ثمة غير وسيلة واحدة لرفض « الغد » ، هي الموت .

والآن ليس الموت ، موت الجسد مهما تأخر ، وموت النفس إطلاقاً . هو ما نرغب فيه .

أجل ، ان الأحجية سوف تقول كلمتها ؛ إن أبا الهول سيتكلم ؛ إن المشكلة سوف تحل . أجل ، إن صورة الشعب التي رسمها القرن الثامن عشر على نحو خفيف ، سوف يتمها القرن التاسع عشر . وأبله هو ذلك الذي يشك في هذا ! إن البزوغ المستقبل ، بزوغ الرفاهية الشاملة القريب ، ظاهرة محتومة على نحو إلهي .

إن عوامل ضم وجمع شتات لتسيطر على الشؤون الانسانية وتؤدي بها كلها ، في ميقات معلوم ، إلى الوضع المنطقي ، أي إلى التوازن ، أي إلى العدالة . ان قوة مؤلفة من الارض والسماء لتنشأ من الانسان وتهيمن عليه . وهذه القوة مجترحةُ معجزات . فالاعمال الاعجوبية ليست عندها بأعسر من التغيرات الفائقة للعادة . واذ كانت مدعومة بالعلم الذي ينبثق من الانسان ، والحادثة الرائعة التي تنبثق من « كائن آخر » ، فأنها لا تهاب ، إلا قليلا ، تلك التناقضات التي تنطوي عليها أوضاع المشكلات ، والتي تبدو في نظر العامة مستحيلات . وليست قدرتها على جعل حلٍ ما ، يشب من الموازنة بين الفكرات لتقلَّ عن قدرتها على جعل درس ما ، يشب من الموازنة بين الوقائع . وفي استطاعتنا ان نتوقع كل شيء من قوة التقدم العجيبة هذه التي تجمع ، ذات يوم من الايام المشرقة ، ما بين الشرق والغرب في أعماق قبر ، وتجعل الائمة المسلمين يتحدثون إلى بونابرت في قاب الهرم الكبير .

وفي غضون ذلك لا تمهّل ، ولا تردد ، ولا توقف في تقدم العقول وسيرها العظيم إلى الامام . إن الفلسفة الاجتماعية هي في جوهرها علم وسلم . وغايتها هي ، ونتيجتها ينبغي ان تكون ، حل الاحقاد بدراسة الخصومات . إنها تفحص ، وتحقق ، وتحلل ، ثم تؤلف من جديد . انها تتقدم من طريق التحويل ، مقصية البغض عن كل شيء .

لقد رأينا غير مرة ان المجتمع قد يغرق في عاصفة تنفجر فوق رؤوس الناس : والتاريخ حافل بأحداث الغرق ، غرق الشعوب وغرق الامبراطوريات . والعادات ، والقوانين ، والاديان لا بد أن تعصف بها ، ذات يوم رائق ، أعاصير غريبة ، وتأتي عليها كلها . ولقد زالت مدنيات الهند ، وكلدة ، وفارس ، وأشور ، ومصر ، واحدة بعد اخرى . لماذا ؟ لسنا ندري . ما أسباب هذه الكوارث ؟ لسنا ندري . أكان من الممكن إنقاذ هذه المجتمعات ؟ اكانت الغلطة غلطتها ؟ هل انغمست ، بعناد ، في رذيلة مهلكة قضت عليها ؟ ما مقدار الانتحار الذي تنطوي عليه ميتات الامم والاجناس الرهيبة تلك ؟ اسئلة ليس لها من جواب . إن الظلام ليكتنف هذه المدنيات الهالكة . إنها لم تكن صالحة لمخر البحار بدليل ان المياه قد ابتلعتها . وليس عندنا ما نقوله غير هذا . وانما بضرب من الذهول نرى بعيداً إلى الوراء في ذلك الاوقيانوس الذي ندعوه الماضي ، خلف تلك الامواج الهائلة ، أعني القرون – نرى غرق تلك المراكب الضخمة : بابل ، ونينوى ، وطرسوس ، وطيبة ، وروما ، تحت الرياح المروعة التي تنبعث من جميع أفواه الظلمة . ولكن إذا كانت الظلمة هناك ، فأن الضياء هنا . إننا نجهل أمراض المدنيات القديمة ، ولكنا نعرف عاهات مدنياتنا . اننا نرى فوقها ، في كل مكان ، حق الضياء ، واننا نتأمل في جمالاتها ونعرّي دماماتها . وحيث تكون عليلة نستعمل المسبار . وما إن نعيّن المرض حتى تقودنا دراسة السبب إلى اكتشاف العلاج . إن

حضارتنا ، صنيع عشرين قرناً من الزمان ، هي الهُولة والاعجوبة في آن معاً ، إنها جديرة بأن تُنْقَذ. ولسوف تنقذ . والترويح عنها هو الآن كثير ، وتنويرها هو شيء اكثر. وجميع جهود الفلسفة الاجتماعية العصرية ينبغي ان توجه نحو هذه الغاية . وعلى المفكر اليوم واجب كبير : أن يضع اذنه على صدرها ويستطلع حال القلب منها .

وهذا الاستطلاع — ونحن نكرر ذلك هنا — شيء مشجع . وبمثل هذا الالحاح في التشجيع نرغب في أن نختم هذه الصفحات القليلة ، فترة استراحة صارمة في رواية أليمة . فتحت فنائية المجتمع نلمس خلود الانسانية . ولكي تكون ههنا وههناك هذه الجروح ، فوهات البراكين ، وهذه القُوَب * ، مناجم الكبريت ، ومن اجل بركان ينفجر ويقذف بصديده ، لا تموت الكرة الارضية . إن امراض الشعب لا تقتل المرء .

ومع ذلك ، فكل من يتتبع العيادة الاجتماعية يهز رأسه في بعض الاحيان . إن لاعظم الناس قوة واشدهم حناناً واكثرهم منطقاً لحظات إغمائهم .

هل سيأتي المستقبل ؟ يبدو أن في استطاعتنا ، أو نكاد ، طرح هذا السؤال حين نرى كل هذا الظل الرهيب . تواجهٌ كالحٌ بين الانانيين والبائسين . وفي ناحية الانانيين نجد الاحقاد ، وظلمات الثقافة الموسرة ، والشهوة المتعاظمة من طريق الثمل ، وانشداه الرفاه المصم للآذان ، وذعراً من العذاب ينتهي — عند بعضهم — إلى كراهيتهم المعذبين ، ورضاً حقوداً ، و « أنا » متورمة إلى درجة تجعلها توصد النفس . وفي ناحية البائسين نجد الطمع ، والحسد ، وكراهية رؤية الآخرين مستمتعين بالحياة ، وتوق الحيوان الانساني العميق إلى ضروب الاشباع ، والقلوب الحافلة بالظلمة ، والحزن ، والفاقة ، والقدر ، والجهالة الدنسة البسيطة .

---

* القوباء : داء يظهر في الجسد يتقشر ويتسع ، وهو معروف بالحزاز .

هل يتعين علينا أن نقيم على رفع أعيننا نحو السماء ؟ والنقطة المتلألئة التي تتبينها هناك أهي من تلك التي تخمد ؟ إن من المروع رؤية المثل الاعلى ضائعاً هكذا بين الاعماق ، صغيراً . منعزلاً ، غير مدرك ، مشعاً ولكنه محاط بجميع تلك التهديدات السوداء الكبرى المتجمهرة حوله على نحو رهيب . ومع ذلك فليس الخطر المحدق به بأعظم من الخطر الذي يلم بنجم في أشداق الغيوم .





الكتاب الثامن

رُقىً وأطلال





١

وضح النهار

لقد عرف القارىء أن ايبونين ، وقد تبيّنت من خلال الباب الحديدي ذلك الرجل القاطن في شارع بلوميه والذي وجهتها مانيون اليه ، كانت قد بدأت بأبعاد قطاع الطرق عن شارع بلوميه ، ثم قادت ماريوس إلى هناك ، وأن ماريوس ، بعد عدة ايام من النشوة الروحية امام ذلك الباب الحديدي — وقد جذبته تلك القوة التي تدفع الحديد نحو حجر المغناطيس والمحب نحو حجارة البيت التي بني منها منزل الفتاة التي يحب — قد دخل اخيراً إلى حديقة كوزيت كما دخل روميو حديقة

جولييت . بل لقد كان ذلك اسهل عليه مما كان على روميو . فقد اضطر روميو إلى ان يتسور جداراً . أما ماريوس فلم يكن عليه إلا ان يدفع قضيباً صغيراً من قضبان الباب الحديدي الهرم ، كان قد تخلخل في مغرزه الصدىء مثل اسنان العجائز . كان ماريوس مهزولا ، فاستطاع أن ينسلّ إلى الداخل في سهولة ويسر .

وإذ لم يكن في الشارع أحد البتة ، وإذ لم يدخل ماريوس إلى الحديقة — بالاضافة إلى هذا — إلا ليلا فما كان ليخشى ان يراه أحد .

ومن تلك الساعة المباركة المقدسة التي ربطت فيها القبلة ما بين هاتين النفسين أنشأ ماريوس يفد كل مساء . ولو ان كوزيت ، أغرمت ، في تلك المرحلة من حياتها ، برجل داعر لا ضمير له ، اذن لتردّت في مهاوي الهلاك ، ذلك ان ثمة طبائع كريمة تسارع إلى الاستسلام ، وكانت لكوزيت واحدة منها . إن من ضروب الشهامة عند المرأة أن تذعن . والحب ، عند ذلك الارتفاع الذي يكون فيه مطلقاً ، إنما يعقده عميّ في الحياء سماويٌ لا سبيل إلى وصفه . ولكن ما اكثر المخاطر التي تتعرضين لها ، ايتها النفوس النبيلة ! انك كثيراً ما تمنحين القلب ، فنأخذ نحن الجسد . وهكذا تبقى قلوبك لك ، وتتلفتين حولك في الظلام ، وترتعدين . الحب لا توسط فيه ، إما ان يُهلك ، وإما ان يخلّص . والقدر الانساني كله هو هذا القياس ذو الحدين . وذلك القياس ، الهلاك أو الخلاص ، لا يطرحه اي قدر على نحو اكثر قسوة مما يطرحه الحب . الحب هو الحياة ، إذا لم يكن هو الموت . إنه المهد ؛ والكفن ايضاً . والعاطفة نفسها تقول « نعم » و « لا » في القلب البشري . ومن بين جميع الاشياء التي خلقها الله ، فأن القلب البشري هو الذي يسفح اعظم مقدار من الضياء ، ويسفح — وا أسفاه ! — اعظم مقدار من الظلمة .

لقد شاء الله ان يكون الحب الذي لقبته كوزيت حباً من ذلك النوع الذي يخلّص .

فطوال شهر نوار من ذلك العام ، ١٨٣٢ ، كان هناك ، كل ليلة ، في تلك الحديقة الحقيرة المهملة ، تحت ذلك الدغل المتعاظم عبقاً وكثافة كل يوم ، كائنان اثنان مؤلفان من جميع الطهارات وجميع البراءات ، فائضان بكل سعادات السماء ، فهما اقرب إلى رؤساء الملائكة منهما إلى البشر ، صافيان ، نبيلان ، ثملان ، مشعان ، يتألق كل منهما أمام الآخر في الظلام . لقد بدا لكوزيت ان على رأس ماريوس تاجاً ، وبدا لماريوس ان حول رأس كوزيت هالة . ومس كل منهما الآخر ، ونظر كل منهما إلى الآخر ، وأمسك كل منهما بيد الآخر ، واقترب كل منهما اشد ما يكون الاقتراب إلى الاخر ، ولكن كانت ثمة مسافة لم يتجاوزاها . لا لأنهما احترماها ، بل لأنهما جهلاها . لقد استشعر ماريوس حاجزاً ، هو طهارة كوزيت ، واستشعرت كوزيت سناداً ، هو وفاء ماريوس . كانت القبلة الاولى هي القبلة الأخيرة ايضاً . ومنذ ذلك الحين ، لم يذهب ماريوس إلى ابعد من مس يد كوزيت ، أو منديلها ، أو احدى غدائرها بشفتيه . كانت كوزيت عنده عبيراً ، لا امرأة . كان يستنشقها . ولم ترفض هي شيئاً ، ولم يطلب هو شيئاً . كانت كوزيت سعيدة ، وكان ماريوس راضياً . لقد عاشا في تلك الحال الجذلى التي يمكن أن ندعوها انذهال روح بروح . كانت ذلك العناق الأول الذي لا يوصف بين بتوليتين في المثل الاعلى . بجعتان تلتقيان فوق اليونغفراو *.

في ساعة الحب تلك ، وهي ساعة تخرس فيها الشهوة خرساً مطلقاً تحت قدرة النشوة الروحية الكلية ، كان ماريوس ، ماريوس الطاهر الملائكي ، اقدر على زيارة بنت من بنات الهوى منه على رفع ثوب كوزيت حتى كعب قدمها . وذات ليلة قمراء ، انحنت كوزيت لتلتقط شيئاً عن الارض فتراخى ثوبها كاشفاً عن أعلى صدرها . فما كان من

* Jungfrau أي العذراء ، وهي احدى قمم جبال الالب في سويسرة ويبلغ ارتفاعها ٤١٨١ متراً .

ماريوس إلا ان اشاح ببصره عنها .

ما الذي كان يجري بين هذين الكائنين ؟ لا شيء . كانا يعبد بعضهما بعضاً .

وفي المساء ، حين كانا يجتمعان هناك ، كانت تلك الحديقة تبدو موطناً حياً مقدساً . كانت الرياحين كلها تتفتح من حولهما ، وتبعث اليهما بعبيرها . وكانا هما ايضاً يفتحان روحيهما ويسكبانهما في الرياحين . كانت النباتات الداعرة القوية ترتعش ملأى بالنسغ والثمل حول هذين المخلوقين البريئين ، وكانا يتبادلان كلمات غرامية توقع الرعدة في اوصال الاشجار .

أيّ شيء كانت تلك الكلمات ؟ همسات ، ليس غير . كانت تلك الهمسات كافية لأثارة هذه الطبيعة كلها وإهاجتها . قوة سحرية لا يكاد المرء يقدر على فهمها إذا قرأ في كتاب ما هذه الاحاديث التي جُعلت لكي تختطفها الريح وتبددها ، مثل الدخان ، تحت اوراق الشجر . جرّد همسات المحبّين هذه من ذلك اللحن الذي ينبثق من النفس ، والذي يرافقهما مثل قيثارة ، فعندئذ لا يبقى غير ظل . وقد تقول : « ماذا ! أهذا كل شيء ؟ » نعم ، اشياء صبيانية ، وكلمات معادة ، وضحكات على لا شيء ، وأعباث * ، وترهات ، وكل ما في العالم من مغال في الرفعة ومغال في العمق ! الاشياء الوحيدة الجديرة بأن تقال وبأن يصغى اليها .

والرجل الذي لم يسمع قط هذه الترهات وهذا اللغو ، والرجل الذي لم ينطق قط بهذه الترهات وهذا اللغو ، هو رجل احمق شرير .

وقالت كوزيت لماريوس :

— « هل تعلم ان اسمي اوفرازي ؟ »

— « اوفرازي ؟ ولكن لا ، ان اسمك هو كوزيت . »

* جمع عبث .

— « اوه ، ان كوزيت اسم بشع جداً خلعوه عليّ بطريقة ما حين كنت صغيرة . ولكن اسمي الحقيقي هو اوفرازي . ألا تحب هذا الاسم : اوفرازي ؟ »

— « أجل ... ولكن كوزيت ليس بشعاً ؟ »

— « أتحبه اكثر من اوفرازي ؟ »

— « ولكن ... نعم . »

— « اذن ، فسأحبه أنا اكثر ، أيضاً . هذا صحيح ، إن كوزيت اسم جميل . نادني كوزيت . »

وكان في الابتسامة التي أضافتها ما جعل هذا الحوار انشودة ريفية جديرة بغابة سماوية .

وفي مناسبة اخرى حدقت اليه وهتفت :

— « سيدي ، انت مليح ، انت جميل ، انت ذكي . انت لست أحمق بالمرة ، انت أعلم مني بكثير ، ولكني اتحداك بهذه الكلمة : أحبك ! »

وخيل لماريوس ، تحت تلك السماء الخالية من الغيوم ، أنه سمع مقطوعة شعرية ينشدها نجم من النجوم .

وذات مرة ، أيضاً ، ربتت على ظهره تربيتة صغيرة لأنه سعل وقالت له :

— « لا تسعل ، يا سيدي . أنا لا أجيز السعال هنا من غير إذن . من القبيح ان تسعل وتزعجني . انا اريد منك ان تكون في صحة جيدة ، لأني — قبل كل شيء — اكون غير سعيدة إذا كنت معتل الجسم . اي شيء تريد أن أصنعه لك ؟ »

وكان ذلك كله الـهياً صرفاً .

وذات مساء قال ماريوس لكوزيت :

— « تخيلي .. أني ظننت في فترة من الزمن ان اسمك اورسولا . »

وكان في ذلك ما جعلهما يضحكان طوال العشية .

وخلال محادثة اخرى ، اتفق ان هتف :

— « اوه ! لقد نازعتني نفسي في اللوكسومبورغ ، ذات يوم ، إلى أن اهشم عظام كسيح من الكسحاء ! »

ولكنه توقف فجأة ، ولم يذهب إلى ابعد من ذلك . ولو قد فعل اذن لاضطر إلى ان يحدث كوزيت عن رباط ساقها ، وكان ذلك متعذراً عليه . كان ثمة ساحل مجهول ، البشرة ، ارتد امامه ذلك الحب البريء الهائل في ضرب من الذعر المقدس .

وتخيل ماريوس الحياة مع كوزيت على هذا النحو ، من غير زيادة أو نقصان : أن يقصد كل مساء إلى شارع بلوميه ، وان يزيح قضيب « باب الرئيس » الحديدي العتيق المرن ، وان يجلس معها جنباً إلى جنب فوق هذا المقعد ، وان يرى من خلال الاشجار إلى تلألؤ الليل المستهل ، وان يجعل طية بنطلونه تجاور اتساع ثوب كوزيت ، وان يداعب ظفر إبهامها ، وان يقول لها يا اعز الناس ، وان يتنشق مرة بعد مرة عبق الزهرة نفسها ، إلى الابد ، وعلى نحو لا نهائي . وطوال هذه الفترة كانت السحب تمر فوق رأسيهما . وكانت كل نسمة تحمل معها من أحلام الرجل اكثر مما تحمل من سحب السماء .

ونحن لن نزعم ان هذا الحب الطاهر ، الذي كاد ان يكون صارماً ، كان خلواً من الغزل . فأطراء من نحب هو أولى طرائق الملاطفة ؛ إنه شبه جسارة تقوم بمغامرة . إن الاطراء اشبه شيء بقبلة من خلال حجاب . إن اللذة تضع خاتمها الرقيق هناك ، حتى فيما هي تحتجب وتتوارى . وأمام اللذة يتراجع الفؤاد ، لكي يحب حباً أفضل . وكانت مجاملات ماريوس ، المشبعة بالأحلام ، لازوردية اللون ، إذا جاز التعبير . ولا ريب في ان الطيور ، حين تحلق عالياً إلى جانب الملائكة ، تسمع مثل هذه الكلمات . ومع ذلك ، فقد امتزجت بها الحياة ، والإنسانية ، وكل

ما كان ماريوس قادراً عليه من الجابية . كانت ما يقال في الكهف تمهيداً لما سوف يقـال في مخدع النوم : دفقاً غنائياً ، المقطوعةَ الشعريـةَ والـ « سونيت » * مجتمعتين ، مبالغاتِ الهديل الرقيقة ، جميعَ دماثات الهيام منظومة في باقة عابقة بعبير سماوي لطيف ، زقزقةً من القلب إلى القلب لا سبيل إلى وصفها .

وغمغم ماريوس :

— « اوه ! ما أجملك ! انا لا اجرؤ على النظر اليك . وهذا هـو السبب الذي يجعلني أحدق اليك . أنت فتنة . أنا لا أدري ماذا دهاني . إن ادنى ثوبك ، حين يبدو مقدم حذائك ، ليثير الاضطراب في نفسي . ثم ايّ ضياء ساحر يتبدى لي حين ارى ومضة من تفكيرك . انك تفكرين على نحو مدهش . ولقد يخيل الي في بعض الاحيان انك حلم من الاحلام . تحدثي ، انا مصغ اليك ، انا معجب بك . إيـه يا كوزيت ! ما اغرب ذلك وأروعه ! لقد جننتُ حقاً . أنت جديرة بالعبادة ، يا آنسة ! إني ادرس قدميك بميكروسكوب ، وادرس نفسك بتلسكوب . »

واجابت كوزيت :

— « لقد اخذت احبك اكثر فاكثر ، كل لحظـة ، منـذ هـذا الصباح . »

كانت الاسئلة والاجوبة تتهادى كما يحلو لها في هذا الحوار ، واقعة دائماً وقوعاً طبيعياً ، آخر الامر ، على الحب ، مثل تلك الدمى المثقّلـة التي تقع على قاعدتها .

كان شخص كوزيت كله سذاجة ، وصفاء قلب ، وشفوفاً ، ووضاءة ، وسلامة سريرة ، واشراقاً . وفي ميسورنا ان نقول ان كوزيت كـانت رائعة . كانت توقع في نفس الناظر اليها إحساساً فيه شيء من نيسان وشيء من الضحى . كان ثمة ندىً في عينيها . لقد كانت كوزيت تركيزاً لضياء فجريّ في شكل أنثوي .

* Sonnet قصيدة ذات أربعة عشر بيتاً .

وكان طبيعياً جداً ، وقد شغفته كوزيت حباً ، ان يُعجب ماريوس بها . ولكن الحق ان هذه الطالبة الصغيرة ، وقد خرجت طازجة من مطحنة الدير ، كانت تتحدث في نفاذ لذيذ ، وتقول بين الفينة والفينة مختلف ضروب الكلمات الصحيحة الناعمة . كان لغوها محادثة . ولم تكن لتخطيء خطأ ما ، وكانت ترى على نحو صاف . إن المرأة تحس وتتكلم بغريزة الفؤاد الرخصة ، هذه المعصومة عن الضلال . وليس ثمة احد ، غير المرأة ، يستطيع ان يقول أشياء عذبة وعميقة في آن معاً . عذوبة وعمق ، ههنا المرأة كلها . ههنا السماء كلها .

وفي غمرة من هذه السعادة الكاملة كانت الدموع تتدفق على اعينهما كل لحظة . كانت الحشرة التي داستها القدم ، والريشة الساقطة من عش ، وغصن الزعرور المنكسر تثير شفقتهما . وكانت نشوتهما الروحية ، المغمورة على نحو عذب بالكآبة ، تبدو وكأنها لا ترغب في شيء اكثر مما ترغب في البكاء . إن أسمى أعراض الحب حنوٌ يكاد يكون غير محتمل في بعض الاحيان .

وإلى جانب هذا — إن هذه المتناقضات كلها هي لعب الحب الخاطف — كانا مولعين بالضحك ، فهما يضحكان في حرية ساحرة ، وفي دالة كانت تجعلهما يبدوان في بعض الاحيان وكأنهما ولدان صغيران . ومع ذلك ، فعلى الرغم من ان القلوب الثملة بالطهارة قد تكون لا واعية تماماً فان الطبيعة التي لا يمكن ان تُنسى هي ماثلة دائماً . إنها هناك ، بغايتها الحيوانية والرفيعة في آن واحد . ومهما تكن براءة النفوس ، فأننا نشعر ، في اكثر ضروب الاتصال احتشاماً ، بذلك الفارق الغريب الجدير بالعبادة الذي يميز المحبين عن الصديقين .

لقد هام كل منهما بالآخر .

ان السرمدي والمستقر ليستمران . فنحن نحب ، ونحن نبتسم ، ونحن نضحك ، ونحن نطيل شفتينا استياء ، ونحن نشابك اصابع أيدينا ، ونحن

تتخاطب في غير كلفة ، ومع ذلك فان هذا لا يعوق الابدية . إن اثنين من المحبين ليختبئان مساء ، في الغسق ، في اللامنظور ، مع الطيور ، مع الورود ؛ وانهما ليفتن احدهما الآخر في الظل بقلبيهما اللذين يضعانهما في اعينهما ؛ وانهما ليغمغمان ، ويتهامسان ، وطوال هذه الفترة تملأ اللانهاية ذبذبات للنجوم لا حد لها .

٢

دوّار السعادة الكاملة

كانا يعيشان على نحو غامض مدلّه بالسعادة . إنهما لم ينتبها إلى الكوليرا التي حصدت أرواح كثير من اهل باريس في ذلك الشهر . لقد تناجيا اكثر ما وجدا إلى التناجي سبيلا ، ولكن ذلك لم يذهب إلى ابعد جداً من اسميهما . كان ماريوس قد اخبر كوزيت انه يتيم ، وان اسمه هو ماريوس بونميرسي ، وانه محام ، وانه يكسب رزقه من كتابة بعض الاشياء للناشرين ، وان والده كولونيل ، وانه كان بطلا ، وانه هو — ماريوس — قد تشاجر مع جده الغني . وكان قد قال شيئاً ما عن كونه باروناً ، ولكن ذلك لم يخلف أيما أثر في نفس كوزيت . ماريوس باروناً ؟ إنها لم تفهم ذلك . إنها لم تعرف معنى تلك الكلمة .لقد كان ماريوس هو ماريوس . وكانت هي قد أسرّت اليه ، بدورها ، انها نشأت في دير بيكبوس الصغير ، وان أمها ميتة مثل أمه ، وان اسم ابيها مسيو فوشلوفان ، وانه كان عطوفاً جداً ، وانه يتصدق كثيراً على الفقراء ، ولكنه هو نفسه فقير ، وانه يحرم نفسه كل شيء في حين لا يحرمها هي شيئاً .

ومن عجب ان الماضي ،حتى الماضي المغالي في القرب ،كان قد امسى —في غمرة

من تلك السيمفونيا التي عاش فيها ماريوس منذ رأى كوزيت ـ مختلطاً جداً في ذهنه ، قصياً جداً بالنسبة اليه ، فاذا بذلك الذي قالته له كوزيت يرضيه كل الرضا . إنه لم يفكر حتى في أن يحدثها حديث تلك المغامرة الليلية في بيت غوربو العتيق ، وحديث تيناردييه وزوجته ، وحديث الحرق ، ومسلك أبيها العجيب وفراره الغريب . كان ماريوس قد نسي هذا كله موقتاً . بل انه لم يكن ليعرف ، في الليل ، أيّ شيء فعله في النهار ، أو اين تناول طعام الصباح ، او من الذي تحدث اليه . كانت في اذنيه أغانٍ اصمته عن كل تفكير آخر ؛ كان لا يحيا إلا خلال الساعات التي يرى فيها كوزيت . وإلى هذا ، فلما كان هو في السماء فقد كان طبيعياً جداً ان ينسى الارض . كان كل منهما يحتمل ، في ضعف ، عبء اللذات غير المادية الممتنع على التحديد . هكذا يعيش هؤلاء المصابون بداء السير في النوم الذين ندعوهم العشاق .

وا أسفاه ! من ذا الذي لم يجرب هذه الاشياء ؟ لماذا تحين ساعةٌ نفارق فيها هذا اللازورد ، ولِمَ تستمر الحياة بعد ذلك ؟

إن الحب ليحلّ محل الفكر أو يكاد . الحب نسيان ملتهب لكل شيء آخر . إلتمس المنطق ، اذن ، عند الهوى . فليس في القلب البشري سلسلة منطقية مطلقة ، كما انه ليس في الميكانيك السماوي شكل هندسي كامل . فعند كوزيت وماريوس لم يكن ثمة شيء في الوجود غير ماريوس وكوزيت . كان الكون من حولهما قد توارى عن النظر . لقد عاشا في لحظة ذهبية . لم يكن ثمة شيء من قبل ، ولم يكن ثمة شيء من بعد . ولسنا نحسب ان ماريوس تساءل هل لكوزيت أب . كان من الانشداه بحيث امحى كل شيء من ذهنه . واذن ، فعمّ تحدّث هذان العاشقان ؟ لقد رأينا ذلك : عن الرياحين ، عن السنونو ، عن الشمس المحتضرة ، عن القمر الطالع ، عن كل الاشياء الهامة . لقد قالا كل شيء ، باستثناء كل شيء . و « كل » العشاق هي « لا شيء » . ولكن

الاب ، والوقائع ، وذلك البيت الحقير ، وقطاع الطرق ، وتلـــك المغامرة ، ما فائدة ذلك كله ؟ وهل كان واثقاً من ان ذلك الكابوس كان حقيقياً ؟ كانا اثنين ، وكان كل منهما شغفاً بالآخر ، ولم يكن ثمة شيء غير هذا . إن كل شيء آخر لم يكن . ومن المحتمل ان يكون هذا النسيان للجحيم الذي وراءنا جزءاً من وصولنا إلى الجنة . هل رأينا أبالسة ؟ وهل ثمــة ابالسة ؟ هل ارتعدنا ؟ هل أصابنا أذى ؟ نحــن لا نعرف الآن عن ذلك شيئاً . إن سحابة وردية لتظلل ذلك كله .

كان هذان المخلوقان يعيشان ، اذن ، على هذا النحو ، محلقين عالياً، يحيط بهما كل ما في الطبيعة من اشياء غير محتملة الوقوع . لم يكونا لا في نظير السمت ولا في سمت الرأس ؛ كانا بين الانسان والملاك ؛ فوق الارض ، تحت الاثير ، في السحب ؛ خلواً من اللحم والعظم أو يكادان ، تلفهما الروح والنشوة الروحية من الرأس إلى القدم ؛ متسامين اكثر مما ينبغي بحيث ما كانا يمشيان على الارض ، مثقلين بالانسانية اكثر مما ينبغي بحيث ما كانا يختفيان في السماء ، معلقين مثل الذرات الــتي تنتظر الرسوب ؛ خارج نطاق القدر في الظاهر ؛ متجاهلين ذلك السبيل المطروق : امس ، اليوم ، الغد ؛ مشدوهين ، جذلين ، طافيين ، خفيفين احياناً بحيث يحلّقان في اللانهاية ، مستعدين أو يكادان للطــيران الأبــدي .

كانا يناماان يقظين في هذا المهد الهزاز . يا لروعة السبات المستغرق الذي يلمّ بجفنَي الواقع المثقل بالمثل الاعلى !

وفي بعض الاحيان كان ماريوس يغمض عينيه أمــام كوزيت برغم جمالهــا كله . إن اغماض العينين هو السبيل الافضل للتطلع إلى الروح .

ولم يتساءل ماريوس وكوزيت إلى اين سيقودهما ذلك . كان احدهما ينظر إلى الآخر نظرته إلى شخص بلغ محجته . وانها لدعوى غريبــة من الناس أن يطلبوا إلى الحب ان يقودهم إلى مكان ما .

٣

بداية الظلمة

ولم يَرْتب جان فالجان في شيء .

فقد كانت كوزيت – وهي اقل استغراقاً في التفكير الحالم من ماريوس – بهيجة النفس ، وكان ذلك كافياً لايقاع السعادة في قلب جان فالجان . إن افكار كوزيت ، ومشاغلها اللدنة ، وصورة ماريوس التي ملأت نفسها لم تسلبها شيئاً من صفاء جبينها الباسم ، الطاهر ، الجميل ، ذلك الصفاء الذي لا يضارع . كانت في تلك السن التي تحمل فيها العذراء حبها كما يحمل الملاك زنبقته . وإلى هذا فحين يكون العاشقان على وفاق يسير كل شيء سيراً حسناً . واما شخص ثالث قد يعكر صفو حبهما يكون في الامكان ابقاؤه في عمى كامل باحتياطات قليلة جداً هي هي بالنسبة إلى العشاق جميعاً . ومن هنا لم تصدر عن كوزيت اية معارضة لجان فالجان . هل يريد ان يخرج في نزهة ؟ اجل ، يا ابي العزيز . هل يريد ان يبقى في البيت ؟ حسن جداً . هل يريد ان يقضي العشية إلى جانب كوزيت ؟ اذن فهي في غاية السعادة . واذ كان يأوي إلى فراشه في الساعة العاشرة دائماً ، فقد كان ماريوس لا يجيء إلى الحديقة ، في تلك الأحوال ، إلا بعد تلك الساعة ، عندما كان يسمع كوزيت ، من الشارع ، تفتح الباب الزجاجي المؤدي إلى السلم . ولسنا في حاجة إلى القول ان ماريوس ما كان ليُرى في النهار ابداً . بل إن جان فالجان لم يعد يحسب ان ماريوس موجود . وذات صباح ، فقط ، اتفق ان قال لكوزيت : « ولكن ، إن على ظهرك شيئاً أبيض ! » كان ماريوس وقد استخفه الطرب في الليلة البارحة ، قد زحم كوزيت عند الجدار .

وتوسين العجوز ، التي كانت تأوي إلى فراشها باكراً ، لم تكن تفكر

بشيء غير الذهاب للنوم ، حالما يُنجز عملها ، فكانت جاهلة كل شيء ، مثل جان فالجان .

ولم يطأ ماريوس ارض المنزل البتة . كان إذا ما التقى بكوزيت احتجبا في حفرة قرب السلم ، لكي لا يراهما أو يسمعهما من الشارع أحد ، وقعدا هناك مكتفيين من الحديث في كثير من الاحيان بأن يضغط احدهما على يد الآخر عشرين مرة في الدقيقة ، فيما هو ينظر إلى اغصان الاشجار . ولو ان صاعقة سقطت ، في تلك اللحظات ، على مدى ثلاثين خطوة منهما ، اذن لما أحسا بها لاستغراق أحلام أحدهما وانغمارها في أحلام الآخر .

طهارات رائقة . ساعات بيضاء كلها ، متشابهة كلها أو تكاد . ان مثل هذا الحب اشبه شيء بمجموعة من اوراق الزنبق وريش الحمام .

كانت الحديقة كلها تفصل ما بينها وبين الشارع . وكلما دخل ماريوس أو خرج أعاد قضيب الباب الحديدي إلى موضعه في عناية بالغة بحيث لا يلحظ أحد خللا ما .

وكان يغادر المكان ، عادة ، حوالى منتصف الليل ، عائداً إلى غرفة كورفيراك . وقال كورفيراك لباهوريل :

— « هل تصدق هذا ؟ ماريوس يرجع إلى الغرفة في هذه الايام في الساعة الواحدة صباحاً . »

وأجاب باهوريل :

— « وماذا تتوقع ؟ ان لكل فتى عهداً ينصرف فيه إلى ملذاته . »

وبين الفينة والفينة كان كورفيراك يطوي ذراعيه ، ويصطنع سيماء من الجد ، ويقول لماريوس :

— « أنت مشتت الذهن شارد اللب ، ايها الفتى ! »

كان كورفيراك رجلا عملياً ، ولم يكن ليرتضي انعكاس هذه الجنة غير المنظورة على وجه ماريوس . وكان قليل الرغبة في تلك

العواطف المكبوحة . كان يضيق صدره بها . وكان يوجه إلى ماريوس بين الحين والحين بعض النذر التي تعيده إلى الواقع .

وذات صباح وجه إلى ماريوس هذا التعنيف :

– « يا صديقي العزيز ، انت توقع في نفسي ، هذه اللحظة ، انك مقيم في القمر ، مملكة الاحلام ، اقليم الاوهام ، الذي عاصمته « فقاقيع الصابون » . تعال ، كن ولداً طيباً ، وقل لي ما اسمها ؟ »

ولكنه شيئاً لم يستطع أن يحمل ماريوس على « الاعتراف » . كان في إمكان المرء ان ينتزع اظافره بأسرع مما ينتزع منه واحداً من ذينك المقطعين المقدسين اللذين يشكلان ذلك الأسم الممتنع على الوصف : **كوزيت** . ان الحب الصادق نيّر كالفجر ، صامت كالقبر . كان كل ما طرأ على ماريوس من تغير ، في نظر كورفيراك ، أن صمتاً مشعاً قد غلب عليه .

وطوال شهر نوار العذب هذا ، عرف ماريوس وكوزيت هذه المباهج اللامتناهية :

أن ... صما ، وان يخاطب احدهما الآخر بضمير الجمع ليعودا بعدُ فيتخاطبا بضمير المفرد ؛

أن يتحدثا في اسهاب ، غير تاركين شاردة ولا واردة ، عن أناس لم يكن لهما اهتمام بهم البتة ، وهذا دليل آخر على ان القصيدة الغنائية ، في هذه الاوبرا الفاتنة ، تكاد تكون لا شيء ؛

وبالنسبة إلى ماريوس ، أن يسمع كوزيت تتحدث عن الملابس؛

وبالنسبة إلى كوزيت ، ان تسمع ماريوس يتحدث في السياسة ؛

أن يسمعا ، والركبة تمس الركبة ، العربات تجري في « شارع بابل » ؛

أن يحدقا في الفضاء إلى نجم واحد ، والى دودة واحدة تتوهج بين العشب ؛

ان يلتزما الصمت معاً ، وتلك بهجة أعظم من بهجة الكلام ؛

الـخ . الـخ .

وفي غضون ذلك كانت تعقيدات مختلفـة تقترب .

فذات مساء ، كان ماريوس يتخذ سبيله في جادة الانفاليد إلى لقاء الحبيبة . وكان من دأبه ان يسير مطأطىء الرأس ، وفيما هو ينعطف عند زاويـة شارع بلوميه سمع رجلا يقول على مقربة دانية منه :

ـ « مساء الخير ، يا مسيو ماريوس . »

ورفع رأسه ، فتبيّن ايبونين .

وخلّف ذلك اثراً فريداً في نفسه . إنـه لم يفكر مرة بهذه الفتاة منذ اليوم الذي قادته فيه إلى شارع بلوميه ؛ إنه لم يرها كرة ثانية قـط ، وكانت قد امّحت من ذهنه بالكلية . كان لا يحمل لها إلا عاطفة اعتراف بالجميل ، فقد كان مديناً لهـا بسعادته الحاضرة ، ومع ذلك فقد ازعجه لقاؤها .

من الخطـأ الافتراض ان العاطفة ، حين تكون سعيدة وطـاهرة ، تقود المرء إلى حال من الكمال ؛ إنها تقوده بكل بساطة ، كما قلنـا من قبل ، إلى حال من النسيان . وفي هذا الوضع ينسى المرء ان يكون طالحـاً ، ولكنه ينسى أيضاً ان يكون صالحـاً . ان الاعتراف بالجميل ، والواجب ، والذكريات الأساسية والمزعجة لتتلاشى . ولو قد التقى ماريوس بأيبونين في ايمـا وقت آخر إذن لـكان شعوره نحوها مختلفـاً بالمرة . إنـه وقد استغرق في التفكير بكوزيت لم ينتبه انتباهاً واضحاً حتى إلى ان اسم ايبونين هـذه كان ايبونين تيناردييه ، وانهـا كانت تحمـل اسماً مكتوباً في وصية أبيه ، اسماً كان خليقاً بـه ، قبل بضعة اشهر ، ان يتفانى في الاخلاص له بحرارة وحماسة . إننا نصور ماريوس كما قد كان تماماً . لقد زال ابوه نفسه ، بعض الشيء ، من وجدانـه تحت سناء حبه .

واجاب في شيء من الارتباك :

– « ماذا ؟ هذا أنت ، يا ايبونين ؟ »

– « لماذا تخاطبني بمثل هذه الصرامة ؟ هل عملت لك شيئاً ؟ »

واجاب :

– « لا . »

ولم يكن لينقم عليها شيئاً ، من غير ريب . لا ، كانت النقمة عليها أبعد شيء عن فؤاده . كل ما هنالك انه استشعر أن ليس في مكنته ان يتحدث إلى ايبونين – بعد ان همس في اذن كوزيت – غير حديث بارد.

واذ التزم الصمت ، صاحت :

– « قل لي الآن ... »

ثم سكتت . لقد بدا وكأن الكلمات خانت هذه المخلوقة التي كانت في وقت ما ، وقحة غير مبالية إلى ابعد الحدود . وحاولت ان تبتسم ، فلم تستطع . واردفت :

– « حسناً ؟ ... »

ثم اعتصمت بالصمت كرة اخرى ، ووقفت مطرقة بعينيهـــا إلى الارض .

وفجأة قالت :

– « مساء الخير ، يا مسيو ماريوس . »

ومضت لسبيلهـا .

٤
العربة تجري في الانكليزية وتعوي في لغة السوقة

وفي اليوم التالي – وكان اليوم الثالث من حزيران ، الثالث مـــن حزيران عام ١٨٣٢ وهو تاريخ ينبغي أن ننص عليه بسبب من الحوادث

الخطيرة التي كانت تتدلى فوق افق باريس كالسحب المشحونة بالرعد ــ كان ماريوس يتخذ بعد هبوط الليل تلك الطريق نفسها التي اتخذها البارحة ، وقد اعتلجت في فؤاده الأفكار الجذلى نفسها ، عندما لاحظ ، بين اشجار الجادة ، ان ايبونين تقترب منه . وكان في تكرر ذلك مرتين متواليتين شيئاً فوق ما يحتمله . فاستدار مسرعاً ، وغادر الجادة ، مغيراً طريقه ، قاصداً إلى شارع بلوميه من خلال شارع « لو مسيو » .

فما كان من ايبونين إلا أن لحقت به إلى شارع بلوميه ، وهو شيء لم تقم به قط من قبل . كانت تكتفي حتى ذلك الحين بأن تراه يتخذ طريقه في الجادة من غير أن تسعى حتى إلى الاجتماع به . وفي الليلة البارحة ، فحسب ، كانت قد حاولت ان تتحدث اليه .

لقد تبعته ايبونين إذن ، من غير ان يشعر هو بذلك . ورأته يدفع قضيب الباب الحديدي جانباً ، وينسلّ إلى الحديقة .

وقالت :

ــ « ولكن ... إنه يدخل المنزل . »

واقتربت من الباب الحديدي ، ومست القضبان واحداً بعد آخر ، وفي سهولة اكتشفت ذلك القضيب الذي سبق لماريوس ان أزاحه .

وغمغمت هامسة ، وفي نبرة فاجعة :

ــ « لن يتم شيء من ذلك ، يا ليزيت ! »

وجلست على أساس الباب الحديدي ، قريباً جداً من ذلك القضيب ، وكأنما كانت تحرسه . كان ذلك عند تلك النقطة التي التقى فيها الباب الحديدي بالجدار المجاور مباشرة . كانت ثمة زاويةٌ مظلمة استطاعت ايبونين أن تختبىء فيها اختباء تاماً .

وظلت على هذه الحال اكثر من ساعة ، من غير ان تتحرك ، أو تتنفس ، فريسةً لافكارها الخاصة .

وحوالى الساعة العاشرة مساء ، التزم سياجَ الحديقة واحدٌ من عابري

السبيل الاثنين أو عابري السبيل الثلاثة في شارع بلوميه — وهو بورجوازي عجوز متأخر عن موعده فهو يسرع الخطى في ذلك المكان المهجور الرديء السمعة. حتى إذا انتهى إلى تلك الزاوية التي شكلها الباب الحديدي مع الجدار، سمع صوتاً مهدداً نكداً يقول:

— «انا لن اعجب بعد اليوم إذا ما جاء كل ليلة!»

وأجال عابر السبيل بصره في ما حوله، فلم ير أحداً، ولم يجرؤ على النظر إلى تلك الزاوية المظلمة، فقد كان مروعاً جداً. وضاعف سرعة خطوه.

وكان من حق هذا الشخص ان يسرع، إذ دخل شارع بلوميه، بعد لحظات قلائل، ستة رجال كانوا يسيرون على انفراد، وقد فصلت ما بين احدهم والآخر مسافة ما، في محاذاة الجدار، على نحو قد يوهم المرء بأنهم حرس نشوان بعض الشيء.

حتى إذا انتهى أولهم إلى باب الحديقة الحديدي وقف وانتظر سائر الجماعة. وما هي إلا ثانية حتى كان الستة كلهم قد اجتمعوا.

وشرع هؤلاء الرجال يتحدثون في صوت خفيض.

وقال واحد منهم:

— «إنه هنا.»

وتساءل آخر:

— «هل يوجد عربة* في الحديقة؟»

— «لست أدري. وعلى كل حال فقد جئت برصاصة سوف تجعله يأكل:»

— «هل عندك معجون مثبت لكسر النافذة؟»**

* العربة في لغة السوقة: تعني الكلب.

** ذلك ان هذا المعجون المثبت (اللاقونة) يمسك الزجاج، أثناء كسر النافذة، ويمنع الضجة.

— « نعـم . »
واضاف خامس كان ذا صوت أشبه بصوت المتكلم من بطنه :
— « الباب الحديدي عتيق . »
فقال الثاني الذي سبق له ان تكلم :
— « هذا أفضل . إنـه لن يصرخ تحت المنشار . ولن يكون مـن العسير قطعـه . »

وشرع السادس ، الذي لم يكن قد فتح فمـه بعد ، يفحص الباب الحديدي كما فعلت ايبونين قبل ساعة ، ممسكاً بكل قضيب من قضبانه على التعاقب ، هازاً إياه في عناية . وعلى هـذا النحو انتهى إلى القضيب الذي كان ماريوس قد اقتلعه . ولم يكد يمسك بهذا القضيب حتى سقطت على ذراعه يد انبثقت فجأة من الظلام ، واستشعر انه يُدفع من وسط صدره دفعاً عنيفاً إلى الوراء . وقال له صوت أبـحّ من غير ان يصيح :
— « هناك عربة » (كلب)

وفي الوقت نفسه رأى فتاة شاحبة الوجه واقفـة أمامه .

واستشعر الرجل ذلك الارتجاج الذي تبعثه الاشياء غير المتوقعة دائماً . وتنمّر على نحو مروّع . فليس ادعى إلى الرعب من رؤية الوحوش الضارية مغتاظة ؛ إن منظرها وهي مرعوبة يوقع الرعب في النفس . وارتـد إلى الوراء ، وغمغم :
— « من هـذه المخلوقـة ؟ »
— « ابنتك . »

وفي الحق ان ايبونين هي التي كانت تتحدث مع تيناردييه .

ولدن ظهور ايبونين اقترب الخمسة الآخرون ، يعني كلاكسـو ، وغولوميه ، وبابيه ، ومونبارناس ، وبروجون ، من غير ضجـة ، ومن غير عجلة بالغة ، ومن غير ان يقولوا كلمة واحدة . لقد اقتربوا بذلك البطء المشؤوم المميز لرجال الليل هؤلاء .

وفي أيديهم كان في ميسور المرء ان يتبين بعض الادوات الرهيبة الغريبة . وكان غولوميه يحمل واحداً من تلك الكلاليب الملوية التي يدعوها المطوفون بالليل Fanchons .

وهتف تيناردييه على قدر ما يستطيع امرؤ ان يهتف في همس :

— « آي ، هاي ، ماذا تفعلين هناك ؟ اي شيء تريدينه منا ؟ هل أنت مجنونة ؟ لماذا تجيئين إلى هنا وتعترضين عملنا ؟ »

وشرعت ايبونين تضحك ، ووثبت إلى عنقه .

— « انا هنا ، يا ابي الحبيب ، لأني هنا . هل ثمة قانون يحرم الجلوس على الحجارة في هذه الايام ؟ إنك انت الذي ما كان ينبغي ان تكون هنا . ما الذي جاء بك إلى هنا ما دامت المسألة « بسكويتة » ؟ لقد قلت ذلك لمانيون . ليس هنا شيء يُعمل . ولكن عانقني الآن ، يا أبي الطيب العزيز ! ما اطول المدة التي حُرمت فيها النظر اليك ! لقد خرجتَ اذن ؟ »

وحاول تيناردييه ان يتحرر من ذراعي ايبونين ، وغمغم :

— « حسن جداً . لقد عانقتني . أجل ، لقد خرجت . أنا لم أعد داخل الجدران . والآن ، اذهبي . »

ولكن ايبونين لم تدع أباها يفلت من بين ذراعيها ، وضاعفت ملاطفاتها له :

— « يا والدي الحبيب ، كيف فعلت ذلك ؟ لا ريب في انك تسلحت بكثير من الذكاء حتى خرجت من هناك ! اخبرني عن ذلك ! وأمي ؟ أين امي ؟ أعطني بعض الأخبار عن أمي . »

وأجاب تيناردييه :

— « إنها في خير . لست أدري . دعيني . اقول لك اذهبي . »

وقالت ايبونين في غنج ولد مدلل :

— « انا لا اريد ان اذهب في هذه اللحظة . انت تطردني بعد ان

انقضى عليّ اربعة اشهر لم أرك فيها . وقبل ان اجد متسعاً من الوقت لمعانقتك . »

وأمسكت أباها كرة اخرى من عنقه .

وقال بابيه :

— « آه ، كفى ، هذا حمق ! »

وقال غولوميه :

— « فلنسرع ! إن رجال الشرطة قد يمرون . »

وانشد ذو الصوت البطيّ هذين البيتين :

ليس هذا اول يوم في السنة الجديدة
حتى نعانق بابا وماما عناقاً حاراً

والتفتت ايبونين إلى قطاع الطرق الخمسة :

— « ولكن ، هذا مسيو بروجون . نهارك سعيد ، يا مسيو بابيه . صباح الخير ، يا مسيو كلاكسو . ألا تذكرني ،يا مسيو غولوميه ؟ كيف حالك ، يا مونبارناس ؟»

فقال تيناردييه :

— « نعم . انهم يعرفونك . ولكن طاب يومك طاب مساؤك . أغربي من هنا ! لا تزعجينا ! »

فقال مونبارناس :

— « هذه ساعة الثعالب ، لا ساعة الدجاج ! »

وأضاف بابيه :

— « انت ترين أننا نعتزم ان نشتغل هنا ... »

وأمسكت إيبونين بيد مونبارناس :

وقال :

— « انتبهي . قد تجرحين نفسك . إن معي سكيناً مفتوحة . »

فأجابت ايبونين في رقـة بالغة :

— « يا صغيري، مونبارناس . ينبغي ان تكون لنا ثقة بالناس . انا ابنة أبي ، ربمـا . مسيو بابيه ، مسيو غولوميه ، إني انا التي كُلفت باجراء البحث حول هذه المسألة . »

ومما يلفت النظر ان ايبونين لم تتكلم لغة السوقة . فمنذ ان عرفـت ماريوس ، أمست تلك اللغة الرهيبة متعذرة عليها .

وضغطت بيدها الصغيرة — العَظْميّة الضعيفة مثل يد جيفة — عـلى اصابع غولوميه الخشنة الضخمة ، وأضافت :

— « انت تعرف جيداً اني لست مجنونة . ان الناس يحسبونني كذلك في الاغلب . ولقد اديت اليك خدمة في بعض الاحيان . حسن، لقد جمعت كافة المعلومات عن هذه المسألة ، وانت قد تعرض نفسك للخطر ، على غير طائل . أفهمت ؟ أقسم لك انه ليس ثمة ما تستطيعون أن تعملوه في هذا البيت . »

فقال غولوميه :

— « هناك نسوة متوحـدات . »

— « لا . إن ساكنيه قد انتقلوا . »

فقال بابيه :

— « ولكن الشموع لم تنتقل على كل حال . »

ولفت نظر ايبونين ، من خلال رؤوس الاشجار ، إلى ضوء كان يتحرك في عليّة البيت الصغير . كانت هي توسين ، استيقظت من رقادها لكي تنشر ثيابه فتجف .

وبذلت ايبونين جهداً أخيراً .

وقالت :

— « حسناً ، إنهم قوم فقراء جداً . وإنـه لكوخ ليس فيه فلس واحـد . »

وصاح تيناردييه :

— « اذهبي إلى الجحيم . وحين نقلب البيت رأساً على عقب ، وحين نجعل القبو في الأعلى ، ونجعل العلّية في الاسفل ، نخبرك ما الذي وجدناه في الداخل ، وما إذا كانت فرنكات ، ام فلوساً ، ام ارباع فلوس . »

ودفعها لكي يمر .

وقالت :

— « يا صديقي العزيز مسيو مونبارناس . اتوسل اليك ، انت الولد الطيب ، ان لا تدخل إلى هناك . »

فأجاب مونبارناس :

— « احذري . سوف تجرحين نفسك . »

واضاف تيناردييه في لهجة حاسمة :

— « اغربي ، ايتها البنت ، ودعي الرجال يقومون بعملهم ! »

وخلّت يد مونبارناس ، التي كانت قد امسكت بها مرة ثانية ، وقالت :

— « سوف تدخل إلى المنزل اذن ؟ »

فقال ذو الصوت البطنيّ ، في ضحكة ساخرة :

— « بعض الشيء ! »

ثم اسندت ظهرها إلى الباب الحديدي ، وواجهت قطاع الطرق الستة المدججين بالسلاح ، والذين خلع عليهم الليل وجوهاً كوجوه الابالسة ، وقالت في صوت خفيض وثابت :

— « حسن . انا لا أريد ذلك . »

ووقفوا مشدوهين . أما ذو الصوت البطني فأكمل ضحكته الساخرة . واردفت :

— « ايها الأصدقاء . أصغوا الي ! ليس هذا هو المقصود . الآن سأتكلم . قبل كل شيء إذا دخلتم الحديقة ، إذا لمستم هذا الباب

الحديدي ، فسوف اصرخ ؛ سوف أدق على الابواب ؛ سوف اوقظ كل انسان من نومه ؛ سوف ادعو السلطة إلى اعتقالكم جميعاً ، انتم الستة ؛ سوف انادي الشرطة . »

وفي صوت خفيض قال تيناردييه لبروجون ولصاحب الصوت البطني :

— « إنها لن تتورع عن ذلك . »

وهزت رأسها ، وأضافت :

— « وسأبدأ بأبي ! »

واقترب تيناردييه .

وقالت :

— « لا تقترب إلى هذا الحد ، ايها الرجل الطيب ! »

ونكص على عقبيه ، مغمغماً من بين أسنانه .

— « ولكن ، ماذا دهاها ؟ »

ثم اضاف :

— « كلبة ! »

وانشأت تضحك في طريقة فظيعة :

— « كما تريد ، انك لن تدخل ، انا لست ابنة كلب ، لانني ابنة ذئب . أنتم ستة . وما يهمني ذلك ؟ انتم رجال . حسناً ، إنني امرأة . أنا لست خائفة منكم ، ولو قليلا . اقول لكم انكم لن تدخلوا إلى هذا المنزل ، لأن ذلك لا يروق لي . وإذا تقدمتم ، فسوف أنبح . لقد قلت لكم ، انا ال « العربة » * . انا لا ابالي بكم . امضوا في سبيلكم ، فانكم تزعجونني ! اذهبوا حيث شئتم ، ولكن لا تأتوا إلى هنا . انا امنع ذلك . إن معكم سكاكين ، أما انا فعندي قدمان ويدان . لا فرق . والآن تقدموا ! »

وخطت خطوة نحو قطاع الطرق . كانت فظيعة . وبدأت تضحك .

---

* الكلب .

— « يا للشيطان ! أنا لست خائفة . هذا الصيف ، سوف أتضور من الجوع . وهذا الشتاء ، سوف ارتعد من البرد . هل هم مجانين ، هؤلاء الرجال المغفلون ، حتى يعتقدوا أن في امكانهم أن يخيفوا فتاة ! ومن اي شيء ! خائفة ؟ آه ، يا سلام ، حقاً ! لأن عندكم خايلات شريرات يختبئن تحت الفراش عندما ترفعون أصواتكم . ولكن هذا لن يفيدكم هنا . أنا لست خائفة من شيء ! »

وأبقت عينها مسمرة على تيناردييه ، وقالت :

— « وحتى منك انت ! »

ثم تابعت ، مجيلة حدقتيها الشبحيتين الداميتين في قطاع الطرق :

— «وماذا يضيرني سواء انتشلوني غداً عن حصباء شارع بلوميه وقد ضربني أبي بهراوته حتى الموت ، او عثروا عليّ بعد عام في خنادق سان كلو ، أو في « جزيرة البجع » ، وسط الخيارات العتيقة الفاسدة والكلاب الميتة ؟ »

واضطرت إلى الصمت ، فقد استبد بها سعال جاف ، وخرج نفسها كالحشرجة من صدرها الضيق الضعيف .

واردفت قائلة :

— « صيحة واحدة اطلقها وعندئذ تجيئون في الحال ! انتم ستة ، اما أنا فالناس جميعاً . »

وتحرك تيناردييه في اتجاهها .

وصاحت :

— « حذار أن تقترب ! »

ووقف تيناردييه ، وقال لها في رقة :

— « حسن . لا ، لن اقترب . ولكن لا تتكلمي بمثل هذا الصوت المرتفع . انك تريدين ، اذن ، أن تعوقينا عن عملنا ، يا ابنتي ؟ ومع ذلك فأن علينا ان نكسب رزقنا . ألم يعد في قلبك

اي حب لأبيك ؟ »
فقالت ايبونين :
— « انت تضجرني . »
— « ومع ذلك ، فأن علينا ان نعيش ، إن علينا أن نأكل ... »
— « موتوا . »
قالت ذلك ، وجلست على اساس الباب الحديدي ، متغنية بصوت خفيض :

« إن ذراعي بضة جداً ،
وان ساقي حسنة التكوين ،
ومع ذلك فوقتي ضائع مهدور . »

كان مرفقها على ركبتها ، وذقنها في يدها ، وكانت تذبذب قدمها في سيما من اللامبالاة . كان ثوبها مليئاً بالثقوب ، وكان يكشف عن ترقوتيها المهزولتين . واضاء المصباح المجاور صورتها الجانبية ووضعها العام . كانت اشد ما يكون المرء عزماً وادعى إلى الدهشة .

أما السفاحون الستة ، وقد أذلهم وأيأسهم ان تصدهم عن سبيلهم فتاة صغيرة ، فقد مضوا تحت ظل المصباح الواقي ، وتشاوروا في الأمر وهم يهزون اكتافهم هزة ذليلة وضارية .

وراقبتهم ، خلال ذلك ، في سيماء هادئة ولكنها رهيبة .
وقال بابيه :
— « هناك شيء ما . هناك سبب . أهي واقعة في غرام «العربة» ؟ ومع ذلك فمن المؤسف ان نخسرها . أمرأتان ، وعجوز يعش في فناء خلفي . إن هناك ستائر لا بأس بها على النوافذ . ولا شك في أن الرجل العجوز يهودي . احسب ان الصفقة رابحة . »
فهتف مونبارناس :

* الكلب .

— « حسن ، ادخلوا أنتم . قوموا بالمهمة . سوف أبقى أنا هنا مع الفتاة ، وإذا ما تحركت ... »

وجعل المدية المفتوحة التي كانت في يده تتوهج تحت ضوء المصباح .

ولم ينطق تيناردييه بكلمة ، وبدا مستعداً لكل شيء .

أما بروجون ، الذي كان شبه هتاف من هتافات الآلهة ، والذي كان كما نعلم قد رتب المسألة ،فلم يكن قد نبس بحرف . كان يبدو مستغرقاً في التفكير . وكان معروفاً بعدم التراجع في وجه شيء ما ، وكانت الجماعة كلها تعلم انه نهب ذات يوم ، لمجرد الاعتزاز ، مركزاً من مراكز البوليس . وإلى هذا ، فقد كان ينظم الشعر والاناشيد ، وذلك ما أمده بسلطان عظيم .

وسأله بابيه :

— « انت لا تقول شيئاً ، يا بروجون ؟ »

واعتصم بروجون بالصمت لحظة اخرى ، ثم هز رأسه على انحاء متعددة مختلفة ، واخيراً قرر ان يتكلم .

— « اسمع : لقد لقيت هذا الصباح عصفورين من عصافير الدوري يتقاتلان . وهذا المساء اصطدمت بامرأة مخاصمة . وهذا كله يؤذن بالشر . فلنمض لسبيلنا . »

ومضوا لسبيلهم .

وفيما هم يمضون ، غمغم مونبارناس :

— « لا بأس . لو انهم وافقوا ، لجعلتها تحس ثقل يدي . »

رأجابه بابيه :

— « أما انا فما كنت لأفعل ذلك . أنا لا اضرب سيدة . »

وعند زاوية الشارع ، وقفوا وتبادلوا هذا الحوار الملغز في صوت مخنوق :

— « اين سننام هذه الليلة ؟ »

— « تحت باريس . »

— « هل مفتاح الباب الحديدي معك ، يا تيناردييه ؟ »

— « اجل . »

ورأتهم ايبونين — التي لم ترفع عينيها عنهم — يرجعون من حيث جاءوا . ونهضت وشرعت تزحف في محاذاة الجدران والبيوت من خلفهم . لقد لحقت بهم حتى الجادة . وهناك افترقوا ، ورأت هؤلاء الرجال يغرقون في الظلمة التي بدوا وكأنهم قد ذابوا فيها .

٥
أشياء الليل

بعد انصراف قطاع الطرق ، استعاد شارع بلوميه مظهره الليلي الساجي .

إن ما قد حدث خلال تلك اللحظة في ذلك الشارع ما كان له ان يدهش غابة . إن الاشجار ، والأدغال ، ومنابت الخلنج ، والاغصان المتداخلة في شراسة ، والاعشاب الطويلة لتتسم بوجود قاتم . وان هذه الجمهرة الوحشية لتشهد هناك رؤى مفاجئة من اللامنظور . هناك ، ومن خلال الظلمة ، يتبين ما تحت الانسان ما فوق الانسان ، وهناك في الظلام تلتقي الاشياء التي نجهلها نحن الأحياء . والطبيعة الشائكة الشقراء لتذهل عند بعض المنافذ حيث يبدو انها تلمس الخارق وغير الطبيعي . إن قوى الظلام يعرف بعضها بعضاً ، وإن لها في ما بينها موازنات غريبة . إن الاسنان والبراثن لتخشى اللاملموس . والوحشية الظامئة إلى الدم ، والشهوات الجائعة المتلمسة للفريسة ، والغرائز المسلحة بالاظفار والانياب والتي لا أصل لها ولا غاية غير البطن ، ترى وتستروح ،

في قلق . تلك الاسارير الشبحية الثبتة الجنان تطوّف تحت كفن ، قائم في ثوبه الداكن المرتعد ، البادي لهم وكأنه يحيا حياة ميتة رهيبة . وهذه القطائع ، التي لا تعدو ان تكون مادة ، تخشى اشد الخشية ان تكون لها ايما علاقة بالظلمة اللامحدودة المكثفة في كائن مجهول . . إن صورة سوداء صادة عن السبيل لتوقف الوحش الضاري فجأة . فذلك الذي يخرج من المقبرة ليرهب ذلك الذي يخرج من الكهف ويُحبط تدبيره . إن الضاري ليخاف المشؤوم ، والذئاب تتراجع في وجه غول من الغيلان .

٦
ماريوس يصبح واقعياً الى درجة تجعله يقدم عنوانه الى كوزيت

فيما كانت تلك الكلبة ذات الصورة البشرية تقوم بعبء الحراسة أمام الباب الحديدي ، وفيما كان قطاع الطرق الستة يولون الأدبار أمام فتاة من الفتيات ، كان ماريوس مع كوزيت .

لم تكن السماء في ايما وقت مضى أحفل بالنجوم ولا اكثر فتنة ، ولم تكن الاشجار اكثر ارتعاشاً ، وعبق الاعشاب اشد نفاذاً ؛ لم تأو الطيور للنوم بين اوراق الشجر ، في ايما وقت مضى ، بصوت ارق وانعم ؛ ولم تستجب جميع انسجامات الصفاء الكوني في ايما وقت مضى بأحسن مما استجابت لموسيقى الحب الباطنية ؛ ولم يكن ماريوس في ايما وقت مضى أبعد هياماً ، واكثر سعادة ، واعمق نشوة روحية . ولكنه كان قد ألفى كوزيت محزونة . كانت كوزيت تبكي . وكانت عيناها حمراوين .

كانت هذه اول سحابة في ذلك الحلم الرائع .

وكانت أول كلمة فاه بها ماريوس :

— « ما بكِ ؟ »

— « انظر . »

ثم جلست على المقعد المجاور للسلم ، وفيما هو يتخذ مجلسه مرتعد الاوصال إلى جانبها ، اضافت قائلة :

— « لقد انبأني ابي هذا الصباح ان اكون على استعداد ، وان لديه اشغالا ، واننا قد نضطر إلى الرحيل . »

وارتجف ماريوس من قمة رأسه إلى اخمص قدميه .

فحين نكون في خاتمة الحياة يؤدي الموت معنى الفراق . وحين نكون في مستهل الحياة يؤدي الفراق معنى الموت .

منذ ستة اسابيع وماريوس يمتلك كوزيت شيئاً بعد شيء ، وعلى مهل ، ودرجة اثر درجة . امتلكها امتلاكاً مثالياً كاملا ، ولكنه عميق. وكما ذكرنا من قبل ، فاننا في الحب الأول نستولي على النفس قبل الجسد بكثير ، اما في ما بعد فاننا نستولي على الجسد قبل ان نستولي على النفس بكثير . وفي بعض الاحيان لا يتم الاستيلاء على النفس البتة . ويضيف الفوبلاويون * والبرودوميون ** قائلين : لأنه لا توجد نفس على الاطلاق . ولكن السخرية هي ، لحسن الحظ ، تجديف . اذن فقد امتلك ماريوس كوزيت كما تمتلك العقول . ولكنه احاطها بروحه كلها وتشبث بها ، في غيرة ، بيقين لا سبيل إلى تصديقه . لقد امتلك ابتسامتها ، وانفاسها ، ورياها ، واشعاع عينيها الزرقاوين العميق ونعومة بشرتها حين مس يدها ، والعلامة الفاتنة التي كانت على جيدها ، وافكارها كلها . كانا قد تعاهدا على ان لا يأويا للرقاد ابداً من غير ان

* نسبة الى فوبلا Faublas (أو غراميات فارس فوبلا) وهي رواية شهيرة من تأليف لوفيه دو كوفراي . وهي تصور أخلاق القرن الثامن عشر السيئة تصويراً حقيقاً .

** نسبة الى برودوم Prudhomme وهو شخصية نموذجية تمثل العجز المغرور ، والابتذال الأستاذي ، كما اظهرها هنري مونيه Monnier في كتابه مذكرات جوزيف برودوم ١٨٥٧ .

بحلم احدهما بالآخر ، ولقد أوفيا بعهديهما . لقد امتلك احلام كوزيت كلها . لقد تأمل في غير ملل ، - وفي بعض الاحيان كان يمس بأنفاسه - تلك الشعرات القصار التي على موُخر عنقها ، وقال في ذات نفسه انه ليس بين هذه الشعرات القصار واحدة لا يملكها هو ، ماريوس؟ كان يرنو ملطفاً إلى ما تلبسه ، إلى عقدة وشاحها ، إلى قفازيها ، إلى الزينة التي ازدان بها طرفا كميها ، إلى حذائها العالي ذي الرباط ، وكأنها اشياء مقدسة هو المهيمن عليها . لقد ظن انه السيد على هذه الامشاط الصدفية الجميلة التي انبثت في شعرها ، بل لقد قال في ذات نفسه - وهي تمتمات خفية مشوشة للذة أشرقت شمسها - انه لم يكن ثمة خيط في ثوبها ، أو عقدة في جوربها ، أو طية في مشدها ليست له . كان إذا جلس إلى جانب كوزيت يستشعر انه جالس إلى جانب ثروته ، إلى جانب شيء يملكه ، إلى جانب طاغيته ، إلى جانب رقيقه . لقد بدا وكأن نفسيهما قد امتزجتا امتزاجاً بعيداً بحيث لو رغبا في فصلهما اذن لتعذر على المرء ان يميز احداهما عن الاخرى . - « هذه لي . » - « لا ، هذه لي .» - « اؤكد لك انك مخطيء . هذا انا من غير شك»، - « ان ما تحسبه نفسك هو أنا » . كان ماريوس شيئاً يؤلف جزءاً من كوزيت ، وكانت كوزيت شيئاً يؤلف جزءاً من ماريوس . واستشعر ماريوس ان كوزيت تعيش في ذات نفسه . كان فوزه بكوزيت ، وامتلاكه لكوزيت لا ينفصلان ، عنده ، عن تنفّسه . وفي غمرة من هذا الايمان ، من هذا الشمل ، من هذا الامتلاك البتولي ، الفذ المطلق ، من هذه السيادة ، رنت في مسمعيه فجأة هذه الكلمات : « سوف نرحل » . وصاح صوت الحقيقة الفظ مخاطباً اياه : « كوزيت ليست لك ! »

واستيقظ ماريوس . لقد عاش طوال اسابيع ستة ، كما قلنا من قبل ، خارج الحياة . فما كان من هذه الكلمة ، « الرحيل » ، إلا ان اعادته اليها في خشونة .

ولم يجد كلمة يقولها . وقالت له بدورها :

— « ما بك ؟ »

فأجابها بصوت خفيض جداً لم تسمعه كوزيت إلا في عسر :

— « لست أفهم ما قلت . »

ثم اضافت :

— « هذا الصباح قال لي والدي ان ارتب جميع اشيائي الصغيرة وان اكون على استعداد . وانه سوف يعطيني ثيابه لكي اضعها في صندوق للأمتعة، وانه مضطر للسفر ، واننا سوف نرحل ، وان علي ان اعد صندوقاً كبيراً لأمتعتي وصندوقاً صغيراً لأمتعته ، وان اهيء هذا كله في مدى اسبوع ، واننا قد نذهب إلى انكلترة . »

فصاح ماريوس :

— « ولكن هذا شيء رهيب ! »

ومن الثابت انه ما من استبداد ، ما من عنف ، ما من كراهية لأشد الطغاة وحشية ، ما من عمل من أعمال بوزيريس * ، أو طيباريوس ، أو هنري الثامن ، كانت في تلك اللحظة ، تعدل في ذهن ماريوس وحشية هذا الامر الفظيع : أن مسيو فوشلوفان يعتزم ان يأخذ ابنته إلى انكلترة لأن لديه بعض الاعمال .

وسألها في صوت واهن :

— « ومتى ستنطلقان ؟ »

— « إنه لم يقل متى . »

— « ومتى سترجعان ؟ »

— « إنه لم يقل متى . »

ونهض ماريوس ، وقال في برود :

— « كوزيت ، وهل ستذهبين ؟ »

* ملك اسطوري من ملوك مصر ، ذكروا أنه كان يقتل على مذبح آلهته جميع الاجانب الذين يدخلون الى مملكته . وقد قضى عليه هرقل آخر الأمر .

وادارت كوزيت نحوه عينيها الجميلتين الطافحتين بالالم المرير ، واجابته في ضرب من الذهول :

— « إلى أين ؟ »

— « إلى انكلترة ؟ هل ستذهبين ؟ »

— « لماذا تتحدث إليّ هكذا ؟ »

— « انا اسألك ما إذا كنت ستذهبين ؟ »

فقالت وهي تشبك يديها :

— « وماذا تريدني ان افعل ؟ »

— « اذن ، فسوف تذهبين ؟ »

— « إذا ما ذهب ابي ؟ »

— « اذن ، فسوف تذهبين ؟ »

وأمسكت كوزيت بيد ماريوس ، وضغطت عليها من غير ان تجيب .

وقال ماريوس :

— « حسن جداً . اذن ، فسوف اذهب إلى مكان آخر . »

لقد استشعرت كوزيت معنى هذه الكلمة اكثر مما فهمتها . وران الشحوب على وجهها حتى غدا ابيض في الظلام . وتمتمت :

— « ماذا تعني ؟ »

ونظر ماريوس اليها ، ثم رفع عينيه في بطء نحو السماء وأجاب :

— « لا شيء . »

حتى إذا خفض عينيه ، رأى كوزيت تبتسم له . ان لابتسامة المرأة التي نحبها بريقاً في ميسورنا ان نراه ليـــلا .

— « ما اشد بلاهتنا ! ماريوس ، عندي فكرة . »

— « مـاذا ؟ »

— « إذهبْ إذا ذهبنا ! سوف اقول لك إلى اين ! ولسوف تتبعني حيث اذهب . »

كان ماريوس ، الآن ، رجلا كامل اليقظة . كان قد ارتد إلى الحقيقة . وصاح قائلا لكوزيت :

— « اذهب معك ؟ اجنونة انت ؟ ولكن ذلك يحتاج إلى مال ، وليس معي شيء منه ! اذهب إلى انكلترة ؟ ولكني مدين الآن — لست أدري — باكثر من عشر ذهبيات لويسية لكورفيراك ، احد اصدقائي الذين لا تعرفينهم ! ولكن عندي قبعة عتيقة لا تساوي ثلاثة فرنكات ، عندي سترة ذهبت بعض الازرار من صدرها ، وقميصي ممزق كله ، ومرفقاي مهترئان ، وحذائي ينفذ اليه الماء . ومنذ ستة اسابيع لم افكر في ذلك قط ، ولم اذكر لك شيئاً عن ذلك . كوزيت ! أنا رجل بائس ! انت لا تريني إلا تحت جنح الظلام ، وانت تمنحينني حبك . ولو قد رأيتني في النهار اذن لما أعطيتني فلساً واحداً . أذهب إلى انكلترة ؟ آه ، أنا لا املك ما ادفع به نفقات الجواز ! »

وطرح نفسه على شجرة مجاورة ، واقفاً وذراعاه فوق رأسه ، وجبينه إلى لحاء الشجرة ، غير شاعر بالشجرة التي خدشت بشرته ، أو بالحمى التي راحت تضرب صدغيه بمثل المطارق . بلا حراك ، موشكاً أن يقع . وكأنه تمثال اليأس .

وظل على ذلك فترة طويلة . وقد يبقى المرء في مثل هذه الهُوّى إلى ما لا نهاية . واخيراً استدار . لقد سمع خلفه صوتاً صغيراً مخنوقاً ، صوتاً رقيقاً محزوناً .

كانت كوزيت تنتحب .

لقد سلخت اكثر من ساعتين وهي تبكي ، فيما كان ماريوس مستغرقاً في التفكير .

واقبل نحوها ، وانحنى على ركبتيها ، ثم خر وئيداً وأمسك بمقدم حذائها المنبثق من تحت ثوبها ، وقبّله .

وتركته يفعل ذلك في صمت . فهناك لحظات ترتضي فيها المرأة ،

مثل إلاهة كئيبة مستسلمة ، دينَ الحب .

وقال :

— « لا تبكي . »

وغمغمت :

— « إني افعل لأني قد ارحل ، وليس في استطاعتك ان تذهب معي . »

وأضاف :

— « أتحبينني ؟ »

فأجابته بأن زفرت تلك الكلمة التي تحمل روائح الجنة ، والتي تكون على اعظم قدر من السحر حين تنطلق من خلال الدموع :

— « أنا اعبدك ! »

وأردف في جرس كان ينطوي على ملاطفة لا سبيل إلى التعبير عنها :

— « لا تبكي . قولي لي . اتريدين ان تكفّي عن البكاء من اجلي ؟ »

وقالت :

— « اتحبني انت ايضاً ؟ »

وأمسك بيدها :

— « كوزيت ، لم يسبق لي قط ان اعطيت كلمة الشرف إلى امرىء ما ، لأن كلمة الشرف توقع الرعب في قلبي . إني استشعر ان ابي إلى جانبي . والآن ، أقسم بالشرف الاقدس انك إذا رحلت فسوف أموت . »

كان في النبرة التي نطق بها هذه الكلمات كآبة جليلة وهادئة إلى درجة حملت كوزيت على الارتعاد . لقد استشعرت تلك القشعريرة التي تُنزلها في اوصالنا واقعة حقيقية صارمة تجتاز بها . ونتيجةً لتلك الصدمة كفت عن البكاء .

وقال :

— « والآن ، اسمعي ، لا تتوقعي ان اجيء غداً ! »

— « ولم لا ؟ »

— « لا تتوقعي ان اجيء إلا بعد غد ! »

— « اوه ، ولم لا ؟ »

— « سوف ترين . »

— « اينقضي يوم لا اراك فيه ؟ ولكن ، إن هذا مستحيل ! »

— « دعينا نضحي بيوم واحد ، فقد نكسب حياة كاملة ! »

واضاف ماريوس في همس ، وعلى انفراد :

— « إنه رجل لا يغير أياً من ثيابه ، ولم يستقبل قط ايما امرىء قبل هبوط الظـلام . »

وتساءلت كوزيت :

— « عن اي رجل تتكلم ؟ »

— « انا ؟ انا لم اقل شيئاً . »

— « ما الذي ترجوه إذن ؟ »

— « انتظر إلى ما بعد غد . »

— « أنت تريـد ذلك ؟ »

— « نعم ، يا كوزيت . »

وأمسكت رأسه بيديها الاثنتين ، رافعة نفسها على رؤوس أصابعهـــا لكي تطاله ، محاولة ان ترى أمله في عينيه .

واردف ماريوس :

— « يتراءى لي انه يتعين علي ان اعطيك عنواني . إن شيئاً قـــد قد يحدث ، لسنا ندري . أنا أحيا مع صديق يدعى كورفيراك ، شارع دو لا فيريري ، رقم ١٦ . »

ووضع يده في جيبه واخرج « مدية ــ مبراة » ، وكتب بشفرتها على جص الباب :

« ١٦ شارع دو لا فيريري » .

وفي غضون ذلك ، شرعت كوزيت تنظر إلى عينيه من جديد .

— « قل لي ما هي فكرتك . ماريوس ، إن لديك فكرة . قل لي : اوه ! قل لي لكي اقضي ليلة سعيدة ! »

— « ان فكرتي هي هذه : من المستحيل ان يرغب الله في تفريقنا : انتظريني بعد غـد . »

وقالت كوزيت :

— « ما الذي سأفعله حتى تلك اللحظة؟ انت ، أنت في الخارج ، انت تروح ، وانت تجيء ! ما اسعد الرجال ! أما أنـا فيجب ان أبقى وحدي . أوه ، ما اشد الحزن الذي سيستبد بي ! ما الذي ستعمله مساء غد ، قل لي ! »

— « سوف أحـاول شيئاً . »

— « إذن سوف أتضرع إلى الله ، ولسوف افكر فيك مـن الآن حتى تلك اللحظـة ، رجـاة ان تنجـح . انا لن اوجـه اليك ايمـا سؤال جـديـد ، مـا دمت لا ترغب في أن أفعل ذلك . انت سيدي المطاع . إني سأنفق عشيتي غـداً منشدة موسيقى « اوريبانت » * التي تحبها ، والتي اقبلتَ ذات مساء لـكي تسمعهـا خلـف مصراع نافذتي . أما بعد غـد ، فسوف تأتي باكراً . سوف انتظرك ليلا ، في الساعة التاسعة تماماً . لقد أنذرتك ! أوه ، يا الـهي . كم يحزنني ان تكون الأيام طويلة ! أفهمت : عندما تعلن الساعة التاسعة ، سأكون في الحديقـة . »

— « وأنا ايضاً . »

واستثارتها فكرة واحدة ، وجذبتها تلك التيارات الكهربائية الـتي تجعل المحبين على اتصال مستمر ، وتملأ بالبهجة حتى في أساها ،

---

* Euryanthe أوبرا في ثلاثة فصول . وضعت كلماتها مدام دو شيزي Mm de Chézy ، ووضع موسيقاها ويبر Weber. (١٨٢٣) .

وانكب كل منهما على ذراع الآخر ، من غير ان ينتبها الى ان شفاههما كانت متشابكة فيما كانت اعينهما – الفائضة بالنشوة الروحية والحافلة بالدموع – مركزة على النجوم .

وحين غادر ماريوس الحديقة ، كان الشارع مقفراً . كان ذلك لحظة لحقت ايبونين بقطاع الطرق إلى الجادة .

وفيما كان ماريوس يفكر ورأسه مسند إلى الشجرة ، كانت قد خطرت له فكرة ، فكرة ، اعتبرها هو نفسه ، واأسفاه ، حمقاء مستحيلة . كان قد اتخذ قراراً يائساً .

٧
القلب العجوز والقلب الفتى يتواجهان

كان جيلنورمان الجد قد أتم ، في تلك الفترة ، سنه الحادية والتسعين . وكان لا يزال يحيا مع الآنسة جيلنورمان – شارع فتيات كالفير ، رقم ٦ – في ذلك البيت العتيق الذي كان ملكاً له . كان كما رأينا واحداً من اولئك العجائز العريقين الذين ينتظرون الموت منتصبي القامة ، والذين تثقل الشيخوخة ظهورهم من غير ان تحنيها ، والذين يعجز الغم نفسه عن ان يلويهم .

ومع ذلك ، فمنذ فترة قصيرة كانت ابنته قد قالت : « لقد انحطت قوى ابي . » إنه لم يعد يضرب خدمه ، ولقد أمست عصاه تضرب سطح السلم في حدة اقل ، كلما تأخر « باسك » في فتح الباب . ولم تسخطه ثورة تموز طوال ستة اشهر إلا بشق النفس . وكان قد رأى في الـ « مونيتور » ، وفي هدوء تقريباً ، هذا التزاوج اللفظي : « مسيو هومبلو كونتيه ، احد اعيان فرنسة . » والواقع ان العجوز كان مثقلاً بالضنى . انه لم ينحن ، إنه لم يستسلم ، فلم يكن ذلك لينسجم مع

طبيعته الجسمانية باكثر مما انسجم مع طبيعته الاخلاقية . ولكنه احس بقواه تخور ، باطنياً . لقد سلخ اربع سنوات وهو ينتظر ماريوس ، بقدم راسخة — فهذه هي الكلمة — وملء نفسه ايمان بأن هذا الشقي الصغير الشكس لا بد ان يقرع بابه عاجلا أو آجلا . ولقد انتهى الآن ، في بعض الساعات المظلمة، إلى ان يقول في ذات نفسه: لو ان ماريوس تأخر فترة اخرى ... — لم يكن الموت هو الشيء غير المحتمل عنده ، ولكن خوفه من ان لا يرى ماريوس كرة اخرى . والواقع ان الفكرة القائلة بأنه قد لا يرى ماريوس بعد اليوم لم تخامره ولو لحظة واحدة إلا في ذلك اليوم . أما الآن ، فقد بدأت هذه الفكرة تساوره ، ولقد اوقعت القشعريرة في أوصاله . ذلك ان الغياب ، كالذي يحدث دائماً حين تكون العواطف طبيعية وصادقة لم تزد الجد إلا هياماً بذلك الولد العاق الذي مضى لسبيله على ذلك النحو . ففي ليالي كانون الأول ، حين تهبط الحرارة إلى ما تحت الصفر ، يفكر المرء اكثر ما يفكر في الشمس . وعلى اية حال ، فقد كان مسيو جيلنورمان ، أو خيل اليه انه كان ، عاجزاً عن ان يخطو خطوة — هو الجد — نحو حفيده . لقد قال : « إني اوثر ان اموت قبل هذا . » ولم يجد في موقفه من ماريوس موضعاً للوم ، ولكنه فكر في ماريوس بحنان عميق وبذلك اليأس الأبكم الذي يرين على رجل عجوز طيب يتخذ سبيله في الظلام .

كان قد بدأ يفقد أسنانه ، وذلك مما زاده حزناً على حزن .

والواقع ان مسيو جيلنورمان — من غير ان يعترف بذلك لنفسه ، فقد كان مثل هذا الاعتراف خليقاً بأن يجعله ضارياً وخجلا — الواقع ان مسيو جيلنورمان لم يحب قط خليلة ما بقدر ما أحب ماريوس .

وكان قد علق في غرفته ، عند قدم سريره ، صورة قديمة لابنته الاخرى ، التي توفيت — مدام بونميرسي — بوصفها أول ما يرغب في ان تتكحل به عيناه لحظة يفيق من رقاده ؛ وكانت تلك الصورة تمثلها

وهي في الثامنة عشرة من العمر . وكان من دأبه ان يحدق إلى هـــذه الصورة على نحو موصول . ولقد اتفق له ان قـال ، ذات يوم ، فيما هو ينظر اليهـــا :

— « يبدو لي أن هذه الصورة تشبه الطفل . »

فقالت الآنسة جيلنورمان :

— « تشبه اختي ؟ ولكن طبعـــاً . »

واضاف الرجل العجوز :

— « وتشبهه ايضاً . »

وذات مرة ، فيما كان جالساً ، وركبتاه متلاصقتان وعيناه مغمضتان أو تكادان ، في وضع يرشح بالخور ، غامرت ابنته وقالت له :

— « ابي ، ألا تزال غاضباً عليه ؟ »

واعتصمت بالصمت ، غير متجرئة على ان تذهب إلى أبعد من ذلك . وسألها :

— « على من ؟ »

— « على ماريوس المسكين . »

ورفع رأسه العجوز ، ووضع قبضة يده المهزولة المتغضنة عـــلى الطاولة ، وصاح في نبرة ليس اكثر منها اهتياجاً وارتعاشاً :

— « تقولين ماريوس المسكين ! ان ذلك السيد شخص حقير ، وغد شرير ، مغرور صغير عاق ، من غير قلب ، من غير روح ، رجل تيّاه شرير ! »

واشاح بوجهه لكي لا تتمكن ابنته من ان ترى الدمـع المترقرق في عينيه .

وبعد ثلاثة ايام ، قطع حبل صمتٍ دام اربع ساعات ، وقـــال لابنته فجـــأة :

— « لقد سبق ان تشرفت بسؤال الآنسة جيلنورمان ان لا تحدثني

عنــه البتة . »

واقلعت الخالة جيلنورمان بعد عن القيام بايما محاولة ، وانتهت إلى هذا التشخيص العميق : « إن ابي ما عاد يحب ابنته على الاطلاق بعـد حماقتها . ومن الواضح انه يكره ماريوس . »

وكانت « بعد حماقتها » تعني : بعد زواجها من الكولونيل .

ومع ذلك ، فان الآنسة جيلنورمان ، على ما قد حزر القارىء في اغلب الظن ، كانت قد اخفقت في محاولة احلال تيبودول الضابط الرماح ، الاثير عليها ، محل ماريوس . كان تيبودول ، العوض ، قـد اخفق . ولم يرتض مسيو جيلنورمان هذا الاستبدال قط . وفراغ الفؤاد لا يتقبّل الشخص الذي لا مهمة له غير ملء الفراغ الذي يخلّفه شخص آخر . والحق ان تيبودول ثار بدوره ، برغم استرواحه عبير الارث ، على مهمة الابهاج المسخَّرة هذه . فقد أسأم العجوزُ الرمّاحَ ، وأصاب الرماحُ ذلك الرجل الطيبَ بصدمة . كان الملازم تيبودول بهيج النفس من غير شك ، ولكنه مهذار ؛ كان طياشاً ، ولكنه مبتذل ؛ كان بشوشاً ، ولكنه سيء العشرة ؛ كانت له خليلات : هذا صحيح ، وكان يكثر من الحديث عنهن ، هذا صحيح ايضاً ، ولكنه كان يقول فيهن شراً . كان ثمة عيب في هذه السجايا كلها . فقد سئم مسيو جيلنورمـان الاستماع اليه يتحدث عن ضروب الحظوظ السعيدة التي تمت له في جوار ثكنته ، في شارع بابل . ثم ان الملازم تيبودول كان في بعض الأحيان يفد بثوبه العسكري وشارته المثلثة الالوان ، وذلك ما جعله غير محتمـل بالكلية . واخيراً قال جيلنورمان الجد لابنته : « لقد شبعت منـه ، تيبودولك هذا . استقبليه انت إذا شئت . إني قليلا ما اهضم المحاربين في زمن السلم . أنا لست واثقاً ، ولكني احب الضاربين بالسيف اكثر مما أحب الذين يجررون ذيول السيوف . وصليل النصال المتشابكة في معركة أقل بؤساً ، على اية حال ، من صريف الاغماد على حصبـاء

الطريق . وإلى هـذا ، فأن تقوسه مثل مدعي الشجاعة ، وحزم خصره مثل امرأة حاملة ، وارتداءه مشداً تحت درع ، كل ذلك يجعله مضحكاً اكثر واكبر . إن الرجل الأصيل يحتفظ بنفسه في موطن يبعد عـــن الصلف مثل بعده عن اللطف المتكلف . لا فخوراً ، ولا قاسي الفؤاد . أبقي تيبودولك لنفسك . »

وعبثاً قالت لهابنته: « ومع ذلك فانه ابنُ ابنِ اخيك » فقد اكتشفت ان مسيو جيلنورمان ، الذي كان جداً حتى رؤوس اظافره ، لم يكن أخا ً جد بحال من الاحوال .

واذ كان ، في الحق ، حصيفاً يحسن المقارنة ، فان تيبودول لم يزده إلا أسفاً على ماريوس .

وذات مساء ، وكان ذلك في الرابع من حزيران ، وهو ما لم يمنع الجد جيلنورمان من إضرام نار لاهبة في موقده ، تمنى ليلة طيبة لابنتـه التي كانت تخيط في الغرفة المجاورة ، وانفرد في غرفته ذات المشاهـد الريفية . كانت قدماه على مسند حطب الموقد ، وكان محتجباً نصـف احتجاب خلف ستاره الحاجز العريض المنسوب إلى شاطيء كوروماندل* والذي يتألف من تسعة مصاريع ، وكان مسنداً مرفقيه إلى طاولته الـتي أضيئت فوقها شمعتان في ظل عاكسة نور خضراء ، غارقاً في أريكتـه ذات النسيج الموشى ، وفي يده كتاب ، ولكنه لا يقرأ فيه . كـان يرتدي ، وفقـاً لعادته ، ما يعرف بـ « الأنكرويابل » ** ، فهو يشبه تمثالا عتيقاً لـ غارا » *** ولقد كان هذا خليقاً بان يحمـل

* جنوب شرقي الهند .

** incroyable اسم كان في عهد حكومة الادارة يطلق على شباب المعارضة الملكية الذين كانوا يتكلفون كثيراً في ملابسهم ومسالكهم ولغتهم . ثم اطلق هذا الاسم على الثياب التي كانوا يرتدونها .

*** Garat سياسي فرنسي (١٧٤٩ — ١٨٢٣) تولى وزارة العدل بعد دانتون ، ثم وزارة الداخلية . وفي عهد الامبراطورية كان عضواً في مجلس الشيوخ .

الناس على اللحاق به في الشوارع ، ولكن ابنته كانت تغطيه ، كلما غادر المنزل ، بثوب اسقف فضفاض يحجب ملابسه . وفي البيت ، لم يكن ليرتدي مبذلا ابداً ، إلا عند نهوضه من الفراش وايوائه إلى النوم . وكان يقول : « ان ذلك يجعل المرء يبدو وكأنه عجوز . »

لقد فكر جيلنورمان في ماريوس بحب ومرارة . ولقد غلبت المرارة على الحب كما هي العادة . كان حنانه إذا ما فاض انتهى دائماً إلى الغليان، فاذا به ينقلب إلى سخط . كان قد بلغ تلك النقطة التي يحاول المرء فيها ان يزمع على أمر وان يتقبل ما يمزقه . وكان على وشك ان يشرح لنفسه كيف انه لم يبق ثمة اىما سبب لعودة ماريوس ، وان هذه العودة لو كانت ممكنة الوقوع اذن لوقعت قبل اليوم ، وانه ينبغي ان يتخلى عنه . وحاول ان يروض نفسه على الاقتناع بأن كل شيء قد انتهى ، وانه سوف يموت من غير ان يرى « ذلك السيد » مرة اخرى . ولكن طبيعته كلها ثارت ، ولم تستطع أبوته العجوز ان ترتضي ذلك . وقال : « ماذا ؟ » — فقد كانت هذه هي اللازمة التي يعيدها — « إنه لن يعود! » وكان رأسه الأصلع قد سقط فوق صدره ، وكان يسدد ، في ذهول ، نظرة مهتاجة تثير الرثاء ، إلى جمرات موقده .

وفيما هو مستغرق في أعمق أعماق تفكيره الحالم أقبل خادمه العجوز ، باسك ، وقال :

— « هل يستطيع سيدي ان يستقبل مسيو ماريوس ؟ »

وتصدّر الرجل العجوز ، شاحب الوجه مثل جثة تنهض بتأثير صدمة كهربائية . كان دمه كله قد ارتد إلى فؤاده . وتلجلج :

— « مسيو ماريوس ماذا ؟ »

واجاب باسك ، وقد أرعبه مظهر سيده وأقلقه :

— « لست ادري . انا لم اره . لقد قالت لي نيقوليت ، في هذه اللحظة : يوجد هنا شاب يقول إنه مسيو ماريوس . »

وغمغم جيلنورمان الجـد في همس :

— « أدخـله . »

وظل على وضعه ذاك . مرتعش الرأس ، مصوب العينين إلى الباب . ودخـل شاب . كان هــو ماريوس .

ووقف ماريوس لدى الباب ، وكأنما كان ينتظر ان يدعى إلى الدخول . ولم تُلحظ ملابسه ، البائسة أو تكاد ، في تلك الظلمة التي احدثتها عاكسة النور الخضراء . ولم يكن في ميسور العجوز ان يتبين غير وجهه الهاديء الصارم ، المحزون على نحو غريب .

وظل مسيو جيلنورمان — وكأنما خبّله الذعر والبهجة — بعض لحظات لا يرى شيئاً غير نور ، شأن المرء امام رؤيا . كان على وشك آن يغمى عليه . ولقد لمح ماريوس من خلال جهرٍ مُعْشٍ . كان هو حقاً ، كان ماريوس حقـاً !

واخيراً ! بعد أربـع سنوات ! لقد أمسك بـه — إذا جاز التعبير — كله في لمحة عين . ولقد وجده جميلا ، نبيلا ، رائعاً ، نامـياً ، ورجـلا كاملا ، ذا مظهر أنيق وسيما فاتنة . ولقد كان خليقاً بــه أن يفتح ذراعيه ، ويدعوه ، ويندفع نحوه ؛ ولقد ذاب فؤاده جذلا ، وانبجست الكلمات وفاضت في صدره . وأخيراً برز ذلك الحنان كلــه وبلغ شفتيه . ومن خلال المغايرة التي كانت أساس طبيعته انطلقت كلمة جافية . لقد قال فجــأة :

— « ما الذي جاء بك إلى هنــا ؟ »

فأجاب ماريوس في ارتباك :

— « مسيو ... »

كان جيلنورمان يتمنى لو يلقي ماريوس بنفسه بين ذراعيه . وكــان غاضباً على ماريوس وعلى نفسه . لقد استشعر أنه كان جافياً ، وأن ماريوس كان بارداً . ولقد استبد القلق بالرجل الطيب على نحو مثير وغير

محتمل لاستشعاره انه شديد الحزن عظيم الحنان باطنياً على حين لم يكن في استطاعته إلا ان يكون قاسياً خارجيـاً . وعاودته المرارة . وقاطـع ماريوس في نبرة حـادة :

— « واذن ، فما الذي جاء بك ؟ »

ولقد عنت « اذن » هذه : « اذا لم تجيء لتعانقني » . ونظر ماريوس إلى جده ، الذي تحول شحوبه إلى وجـه من الرخام .

— « مسيو . . . . »

وتابع الرجل العجوز ، في صوت صارم :

— « هل جئت تلتمس عفوي ؟ هل رأيت غلطتك ؟ »

وخطر له أن يرشد ماريوس إلى الطريق ، وان « الولد » سـوف ينحني . وارتعد ماريوس . كان مطلوباً منه ان ينكر اباه . وخفض عينيه وأجـاب :

— « لا ، يا سيدي . »

وهتف العجوز ، بعنف ، وقد عصف به ألم ممض وغضب عارم :

— « واذن ، فما الذي تريده مني ؟ »

وشبك ماريوس يديه ، وخطا خطوة ، وقال في صوت واهن مرتعش :

— « إرحمني ، يا سيدي ! »

وأثارت هذه الكلمة مسيو جيلنورمان . ولو انها قيلت قبل ذلك بقليل إذن لكانت خليقة بأن تعطف فؤاده . ولكنها جاءت متأخرة جـداً . ونهض الجد ، واتكأ بكلتا يديه على عصاه ، أبيض الشفتين ، مرتعـد الجبين ، ولكن قامته الطويلة ، اشرفت ، من عل ، على ماريوس المنحني .

— « ارحمك ، يا سيدي ! الشاب يطلب الرحمة من عجـوز في الحادية والتسعين ! انت تتخـذ سبيلك إلى الحياة ، وانا اتخـذ سبيلي إلى مغادرتها . انت تذهب إلى المسرح ، إلى المرقص ، إلى المقهـى ، إلى قاعـة البليارد . إنك ذكي ، إنك تعجب النساء ، انك فتى وسيم ،

على حين لا استطيع أنا ان افارق زاوية موقدتي في صميم الصيف . أنت غني بضروب الغنى الوحيدة التي في الشباب ، على حين أن عندي فقر الشيخوخة كله ، السقم والتوحد . إن لك اسنانك الاثنتين والثلاثين ، ومعدة جيدة ، وعيناً ثاقبة ، وقوة ، وشهوة إلى الطعام ، وصحة ، وابتهاجاً ، وغابة من الشعر الأسود ، على حين لم يبق لي حتى بقيةٌ من الشعر الأبيض . لقد فقدت اسناني ، وها انا ذا أفقد رجليّ ، ها أنا ذا أفقد ذاكرتي . وهناك ثلاثة من اسماء الشوارع اخلط ما بينها دائماً : شارع شارلو ، شارع شوم ، شارع سان كلود ، ذلك هو الموضع الذي انتهيت اليه . ان المستقبل كله امامك ، مشرقاً بالضياء ، اما انا فقد بدأت لا اوى ذرة منه . إلى مثل هذا الحد غرقت في الظلام . وانت عاشق ، من غير شك ، أما انا فليس هناك في هذا العالم من يحبني . ومع ذلك فأنت تسألني الرحمة . وحق الاله ، لقد غفل موليير عن هذا ! وإذا كانت هذه هي الطريقة التي تمزحون بها في قصر العدل ، يا سادتي المحامين ، فاني اقدم اليكم اصدق تهنئاتي . إنكم مضحكون . »

واستأنف العجوز كلامه في صوت غاضب صارم :

— « والآن ، ماذا تريد مني ؟ »

فقال ماريوس :

— « سيدي ، انا أعلم ان وجودي يسوءك ، ولكني جئت لكي اسألك امراً واحداً ، ومن ثم امضي لسبيلي في الحال . »

فقال العجوز :

— « انت ابله ! من الذي يقول لك ان تمضي لسبيلك ؟ »

كانت هذه هي ترجمة تلك الكلمات الرخصة التي كانت تعمر اعماق فؤاده : « **تعال ، اسألني العفو الآن ! ألق بنفسك على عنقي** » . واستشعر مسيو جيلنورمان ان ماريوس يعتزم ان يفارقه بعد لحظات ،

وان استقباله الجاف قد نفره ، وأن قسوته كانت تطرده . وانما قال ذلك كله في ذات نفسه ، فتعاظم ألمـه . واذ انقلب ألمـه في الحال إلى غضب، فقد تعاظمت قسوته . كان يود لو ان ماريوس قد فهم ، ولكن ماريوس لم يفهم ، وهذا ما اثار ثائرة العجوز . وأردف :

— « مـاذا ؟ لقد هجرتني ، هجرتني أنا ، جدك . لقد فارقت بيتي لتذهب إلى مكان لا احد يعرفـه . لقد احزنت خالتك . لقد كنت تحيا — وهذا واضح ، وإنـه أدعى إلى المتعة — حياة الفتى الغر ، وتمثل دور الشاب المعجب بذاته ، وتعود إلى غرفتك ساعة تشاء ، وتستمتع بالحياة . انك لم تبعث إليّ بعلامة واحدة تدل على انك ما تزال حياً ، ولقد أثقلت نفسك بالديون من غير ان تتصل بي لوفائها عنك ، ولقد جعلت من نفسك صخاباً ومحطم نوافذ ، وفي نهاية سنوات اربع تجيء إلى بيتي وليس عندك ما تقوله غير هــذا ! »

هذه الطريقة العنيفة في دفع الحفيد إلى المحبة والرقة لم تؤد إلى غير صمت ماريوس . وطوى مسيو جيلنورمان ذراعيه ، وهو وضع كـان عنده متغطرساً إلى حد بعيد ، وقال لماريوس في صرامة وفي مرارة :

— « فلنضع حداً لذلك . لقد قلت انك جئت تطلب مني شيئاً ؟ حسن ، ما هو؟ ما هو؟ تكلم ! »

فقال ماريوس ، وعلى وجهه سيما من يستشعر انه على وشـك السقوط في هـاوية :

— « سيدي ، لقد جئت أطلب إذنك في الزواج . »

ورن مسيو جيلنورمان الجرس . وفتح باسك الباب نصف فتحة :

— « ادع ابنتي إلى هنا . »

وبعد ثانية ، فُتح الباب كرة اخرى . ولم تدخل الآنسة جيلنورمان ، ولكنها وقفت بالباب . كان ماريوس منتصباً ، أبكم ، متدلي الذراعين ، وعلى وجهه سيما مجرم من المجرمين . وكان مسيو جيلنورمان يذرع الغرفة

جيئة وذهوباً . والتفت نحو ابنته وقال لهـــا :

— « لا شيء . إنــه مسيو ماريوس . قولي له مساء الخير . حضرته يريد ان يتزوج . هذا كل ما هنالك . اذهبي . »

ونمّ جرْس العجوز الموجز الاجش عن فيض من الحدة عجيب . ونظرت الخالة إلى ماريوس في سيما مروعة ، وبدت وكأنها لم تعرفــه إلا بشق النفس . ولم تدع ايماءة ما أو كلمة ما تندّ عنها ، واختفــت امام نفَس من انفاس أبيها أسرع ممـا يختفي القذى أمـــام إعصـــار من الأعاصير .

وفي غضون ذلك ، كان جيلنورمان الأب قـــد رجـــع وولى الموقـد ظهـــره .

— « تتزوج ! في الحادية والعشرين ! لقد رتبتَ هذا ! ولم يبـق عليك غير الأذن تطلبه ! شيء شكلي . اجلس ، يا سيدي . حسناً ، لقد عرفتَ ثورة منذ ان حُرمتُ شرف رؤيتك . فاليعاقبة قـد انتصروا . ومن حقك ان تكون سعيداً . انت جمهوري ، أليس كذلك ، مـــا دمت باروناً ؟ انت تُعدّ ذلك . والجمهورية مرق متبَّل يُصلح البارونية . هــل قُلِّدتَ وسام تمــوز ؟ هــل اخـــذت فـــلذة من اللوفــر ، يا ســـيدي ؟ ان ثمـــة ، على مقربة من هنا ، في شـــارع سان انطوان ، تجاه شارع نونانديير ، قذيفة منزّلة في جدار الدور الثالث من ادوار احد المنازل منقوشاً عليها : ٢٨ تموز ، عام ١٨٣٠ . اذهب وانظر اليها . إن ذلك ليحدث أثراً صالحـاً . آه ، إن اصدقـــاءك ليقومون باشياء جميلة ! وبالمناسبة : ألا ينشئون حوضاً ذا فوارة في ساحة النصب التذكاري للدوق دو بيري ؟ واذن ، فانت تريد ان تتزوج ؟ وممن ؟ هل نستطيع ان نطرح هذا السؤال من غير ان يكون في ذلك قلة تبصر ؟ »

وسكت . وقبل ان يجد ماريوس متسعاً من الوقت للاجابة اضـــاف

في عنف :

— « آه . ان عندك صناعة ؟ ولقد جمعت ثروة ؟ كم تكسب من عملك في المحاماة ؟ »

فقال ماريوس في ضرب من الرصانة والحزم يكاد يكون ضارياً :

— « لا شيء . »

— « لا شيء ؟ أليس عندك ما تعيش به غير الالف والمئتي ليرة التي أرسلها اليك ؟ »

ولم يجب ماريوس قط . وتابع مسيو جيلنورمان :

— « واذن ، فهل أفهم من هذا ان الفتاة غنية ؟ »

— « مثلي . »

— « ماذا ؟ لا بائنة ؟ »

— « لا . »

— « وهل ثمة ميراث منتظر ؟ »

— « لست اعتقد . »

— « عارية تماماً ! وماذا يعمل ابوها ؟ »

— « لست ادري . »

— « وما اسمها ؟ »

— « الآنسة فوشلوفان . »

— « فوش ماذا ؟ »

— « فوشلوفان . »

فقال العجوز :

— « بتتتت ! »

فصاح ماريوس :

— « سيدي ! »

وقاطعه جيلنورمان في لهجة من يخاطب نفسه :

— « ذلك هو : احدى وعشرون سنة ، لا عمل ، الف ومئتا ليرة في العام ، إن السيدة البارونة بونميرسي سوف تذهب إلى السوق وتشتري بقدونساً بفلسين اثنين . »

فقال ماريوس ، بمثل قنوط الأمل الاخير الذي يتلاشى :

— « سيدي ، اتوسل اليك ! استحلفك باسم السماء ، بيدين متشابكتين ، يا سيدي ، وانا اطرح نفسي على قدميك . ان تسمح لي بالزواج منها ! »

وانفجر الرجل العجوز في ضحكة صارّة مأتمية سعل من خلالها وتكلم :

— « ها ! ها ! ها ! لقد قلت في ذات نفسك « يا للشيطان ! سوف اذهب وأبحث عن تلك اللمة المستعارة العجوز ، عن ذلك البليد السخيف ! كم يؤسفني ان لا اكون في الخامسة والعشرين ! اذن لكنت اقذفه بأنذار يرشح بالاحترام ! واذن لكنت امر به مزدرياً له ! لا بأس سوف اقول له : ايها الأبله العجوز ، أنت سعيد جداً برؤيتي . أنا أريد ان اتزوج . أنا اريد ان انكح الآنسة لا ادري من ، ابنة السيد لا ادري من . ليس في رجليّ حذاء ، وليس على جسدي قميص . حسن . أريد أن ألقي إلى الكلاب ، بحرفتي ، بشبابي ، بحياتي . اريد ان اغوص إلى أعماق البؤس وقد شُدت إلى عنقي زوجة ، هذه هي فكرتي ، وعليك ان تقرها ! وعندئذ يوافق تلك البقيةُ الحيوانيــة المستحجرة في الارض ! » اذهب ، يا بني كما تريد ، اشدد حجرك إلى عنقك ، تزوج فوشلوفانك ، تزوج كوبلوفانك ... ابداً ، يا سيدي ! ابداً ! »

— « أبي ! »

— « ابــداً ! »

ولم يكد ماريوس يسمع النبرة التي انطلقت بها لفظة « ابداً » هــذه حتى فقد الرجاء كله . وراح يذرع الغرفة في خطى بطيئة ، مطـأطيء

الرأس متمايلاً . اشبه برجل يحتضر منه برجل يمضي لسبيله . وتبعه مسيو جيلنورمان بعينيه ، ولحظة فُتح الباب وغادر ماريوس الغرفة أو كاد ، خطا أربع خطوات بتلك الرشاقة الشيخية التي يتّسم بها العجائز المتغطرسون الفاسدون ، واخذ بخناق ماريوس ، ورده في عنف إلى الغرفة ، وطرحه على احدى الأرائك ، وقال له :

— « حدثني عن ذلك ! »

كانت تلك الكلمة المفردة ، ابي ، التي ندت من ماريوس ، هي التي احدثت هذا الانقلاب .

ونظر ماريوس اليه في ذهول . إن سيما مسيو جيلنورمان ما عادت لتعبر عن غير طيبة جافية لا سبيل إلى التعبير عنها . لقد أخلى الوصي المكان للجد .

— « تعال ، دعنا نرى ، تكلم ، حدثني احاديث غرامك ، ثرثر ، أخبرني كل شيء . يا الـهي ! ما اشد حماقة هؤلاء الشباب ! »

واستأنف ماريوس :

— « ابي ! »

واضاء وجه العجوز كله باشراق يعز على الوصف .

— « اجل ، هو ذاك ! ناديني يا ابي ، ولسوف ترى ! »

كان ثمة الآن في هذا الكلام العنيف شيء عذب جداً ، صريح جداً ، أبوي جداً بحيث استشعر ماريوس أثر هذه النقلة المفاجئة من التثبيط إلى الأمل وكأنه مشدوه ثمل . كان جالساً قرب الطاولة ، وكان ضوء الشمعة يبدي عن رثاثة ملابسه . وحدق اليه جيلنورمان الجد في دهش .

وقال ماريوس :

— « حسناً ، يا ابي ! ... »

وقاطعه مسيو جيلنورمان :

— « تعال ، الآن . واذن فانت لا تملك اي فلس حقاً ؟ انت تلبس مثل ملابس اللصوص . »

وبحث في احد الأدراج ، وأخرج محفظة نقود ووضعها على الطاولة :

— « خذ . هذه مئة ذهبية لويسية . اشتر لنفسك قبعة . »

فاردف ماريوس :

— « أبي ، يا أبي الطيب ، ليتك تعلم . أنا أحبها . انت لا تدرك ذلك . لقد رأيتها ، أول ما رأيتها ، في حديقة اللوكسومبورغ . كانت تأتي إلى هناك . في البدء لم ألق اليها انتباهاً كبيراً ، ثم ، ولا ادري كيف نشأ ذلك ، وقعت في حبها . اوه ! كم قد جعلني ذلك شقياً ! واخيراً ، اصبحت اراها الآن كل يوم ، في بيتها نفسه . إن أباها لا يعرف ذلك . ولكن فكّر انهما سوف يرحلان . اننا نجتمع في الحديقة مساء . وابوها يريد ان يأخذها إلى انكلترة ، ثم قلت لنفسي : سوف اذهب لأرى جدي واروي له المسألة . اني سوف اجن قبل كل شيء ، اني سوف اموت ، اني سوف أصيب نفسي بمرض ، اني سوف اقذف بنفسي في النهر . يجب ان اتزوجها ، خشية ان افقد صوابي . والآن ، تلك هي الحقيقة كاملة ، ولست اعتقد اني نسيت اي شيء . إنها تسكن في حديقة ذات سياج مقضب ، في شارع بلوميه. انها تقع قرب الانفاليد . »

وكان جيلنورمان الجد قد جلس ، مشرقاً بالابتهاج ، إلى جانب ماريوس . وفيما كان يستمع اليه ويستمتع بجرْس صوته نَعِمَ في الوقت نفسه بنشقة طويلة من سعوط . حتى إذا سمع تلك الكلمة ، شارع بلوميه ، قطع استنشاقه ، وترك بقية سعوطه تسقط على ركبتيه .

— « شارع بلوميه ! تقول شارع بلوميه ؟ — دعنا نرى اذن ! هل توجد ثكنة ما هناك ؟ ولكن اجل ، ذلك هو . ان ابن عمك تيودول قد اخبرني عنها . الرمّاح ، الضابط . بنت صغيرة ، يا صديقي

الطيب . بنت صغيرة ! يا الـهي ، اجل شارع بلوميه Plumet . ذلك ما كانوا يدعونه شارع بلوميه Blomet . لقد تذكرته الآن . لقد سمعت أحاديث عن فتاة السياج الصغيرة تلك في شارع بلوميه . في حديقة . ان ذوقك ليس رديئاً . يقولون أنها جميلة . وبيني وبينك ، أعتقد ان ذلك الرماح الأبله قد حاول ان يغازلها قليلا . ولست ادري إلى اي حد ذهب في مغازلته تلك . وعلى اية حال ، فليس لهذا اهمية . ثم اننا يجب ان لا نصدقه . إنه فياش . ماريوس ! أنا أحسب ان من المستحسن جداً لفتى أمثلك ان يقع في الحب . لقد جعل الحب لاترابك من الشباب. انا احبك عاشقاً اكثر مما احبك يعقوبياً . انا احبك ملطاً بتنورة * ، يا الـهي ، بل بعشرين تنورة ، اكثر مما احبك مدلطاً بمسيو دو روبسبيير ! ومن ناحيتي ، أقر أنني ، في ما يتصل بجماعة اللاسراويل ، لم احب اي شيء غير النساء . فالنساء الجميلات جميلات بغض النظر عن الطبقة التي ينتسبن اليها . يا للشيطان ! لا اعتراض على هذا . أما تلك الفتاة الصغيرة فهي تستقبلك سراً ، وعلى غير علم من أبيها . هذا حسن جداً . لقد عرفت انا نفسي مغامرات مثل هذه . اكثر من واحدة . اتدري كيف نفعل ؟ إنا لا نأخذ المسألة اخذاً ضارياً . إنا لا نقذف بانفسنا في المأساة . إنا لا نختم الامر بالزواج ، وبالسيد العمدة ووشاحه . اننا ، بحماقة ، فتيان اذكياء . ان عندنا عقلا حصيفاً . إنسابوا ، أيها الفانون ، لا تتزوجوا . ونحن نجيء فنجد جدنا ، وهو في اعماقه رجل طيب ، رجل يملك دائماً تقريباً بضع اصابع من الذهبيات اللويسية في أحد الادراج العتيقة ؛ اننا نقول له : « ايها الجد ، تلك هي القصة . » فيقول الجد : « هذا طبيعي جداً . إن على الشباب ان ينقضي ، وعلى الشيخوخة ان تبلى . لقد كنتُ شاباً ، وستصبح انت شيخاً . اذهب ، يا بني سوف تعيد دفع هذا إلى حفيدك . دونك

---

* يقصد : بأمرة .

مثي قطعة ذهبية . استمتع بالحياة أكمل استمتاع . لا شيء افضل من ذلك ! تلك هي الطريقة التي ينبغي ان تصطنع . نحن لا نتزوج ، ولكن ذلك لا يعوقنا . هل تفهمني ؟ »

وهز ماريوس رأسه ، متحجراً عاجزاً عن ان ينطق بكلمة .

وانفجر الرجل الطيب بالضحك ، وغمز بعينه الهرمة ، وربت على ركبة ماريوس ، وحدق إلى عينيه وعلى وجهه سيما غريبة مشرقة ، وقال له وهو يهز كتفيه هزة تنطوي على اكبر قدر من الحنان :

— « ايها الأحمق ، اجعلها خليلتك . »

وران الشحوب على ماريوس . انه لم يفهم شيئاً من كل ما قاله جده. فهذا التكرير غير المفيد لشارع بلوميه ، للثكنة ، للرمّاح ، قد مر امام ماريوس مثل اشباح يظهرها فانوس سحري . وليس في شيء منهـــا ما يمكن أن يتصل بكوزيت ، التي كانت زنبقة . كان الرجل الطيـــب يهذي . ولكن هذا الهذيان انتهى بكلمة فهمهــا ماريوس ، وكانت إهانة قاتلة لكوزيت . ان تلك الكلمة اجعلها خليلتك اخترقت قلب ذلك الفتى المتقشف وكأنهـا حسام .

ونهض ورفع قبعته التي كانت على الارض ، ومضى نحو الباب في خطى واثقة راسخة . وهناك استدار ، وانحنى انحناء خفيضاً أمام جده ، ثم رفع رأسه كرة اخرى ، وقال :

— « منذ خمس سنوات أهنتَ أبي . وها انت اليوم تهين زوجتي . أنا لا اسألك بعدُ شيئاً ، يا سيدي . وداعاً ! »

وفتح جيلنورمان الجد فمه مشدوهاً ، وبسط ذراعيه ، غير قـــادر على ان يتكلم أو يتنفس ، وكأن قبضةً محكمة كانت تعتصر حنجرته . واخيراً نزع نفسه من كرسيه ذي الذراعين ، وانطلق نحو الباب باسرع ما يستطيع رجل في الحادية والتسعين ان ينطلق ، وفتحه وصرخ :

— « النجدة ! النجدة ! »

وبرزت ابنته ، ثم الخادمان . وتابع وفي صوته حشرجة تثير الرثاء :

— « اركضوا وراءه ! أمسكوا به ! ما الذي فعلته له ! إنه مجنون ! إنه راحل ! آه ! يا الـهي ! آه ! يا الـهي ! هذه المرة لن يعود ! »

ومضى إلى النافذة المطلة على الشارع ، وفتحها بيديه الهرمتين المرتجفتين وانحنى حتى منتصف قامته أو اكثر ، فيما امسك به باسك ونيقوليت من وراء ، وصاح :

— « ماريوس ! ماريوس ! ماريوس ! ماريوس ! »

ولكن ماريوس كان قد انتهى إلى نقطة لا تمكنه من ان يسمع شيئاً ، وكان في تلك اللحظة ذاتها ينعطف حول زاوية شارع سان لويس .

ورفع العجوز يديه إلى صدغيه مرتين أو ثلاث مرات ، في سيما من الجزع ، وارتد إلى الوراء متمايلا ، وألقى بنفسه في احدى الارائك ، فاقد النبض ، فاقد الصوت ، فاقد الدمع ، هازاً رأسه ، محركاً شفتيه في بلاهة ، وقد خلت عيناه وخلا قلبه الآن من كل شيء إلا شيئاً عميقاً فاجعاً يشبه الظلام .



الكتاب التاسع

إلى أين هما ذاهبان؟

١

جان فالجان

في ذلك اليوم ، نفسه ، حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر ، كان جان فالجان جالساً وحده على كتف منحدر من أشد منحدرات الـ « شان دو مارس » انعزالا . وسواء أكان ذلك ثمرة للفطنة ، أم لرغبة في التأمل ، أم مجرد نتيجة لتغير من تغيرات العادة تلك ، غير المدركة ، التي تزحف وئيداً وئيداً إلى حيواتنا كلها ، فإنه امسى الآن نادراً مـــا يخرج مع كوزيت . لقد ارتدى صدرته العمالية وبنطلوناً من كتان اسمر ، ولقد حجبت قبعته ذات الحافة الطويلة وجهه . كان الآن مطمئناً سعيداً

من ناحية كوزيت ، وكان ما روّعه وأقلقه فترة من الزمان قد تبدد. ولكن منذ اسبوع أو اسبوعين داهمه قلق من نوع آخر . ففي ذات يوم ، كان يمشي في الجادة ، فرأى تيناردييه ، وبفضل تنكّره لم يستطع تيناردييه أن يتبيّنه ، ولكن جان فالجان عاد فرآه — منذ ذلك الحين — عدة مرات ، ولقد كان واثقاً من ان تيناردييه كان يطوّف متربصاً حول الحي . وكان ذلك كافياً لحمله على القيام بخطوة جدية . تيناردييه هناك ! إنها المخاطر كلها مجتمعة .

وإلى هذا فلم تكن باريس تنعم بالهدوء . والقلاقل السياسية لا تلائم كل من تنطوي حياته على شيء يريد ان يخبئه . ذلك ان رجال الشرطة غدوا ناشطين جداً ، مرتابين جداً ، ولعلهم ان يكونوا يتعقبون رجلا مثل بيبين أو موري فيكتشفون رجلا مثل جان فالجان .

من أجل هذا كله أمسى مهموماً مشغول البال .

واخيراً ، فان حادثة لا يمكن تفسيرها كانت قد داهمته منذ قريب — فهو حديث عهد بها — زادته حذراً على حذر . ففي صباح اليوم نفسه ، ولم يكن قد استيقظ احد غيره في المنزل ، كان يمشي في الحديقة قبل ان تُفتح مصاريع نوافذ كوزيت فاذا به يجد هذا السطر منقوشاً على الجدار ، بمسمار في أغلب الظن :

« ١٦ شارع دو لا فيريري » .

كان النقش حديثاً جداً ، وكانت الاحرف بيضاء في الملاط الأسود العتيق ، وكانت باقةٌ من القرّاص عند ادنى الجدار قد ذُر عليها جص ناعم طريء . وأغلب الظن ان ذلك السطر قد خُط ليلا . أي شيء كان ؟ عنواناً ؟ إشارة للآخرين ؟ تحذيراً له هو ؟ وعلى اية حال ، فقد كان واضحاً ان حرمة الحديقة قد انتُهكت ، وان بعض الاشخاص المجهولين قد دخلوا اليها . واستعاد في ذاكرته تلك الحوادث التي سبق لها ان روّعت المنزل . وحاول عقله ان يحل هذا اللغز . وحاذر ان

محدّث كوزيت حديث السطر المكتوب على الجدار خشية ان يوقع الرعب في فؤادهـــا .

حتى إذا فكر جان فالجان في ذلك كله ودرسه قرر ان يغـادر باريس ، بـل ان يغادر فرنسة ، وينتقـل إلى انكلترة . وكان قـد أعـلم كوزيت بذلك . وكان يرجو ان يسافر في مـدى اسبوع واحد . كان جالساً على منحـدر الـ « شان دو مارس » ، يقلب مختلف ضروب الأفـكار في ذهنه : تيناردييه ، الشرطة ، الرحلة ، وصعوبة الفوز بجواز السفر .

وفي غمـرة هـذه التأملات لمح ، من طريق ظل كانت الشمس قد بسطته ، ان شخصاً ما ، وقف اللحظة فوق ذروة المنحدر خلفـه مباشرة . وكان على وشك ان يستدير ، عندما سقطت على ركبتيه ورقـة مطوية ، وكأن يداً قد قذفت بها من فوق رأسه . وتناول الورقـة ، ونشرهـا ، وقرأ هـذه الكلمة مسطورة عليها بقلم رصاصي وبأحرف ضخمـة :

— « إنتقل من منزلك ! »

ونهض جان فالجان في خفة ، فلم يجد احداً فوق المنحدر . وأجال بصره في ما حوله ، ولمح مخلوقاً اكبر من طفل ، واصغر من رجل ، يرتدي درّاعة رمادية ، وبنطلوناً من مخمل قطني ترابي اللون ، مخلوقاً وثب فوق الحاجز وانزلق في حفرة الـ « شان دو مارس » .

وانقلب جان فالجان في الحال ، إلى منزله ، والافـكار تعصف في دماغـه .

٢
ماريوس

كان ماريوس قد فارق مسيو جيلنورمان محزون النفس . لقد وفد عليه وفي صدره امل ضئيل جداً ، ثم غادره وبين جوانحه يأس هائل .

وإلى هذا — واولئك الذين لاحظوا تفتّح القلب البشري يفهمون ذلك — فأن تيبودول ، الرماح ، الضابط ، الأبله ، ابن العم لم يترك أيما ظل في ذهنه . اجل ، لم يترك ظلاً مهما ضؤل . وقد يطمع الشاعر المسرحي ، ظاهرياً ، ببعض المضاعفات من وراء قالة السوء تلك يطلقها الجد في وجه الحفيد . ولكن ما تكسبه الدراما من ذلك يخسره الصدق . فقد كان ماريوس في تلك السن التي لا نصدق فيها اي سوء . وبعد ذلك تقبل السن التي نصدق فيها كل شيء . إن الشكوك ليست غير تجعدات . والشباب ، في ايامه الأولى ، لا يعرف شيئاً من ذلك . ان ما قد يقلق عطيل ينزلق فوق كانديد . أيشك في كوزيت ! ان ثمة مجموعة من الجرائم التي يجدر بماريوس ان يقترفها في سهولة أعظم .

وشرع يمشي في الشوارع ، وتلك حيلة اولئك الذين يتألمون . ولم يفكر في شيء يستطيع ان يتذكره . وعند الساعة الثانية صباحاً انقلب إلى غرفة كورفيراك ، والقى بنفسه ، وهو في ملابسه ، على فراشه . وكانت الشمس قد اشرقت عندما غلبه ذلك النوم الرهيب الثقيل الذي تروح الافكار وتجيء ، خلاله ، في الدماغ . حتى إذا أفاق وجد كورفيراك ، وآنجولراس ، وفويي ، وكومبوفير ، واقفين في الغرفة ، منهمكين جداً ، مستعدين للانطلاق . وعلى رؤوسهم قبعاتهم .

وقال له كورفيراك :

— « هل ستشيع جنازة الجنرال لامارك ؟ * »

* Lamarque جنرال وسياسي فرنسي (١٧٧٠ — ١٨٣٢) لمع نجمه كخطيب من خطباء المعارضة في مجلس النواب .

لقد بدا له ان كورفيراك كان يتكلم الصينية .

وغادر الغرفة بعدهم بقليل . ووضع في جيبه الغدارتين اللتين أودعه اياهما جافير عشية مغامرة الثالث من شباط ، واللتين ظلتا في حوزته . وكانت هاتان الغدارتان مشحونتين ما تزالان . ومن العسير علينا ان نقول أية فكرة غامضة كانت تراوده حين اصطحبهما معه .

وتسكع طوال النهار غير عالم إلى أين تقوده قدماه . وأمطـــرت السماء بـــين الفينة والفينة ، ولكنه لم يلاحظ ذلك . واشترى لغـــدائــه كعكة من عند احد الخبازين ، ودسها في جيبه ، ثم نسيها . لقد كان يبدو للرائي انه ابترد في نهر السين من غير ان يعي ذلك . فثمة لحظات يكون في جمجمة المرء خلالها فرن . ولقد كان ماريوس يجتاز احدى تلك اللحظات . إنـه لم يعد يرجو شيئاً ، ولم يعد يخشى شيئاً . لقـــد انتهـى إلى تلك الحال منذ الليلة البارحة . وانتظر هبوط الليل بفروغ صبر محموم ، ولم يكن في رأسه غـــير فكرة واضحـة واحـــــدة : أن عليه أن يرى كوزيت في الساعـة التاسعة . فقد كانت هذه السـعادة الأخيرة هي الآن مستقبله كله ، وبعد ذلك يخيم الظلام . وبين الفينـــة والفينة ، فيما كان يذرع اشد الجادات انعزالا ، تبدّى له انه سمـــع اصواتاً عجيبة في باريس . وايقظ نفسه من تفكيره الحالم وقال : «اهم يتقاتلون ؟»

وعند هبوط الليل ، في الساعة التاسعة تماماً ، كما وعد كوزيت ، كان في شارع بلوميه . حتى إذا اقترب من الباب الحديدي المقضـــب نسي كل شيء . لقد انقضت على رؤيته كوزيت آخر مرة اربع وعشرون ساعة ، وكان على وشك ان يراها كرة ثانية . وامحت جميع الأفـكار الأخرى ، ولم يستشعر الآن غير ابتهاج عميق نسيج وحده . ان لهـــذه الدقائق التي نحيا خلالها قروناً هذه الخاصة السنية الرائعة : وهي انها لحظة تنقضي تملأ القلب كله .

وازاح ماريوس الباب الحديدي ، ووثب إلى الحديقة . ولم تكـــن

كوزيت حيث اعتادت ان تنتظره . واجتاز الأجمة ، ومضى إلى الحفرة المجاورة للسلم . وقال : « إنها تنتظرني . هناك . » ولم تكن كوزيت هنـــــاك . ورفع عينيه ، فرأى نوافذ البيت مغلقة . وقام بجولـــة حول الحديقة ، فاذا بالحديقة مهجورة . ثم ارتد إلى المنزل ، وراح يخفق مصراعي النافذة ، مخبَّلاً بالحب ، ثملاً مروَّعاً مغيظاً بالأسى والقلق مثل سيد يرجع إلى منزله في ساعة حرجة . وخفق ، وخفق كـــرة اخرى ، غير محاذر أن يرى النافذة تفتح ووجه الأب الكالح يطـــل ويسأله : « ماذا تريد ؟ » فلم يكن هذا ليقاس ، البتة ، بما شرع يراه الآن . حتى إذا اتم خفقه ذاك رفع صوته وصاح : « كوزيت ! » ثم كرر في تعاظم : « كوزيت » ، فلم يسمع جواباً . لقد قضي الأمر . لم يكن ثمــة احد في الحديقة ؛ لم يكن ثمة احد في المنزل .

وسمّر ماريوس عينيه اليائستين على ذلك البيت المأتمي ، الاســـود الصامت الاشد فراغاً من قبر . ونظر إلى المقعد الحجري حيث كـــان قد قضى كثيراً من الساعات المحببة مع كوزيت . ثم جلس على درجات السلم ، فياض الفؤاد بالرقة والعزم ، وبارك حبه في أعمــاق تفكيره ، وقال في ذات نفسه انـــه ما دامت كوزيت قد مضت لسبيلها فلم يبـق أمامه غير الموت .

وفجأة سمع صوتاً بدا وكأنه مقبل من الشارع ، صوتاً صـــاح من خـــلال الاشجـــار :

— « مسيو ماريوس ! »

ونهض .

وقـــال :

— « هيه ؟ »

— « مسيو ماريوس ، أهذا أنت ؟ »

— « نعم . »

واضاف الصوت :

— « مسيو ماريوس . اصدقاؤك ينتظرونك عند المتراس ، في شارع الـ « شانفريري » .

ولم يكن ذلك الصوت غريباً عليه بالكلية . كان يشبه صوت ايبونين الاجش الخشن . وهرع ماريوس إلى الباب الحديدي ، وازاح القضيب المتحرك ، وأمرّ رأسه من خلاله ، ورأى شخصاً بدا له وكأنه شاب اختفى سريعاً في الغسق .

٣

مسيو مابوف

كانت حافظة نقود جان فالجان غير ذات جدوى لمسيو مابوف . ذلك أنه ، في تقشفه الجليل الصبياني ، كان قد رفض هدية السماء ؛ لقد رفض ان يسلم ان في ميسور نجم من النجوم أن يسك نفسه ليرة ذهبية لويسية . إنه لم يحزر ان ما وقع عليه من السماء انما جاء من غافروش . لقد حمل حافظة النقود إلى مفوض الشرطة في الحي ، بوصفها شيئاً ضائعاً يضعه الذي عثر عليه تحت تصرف المطالبين به وضاعت حافظة النقود حقاً . ولا نحتاج إلى النص على ان احداً لم يطالب بها ، ولم تسعف مابوف البتة .

وإلى هذا ، فقد واصل مسيو مابوف انحداره .

ولم تنجح تجاربه على نبات النيل في « حديقة النبات » باكثر مما نجحت في حديقته بأوسترليتز . ففي العام الماضي كان مديناً لمدبرة منزله بأجورها. أما اليوم فكان كما رأينا مديناً بثلاثة ارباع اجار ذلك المنزل . وكان المرتهن قد باع ألواح « مجموعته النباتية » النحاسية بعد انقضاء ثلاثة عشر شهراً .

وكان احد الحدادين قد حولها إلى قدور معدنية ذات مقابض . واذ خسر ألواحه هذه ، ولم يعد قادراً حتى على إكمال نماذج « مجموعته النباتية » الناقصة التي كان لا يزال محتفظاً بها ، فقد تخلى عن الصفائح والنص ، بثمن بخس ، لأحد باعة الكتب المستعملة ، بوصفها « نفاية ورق كتاب ما » . وهكذا لم يبق لديه شيء من جهد حياته كلها . وبدأ يستهلك المال الذي باع به تلك النماذج . حتى إذا رأى ان هذا المورد الهزيل يوشك ان ينضب تخلى عن حديقته وأهمل العناية بها . وقبل ذلك ، بل قبل ذلك بكثير ، كان قد تخلى عن البيضتين وقطعة لحم البقر التي اعتاد ان يأكلها بين الفينة والفينة . لقد امسى يجتزيء في طعامه بالخبز والبطاطس . كان قد باع آخر قطعة من أثاثه ، ثم جميع أدوات فراشه وملابسه ، واغطيته الاضافية ، ثم مجموعات نباتاته وصوره المطبوعة على الخشب . ولكنه كان لا يزال يملك كتبه الاكثر نفاسة ، وكان عدد غير قليل منها نادراً إلى ابعد الحدود ، ومن بينها *Les Quadrains Historiques de la Bible* طبعة عام ١٥٦٠ ؛ و « فهرست ألفاظ التوراة » * لبيير دو بيس ، و « زهرات ربيع زهرة الربيع » ** لجان دو لا هاي ، مع اهداء إلى ملكة نافار ، وكتاب « في منصب السفير وفضله » للسيد دو فيليه هوتمان *** و *Florilegium rabbinicum* يرجع عهده إلى ١٦٤٤ ونسخة من ديوان « تيبولوس » **** تعود إلى عام ١٥٦٧ وهي موسومة بهذا الاسم الرائع : *Venetii, in aedibus Manutianis* . واخيراً نسخة من كتاب « ديو جين لا يرس » ***** . طبعت في ليون عام ١٦٤٤ محتوية على مختلف القراءات والروايات الشهيرة التي انطوت عليها المخطوطة

* *La Concordance des Bibles* de Pierre de Besse

** *Les Marguerites de la Marguerite* de Jean de la Haye

*** le livre *de la charge et dignité de l'ambassadeur* par le sieur de Villiers - Hotman.

**** Tibulle شاعر لاتيني تطفى على قصائده مسحة من الكآبة (حوالي ٤ هـ – حوالي ١٩ ق.م.)

***** Diogéne Laérce مؤرخ يوناني الف مجموعة سير للفلاسفة. (القرن الثالث قبل المسيح.)

٤١١ ، القرن الثالث عشر ، في الفاتيكان ، وتلك التي انطوت عليهـــا مخطوطتا البندقية ٣٩٣ و ٣٩٤ ، التي افاد هنري إيتيـين * من مراجعتهـا اعظم الفائدة،وجميع المقاطع الواردة باللهجة الدورية ** في المخطوطة الشهيرة الموجودة في مكتبة نابولي والتي ترجع إلى القرن الثاني عشر .
ولم يوقد مسيو مابوف اية نار في غرفته قط ، وكان من دأبه ان يأوي إلى فراشه قبل غروب الشمس لكي لا يشعل شمعة . لقد بدا وكأنما لم يبق له جيران . وكان الناس يجتنبونه حين يخرج من منزله ؛ لقد لاحظ ذلك . إن بؤس الطفل يثير اهتمام الامهات ، وان بؤس الشاب يثـير اهتمام الفتيات ، أما بؤس الرجل العجوز فلا يثير اهتمام احد . إن ذلك البؤس هو اشد ضروب البؤس برودة . ومع ذلك فان الاب مابوف لم يكن قد خسر صفاءه الاطفالي خسراناً كاملا . وكانت حدقته تستعيد بعض بريقها حين تُسمَّر على كتبه ، وكان يبتسم كلما فكر في نسخة ديـوان ديوجين ليرس ، التي كانت نسخة فريدة . وكانت خزانة كتبه المزججة هي قطعة الاثاث الوحيدة التي احتفظ بها بالاضافة إلى الادوات التي لا يُستغنى عنهـا .

وذات يوم قالت له الأم بلوتارك :

— « ليس عندي ما أشتري به طعام الغداء . »

ولم يكن ما دعته طعام الغداء غير رغيف واربع حبات أو خمس حبات من البطاطس .

فقال مسيو مابوف :

— « اشتري ذلك بالدين . »

— « انت تعرف جيـداً أنهــم يرفضون . »

وفتح مسيو مابوف مكتبته ، وامعن النظر في جميع كتبه واحـــداً

---

* احد افراد اسرة Estienne الشهيرة في تاريخ الطباعة الفرنسية .

** نسبة الى دوريسيا ، المقاطعة القديمة في بلاد اليونان الوسطى . doric

بعد آخر ، مثل والد مضطر إلى ان يقتلُ عشر اولاده فهو ينظر اليهم قبل الاختيار ، ثم تناول واحداً منها على عجل ، وتأبطه ، وخرج . وبعد ساعتين رجع وليس تحت إبطه شيء ، ووضع ثلاثين « سو » ، وقال :

— « سوف يكون في مقدورك ان تُعدّي بعض الطعام . »

ومنذ تلك اللحظة رأت الام بلوتارك حجاباً قاتماً على وجه الرجل العجوز الابيض القلب ، حجاباً لم يُرفع قط بعد ذلك .

وفي اليوم التالي ، وفي اليوم الذي بعده ، وفي كل يوم ، تعيّن عليه ان يبدأ من جديد . كان مسيو مابوف يغادر البيت ومعه كتاب ، ويرجع اليه ومعه قطعة نقدية فضية . وإذ وجد الكتبيون انه مضطر إلى البيع فقد اشتروا منه بعشرين « سو » ما كان قد اشتراه هو بعشرين فرنكاً من اولئك الكتبيين انفسهم في بعض الاحيان . وجلداً إثر مجلد ضاعت المكتبة . وكان يقول في بعض اللحظات : « انا في الثمانين من عمري على اية حال ، » وكأنما كان يراوده أمل متريث في أن ينتهي إلى آخر ايام حياته قبل أن ينتهي إلى آخر كتبه . وتعاظم حزنه . ومع ذلك ، فقد داخله السرور ذات يوم . فقد خرج حاملا نسخة من كتاب طبعه روبير ايتيين * باعه بخمسة وثلاثين « سو » في الـ « كي مالاكية » ورجع حاملا نسخة من كتاب طبعه آلد ** اشتراها باربعين « سو » من شارع دو غري . وقال للام بلوتارك ، مشرق الوجه بالبهجة :

— « انا مدين بخمسة فلوس . »

وذلك اليوم لم يتناول طعام الغداء .

---

* Robert Estienne (١٥٠٣ — ١٥٥٩) احد افراد اسرة ايتيين الشهيرة في تاريخ الطباعة الفرنسية .

** Alde الاسم الاول لكبير أسرة Manuce المعروفة في تاريخ الطباعة الفرنسية ايضاً .

كان عضواً في «جمعية علم زراعة البساتين» . وكان القوم على علم بفقره هناك . وأقبل رئيس هذه الجمعية لزيارته ، ووعده بأن يحدث وزير الزراعة والتجارة في أمره ، ولقد فعل . وصاح الوزير : «ولكن ، كيف ذلك ؟ أنا لا أصدق ! عالم عجوز ! عالم في النبات ! رجل مسالم ! يجب ان نفعل شيئاً من أجله !» وفي اليوم التالي تلقّى دعوة إلى تناول طعام العشاء في منزل الوزير . وأطلع الام بلوتارك على الرسالة ، وهو يرتعش فرحاً وقال : «لقد نعمنا بالخلاص !» وفي الموعد المضروب مضى إلى بيت الوزير . ولاحظ ان رباط رقبته الرث ، وسترته العتيقة ، الواسعة ، المربعة ، وحذاءه المصقول بالبيّض قد أدهشت الآذنين . ولم يتحدث احد اليه ، حتى الوزير نفسه . وحوالى الساعة العاشرة مساء ، فيما كان لا يزال ينتظر ان توجه اليه كلمة ، سمع زوجة الوزير ، وهي سيدة جميلة ترتدي ثوباً يكشف عن جزء من صدرها ، ولم تكن قد جرؤت على الاقتراب منه — سمعها تتساءل : «من هذا الرجل العجوز يا ترى ؟» وانقلب إلى بيته عند منتصف الليل مشياً على القدمين ، تحت وابل من المطر العنيف . وكان قد باع كتاباً من طبع إيلزيفير * لكي يدفع اجرة عربة اقلته إلى بيت الوزير .

وكان قد تعود ان يقرأ كل ليلة ، قبيل ايوائه إلى الفراش ، بضع صفحات من ديوان ديوجين لايرس . وكان يعرف من اليونانية مقداراً مكنه من ان يستمتع بخصائص النص الذي كان يملكه . ولم يكن قد بقي له بعدُ غير هذه البهجة . وتصرمت بضعة اسابيع . وفجأة ، أقعد المرض الام بلورتارك . إن هناك شيئاً ادعى إلى الحزن من فقداننا ما نشتري به الخبز من الخباز ، وهو فقداننا ما نشتري به الادوية من الصيدلي . وذات ليلة ، كان الطبيب قد وصف لها دواء سائلا غالي الثمن

* Elzévir اسرة معروفة من الطابعين اشتهرت في لايدن ، ، ولاهاي ، واوترخت ، وأمستردام في القرنين السادس عشر والسابع عشر . وابرز رجالها لويس ايلزيفير (١٥٤٠-١٦١٧)

جداً . وفوق هذا ، فقد كان داؤها يستفحل يوماً بعد يوم ؛ لقد أمست في حاجة إلى ممرضة . وفتح مسيو مابوف خزانة كتبه ؛ لم يكن قد بقي ثمة شيء . كان المجلد الاخير قد ولى . لم يكن ثمة غير ديوجين لايرس .

وتأبط النسخة الفريدة وغادر المنزل . كان ذلك في اليوم الرابع من حزيران عام ١٨٣٢ . ومضى إلى « باب سان جاك » ، إلى وارث « رويول » ، ورجع بمئة فرنك . ووضع كومة القطع النقدية ذوات الفرنكات الخمسة على طاولة مهجع الخادمة العجوز ، وانقلب إلى غرفته من غير ان يقول كلمة .

وفي اليوم التالي ، عند الضحى ، كان جالساً على النصب المنكوس في حديقته ، وكان في ميسور المرء ان يراه ، من فوق السياج ، جامداً لا يتحرك ، طوال النهار ، مطأطيء الرأس ، مسمّر العين في ذهول على مساكب النبات الذابلة . وذرف الدمع ، بين الفينة والفينة ، وبدا وكأن الشيخ العجوز لم يلحظ ذلك . وعند الاصيل ، انفجرت في باريس أصوات خارقة للعادة . كانت تلك الأصوات تشبه طلقات البنادق ، وصيحات الجماهير .

ورفع الأب مابوف رأسه . لقد رأى بستانياً يعبر السبيل ، وسأله :

— « ما هذا ؟ »

واجابه البستاني ، ومعزقته على كتفه ، في نبرة ليس اهدأ منها :

— « إنها فتن . »

— « ماذا ؟ فتن ؟ »

— « نعم : إنهم يتقاتلون ؟

— « علام يتقاتلون ؟ »

فقال البستاني :

— « آه ! ايتها السيدة العذراء ! »

وتابع مسيو مابوف :

— « في اية ناحية ؟ »

— « قرب دار الصناعة . » *Arsenal*

وانقلب الاب مابوف إلى منزله ، واخذ قبعته . وبحث في حركة آلية عن كتاب يتأبطه ، ولم يجد شيئاً من ذلك ، وقال : « آه ! هذا صحيح ! » ومضى لسبيله وعلى وجهه سيما ذاهلة .



الكتاب العاشر

اليوم الخامس من حزيران ١٨٣٢

١

ظاهر المسألة

ممّ كانت تلك الفتنة مؤلفة ؟ من لا شيء ومن كل شيء . من كهرباء انعتقت شيئاً فشيئاً ، من لهب اندلع على نحو فجائي ، من قوة تائهة ، من ريح عابرة . وهذه الريح تلتقي برؤوس تفكر ، وعقول تحلم ، ونفوس تتألم ، وأهواء تضطرم ، وضروب من الشقاء تعوي ، — تلتقي بها وتجرفها .

إلى أين ؟

بلا تبصّر ولا قصد . عبر الدولة ، عبر القوانين ، عبر رفاهية

الآخرين وغطرستهم :

إن المعتقدات المُهاجة ، والحماسة المغيظة ، والسخط المثار ، وغرائز الحرب المكبوتة ، والشجاعة الفتية الممجدة ، والحوافز النبيلة ، والفضول ، وحب التغيير ، والظمأ إلى غير المتوقع ، وتلك العاطفة التي تجعلنا نبتهج ونحن نقرأ الاعلان عن مسرحية جديدة ، والتي تجعل قرع جرس الملقن على المسرح صوتاً محبباً إلى القلوب ، والاحقاد الغامضة ، والضغائن ، وخيبات الامل ، وكل باطل يعتقد أن القدر كان سبباً في اخفاقه ، وضروب القلق ، والاحلام الفارغة ، والمطامح المطوقة بأسوار عالية ، وكل من يرجو مخرجاً من انهيار ، واخيراً ، في أعمق الاعماق ، أخلاط الناس ، ذلك الوحل الذي يشتعل — تلك هي عناصر الفتنة .

كل ما هنالك من عظيم مغال في العظمة وكل ما هنالك من وضيع ممعن في الضعة . إن اولئك المخلوقات الذين يطوفون بالليل خارج كل شيء ، منتظرين فرصة ، متشردين ، ناساً من غير عمل ، متسكعين حول زوايا الشوارع ، اولئك الذين ينامون في الليل في بادية من البيوت سقوفها سحب السماء الباردة ، اولئك الذين يلتمسون خبزهم كل يوم من المصادفة لا من العمل ، أبناء الشقاء والعدم المجهولين ، ذوي الأذرع العارية ، والاقدام العارية — إن هؤلاء جميعاً هم ملك الفتنة .

وكل من يستشعر في روحه انتفاضة سرية ضد أي عمل مهما يكن من اعمال الدولة ، أو الحياة ، او القدر إنما يتاخم الفتنة . فما ان تطلع رأسها ، حتى يشرع في الارتعاد ، وفي الشعور بأن الزوبعة تجرفه .

الفتنة ضرب من الاعصار في الجو الاجتماعي يتشكل فجأة في بعض حالات الحرارة ، إعصار ما إن ينطلق مدوماً حتى يصعد ، ويعدو ، ويرعد ، ويمزق ، ويهدم ، ويسحق ، ويخرب ، ويقتلع ، ويجرف معه الطبائع الرفيعة والخسيسة ، الرجلَ القوي والعقل الضعيف ، جذعَ

الشجرة والقشة :

والويل لمن تجرفه ، والويل لمن تصطدم بـه على حد سواء ! إنهـا تضرب احدهما بالآخر فتحطمهما جميعاً .

إنها تبعث في نفوس من تستبد بهم قدرة غريبة خارقة . إنها تفعـم أول وافد بقوة الاحداث . إنها تصنع من كل شيء قذائف . إنها تصنع من حجر البناء غير المنحوت قنبلة ، ومن الحمال جنرالا .

وإذا كان لنا ان نصدق بعض هواتف السياسة المرائية ذات الوجهين ، فان قليلا من الفتنة مرغوب فيه ، من وجهة النظر الحكومية . المذهب : الفتنة تقوّي تلك الحكومات التي لا تسقطها . انها تختبر الجيش ، إنهـا تكتل البورجوازية ، إنها تمدد عضلات الشرطة ، إنها تحدد قوة الهيكل الاجتماعي . إنها تدريب رياضي ، وهي تكاد أن تكون صحية . والسلطة تكون احسن حالا بعد فتنة من الفتن كالرجل بعد عملية دلك .

والفتنة كان ينظر اليها ، منذ ثلاثين عاماً ، من زاوية اخرى ايضاً :

ان ثمـة نظرية في كل شيء تدعو نفسها « الحصافة » . فيلينت ضد آلسيست * ، وساطة تُقدَّم بين الحق والباطل ، تفسير ، تبكيت ، تلطيف متغطرس بعض الشيء ، يحسب نفسه — لانه مزيج من اللـوم والعذر — حكمة ، وليس هو في كثير من الاحيان غير تظاهر بالعلم . ولقد انبثقت من ذلك مدرسة سياسية برمتها ، تدعى « بين بين » . بين الماء البارد والماء الحار ، ذلك هو حزب الماء الفاتر . إن هذه المدرسة بعمقها المزعوم ، وسطحيتها الكاملـة ، هـذه المدرسة التي تشرّح النتائج من غير ان ترجع إلى الاسباب ، توجه التوبيخ ، من ذروة علم زائف ، إلى قلاقل الساحة العامة .

إسمع هذه المدرسة تقول : « ان الفتن التي عقّدت وقائع ١٨٣٠ قد

---

* Philinte احدى شخصيات مسرحية المستوحش Misanthrope لموليير ، وتمتاز هذه الشخصية بالتساهل على نقيض شخصية Alceste في الرواية نفسها .

سلبت ذلك الحدث العظيم جزءاً من نقائه . إن ثورة تموز كانت نسيماً عليلا من النسائم الشعبية عقبتها فجأة سماء زرقاء . ولكن هذه الفتن اعادت الضباب إلى تلك السماء . لقد هبطت بتلك الثورة ، التي كانت في أول امرها رائعة جداً في الاجماع ، إلى درك الخصام والمشاجرة . ففي ثورة تموز ، كما في كل تقدم فجائي ، كانت ثمة صدوع خفية فاذا بالفتن تجعل تلك الصدوع ملموسة . وفي ميسورنا ان نقول : « آه! هذه مكسورة . » بعد ثورة تموز لم نستشعر إلا الخلاص ، وبعد الفتن لم نستشعر إلا الكارثة »

« كل فتنة تغلق الدكاكين ، وتخفض الوفر ، وتروّع البورصة ، وتعطل التجارة ، وتعرقل الاعمال ، وتعجل في الافلاسات ؛ لا مال بعد اليوم ، فالثروات الخاصة مزعزعة ، وثقة الناس بالدولة مقلقلة ، والصناعة مبلبلة ، ورأس المال متقهقر ، والعمل مطفّف الاجر ؛ الخوف ، في كل مكان ، والانتفاضات المضادة في جميع المدن . ومن هنا الهُوّى الفاغرة افواهها . لقد قدر المقدرون ان اليوم الاول من فتنة من الفتن يكلف فرنسة عشرين مليوناً ، واليوم الثاني اربعين ، واليوم الثالث ستين . إن فتنة ثلاثة ايام تكلف مئة وعشرين مليوناً ، يعني – إذا نظرنا إلى النتيجة المالية ليس غير – ما يساوي نكبة ، كارثة غرق أو خسارة معركة ، جديرة بأن تمحق اسطولا مؤلفاً من ستين بارجة حربية .

« وليس من ريب ، تاريخياً ، في ان الفتن كان لها جمالها . فحرب الشوارع ليست اقل عظمة واقل تأثيراً في النفس من حرب الأدغال . في احداهما روح الغابات ، وفي الاخرى فؤاد المدن . في احداهما جان شووان *Jean Chouan* وفي الاخرى جان *Jeanne* . لقد أضاءت الفتن ، بنور احمر ، ولكن على نحو بهي ، جميع ثمرات الخلق الباريسي الاكثر اصالة ، السخاء ، والتفاني ، والبهجة العاصفة ، والطلاب

مثبتين ان الشجاعة جزء من الذكاء ، والحرس الوطني راسخاً غير متزعزع ، ومعسكرات اصحاب الدكاكين الخلوية ، وقلاع «المتشردين» ، والازدراء بالموت عند عابري السبيل . لقد اصطدمت المدارس والكتائب. وعلى اية حال ، فبين المتقاتلين لم يكن ثمة غير فارق في العمر . انهم من العرق نفسه . انهم الرجال البواسل انفسهم الذين يموتون في سن العشرين من أجل عقائدهم ، وفي سن الاربعين من أجل عائلاتهم . وقاوم الجيش – الكثيب دائماً في الحروب الاهلية – الجسارة بالفطنة . وأدت الفتن ، فيما كشفت عن شجاعة الشعب ، إلى تهذيب البسالة البورجوازية .

« حسن جداً . ولكن أيساوي هذا كله الدم المسفوح ؟ وإلى الدم المسفوح أضف المستقبل المسوّد ، والتقدم المعوّق ، والقلق المستحوذ على احسن الناس ، والاحرار المخلصين يائسين ، والطغيان الاجنبي مبتهجاً بتلك الجراح التي أنزلتها الثورة بنفسها ، ومغلوبي ۱۸۳۰ منتصرين قائلين : « لقد قلنا لكم ذلك ! » أضف باريس وقد عظمت ، ربما ، ولكن بعد أن تقلصت فرنسة ، من غير شك . أضف ، إذ يتعين علينا ان نقول كل شيء ، المذابح التي كثيراً ما شانت انتصار النظام وقد غدا ضارياً ، على الحرية وقد غدت مجنونة . وعلى الجملة ، فالفتن كانت مشؤومة . »

هكذا تتكلم هذه الحكمة التقريبية التي تقنع بها البورجوازية ، أي الشعب كله تقريباً ، في كثير من الرضا .

أما نحن فنرفض هذه الكلمة الواسعة اكثر مما ينبغي ، والملائمة بالتالي اكثر مما ينبغي : الفتنة . فنحن نميز ونفرّق بين حركة شعبية وحركة شعبية . اننا لا نتساءل اتكلف الفتنة مثل ما تكلف المعركة أم لا . ففي المحل الاول ، ولم المعركة ؟ هنا تنشأ مسألة الحرب . أتكون الحرب أقل حفولاً بالآفات من حفول الفتنة بالبلايا ؟ وفوق هذا ، فهل جميع الفتن بلايا ؟ وما القول لو ان يوم ١٤ تموز كلف مئة وعشرين

مليوناً ؟ إن تثبيت فيليب الخامس في اسبانية قد كلف فرنسة ألفي مليون . وحتى لو تساوى الثمنان إذن لآثرنا الرابع عشر من تموز . وإلى ذلك ، فنحن نطرح هذه الارقام ، التي تبدو اسباباً ، والتي لا تعدو ان تكون كلمات ليس غير . اننا حين تعطى فتنة ندرسها في ذاتها . وفي كل ما قاله ذلك الاعتراض النظري المبسوط في الفقرات السابقة أخذت النتيجة بعين الاعتبار . اننا نلتمس السبب .

إننا نفحص .

٢

باطن المسألة

هناك الفتنة ، وهناك الثورة . ذانك غضبان اثنان . الأول على ضلال ، والثاني على صواب . وفي الدول الديموقراطية ، وهي الحكومات الوحيدة المؤسسة على العدل ، يتفق في بعض الأحيان ان يعمد الجزء إلى الاغتصاب ، وعندئذ ينتفض الكل ، وقد يقتضيهم الاسترداد الضروري لحقهم ان يذهبوا إلى حد امتشاق الحسام . وفي جميع المسائل التي تنبثق من السيادة الجماعية ، تكون حرب الكل ضد الجزء ثورة ، وهجوم الجزء على الكل فتنة . وتبعاً لما اذا كان قصر التويلري ينطوي على الملك أو على « المؤتمر الوطني » يهاجم بحق أو بغير حق . والمدفع نفسه المصوب إلى الجمهور كان خاطئاً يوم العاشر من آب * ، ومصيباً في الرابع عشر من فانديمير ** . المظهر متشابه ، والكُنْهُ مختلف . إن

* يوم ١٠ آب ١٧٩٢ حين نشبت الثورة الباريسية نتيجة لعودة الوزراء الجيرونديين تلك الثورة التي انتهت الى اعتقال لويس السادس عشر وسقوط الملكية .

** يوم انتصر الجنرال بونابرت ، في داخل باريس ، على العناصر الثائرة ضد المؤتمر الوطني ، في ما بين ١٠ — ١٣ فانديمير (الشهر الاول من السنة الجمهورية الفرنسية ، من ٢٢ ايلول الى ٢١ تشرين الاول) عام ١٧٩٥ او السنة الجمهورية الرابعة

السويسريين قد دافعوا عن الباطل ، أمـا بونابرت فدافع عن الحـق . فما قـد صنعه الاقتراع العام بحريته وسيادته لا يمكن ان ينقضه الشارع . والشيء نفسه صحيح في شؤون التمدن الصرف . فغريزة الجماهير التي كانت أمس حديدة البصر قد تصبح في غد عشواء . والانتفاضة نفسها تكون مشروعة ضد تيراي * وتكون حمقـاء ضـد تورغو ** . إن تحطيم الآلات ، ونهب مستودعات البضائع ، وانتزاع قضبان السكـة الحديدية ، وتخريب احواض السفن ، واساليب الجماهير الخاطئة ، وإنكار الشعب للعدالة من أجل التقدم ، وراموس *** وقد صرعه الطلاب ، وروسو وقـد أُخرج من سويسرة ، تحت وابل من الحجارة — كـل اولئك فتنة . وانتفاضة اسرائيل في وجه موسى ، واثينا في وجـه فوسيون **** ، وروما في وجه شيبيون ***** ، فتنة . أما انتفاضة باريس في وجه الباستيل فثورة . وتمرد الجنود على الاسكندر ، والملاحين على كريستوف كولومبوس عصيان ، عصيان كافر . لماذا ؟ لأن الاسكندر يعمل لآسية بالسيف ما يعمله كريستوف كولومبوس لأميركة بالبوصلة ؛

---

* Terray مراقب المالية (١٧١٥ — ١٧٧٨) في عهد الملك لويس الخامس عشر ، وكان قاسياً لا خلاق له .

** Turgot وزير المالية في عهد لويس السادس عشر ، وقد حاول ان يقوم باصلاحات كبيرة ، ولكنه لم يوفق . (١٧٢٧ — ١٧٨١)

*** Ramus فيلسوف ونحوي فرنسي (١٥١٥ — ١٥٧٢) قتل في مذبحة القديس بارتولوميوس ، وكان من دعاة الاصلاح ، والقائلين بضرورة النظر الى الأشياء على ضوء العقل ولو خالف ذلك ما قرره ارسطو وغيره من الفلاسفة القدماء .

**** Phocion جنرال وخطيب اثيني من الحزب الارستقراطي ، وكان مشهوراً بنزاهته وحبه للسلام . وقد حكم عليه ظلماً بان يشرب الشوكران السام (حوالى ٤٠٠ — ٣١٧ قبل الميلاد) .

***** Scipion قائد روماني شهير قهر هنيبعل في معركة زاما عام ٢٠٢ ق.م ، وقد اتهمه اعداؤه بعد ذلك بسرقة اموال الدولة فمات في المنفى (٢٣٥ — ١٨٣ قبل الميلاد) . وهو يعرف بـ « شيبيون الافريقي » .

الاسكندر ، مثل كولومبوس ، يكتشف عالماً . وهذه الهبة ، هبة عالم برمته ، إلى الحضارة هي امتداد للنور ضخم إلى درجة تجعل كل مقاومة لها مجرمة . في بعض الأحيان يزوّر الشعب الوقاء لنفسه . إن الغوغاء لتخون الشعب . وهل ثمة ما هو أعجب ، مثلا ، من ذلك الاحتجاج الطويل الدامي الذي قام به صانعو الملح المهربون ، وهي انتفاضة مشروعة مزمنة . ما إن حانت اللحظة الحاسمة ، يوم الخلاص ، وفي الساعة التي تم فيها النصر للشعب ، حتى مالأت العرش ، وأعادت « شووان » وانقلبت من ثورة على ، إلى فتنة من أجل ! روائع كالحة من الجهل ! إن صانع الملح المهرب ينجو من المشنقة الملكية ، وفيما لا تزال بقية من الحبل حول عنقه تجده يرفع الشارة البيضاء ! إن موت المكوس على الملح يولّد « فليحيي الملك » . سفاحو القديس بارتولوميوس * ، وقتلة ايلول ** ، وذابحو آفينيون ، وسفكة كوليني *** ، وسفكة مدام دو لامبال **** وسفكة برون ***** وجماعات ال«ميكوليه» ******

---

* Saint — Barthélemy مذبحة شهيرة ذهب ضحيتها عدد ضخم من بروتستانتيي فرنسة وقد وقعت ليل ٢٣ آب سنة ١٥٧٢

** اشارة الى المذابح التي راح ضحيتها ، في فرنسة ، عدد كبير من المعتقلين السياسيين ايام ٢ و٣ و٤ و٥ ايلول عام ١٧٩٢ . ويطلق لفظ الايلوليين او السبتمبريين على المسؤولين عن هذه المذابح .

*** Coligny احد زعماء البروتستانت الذين قتلوا في مذبحة القديس بارتولوميوس (١٥١٩ — ١٥٧٢)

**** Princesse de Lamballe صديقة ماري انطوانيت الحميمة ، وقد قتلت في سجن لا فورس خلال مذابح ايلول المشار اليها آنفاً (١٧٤٩ — ١٧٩٢) .

***** Brune مارشال فرنسة (١٧٦٣ — ١٨١٥) ، وقد قتل في آفينيون ايام الارهاب الابيض .

****** Miquelets عصابة اسبانية قديمة . وال« ميكوليه » الفرنسيون جند انشأه نابوليون ليقاوم به العصابات الاسبانية (١٨٠٨)

و « فيرديه » * ، وكاندونيت ، ورفاق يهوه ، ** ، وفرسان براسّار — تلك هـــــي الفتنة . إن حروب فانديه *** هي فتنة كاثوليكيـة كبرى .

إن صوت الحق الزاحف ليعرف نفسه ، وإنه لا ينبثق دائماً مـن زلزلة الجماهير الهائجة . إن ثمـة هيجانات حمقاء ؛ إن ثمة أجراســاً مصدوعة . فليست النواقيس جميعاً لترن رنين البرونز . وتذبذب الأهواء والجهالات مختلف عن هزة التقدم . تمرد ، إذا شئت ، ولكن لـــكي تَعْظُمَ . دلني في أي اتجاه أنت ماض . ليس ثمة ثورة إلا إلى أمام ؛ وكل تمرد آخر هــــو شر . وكل خطوة عنيفة إلى الوراء هي فتنة . والارتداد عمل من أعمال العنف ضد الجنس البشري . الثورة هي فورة غيظ الحقيقة ؛ وحصباء-الطرق التي تنتزعها الثورة تطلق شرارة الحـق . وهذه الحجارة لا تترك للفتنة غير وحلها . دانتون ضد لويس السـادس عشر — تلك ثورة . أمـا هيبير ضد دانتون — فتلك فتنة .

ومن هنا نستطيـع ان نقول : « إذا كانت الثورة ، في بعض الأحيان، كما قال لافاييت ، اشد الواجبات قداسة ، فان الفتنة ، قد تكون اشد الجرائم شؤمـاً . »

وثمة ايضاً بعض الاختلاف في حدة الحرارة . الثورة كثيراً ما تكون بركاناً . والفتنة كثيراً ما تكون ناراً في هشيم .

والتمرد ، كما قلنا ، كثيراً مـا يكون مـــن جـانب السلطة ؛

---

* Verdets هي العصابات الملكية التي عاثت فساداً في فرنسة بعد اليوم التاسع من تيرميدور والمئة يوم .

** Compagnies de Jéhu عصابات من السفاكين الملكيين ذهب ضحيتها عدد من الجمهوريين الفرنسيين بعد اليوم التاسع من تيرميدور .

*** Vendée هي الحرب الاهلية التي نشبت في غرب فرنسة خلال الثورة وحمل لواءها النبلاء باسم المبدأ الملكي ، عام ١٧٩٣

ﻓ« بولينياك » * كان متمرداً ، وكاميل دو مولين ** كان حاكماً .

وفي بعض الاحيان ، تكون الثورة بعثاً .

وإذ كان حل كل شيء بالاقتراع العام واقعة حديثة بكل ما في الكلمة من معنى ، واذ كانت جميع حقب التاريخ السابقة له ، منذ اربعة آلاف سنة ، حافلة بالحق المعتدى عليه وبآلام الشعب ، فأن كل عهد من عهود التاريخ يحمل معه الاحتجاج الذي يقدر عليه . ففي ظل القياصرة لم يكن ثمة بعث ، ولكن كان ثمة جوفينال *** .

إن الـ facit indignatio **** قد حلت محل الـ Graeques *****

وفي ظل القياصرة نجد منفيّ أسوان ، ونجد ايضاً إنسان «الحوليات» ******

اننا لا نتحدث عن منفيّ باتموس ******* الذي يرهق ، هو أيضاً ، العالم الواقعي باحتجاج باسم المثل الاعلى ، ويجعل من احدى الرؤى قصيدة هجائية ، هائلة ، ويقذف رومة — نينوى ، ورومة — بابل ، ورومة — سدوم بانعكاسات « رؤيا يوحنا » الساطعة :

---

* Polignac رئيس وزراء فرنسة ووزير خارجيتها في اواخر عهد الملك شارل العاشر . وهو الذي اصدر في ٢٩ تموز ١٨٣٠ ، القوانين الشهيرة التي ادت الى ثورة يوليو (١٧٨٠ — ١٨٤٧)

** Camille Desmoulins احد رجال الثورة الفرنسية المشهورين ، وقد سبق التعريف به .

*** Juvénal شاعر لاتيني ساخر هجاء ولد حوالى عام ٤٢ وتوفي حوالى عام ١٢٥ للميلاد . والاهاجي الأربع عشرة التي بقيت لنا من شعره تنضح بروح النقمة على مفاسد رومة .

**** كلام لاتيني أصله *facit indignatio versum* ومعناه : السخط يبعث الشعر . وهو من كلام جوفينال الآنف ذكره .

***** يقصد غييوس غراغوس Gaius Gracchus وأخاه تيباريوس Tiberius وكانا خطيبين ومصلحين يونانيين (١٥٣ ؟ — ١٢١ ق . م) و (١٦٣ ؟ — ١٣٣ ق.م.) .

****** Annales رائعة « تاسيت » (القرن الثاني للميلاد) في التاريخ الروماني منذ موت الامبراطور اوغوسطوس حتى موت نيرون . وفيها يقدم تاسيت الينا وصفاً رائعاً لحقيقة المجتمع الروماني في ظل الامبراطورية .

******* Pathmos جزيرة في بحر ايجه تؤلف جزءاً من الدوديكانيز ، وقد اشتهرت باقامة القديس يوحنا فيها بعد ان نفاه اليها الامبراطور الروماني دوميسيين ، حيث وضع كتابه المعروف برؤيا يوحنا Apocalypse .

ان يوحنا فوق صخرته ، اشبه بابي الهول فوق قاعدته . اننا لا نستطيع ان نفهمه . إنه يهودي ، وهو يتكلم العبرية . ولكن الرجل الذي كتب « الحوليات » لاتيني ، ولنقل ، على الاصح ، إنه روماني .

وإذْ كان النيارنة * يحكمون على النحو الاسود ، فينبغي ان يصوَّروا على الغرار نفسه . إن العمل بالمنقاش وحده خليق به ان يكون شاحباً . ففي الاخاديد يجب ان يُفرغ نثر مركّز من الضرب الذي يلسع .

الطغاة عون للمفكرين . فالرأي المصفد بالأغلال رأي رهيب . والكاتب يضاعف اسلوبه ويثلثه حين يفرض سيد ما الصمت على الشعب. وانما ينبثق من هذا الصمت قوة غريبة تترشح وتتخثر إلى قُلْز ** في الافكار . إن الضغط في التاريخ يولد الايجاز ،في المؤرخ . والصلابة الصوانية التي يتسم بها بعض المأثور من النثر ليست غير تكثيف يقوم به الطاغية .

الطغيان يُكره الكاتب على ان يقصّر قطر الدائرة تقصيراً هو زيادة في القوة . والعهد الشيشروني ، الذي يكاد يكون كافياً في حق فيريس*** خليق به أن يتثلم في حق كاليغولا **** . بسطٌ اقل في العبارة ، وعنف اشد في الضربة . إن « تاسيت » ***** يفكر وذراعه متقلصة .

إن نبالة القلب الكبير ، مكثفةً إلى عدالة وحقيقة ، لتفعل فعل الصاعقة .

---

* جمع نيرون.

** القلز سبيكة من نحاس وقصدير .

*** Verrès قنصل روماني مطلق الصلاحية (۱۱۹ — ٤٣ ق.م.) اشتهر بارتهانه وبلجوئه الى النهب في مدن صقلية . وقد اتهمه شيشرون بسرقة مال الدولة .

**** كاليغولا امبراطور روماني (۱۲ — ٤١ م .) وقد بلغت به القسوة حداً جعله يتمنى لو كان للشعب الروماني رأس واحدة حتى يقطعها بضربة واحدة ، وبلغ به الجنون حداً جعله يعين جواده اينسيتاتوس Incitatus قنصلا .

***** المؤرخ الروماني الشهير، وقد سبق التعريف به .

ولنقل على الهامش ان تاسيت ، تاريخياً ، ليس منضوداً فوق قيصر . إن التياريين قد أفردوا له . إن قيصر وتاسيت ظاهرتان متعاقبتان يبدو أن اجتماعهما كان يُجتنب من قبل ذلك الذي ينظّم ، عند إخراج العصور والقرون المسرحي ، دخول الممثلين وخروجهم . قيصر عظيم ، وتاسيت عظيم . والله يدخر هاتين العظمتين بأن لا يوقع الصدام بينهما. والمتصدر للقضاء ، اذ يضرب قيصر ، قد يضربه بأعنف مما ينبغي ، ويجور عليه . إن الله لم يشأ ذلك . وحروب افريقية واسبانية الكبرى ، والقضاء على قراصنة سيليزيا ، وإدخال الحضارة إلى بلاد الغال ، وإلى بريطانية ، وإلى المانية ، هذا المجد كله يغطي الـ « روبيقون » * : إن ههنا لضرباً من لطافة العدالة الالهية ، فهي تتردد في أن تطلق المؤرخ الرهيب على المغتصب الماجد ، منقذة قيصر من تاسيت ، مانحة العبقرية الاسبابَ التخفيفية .

وليس من ريب في ان الاستبداد يظل هو الاستبداد حتى في ظل المستبد العبقري . إن هناك فساداً في ظل الطغاة الماجدين ، ولكن الطاعون الاخلاقي يكون أشد بشاعة في ظل الطغاة المرذولين . وفي هذه العهود ، لا شيء يحجب العار . وضاربو الامثال للاعتبار ، من مثل تاسيت وجوفينال ، يَلطِمون انفع ما يكون اللطم في حضرة الجنس البشري ، ذلك الخزي الذي لا يعرف العذر .

إن رائحة رومة في عهد فيتيليوس ** أكرهُ منها في عهد سيلا ***

* Rubicon نهر في ايطالية الوسطى الشمالية ، على بعد عشرين ميلا من بحر الادرياتيك. وكان مجلس شيوخ رومة قد حرم عبور هذا النهر الذي كان يفصل بلاد غالة الخاضعة لنفوذ قيصر عن ايطالية نفسها ، ولكن قيصر اجتازه غير مبال بذلك الخطر فنشبت بينه وبين الحكومة الرومانية ، وكان على رأسها آنذاك بومبييوس ، حرب اهلية .

** Vitellius امبراطور روماني لم يحكم غير ثمانية اشهر وبضعة ايام من عام ٦٩ للميلاد ، وكان مشهوراً بفسقه وشرهه وقسوته .

*** Sylla امبراطور روماني سبق التعريف به .

وفي ظل كلوديوس * ودوميسيان ** نجـد شناعة دناءة مطابقـة لبشاعة الطاغية . إن خساسة العبيد نتيجة من نتائج المستبد المباشرة ، وإن أبخرة وبيئة لتتصاعد من هذه الضمائر النتنة التي تعكس صورة السيد . ان السلطات العامة غير نظيفة ، القلوب صغيرة ، والضمائر غائرة ، والنفوس كريهة الرائحة ، تلك هي الحال في عهد كركلا *** ، وتلك هي الحال في عهد كومودوس **** ، وتلك هي الحـال في عهـد هيليو غابالوس ***** فيما انبعثت من مجلس الشيوخ الروماني في عهد قيصر فحسب رائحة الروث التي تميز أوكار النسور .

ومن هنا مجيء امثال تاسيت وجوفينال ، ذلك المجيء الذي يبدو متأخراً . ففي ساعة الاثبات يبرز المعلّم .

ولكن جوفينال وتاسيت ، مثل أشعيا نفسه في العهود التوراتية ، ومثل دانتي نفسه في القرون الوسطى ، هما من بني الانسان . إن الفتنة والثورة هما الجمهور ، الذي يكون على ضلال حيناً ، وعلى حق حيناً .

وفي الاعم الاغلب تنبثق الفتنة من واقعة مادية . أما الثورة فهـي ظاهرة اخلاقية دائمـاً . الفتنة هي ماسانيلو ****** أما الثورة فهي

---

* Claude الاول ، امبراطور روماني كان مريضاً وجباناً أجاز لامرأته آغريبين ان تسيطر عليه (١٠ ق.م – ٥٤ ب.م) .

** Domitien امبراطور روماني تولى الحكم عام ٨١ – ٩٦ للميلاد وكان عهده اول الامر سعيداً ولكنه ختمه بدكتاتورية طاغية .

*** Caracalla امبراطور روماني من اصل سوري دام حكمه من عام ٢١١ – ٢١٧ ، وقد تميز عهده بسلسلة من الجرائم والحماقات ، ويقال انه اهلك عشرين الف رجل .

**** Commode أمبراطور روماني ، ابن مارك اوريليوس . وقد اشتهر بوحشيته . وقد قتل مسموماً (١٦١ – ١٩٢)

***** Héliogabale امبراطور روماني من اصل سوري ، وقد دام حكمه من عام ٢١٨ الى عام ٢٢٢ . وكان شديد القسوة ، ممعناً في الفسوق .

****** Masaniello ثائر شعبي من ثوار نابولي ، (١٦٢٣ – ١٦٤٧) وقد تزعم ثورة بناء نابولي على الاستبداد الاسباني .

سبارتاكوس * الثورة تتاخم العقل ، والفتنة تتاخم المعدة . إن غاستر ** لشديد الاهتياج ، ولكن غاستر ليس دائماً من غير شك ، على ضلال . ففي حالات المجاعة تكون الفتنة — بوزانسيه مثلا — ذات مُنْطَلَقٍ حقيقي عادل ، مثير لاشجان النفس . ومع ذلك تظل فتنة . لماذا ؟ لأنها برغم كونها على حق في الاساس ، كانت على خطأ ، في الشكل . إنها ضارية ، وان تكن محقة ؛ عنيفة ، وإن تكن قوية ، ولقد ضربت ضربتها في غير تبصر . لقد مشت مشية فيل أعمى ، ساحقة كل شيء . لقد خلفت وراءها جثث شيوخ ، ونساء ، واطفال . لقد سفحت ، من غير ان تدري لماذا ، دماء المسالمين والابرياء . إن تقديم الغذاء إلى الشعب غاية حسنة ، ولكن تذبيح الشعب وسيلة سيئة .

كل احتجاج مسلح ، حتى الأكثر شرعية ، حتى اليوم العاشر من آب ، حتى اليوم الرابع عشر من تموز ، ينتهي بالبلاء نفسه . وقبل ان ينطلق الحق من عقاله لا بد من جلبة وزبد . الانتفاضة تكون في البدء فتنة ، كما يكون النهر سيلا . وهي تنتهي في العادة إلى هذا الاوقيانوس : الثورة . إلا انها إذ تندفع في بعض الاحيان من تلك الجبال السامقة التي تهيمن على الافق الاخلاقي — العدالة ، الحكمة ، العقل ، الحق — المصنوعة من ثلج المثل الاعلى الاشد نقاوة ، وبعد ان تسقط من صخرة إلى صخرة سقوطاً متطاولا ، وبعد ان تعكس السماء في شفافيتها وتتضخم بمئة رافد في طريقها الجليل المظفر ، تتيه الثورة في بعض الحمآت البورجوازية كما يتيه الراين في أرض سبخة .

ذلك كله من أمور الماضي ، أما المستقبل فشيء آخر . فالاقتراع العام هو من الروعة بحيث يذيب الفتنة في مبدأه ؛ ومن طريق التصويت

* Spartacus زعيم الثورة الزنجية في عهد الرومان ، وقد سبق التعريف به .

** Gaster احدى الشخصيات التي أبدعها الكاتب الفرنسي رابليه ، وهي ترمز الى البطن او الى المعدة .

للثورة بجردها من سلاحها . إن امحاء الحروب ، حرب الشوارع وحرب الحدود ، هو التقدم المحتوم . وأياً ما كان اليومُ ، فغداً سلام .

وإلى هذا فالبورجوازي ، بالمعنى الدقيق للكلمة ، قليلا ما يعرف الظلال التي تميز الثورة عن الفتنة . كل ذلك ، في نظره ، شغب ، مجرد عصيان ، تمرد الكلب على سيده ، محاولة نهش ينبغي ان تعاقب بالسلاسل والحبس ضمن جدران الكوخ ، مجرد عواء ، ونباح ، حتى اليوم الذي يبرز فيه رأس الكلب وقد تعاظم فجأة – في الظلام ، وعلى غير وضوح – وأمسى له وجه أسد من الاسود .

عندئذ يهتف البورجوازي : فليحي الشعب !

أما وقد قدمنا هذا التفسير ، فما هي – في نظر التاريخ – حركة حزيران ، ١٨٣٢ ؟ أهي فتنة ؟ أهي ثورة ؟

إنها ثورة .

وقد يتفق لنا ، في هذا الاخراج لحادثة رهيبة ، ان نلفظ في بعض الأحيان ، كلمة الفتنة ، ولكن لنشير إلى وقائع ظاهرية ليس غير ، مؤكدين دائماً على التمييز بين الشكل الذي هو فتنة ، والجوهر الذي هو ثورة .

لقد كان لحركة ١٨٣٢ ، في انفجارها السريع وخمودها المأتمي ، عظمةٌ بالغة تجعل حتى اولئك الذين لا يرون فيها غير فتنة لا يتحدثون عنها إلا باحترام . انها عندهم اشبه ببقية من عام ١٨٣٠ . وهم يقولون : إن الخيالات الهائجة لا تهدأ في يوم واحد . والثورة لا تنحسم عمودياً . ان بعض التموجات الضرورية لتصاحبها دائماً قبل العودة إلى حال السلم ، كالجبل في هبوطه نحو السهل . فليس ثمة جبال ألب من غير « جورا » * ، ولا جبال برانس (بيرينيه) من غير آشتوريس ** .

---

* Jura سلسلة جبال تفصل ما بين فرنسة وسويسرة ، ويبلغ طولها ثلاثمئة كيلو متر .

** مقاطعة اسبانية قديمة ، جبلية الارض ، تطبق عليها جبال البرانس (البيرينيه) .

هذه الأزمة المؤثرة من ازمات التاريخ المعاصر التي تدعوها ذاكرة الباريسيين «**عهد الفتن**» هي من غير شك حقبة متميزة وسط حقب هذا القرن العاصفة . بقيت كلمة أخيرة قبل ان نستأنف القصة .

إن الاحداث التي نوشك على روايتها تمت بالنسب إلى تلك الحقيقة المسرحية الحية التي يهملها المؤرخ في بعض الأحيان لضيق الوقت والمجال. ومع ذلك ، فان فيها — ونحن نصر على ذلك — حياةَ الانسانية ، ونبضها ، وارتعاشها . إن الاحداث الصغيرة — كما سبق ان قلنا في ما نظن — هي إذا جاز التعبير توريق الاحداث الكبرى ، وانها لتضيع في أبعاد التاريخ . والحقبة الموسومة بـ « حقبة الفتن » تزخر بتفاصيل من هذا النوع . والتحقيقات القضائية ، لاسباب اخرى غير التاريخ ، لم تكشف عن شيء . بل لعلها لم تذهب إلى أعماق أي شيء . واذن ، فسوف نُظهر إلى النور ، بين الاحداث المعروفة والمنشورة ، اشياء لم تعرف قط من قبل ، ووقائع عفى النسيان على بعضها ، وعفى الموت على بعضها الآخر . ومعظم الممثلين في هذه المشاهد الضخمة قد زالوا . لقد اعتصموا ، منذ اليوم التالي ، بالصمت . ولكننا نستطيع ان نقول إننا قد رأينا ما سوف نرويه هنا . إننا سوف نغير بعض الاسماء ، ذلك بأن التاريخ يقصّ ولا يشي ، ولكننا سوف نصور الحقيقة . وبسبب من طبيعة هذا الكتاب الذي نؤلفه ، لن نُظهر غير جانب واحد وغير حادث واحد ، وذلك بلا ريب هو ما يجهله الناس اكثر ما يكون ، من يومي ٥ و ٦ حزيران ١٨٣٢ . بيد اننا سوف نفعل ذلك على نحو يمكن القاريء من ان يلمح ، تحت الحجاب القاتم الذي نوشك ان نرفعه ، الوجهَ الحقيقي لتلك المأساة العامة الرهيبة .

٣

دفنٌ . فرصة للبعث

في ربيع عام ١٨٣٢ ، وعلى الرغم من ان الكوليرا كانت قد اوقعت القشعريرة في جميع القلوب وألقت على اضطرابها هدوءاً فاجعاً يمتنع على الوصف ، كانت باريس مستعدة منذ زمن طويل لهزة عنيفة ؛ وكما قلنا من قبل ، تشبه المدينة الكبيرة مدفعاً ، فما إن يشحن بالمتفجرات حتى تكفي شرارة ساقطة لاندلاع النار . وفي حزيران ، ١٨٣٢ ، كانت الشرارة هي وفاة الجنرال لامارك .

كان لامارك ، رجل صيت وعمل . وكان قد تحقق ، في نجاح ، في ظل الامبراطورية والعهد البوربوني الجديد ، بالشجاعتين الضروريتين للعهدين : بسالة الميدان ، وبسالة المنبر . كان بليغاً بقدر ما كان باسلاً ؛ ولقد استشعر الناس سيفاً في كلامه . ومثل فوى ، سلفه ، رفع لواء الحرية بعد ان رفع لواء القيادة . لقد اتخذ مكانه بين اليسار واليسار المتطرف ، وكان حبيباً إلى الشعب لأنه ارتضى حظوظ المستقبل ، وكان حبيباً إلى الجماهير لأنه قد اخلص في خدمة الامبراطور . كان ، مع الكونت جيرار * والكونت دروويه ** ، احد مارشالات نابوليون غير الرسميين . ولقد اعتبرته معاهدات عام ١٨١٥ إهانة شخصية . كان يبغض ولينغتون بغضاً مباشراً سرَّ الجماهير ؛ وطوال سبعة عشر عاماً

* Gérard مارشال فرنسة (١٧٧٣ – ١٨٥٢) لمع نجمه في معركتي ليني Ligny (١٨١٥) واستولى على انفرس (١٨٣٢) وتولى في عهد لويس فيليب وزارة الحربية ورئاسة مجلس الوزراء .

** Drouet مارشال فرنسة (١٧٦٥ – ١٨٤٤) لمع نجمه في المعارك التي خاضتها جيوش بونابرت في عهد الامبراطورية وابلى بلاء حسناً في واترلو . وفي عام ١٨٣٤ عين حاكماً للجزائر .

احتفظ في جلال بكآبة واترلو غير منتبه إلا بشق النفس إلى الاحداث المتخللة ما بين الفترتين . وفيما هو يعالج سكرات الموت ، في ساعتـه الاخيرة ، شد إلى صدره سيفاً كان ضباط « الايام المئة » قد أهدوه اياه . لقد مات نابوليون وهو يلفظ كلمة الجيش ، ومات لامارك وهو يلفظ كلمة الوطن .

وكان موته ، المرتقب ، موضع رهبة الشعب بوصفه خسارة ، وموضع رهبة الحكومة بوصفه فرصة . لقد كانت تلك الميتة حداداً . وككل ما هو مرير ، قد ينقلب الحداد إلى ثورة . وهذا ما حدث .

وعشية الخامس من حزيران وصباحه ، وهو اليوم المعين لدفن لامارك، اتخذت ضاحية سان انطوان – وكان مقدراً للموكب ان يمسها مساً رفيقاً – مظهراً رهيباً . كانت شبكة الشوارع الصاخبة تلك مـلأى بالشائعات . وتسلح الناس على النحو الذي وفقوا اليه . وحمل بعض النجارين ملازم طاولاتهم الحديدية لـكي « يخرقوا الابواب » . وكان احدهم قد اتخذ من كلاّب لصنع الاحذية خنجراً ، وذلك بـأن كسر الكلاب وشحذ بقيته الباقية . وكان آخر ، في حمّى الرغبة في « الهجوم » ، قد نام ، ثلاث ليال ، مـن غير ان يخلع ثيابه . والتقى نجار يدعى لومبييه برفيق له ، فسأله رفيقه هذا : — « إلى اين انت ذاهب ؟ » — « حسن ، ليس عندي سلاح . » — « ثم ماذا ؟ » — « انا ذاهب إلى مشغلي المكشوف لأجيء ببركاري . » — « وما تعمل به ؟ » فقال لومبييه : « لست ادري . » وراح رجل يدعى جاكلان ، وكان من رجال الاعمال ، يدنو من اي عامل يلتقي بـه ويقول : « تعال ، انت ! » وكان يحييه بمقدار من الخمر يساوي عشرة فلوس قائلا : — « أعندك عمل ما ؟ » — « لا ! » — « إذهب إلى محل فيلسبيير ، بين باب مونتروي وباب شارون ، وهناك ستجد عملا . » ووجدوا عند فيلسبيير خراطيش وأسلحة . وقام بعض الزعماء

المعروفين بهمة البريد ، يعني انهم انشأوا ينطلقون من بيت إلى بيت ليجمعوا الناس . وفي حانة بارتيلوميوس قرب « لا باريير دو ترون » ، وفي حانة كابيه ، في الـ « بيتي شابو » ، دنا بعض الشاربين إلى بعضهم ، وسيما الجد تغلب على وجوههم . لقد سُمعوا يقولون : — « اين غدارتك ؟ » — « تحت دُراعتي . » — « وغدارتك انت ؟ » — « تحت قميصي » . وفي شارع ترافرسيير ، تجاه معمل رولان ، وفي فناء الـ « ميزون بروليه » تجاه معمل برنييه صانع الماكينات كانت جموع من الناس تتهامس . ولوحظ بين اشدهم التهاباً رجل يدعى « مافو » ، وهو عامل ما كان ليشتغل اكثر من اسبوع واحد في معمل واحد ، لأن اصحاب المعامل كانوا يطردونه « لاضطرارهم إلى التشاجر معه كل يوم » . وقتل « مافو » في اليوم التالي في متراس شارع مينيلوتان . وساعد « مافو » هذا عامل آخر يدعى « بريتو » قدّر له ان يُصرع ايضاً في المعركة ، وكان إذا ما سئل : « ما غايتك ؟ » يجيب : « الثورة » . وكان بعض العمال المتجمهرين في زاوية شارع بيرسي ينتظرون رجلا يدعى لومارين ، وهو عميل ثوري مسؤول عن ضاحية سان انطوان . وكان القوم يتبادلون الشعارات وكلمات التعارف على نحو علني تقريباً .

في اليوم الخامس من حزيران ، اذن ، وهو يوم امتزج فيه المطر باشعة الشمس ، اخترقت جنازة الجنرال لامارك شوارع باريس بالابهة العسكرية الرسمية المألوفة ، وقد بولغ بها بعض الشيء على سبيل الحذر . لقد واكبت النعش فرقتان من الجند ، وطبول مجللة بالسواد ، وبنادق منكسة ، وعشرة آلاف من رجال الحرس الوطني وسيوفهم إلى جوانبهم ، ومدفعية الحرس الوطني . وجر الشباب مركبة الموتى . وتبعهم على الأثر ضباط مشوهي الحرب ، حاملين اغصان الغار . ثم اقبلت جماعات لا تحصى ، غريبة مهتاجة ، وأفواج « اصدقاء الشعب » ،

ومدرسة الحقوق ، ومدرسة الطب ، واللاجئين من مختلف الجنسيات ، ورايات اسبانية ، وايطالية ، وألمانية ، وبولندية ، واعلام أفقية مثلثة الألوان ، وكل راية يمكن ان تخطر بالبال ، واطفال يلوحون بأغصان خضر ، وحجارون ونجارون كانوا مضربين في تلك اللحظة بالذات ، وطابعون متميزون بقبعاتهم الورقية ، يمشون اثنين اثنين ، وثلاثة ثلاثة ، مطلقين الصيحات ، هازين العصي كلها تقريباً ، وبضعةً من السيوف ، في غير ما نظام ، ولكن بروح مفردة ، فهم جمهرة حاشدة حيناً ، وهم صف ضيق طويل حيناً . واختارت جماعات منهم زعماء لها : وبدا رجل مسلح بغدارتين ظاهرتين للعيان اتم الظهور وكأنه يستعرض رجالا آخرين وهم يبتعدون عنه في طوابير . وفي ازقة الجادات ، ووسط اغصان الاشجار ، وعلى الشرفات ، وفي النوافذ ، وعلى السطوح كانت حشود من الرؤوس : رجالا ونساء واطفالا . كانت أعينهم ملأى بالقلق . كانت جمهرة مسلحة تمرّ ، وكانت جمهرة مروّعة تنظر .

والحكومة من ناحيتها ، كانت تراقب . لقد راقبت ، ويدها على مقبض السيف . ولقد كان في ميسور المرء ان يرى ، على قدم الزحف ، في ساحة لويس الخامس عشر — وقد زُودت بصناديق ملأى بالخراطيش وببنادق طويلة وبنادق قصيرة مشحونة — اربعَ كوكبات من الجند المسلحين بالبنادق الخفيفة ، ممتطين صهوات الخيل ، وإلى جانب رؤوسهم الابواق . وان يرى في « الحي اللاتيني » وفي « حديقة النبات » الحرسَ الوطني مصطفاً من شارع إلى شارع ، وان يرى في « لا غريف » نصف الفرقة الثانية عشرة الخفيفة ونصفها الآخر في الباستيل ، وفرقة الخيالة السادسة في سيليستين ، وان يرى فناء اللوفر غاصاً بالمدفعية . وكانت بقية الجيوش قد حجزت في التكنات ، هذا إذا لم نذكر الكتائب التي كانت في ضواحي باريس . لقد علقت السلطة القلقة فوق رؤوس الجماهير المتوعدة اربعة وعشرين

الف جندي في المدينة ، وثلاثين الفاً في الضواحي .

وانتشرت اشاعات مختلفة في الموكب . لقد تحدث القوم عن مؤامرات يبيتها انصار الشرعية . تحدثوا عن الدوق رايشتات * الذي اعده الله للموت لحظة كان الشعب يعده للامبراطورية . واعلنت شخصية لا تزال مجهولة ان اثنين من كبار المستخدمين الذين كسبتهم القضية سوف يفتحان، في الميقات المحدد ، أبواب مصنع من مصانع السلاح . وكان التعبير الغالب على معظم جباه الحاضرين الحاسرة ينم عن حماسة ممزوجة بالضنى. وهنا وهناك — وسط هذا الجمع الغفير العاصفة به عواطف عنيفة لا عد لها ، ولكنها نبيلة ، كان في ميسور المرء ان يرى وجوه اشرار حقيقية ، وأفواهاً خسيسة تقول : « النهب! » إن ثمة بعض الاضطرابات التي تثير اعماق المستنقع ، وتطلع في الماء سُحباً من الوحل . وهي ظاهرة ليس رجال الشرطة « المتمرسون بالصناعة » غرباء عنها .

واتخذ الموكب سبيله ، في بطء محموم ، من دار الميت ، مجتازاً الجادات حتى الباستيل . وهطل المطر بين الفينة والفينة . ولم يحدث المطر اثراً ما في ذلك الحشد . وميزت تقدمَ الموكب عدة احداث : الانعطاف بالنعش حول عمود « فاندوم » ، والقاء الحجارة على الدوق دو فيتز جيمس ** الذي رؤي على احدى الشرفات معتمراً قبعته ، وتمزيق الديك الغالي*** من راية شعبية وجرّه في الوحل ، وجرح احد رجال الشرطة بضربة سيف عند باب سان مارتان ، وصياح احد

* duc de Reichstadt هو اللقب الذي حمله ابن نابوليون الاول ، اي نابوليون الثاني ، بعد عام ١٨١٤ ، وقد مات في ريعان الشباب بمرض عضال (١٨١١ — ١٨٣٢) اي في العام الذي يؤرخ له المؤلف في هذه الفصول .

** duc de Fitz — James حفيد المارشال فيتز جيمس ، وهو من اصل انكليزي ، وكان عضواً في مجلس الاعيان في العهد البوربوني الجديد ونائب مدينة تولوز في عهد لويس فيليب (١٧٦٦ — ١٨٣٨)

*** coq gaulois احد رموز فرنسة الوطنية .

ضباط الفرقة الثانية عشرة الخفيفة : « انا جمهوري ! » ، وصيحات « فلتحي مدرسة البوليتكنيك ! فلتحي الجمهورية ! » التي اطلقها طلاب تلك المدرسة بعد ان حُجزوا فيها . وعند الباستيل التحقت بالموكب صفوف طويلة من الفضوليين المروّعين الهابطين من ضاحية سان انطوان ، وشرع غليان فظيع يثير الجماهير .

وسُمع رجل يقول لآخر : « اترى ذلك الرجل ذا اللحية الحمراء ؟ إنه هو الذي سيقول متى يجب ان نطلق النار . ويبدو ان تلك اللحية الحمراء نفسها سنقع عليها في ما بعد تقوم بالمهمة نفسها في فتنة اخرى ، هي مسألة كينيسيه .

واجتازت عربة الموتى الباستيل ، وسايرت القناة ، وعبرت الجسر الصغير ، وانتهت إلى ساحة جسر اوسترليتز . وهناك كفت عن المسير . ولو ان المرء القى نظرة طائر على هذا الحشد اذن لتبدّى له منظر مذنّب رأسه عند الساحة ، في حين كان ذيله الممتد على الـ «كي بوردون» يغطي الباستيل ، وينتشر فوق الجادة حتى باب سان مارتين . وتشكلت حول عربة الموتى دائرة . وران الصمت على الحشود المترامية . وتكلم لافاييت وودع لامارك . كانت لحظة مؤثرة وجليلة ؛ كانت الرؤوس كلها حاسرة ، وكانت القلوب كلها خافقة . وفجأة ، بدا وسط الجمع رجل على صهوة جواد ، رجل يرتدي ثوباً اسود ، ويحمل علماً احمر ، أو حربة – كما يزعم بعضهم – تعلوها قلنسوة حمراء . وغض لافاييت طرفه . وانسحب ايكزيلمان * من الموكب .

هذا العلم الاحمر أثار عاصفة واختفى فيها . ومن « بوليفار بوردون» الى جسر اوسترليتز حركت الحشد احدى تلك الصيحات التي تشبه اضطراب الموج . وارتفعت صيحتان عجيبتان : « اذهبوا بلامارك إلى

---

* Exelmans مارشال فرنسة (١٧٧٥ – ١٨٥٢) . لمع نجمه في معركة « الموسكوفا » (بين نابوليون والروس) .

البانتيون ! اذهبوا بلافاييت إلى الاوتيل دو فيــــل ! » وقرن بعض الشبان انفسهم ، وسط هتافات الحشد ، إلى عربة الموتى ، وانشــأوا يجرون لامارك في عربته فوق جسر اوسترليتز ، ولا فاييت في احــــدى عجلات الكراء فوق الـ « كي مورلان » .

وفي الحشد الذي طوق لافاييت وهتف له ، لاحظ القوم واشــاروا ببنانهم إلى المــاني يدعى لودويك سنايدر ، الذي مات بعد ذلك عــن مئة عام ، والذي سبق له ان شهد حرب ١٧٧٦ * ، وحارب فـي ترنتون تحت قيادة واشنطون ، وفي برانديواين تحت قيادة لافاييت.

وفي غضون ذلك ، كانت الخيالة البلدية تتحرك عند الضفة اليسرى ، وكانت قد انجزت قطع الجسر . وعند الضفة اليمنى كان الخيــــالــة المعروفون بالتنانين يغادرون الـ « سيليستين » ، وينتشرون على طــول الـ « كي مورلان » . وفجأة ، لمحهم الرجال الساحبون لافاييت عنـد زاوية الـ « كي » ، وصاحوا : « التنانين ! التنانين ! » وكان التنانين يتقدمون في مشية عسكرية ، وفي صمت ، وغداراتهم في جراباتهــا الجلدية ، وسيوفهم في أغمادها ، وبنادقهم القصيرة في مساندها ، وقـد غلبت على وجوههم سيما من التوقع القاتم .

وتوقفوا على بعد مئتي خطوة من الجسر الصغير . واتخذت عجـلة الكراء التي كان لافاييت فيها سبيلها نحوهم ، ففتحوا لهــا صفـوفهم ، مفسحين لها الطريق ، ثم عادوا إلى وضعهم الأول كرة اخرى . وفي تلك اللحظـة تماسّ التنانين والجماهير . وفرت النسوة في ذعر .

ما الذي حدث في تلك الدقيقة المشؤومة ؟ لم يكن في ميسور أحـد ان يعرف . كانت هي اللحظة المظلمة التي تمتزج فيها سحابتان . بعضهم يقول انه سمع تبويقاً من ناحية دار الصناعة يؤذن ببـدء الحمــــلة ، وبعضهم يقول ان طفلا سدد إلى احد التنانين طعنة خنجر . والحقيقـــة

---

* حرب الاستقلال الاميركي .

ان ثلاثة عيارات نارية قد أطلقت فجأة ، أولها صرع رئيس كوكبة الفرسان ، شوليه ، وثانيها صرع عجوزاً صماء كانت تغلق نافذتها في شارع كونتر سكارب ، وثالثها أحرق كتافة احد الضباط . وصاحت امرأة : « إنهم يبدأون باسرع مما ينبغي ! » وفجأة ، رئيت من الناحية المواجهة لل « كي مورلاند » كوكبة من الفرسان التنانين كانت قد بقيت في ثكناتها تنطلق خبباً ، شاهرة سيوفها ، من شارع باسومبير وجادة بوردون ، جارفة كل شيء أمامها :

وتتعطل لغة الكلام ، وتفلت العاصفة من عقالها ، وتتساقط الحجارة كالوابل ، وتلعلع البنادق ، ويلقي كثير بانفسهم في ضفة النهر ويعبرون شعبة « السين » الصغيرة المطمورة اليوم . وتغص أغنية الـ « إيل لوفييه » ، تلك القلعة الجاهزة ، بالمقاتلين . ويقتلعون الاوتاد ، إنهم يطلقون النار من غداراتهم . ويرسمون الخطوط الكبرى لانشاء متراس من المتاريس ، ويجتاز الشبان الذي ردوا على اعقابهم جسر اوسترليتز وعربة الموتى تعدو عدواً ، ويهجمون على الحرس البلدي ، ويندفع الجنود ذوو البنادق القصيرة الخفيفة سراعاً ، ويُعمل الفرسان التنانين سيوفهم ، ويتفرق الحشد في كل سبيل ، وتتطاير شائعة الحرب في زوايا باريس الأربع ، ويصيح الناس : « الى السلاح » ويركضون ، ويتعثرون ، ويفرون ، ويقاومون . وجرف الغيظُ الفتنة ، كما تجرف الريح النار .

٤

فورات العهد الماضية

ليس ثمة شيء اكثر غرابة من تشكّل الفتنة الأول : ان كل شيء لينفجر في كل مكان دفعة واحدة . هل كانت متوقعة ؟ نعم : هل

أعدت إعداداً ؟ لا . من اين تنبثق ؟ من حصباء الطريق . من ايـن تهبط ؟ من السحب . هنا تكون للثورة صفة المؤامرة ، وهناك تكون لها صفة الارتجال . ويستحوذ أول قادم على تيار من الدهماء ويقوده حيثما شاء . استهلال مليء بالذعر ممتزج به ضربٌ من البهجة الراعبة . في البدء تكون ثمة صيحات استقباح ، وتقفل الدكاكين ، وتختفي معروضات النجار . ثم تنطلق بعض العيارات النارية المنعزلة ، ويولي الناس الادبار . وتصطدم اعقاب البنادق بأبواب العربات . وتسمع الخادمات يضحكن في افنية البيوت ويقلن : « سوف يحدث نزاع صاخب ! »

ولم تكد تنقضي ربـع ساعة حتى كان هذا ما حدث ، في الوقت نفسه تقريباً ، في عشرين نقطة اخرى من باريس :

في شارع « سانت كروا دو لا بروتونري » ، دخل نحو من عشرين رجلا ، ذوي لحي وشعور طويلة ، إلى حانة ما ، وغادروها بعد لحظة واحدة حاملين علماً افقياً مثلث الالوان مغطى بنسيج حريري ، وعلى رأسـهم ثلاثة رجال مسلحين ، احدهم يحمل سيفاً ، والآخر يحمـل بندقية ، والثالث يحمل حربة .

وفي شارع دي نونينديير قدّم الخراطيش إلى عابري السبيل ، علناً ، رجـــل بورجوازي حسن البزة ، مبهـــور قصير النفس ، جهوري الصوت ، اصلع الرأس ، مرتفع الجبين ، اسود اللحية ، ذو شاربـين خشنين من ذلك الضرب الذي لا سبيل إلى تذليله .

وفي شارع سان بيير مون مارتر طوّف رجال حاسرو الاذرع بعلم أسود كان في ميسور المرء ان يقرأ عليه هذه الكلمات مكتوبة باحرف بيضاء : « الجمهورية أو الموت » . وفي شارع دي جونور ، وشارع دوكادران وشارع مونتورغوي ، وشارع ماندار برزت جموع تلوح بأعلام بدت عليها باحرف من ذهب ، كلمة « شعبة » مردفة برقم . وكان احد هذه الاعلام احمر وازرق بينهما رقعة بيضاء لا تكاد تُلحظ .

ونُهب مصنع من مصانع السلاح ، في جادة سان مارتان ، وثلاثة من دكاكين بائعي السلاح ، وأولها في شارع بوبورغ ، وثانيها في شارع ميشيل لو كونت ، وثالثها في شارع التامبل . وفي بضع دقائق استولت ايدي الحشد البالغ عددها الفاً على مئتين وثلاثين بندقية كلها مزدوجة الاسطوانات تقريباً ، وعلى اربعة وستين سيفاً ، وثلاث وثمانين غدارة . ولكي يكون في الامكان تسليح عددٍ من الناس اكبر اخذ احدهم البندقية ، واخذ الآخر الحربة .

وتجاه الـ « كي دو لاغريف » ، اقام نفر من الشبان المسلحين بالبنادق القديمة مع بعض النسوة لكي يطلقوا النار . وكان احدهم يحمل بندقية ذات خزانة من خزائن الإيراء . لقد قرعوا الاجراس ، ودخلوا، وعكفوا على صنع الخراطيش . وقالت احدى النسوة : « لم اكن اعرف ما هي الخراطيش ، ان زوجي هو الذي عرفني بها . »

واقتحمت جماعة احدى محلات التحف النادرة في شارع دي فيي هودرييت ، واستولت على بعض البطقانات * والاسلحة التركية .

كانت جثة بنّاء صُرع بطلقة من بندقية قديمة منطرحة في شارع دو لا بيرل .

وإلى هذا فعلى الضفة اليمنى ، وعلى الضفة اليسرى ، وعلى ارصفة النهر ، وفي الجادات ، وفي الحي اللاتيني ، وفي منطقة الاسواق قرأ النداءات رجال لاهثون ، وعمال ، وطلاب ، واعضاء في مختلف الشُعب ، وصاحوا : « إلى السلاح ! » . وحطموا مصابيح الشوارع ، وفصلوا ما بين الدواب وعرباتها ، وانتزعوا حصباء الطريق ، واقتحموا المنازل ، واقتلعوا الاشجار ، وجاسوا خلال الاقبية ، ودحرجوا البراميل ، وكوموا حجارة الطرق ، والحصى ، وقطع الاثاث ، والالواح الخشبية ، واقاموا متاريس .

---

* البطقان : سيف محدب . وقد وردت الكلمة في الاصل بهذا اللفظ yataganѕ .

وأكرهوا البورجوازين على ان يساعدوهم . ودخلوا البيوتَ على النساء ، وحملوهن على اعطائهم سيوف ازواجهم الغائبين وبنادقهم ، وكتبوا على الابواب ، بطباشير هشة جداً : « لقد سُلمت الاسلحة . » ووقع بعضهم « باسمائهم » ايصالات بالبنادق والسيوف ، وقالوا : « اطلبوها غداً من مقر العمدة » . وجردوا الحراس المتوحدين في الشوارع من اسلحتهم ، وكذلك فعلوا بالحرس الوطني في طريق عودته إلى البلدية . وانتزعوا كِتافات الضباط . وفي شارع « مقبرة القديس نقولا » التجأ احد ضباط الحرس الوطني — وكان يتعقبه حشد مسلح بالهراوات والسيوف المثلمة — إلى احد البيوت ، في كثير من العسر ، ولم يوفق بعد إلى مغادرته إلا ليلا ، وعلى نحو متنكّر .

وفي حي سان جاك خرج الطلاب من فنادقهم زرافات زرافات ، وصعدوا في شارع سان هياسينت إلى « مقهى البروغريه » ، أو هبطوا إلى مقهى الـ « سيت بيليارد » . وهناك ، أمام الابواب ، كان شبان واقفون على بعض الانصاب يوزعون الاسلحة . ونهبوا مستودع الخشب في شارع ترانسنونين لكي يقيموا المتاريس . وفي موضع وحيد ، قاوم السكان ، عند زاوية شارعي « سان آفوي » و « سيمون لو فران » ، حيث حطموا المتراس بانفسهم . وفي موضع وحيد اذعن المتمردون ؛ لقد هجروا متراساً بديء باقامته في شارع التامبل بعد ان اطلقوا النار على فصيلة من الحرس الوطني ، وولوا الادبار من خلال شارع الكورديري . وعثرت الفصيلة في المتراس على راية حمراء ، ورزمة خراطيش ، وثلاثمئة من كُرات الغدارات . ومزق الحرس الوطني الراية ، وحملوا المِزَق على رؤوس حرابهم .

كل هذا الذي نرويه ههنا حدث ، في تؤدة وتعاقب ، في جميع نقاط المدينة وسط ضوضاء غامرة ، مثل جمهرة من البروق في هزيم واحد من الرعد .

وفي اقل من ساعة انبثق من الارض سبعة وعشرون متراساً في منطقة الاسواق وحدها . وفي الوسط ، كان ذلك البيت الشهير ، رقم ٥٠ ، الذي كان قلعة « جانّ » ورفاقها المئة والستة ، والذي هيمن — وقد عُزِّز ، من جانب ، بمتراس في سان ميرّي ، ومن آخر بمتراس في شارع موبوويه — على ثلاثة شوارع : شارع ديزارسيس ، وشارع سان مارتان ، وشارع اوبري لو بوشيه الذي كان ذلك البيت يتصدره . وانكفأ متراسان ، على زاوية قائمة ، احدهما من شارع مونتورغوي إلى « الغراند ترويانديري » ، والثاني من شارع جيوفروا لانغيفين إلى شارع سان آفوى ، هذا من غير ان نعدد متاريس لا تحصى في عشرين حياً اخرى من باريس ، في الـ « ماريه » ، وفي جبل القديسة جونفيياف . وكان احدها في شارع مينيلمونتان ، حيث كان في ميسور المرء ان يرى باب عربات منتزعاً من رزاته ، وآخر قرب جسر « اوتيل ديو » أقيم بمسعر * حُلّ من وثاقه وقُلب رأساً على عقب ، على بعد ثلاثمئة خطوة من مديرية الشرطة .

وفي المتراس المقام في شارع مينيتربيه ، وزع رجل حسن البزة الأموال على العمال . وفي المتراس المقام في شارع غرينيتا برز فارس وقدّم إلى ذلك الذي بدا وكأنه زعيم المتراس ، رزمة تراءت اشبه شيء برزمة مال . وقال : « هذه من اجل تغطية النفقات ، الخمر ، إلى آخره . » وانطلق فتى ذو بشرة شقراء ، من غير رباط رقبة ، من متراس الى متراس حاملا أوامر . وكان آخر شاهرُ السلاح معتمرٌ بقبعة من قبعات البوليس ينصّب الحراس هنا وهناك . وفي الداخل ، ضمن المتاريس ، كانت الحانات واكواخ البوابين قد حُولت إلى مراكز حراسة . وإلى هذا ، فقد سلكت الفتنة مسلكاً متفقاً واكثر التكتيك الحربي سلامة . لقد اختيرت الشوارع الضيقة ، المعوجة ، الملتوية ، الملأى بالمنعطفات والزوايا ،

* المسعر (بكسر الميم) قضيب حديدي معقوف لتحريك النار وتأريثها .

احتياراً رائعاً ، وضواحي الاسواق ، بصورة خاصة ، وهي شبكة من الطرق اكثر تعقداً من غابة . وكانت جمعية « اصدقاء الشعب » ، في ما قيل ، قد تولت قيادة الثورة في حي سان أفوى . وحين فتش البوليس رجلاً صرع في شارع بونسو عثر معه على خريطة لباريس .

إن الذي تولى قيادة الفتنة حقاً كان نوعاً من الاحتدام المجهول ، الماثل في الجو . كانت الثورة قد بنت المتاريس ، فجأة ، باحدى يديها ، واستولت باليد الاخرى على جميع مراكز الحاميات . وفي اقل من ثلاث ساعات ، ومثل فتيل بارود مسته نار ، كان المتمردون قد غزوا واحتلوا ، على الضفة اليمنى ، دارَ الصناعة ، ومقر العمدة في الساحة الملكية ، والـ « ماريه » بكاملها ، ومصنع بوبينكور للسلاح ، والـ « غاليوت » ، والـ « شاتو دو » ، وجميع الشوارع المجاورة للاسواق ؛ وعلى الضفة اليسرى ثكنةَ الـ « فيتيرين » ، وسانت بيلاجي ، وساحة موبير ، ومصنع البارود في « دو مولين » ، وجميع أبواب المدينة . وفي الساعة الخامسة بعد الظهر ، أمسوا سادة الباستيل ، و « لا لينجيري » والـ « بلانمانتو » . ومسّ كشافوهم « ساحة الانتصارات » ، وهددوا المصرف ، وثكنات « الآباء الصغار » ، والـ « اوتيل دي بوست » . كان ثلث باريس في الفتنـة .

وفي جميـع المواطن كان الصراع قـد بدأ على نطاق هائل . ومـن نزع اسلحة القوم ، والزيارات البيتية ، وغزو محلات بيع الاسلحة غزواً خاطفاً لم ينتج غير هذا : وهو ان الصراع الذي بدأ بالقاء الحجارة ، قد تواصل بطلقات البنادق .

وحوالى الساعة السادسة بعد الظهر ، غدا « مجاز سومون » ميدان حرب . كانت الفتنة في طرف ، وقوى الدولة في الطرف الآخر . وتبادلوا اطلاق النار من حاجز مشبّك إلى حاجز مشبك . ووجد احـد المراقبين ، احدُ الحالمين ، مؤلفُ هذا الكتاب ، الذي مضى ليرى إلى

البركان عن كثب – وجد نفسه قد وقع في ذلك المجاز بين النارين . ولم يكن ثمة ما يحميه من القنابل غير سماكة الاعمدة المربوعة التي تفصل ما بين الدكاكين . وظل في ذلك الوضع الحرج نحواً من نصف ساعة .

وفي غضون ذلك قرعت الطبول معلنة اجتماع الجنود ، وسارع رجال الحرس الوطني إلى ارتداء ملابسهم وتنكّب سلاحهم ، وغادرت الفرق بيوت العُمُد ، وفارقت الكتائب ثكناتها . وتجاه « مجاز دو لانكر » تلقّى احد قارعي الطبول طعنة خنجر ؛ وهوجم آخر في « شارع السيني » من قبل ثلاثين شاباً مزقوا طبله وانتزعوا سيفه ؛ وقُتـــل ثالث في شـارع غرونييه سان لازار ، وفي شارع « ميشيل لو كونت » خر ثلاثة ضباط صرعى ، واحداً اثر آخر . وانكفأ عدد من رجال الحرس البلدي بعد ان جرحوا في شارع اللومبارد .

وتجاه « ساحة باتاف » ، وجدت فصيلة من الحرس الوطني رايـة حمراء مكتوباً عليها : « الثورة الجمهورية ، رقم ١٢٧ . » أكانت ثورة في الواقع ؟

كانت الانتفاضة قد جعلت من قلب باريس شبه قلعة هائلة ، ملتوية ، مبهمـــة .

هناك كانت بؤرة الاحترار . هناك كانت المسألة من غير ريـب ، وكل ما عدا ذلك لم يكن غير مناوشات. والذي أثبت ان كل شيء خليق بسه أن يُحسم هنـاك هو أنهم لم يكونــوا قـد بدأوا القتال بعد فـي ذلك حين .

وفي بعض الكتائب كان الجند مترددين ، وذلك ما زاد في غموض الأزمة المروّع . لقد تذكروا الترحيب الشعبي الذي استُقبل بـه – في تموز ١٨٣٠ – حياد الكتيبة الثالثة والخمسين . وتولى القيادة رجلان باسلان

مجربان في الحروب الكبيرة ، هما المارشال دو لوبو * والجنرال بوغو ** ؛ وبوغو تحت إمرة لوبو . وانطلقت إلى الشوارع المتمردة ابتغاء ريادتها دوريات هائلة مؤلفة من جنود مشاة تحيط بهم سرايا بكاملها من الحرس الوطني ويتقدمهم مفوض شرطة ذو وشاح . واقام المتمردون ، بدورهم ، أوتاداً في زوايا الشوارع ؛ وبجسارة وجهوا دوريات إلى خارج المتاريس . لقد راقبوا كلتا الناحيتين . وترددت الحكومة ، وفي يدها جيش . وكانت الشمس تجنح إلى المغيب ؛ وبدأ الناس يسمعون دقات ناقوس سان ميري . ورأى وزير الحربية آنذاك — المارشال سولت ، الذي شهد معركة اوسترليتز — إلى ذلك في سيماء مظلمة .

إن اولئك الملاحين القدماء ، المتعودين ادارة الدفة في ضبط ، والذين ليس لهم من حيلة ولا هاد غير التنظيم الحربي ، بوصلة المعارك تلك ، ليرتبكون امام ذلك الزبد الهائل الذي ندعوه غيظ الشعب . إن ريح الثورات ليست سهلة القياد .

وهرع حرس الضواحي الوطني ، في عجلة وفي فوضى . واقبل فوج من الفرقة الثانية عشرة الخفيفة من سان دونيز ، على جناح السرعة . ووفدت كتيبة المشاة الرابعة عشرة من كوربفوا . وكانت مدفعية المدرسة الحربية قد تمركزت في الـ « كاروسيل » . وهبطت مدافع من « فينسان » .

وخيمت الوحشة على التويلري . كان لويس فيليب مفعماً بالطمأنينة .

---

* de Loban مارشال فرنسة (١٧٧٠ – ١٨٣٨) وقد ابلى بلاء حسناً في واترلو ، وقد عينه لويس فيليب قائداً اعلى للحرس الوطني في باريس .

** Bugeaud مارشال فرنسة (١٧٨٤–١٨٤٩) وكان بغيضاً الى الفرنسيين لقسوته في قمع ثورة نيسان ١٨٣٤ .

٥
أصالة باريس

في خلال سنتين ، كما قلنا من قبل ، كانت باريس قد عرفت اكثر من ثورة واحدة . فخارج الاحياء المتمردة لم يكن ثمة ما هو اهدأ في العادة ، على نحو غريب ، من محيا باريس اثناء فتنة من الفتن . ان باريس لتكيّف نفسها ، في سرعة بالغة ، وفقاً لأي شيء — إنها فتنة ليس غير ، وهي مشغولة إلى درجة تجعلها لا تزعج نفسها بمسألة ضئيلة كهذه . ان هذه المدن الهائلة وحدها هي التي تستطيع ان تنطوي ، في الوقت نفسه ، على حرب أهلية ، وعلى هدوء غريب إلى حد لا سبيل إلى وصفه . وفي العادة ، ما إن تبدأ الثورة ، ويقرع الطبل ، ويسمع نداء التجمع ، ويستدعى الجند ، حتى يكتفي صاحب الدكان ، بمجرد القول :

— « يبدو ان هناك جلبة في شارع سان مارتان » .

أو :

— « ضاحية سان انطوان . »

وكثيراً ما يضيف في لا مبالاة :

— « في مكان ما ، هناك . »

وبعد ذلك ، حين يميز هدير البنادق ونيران فصائل الجند المأتمي الممزق للفؤاد ، يقول صاحب الدكان :

— « لقد اخذت تحمى ، إذن ! هاي ، لقد اخذت تحمى ! »

وبعد لحظة ، إذا ما اقتربت الفتنة واستفحلت ، يغلق دكانه على عجل . ويسارع إلى ارتداء ثوبه العسكري ، يعني انه يضمن السلامة لبضاعته ، ويعرض شخصه للخطر .

إن ثمة اطلاق نار في زوايا الشوارع ، في احد المعابر ، في احد الازقة غير النافذة . إنهم يستولون على المتاريس ، ثم يفقدونها ، ثم يعاودون الاستيلاء عليها من جديد . وإن الدماء لتسيل ، وإن القذائف لتجعل واجهات المنازل اشبه بالغرابيل ، وان كُرات المدافع لتصرع الناس في سررهم ، وإن جثث القتلى لتسد الطريق . وعلى بعد بضعة شوارع من هناك ، كنت تسمع طقطقة كرات البليارد في المقاهي .

ويتحدث الفضوليون ويضحكون على بعد خطوتين من هذه الشوارع المفعمة بالحرب ؛ وتفتح المسارح ابوابها وتقدم التمثيليات الهزلية.وتطوّف عجلات الكراء في الشوارع ؛ ويمضي عابرو السبيل لتناول الطعام في المدينة . وفي بعض الاحيان في نفس الحي الذي يدور فيه القتال . وعام ١٨٣١ عُلّق تبادل اطلاق النار لكي يفسح السبيل امام موكب زفاف .

وخلال انتفاضة الثاني عشر من نوار ، ١٨٣٩ ، وفي شارع سان مارتان ، كان عجوز قميء واهن يجر عربة ذات يد تعلوها خرقة مثلثة الألوان مزودة بزجاجات مليئة بسائل ما ، وكان يغدو ويروح من المتراس إلى الجنود ومن الجنود إلى المتراس ، مقدماً في غير محاباة ، كؤوس الكاكاو — إلى الحكومة حيناً ، وإلى الفوضوية حيناً .

وليس ثمة ما هو اغرب من ذلك . وتلك هي الصفة التي تميز فتن باريس ، والتي لا نقع عليها في اية عاصمة اخرى . شيئان لا بد منهما لذلك : عظمة باريس ومرحها . إنه يتطلب مدينة فولتير ونابوليون .

ومع ذلك ، فقد استشعرت المدينة العظيمة ، هذه المرة ، في النزاع المسلح الذي نشب في الخامس من حزيران ١٨٣٢ ، شيئاً لعله كان اقوى منها نفسها . كانت خائفة . فكنت ترى ، في اكثر الاحياء انعزالا واشدها « نحرواً من الغرض » ، ابواباً ، ونوافذ ، ومصاريع مغلقة في وضح النهار . لقد تسلح الشجعان ، واختبأ الرعاديد . واختفى عابرو السبيل اللامبالون والمشغولون . وخلا كثير من الشوارع كما تخلو في الساعة

الرابعة صباحاً . وطوّفت قصص مخيفة ، وانتشرت شائعات مشؤومة . « أن « بهم » كانوا يسيطرون على البنك » ؛ « أنه ؛ عند دير سان ميرّي وحده كان ستمئة قد تخندقوا وتحصنوا في الكنيسة » ؛ « أن خط الدفاع متقلقل » ؛ أن آرمان كاريل * قابل المارشـــال كلوزيـــل ** ، وان المارشال قال له : « لتكن لك كتيبة قبل كل شيء » ؛ « أن لافاييت كان مريضاً ، ولكنه كان قد قال لهم برغم ذلك : « أنا معكم . ســـوف ألحق بكم إلى حيثما يوجد مكان لكرسي » ؛ « أن عليهم ان يأخـــذوا حذرهم » ؛ و « أنه قـــد يحاول اناس تحت جنح الظلام ان ينهبـــوا البيوت المنعزلة في احياء باريس المهجورة (وفي هذا كان ذكاء الشرطة الذي هو آنّ رادكليف *** ممتزجةً بالحكومة ، موضع التقدير) ؛ « ان قوة مدفعية قد اقيمت في شارع اوبري لو بوشيه » ؛ « أن لوبو وبوغو يتشاوران ، وانه عند منتصف الليل ، أو مع الفجر على الابعد ، سوف تنقض اربع كتائب دفعة واحدة على قلب الفتنة ، الاولى مقبلة مـــن الباستيل ، والثانية من « باب سان مارتان » ، والثالثة من « لاغريف » ، والرابعة من الاسواق » ؛ « أن الجيوش ايضاً قد تخلي باريس وتنسحب إلى الشان دو مارس » ؛ و « أن احداً لا يعرف ما الذي سيحدث ، ولكن الذي لا شك فيه ان الوضع ، هذه المرة ، سوف يكون خطيراً » . كان يقلقهم تردد المارشال سولت . — « لماذا لا يهاجم عـــلى التو ؟ » من الثابت انه كان مستغرقاً في التفكير . لقد بدا الاسد العجوز وكأنـــه يستروح في تلك الظلمة هُولة مجهولة ما .

وهبط الليل ، ولم تفتح المسارح ابوابهـــا . وقـــام العسس بدورياتهم

---

* Carrel صحفي فرنسي ، (١٨٠٠ – ١٨٣٦) كان جمهوري النزعة ، وقد شن على « ملكية تموز » حرباً لا هوادة فيها .

** Clauzel مارشال فرنسة ، (١٧٧٢ – ١٨٤٢) لمع نجمه في الحملات الاسبانية عام ١٨١١ – ١٨١٢ ، وكان حاكماً عاماً للجزائر مرتين ، الاولى عام ١٨٣٠ والثانيه عام ١٨٣٥

*** Anne Radcliffe روائية انكليزية (١٧٦٤ – ١٨٢٣)

في اهتياج ، وفُتّش عابرو السبيل ، والقي القبض على المشبوهين . وعند الساعة التاسعة كان عدد المعتقلين قد جاوز الثمانمئة ، وغصت مديرية البوليس بهم ، وغصت الكونسيرجيري ، وغص سجن لا فورس . وفي الكونسيرجيري ، بخاصة ، غطي الدهليز المدعو « شارع باريس » بحزم من القش انطرح فوقها حشد من السجناء راح رجل ليون ، لا غرانج ، يخطب فيهم ببسالة . وكان حسيس هذا القش كله ، اذ يحركه اولئك الرجال ، اشبه شيء بوابل من المطر . وفي كل مكان كان السجناء يتمددون في الهواء الطلق في أفنية السجن ، وقد تراكم بعضهم فوق بعض . كان القلق في كل مكان ، وكان ثمة ارتعاد ما ، وتلك ظاهرة نادراً ما عرفت في باريس .

وتمترس الناس في بيوتهم ، ورُوّعت الزوجات والامهات ، ولم تكن تسمع غير هذا : « **آه ، يا الٓهي ! إنه لم يرجع بعد !** » وفي المدى البعيد ، كان يسمع في أحوال نادرة جداً صدى عربات تجري . واصغى الناس ، على عتبات ابوابهم ، إلى الاشاعات ، والصيحات ، وضروب الجلبة ، والاصوات المبهمة غير الواضحة ، اشياء قالوا عنها : « **هذه هي الخيالة .** » أو « **هذه هي عربات المؤن الخاصة بالجند تعدو مسرعة .** » ، وإلى الابواق ، والطبول ، وإطلاق النار ، وفوق هذا كله ، إلى قرع ناقوس سان ميري على ذلك النحو الفاجع . لقد توقعوا ان يسمعوا اول طلقة من طلقات المدافع . وانبثق الناس عند زوايا الشوارع واختفوا صائحين : « ارجعوا إلى بيوتكم ! » وسارعوا إلى إغلاق أبوابهم بالمزاليج . وقالوا : « على اية صورة ستنتهي هذه الحال ؟ » ومن لحظة إلى لحظة ، فيما كان الليل يهبط ، بدت باريس ملونة ، على نحو اشد مأتمية ، بلهب الفتنة الراعب .



الكتاب الحادي عشر

الذرة تؤاخي الإعصار



١

بعض الايضاحات حول اصل أبيات غافروش الشعرية. اثر أحد رجال الاكاديمية في هذا الشعر

ولحظةَ كانت الانتفاضة الثورية ، المنبثقة من اصطدام الشعب بقوى الجيش امام دار الصناعة ، قد قررت حركةً ارتجاعية عند الجماهير التي كانت تتبع عربة الموتى ، والتي رزحت — إذا جاز التعبير — على رأس الموكب ، في تلك اللحظة حدث تقهقرٌ رهيب . لقد تقلقل الحشد ، وتحطمت الصفوف ،

وولى القوم جميعاً ، واندفعوا يركضون هــاربين ، بعضهم يطلق صيحات الهجوم ، وبعضهم يرين على وجوههم شحوب الفرار . إن النهر الكبير الذي غطى الجادات انشطر في لمحة ، وفـاض ذات اليمين وذات الشمال ، وتدفق سيولاً في مثنى شـارع في آن معـاً ، بمثل اندفاع الماء من سد فتحت ابوابه . في هـذه اللحظة كان طفل رث الثياب يهبط شارع مينيلمونتان وفي يده غصن منوّر من ضرب من الوزال كان قد قطعه فوق مرتفعات بيلفيل ، فوقـع نظره في مقدمة احدى دكاكين السلع المستعملة عـلى غدارة عتيقة مـن غدارات الخيل . عندئذ طرح غصنه المنوّر على حصباء الطريق ، وصـاح :

— « يا الـهي ، سوف استعير هذا السلاح . »

وانطلق هارباً بالغدارة .

وبعد دقيقتين التقى سيل من البورجوازيين المروعين الذين كانوا هاربين من خلال شارع آميلو وشارع باس — التقوا الطفل يهز غدارته بيده ويغنـي :

« في الليل لا نرى شيئاً ،
وفي النهار نرى كل شيء ،
من كتابة مزيفة .
ويدهش البورجوازي ،
ويمارس الفضيلة ،
قبعة مقرّنة اشبه بمؤخرة الطفل ! »

كان هو غافروش الصغير ذاهباً إلى ميدان القتال .

وفي الجادة لاحظ ان الغدارة لم يكن لها زناد .

من نظم مَن كان ذلك المقطع الذي ساعده على ضبط ايقاع سيره ، وجميـع الاغاني الاخرى التي كان مولعاً ، في المناسبات ، بترديدها ؟

لسنا ندري . ومن يدري ؟ هو نفسه ، ربما . وإلى هذا ، فقد كان غافروش مطلعاً على مختلف الالحان الشعبية الدارجة ، وكان يمزج بها تغريده هو . كان بوصفه ، عفريتاً وصبياً شقياً ، يصنع من اصوات الطبيعة واصوات باريس اغنية متعددة الادوار ، مختلفة الألحان . كان يجمع ما بين معارف الطيور ومعارف المصانع . وكان يعرف بعض المبتدئين في فن الرسم ، وتلك عشيرة ملاصقة لعشيرته . لقد تتلمذ ، في ما يبدو ، ثلاثة اشهر ، على احد اصحاب المطابع . وكان قد صنع ذات يوم براءة لمسيو باوور لورميان ، أحد الاربعين * . لقد كان غافروش « متشرد » أدب .

وفوق هذا ، فان غافروش لم يخطر له ببال ، تلك الليلة الممطرة البائسة التي استضاف خلالها ولدين صغيرين في فيله ، انه انما كان يقوم بمهمة العناية الالـهية نحو اخويه نفسيهما . في المساء أخواه ، وفي الصباح ابوه ؛ كذلك كانت ليلته . وعند مغادرته شارع الباليه مع الفجر ، كان قد رجع على عجل إلى الفيل ، وسلّ الطفلين الصغيرين في فن ، وشاركهما ما استطاع ان يخترعه من فطور الصباح ، ثم مضى لسبيله مودعاً اياهما تلك الام الطيبة ، الشارع ، التي كانت قد نشأته هو نفسه تقريباً . وعند مفارقته لهما تواعد معهما على اللقاء مساء في المكان نفسه ، وودعهما بهذه الخطبة : « انا اشق ، العصا ، أو بكلمة اخرى : أنا أهرب ، أو كما يقولون في المحكمة : أنا انسحب . ايها الولدان الصغيران ، إذا لم تجدا بابا وماما ، ارجعا إلى هنا هذا المساء . سوف اتفحكما بعشاء ، واقدم لكما فراشاً تنامان عليه . » ولكن الطفلين لم يكونا قد رجعا ، ولعل احد رجال الشرطة قد القى القبض عليهما واودعهما السجن ، او لعل احد المشعوذين قد سرقهما ، أو لعلهما تاها في ذلك الصخب الباريسي الصيني الهائل ليس غير . والاعماق السفلى في

* يقصد أحد اعضاء الاكاديمية الفرنسية ، وعددهم اربعون .

المجتمع الواقعيّ ملأى بهذه الآثار الضائعة . ولم يكن غافروش قد رآها بعد ذلك . وكانت عشرة اسابيع أو اثنا عشر اسبوعاً قد تصرمت على تلك الليلة . وكان قد حك ، غير مرة ، قمة رأسه وقال : « يا للشيطان ! اين ولداي الصغيران ؟ »

وكان قد انتهى في غضون ذلك ، وغدارته في يده ، إلى شارع « بون أو شو » . ولاحظ انه لم يكن قد بقي في ذلك الشارع غير دكان واحد مفتوح ، ولفت نظره اكثر ان ذلك الدكان كان دكان بائع معجنات . وكانت تلك فرصة هيأتها له العناية الالهية لكي يلتهم فطيرة تفاح اخرى قبل ان يلج المجهول . ووقف غافروش ، وراح يبحث في بنطلونه ، ويتحسس جيبه الصغير ، ويقلب جيوبه باطنها ظاهرها ، حتى إذا لم يجد فيها شيئاً ، ولو فلساً واحداً ، انشأ يصيح : « النجدة ! »

إنه ليعز على المرء ان يخطىء قطعة الحلوى الاخيرة .

ومع ذلك ، تابع غافروش سبيله .

وبعد دقيقتين اثنتين انتهى إلى شارع سان لويس . وفيما هو يجتاز شارع الـ « بارك رويال » استشعر الحاجة إلى شيء ما ، يعوضه من فطيرة التفاح المستحيلة ، فأسبغ على نفسه بهجة غامرة بتمزيقه إعلاني المسرح الكبيرين في وضح النهار .

حتى إذا تقدم بضع خطوات إلى أمام ، ورأى نفراً من المخلوقات الاصحاء يجتازون الشارع وقد بدوا له وكأنهم من اصحاب الاملاك ، هز كتفيه ، وبصق في غير تبصّر هذه الجرعة من الصفراء الفلسفية :

ـ « هؤلاء الاغنياء ، ما أسمنهم ! إنهم يحشون انفسهم حشوا . إنهم يتنعمون في الموائد العامرة . سلهم أي شيء يصنعونه بأموالهم . إنهم لا يعرفون شيئاً عن ذلك . إنهم يأكلونها ، اجل ، يأكلونها ! ايّ مقدار منها يستولي عليه البطن . »

٢

غافروش يتقدّم

إن تلويح المرء بغدارة من غير زناد يحملها في وضح الشارع مهمة عامة إلى درجة جعلت غافروش يحس بأن معنوياته تقوى اكثر فاكثر مع كل خطوة من خطواته . وصاح ، بين فضلات المارسييز الذي كـان ينشـده :

— « كل شيء يجري جرياً حسناً . إن رجلي اليسرى تؤلمني جداً . وان الروماتيزم قد حطمتني تحطيماً ، ولكني سعيد ، ايها المواطنون . إن البورجوازيين لا همّ لهم إلا ان يكونوا ذوي هيئة حسنة ، ولسـوف اعطس بعض مقاطع الشعر المبيدة عليهم . من هم رجال الشرطة السرية ؟ إنهم كلاب . وحق الشيطان ، ينبغي ان لا نقصر في احترام الكلاب . هذا ، واني لاتمنى لو كان لديّ واحد لغدارتي * انا قادم من الجادة ، ايها الاصدقاء . انها بدأت تحمى ؛ إنها تغلي قليلا ، إنها تئز . لقد آن لنا ان نقشط الرغوة عن الاناء . إلى الامام ، ايها الرجال ! دع دماءهم غير الطاهرة تغمر الاخاديد . انا اقدم حياتي فداء للوطن ؛ أنا لن أرى سُرّيتي بعد اليوم . لن اراها ، أجل . لن اراها البتة . ولكنْ سيان : فليحي المرح ! فلنقاتل ، وحقك ! لقد شبعت من الاستبداد . »

وفي تلك اللحظة كبا جواد رمّاح من الحرس الوطني كان يجتـاز الطريق . فوضع غافروش غدارته على الرصيف ، ورفـع الرجل ، ثم ساعد على إنهاض الجواد . وبعد ذلك ، أمسك بغدارته ومضى لسبيله .

وفي شارع تورينيي كان الامن والصمت يخيمان على كل شيء . وكان هذا التبلد ، المميز لـ « ماريه » ، يتغاير مع الصخب العارم المحـدق

* الفرنسيون يدعون زناد الغدارة « كلب الغدارة » .

بذلك الشارع . وكانت اربع نسوة ثرثارات يتحدثن فوق عتبة باب من الابواب . كان لاسكتلندة ثلاثيّ من الساحرات ، ولكن باريس كان لها رباعي من النسوة الثرثارات . وإن قول القائل « سوف تصبح ملكاً » لخليق به ان يُطرح على نابوليون في ساحة بودوايه بمثل الشؤم الذي طُرح به على ماكبث في مرج آرموبير . لقد كان جديراً به أن يكون النعيب نفسه تقريباً .

وكانت نسوة شارع تورينيي منهمكات في شؤونهن الخاصة ليس غير : كن ثلاث بوابات ، وملتقطة خرق بسلّتها وكلاّبها الصغير .

وبدت النسوة الاربع وكأنهن واقفات عند زوايا الشيخوخة الأربع التي هي التداعي ، والهرم ، والتهدم ، والحزن :

كانت ملتقطة الخرق متّضعة . ففي مجتمع الهواء الطلق هذا تنحني ملتقطة الخرق ، وتحمي البوابة وتجير . وتلك نتيجة الكناسة ، التي تكون — كما تشاء البوابات — إما سمينة وإما هزيلة ، وفقاً لاهواء تلك التي تصنع الحكومة . إن المكنسة قد يكون فيها طيبة ورفق .

وكانت ملتقطة الخرق هذه سلة عارفة الجميل ، وكانت تبتسم ، وايّ ابتسام ، للبوابات الثلاث : ولقد تطارحن مثل هذه الاقوال :

— « آه ، إن قطتك شريرة دائماً ، اليس كذلك ؟ »

— « يا الـهي ! القطط ، انت تعرفين ، هي بحكم الطبع عدوة الكلاب . إن الكلاب هي التي تتشكى ؟ »

— « والناس ايضاً . »

— « ومع ذلك ، فان براغيث القطط لا تجري وراء الناس . »

— « ليس هذا هو البلاء ؛ الكلاب خطرة . وانا اذكر ان الكلاب تكاثرت في احدى السنوات إلى درجة اضطروا معها إلى الكتابة عن ذلك في الصحف . كان ذلك يوم كان في التويلري خرفان كبار تجر العربة الصغيرة الخاصة بملك رومة : هل تذكرين ملك رومة ؟ »

— « أنا ، لقد احببت دوق بوردو اكثر . »

— « أما انا فقد عرفت لويس السابع عشر . اني احب لويس السابع عشر اكثر . »

— « إن اللحم هو الشيء الغالي ، يا مدام باتاغون . »

— « آه ، لا تحدثيني عن ذلك . إن الجزارة رهيبة . رهيبة إلى حد مروّع . ان الجزارين ليس عندهم غير اللحم القاسي في هذه الايام . »

وهنا تدخلت ملتقطة الخرق :

— « ايتها السيدات ، ان الاعمال كاسدة . إن أكوام القاذورات تدعو إلى الشفقة . والناس لا يطرحون شيئاً في هذه الايام . انهم يأكلون كل شيء . »

— « هناك أناس افقر منك ، يا فارغوليم . »

فأجابت ملتقطة الخرق في احترام :

— « آه ، هذا صحيح . فأنا عندي عمل . »

وران الصمت . ثم اضافت ملتقطة الخرق ، وقد اذعنت للنزعة إلى الابهة ، تلك الحاجة الملحـة الكامنة في أعماق الناس :

— « في الصباح ، حين ارجـع إلى غرفتي ، أنفش سلتي الملأى ، واقوم بهجومي (ولعلها انتقائي) . وهذا ما يشكل اكواماً في غرفتي . وأضع الخرق في سلة ، وبقايا الفاكهة والخضر في وعاء خشبي ، والثياب الداخلية في خزانتي ، والمنسوجات الصوفية في الخزانة ذات الادراج ، والجرائد القديمة في زاوية النافذة ، والاشياء الصالحة للاكل في طبقي ، وقطع الزجاج في الموقد ، والاحذية العتيقة خلف الباب ، والعظـــام تحت فراشي . »

وكان غافروش ، الواقف وراءهن يصغي .

وقال :

— « أيتها العجائز ! ما الذي يجعلكن الآن تتحدثن في السياسة ؟ »
وانصب عليه وابل من القذائف مؤلف من استهزاء رباعي .
— « هوذا وغد آخر ! »
— « ما الذي يحمله في يده المبتورة ؟ غدارة ! »
— « اود ان اعرف ، هذا الشحاذ الطفل ! »
— « انهم لا يعرفون الهدوء ما لم يزعجوا الحكومة . »
وفي ازدراء ، لم يجب غافروش بغير رفع طرف أنفه بأبهامه فيما كان يفتح يده على مداها .
وصاحت ملتقطة الخرق :
— « يا له من حافي القدمين شرير ! »
وشبكت تلك التي نوديت باسم مدام باتاغون ، يديها في ذعر :
— « سوف تقع مصائب ، هذا مؤكد . فهذا الوغد الملتحي الذي هناك ، كنت أراه يمر كل صباح حاملاً شيئاً صغيراً ذا قبعة وردية تحت ذراعه . واليوم أراه يمر ، وقد حمل في ذراعه غدارة . إن مدام باشو تقول إنــه وقعت ثورة اثناء الاسبوع الماضي في ... في ... في ... — اين المــكان ؟ — في بونتواز . ثم انظرن ، هناك ، مع غدارتــه ، إلى ذلك المجرم الرهيب ! يبدو ان الـ « سيليستين » مليئة بالمدافـع . وماذا تردن ان تفعل الحكومة مع الاشقياء الذين لا عمل لهم غير اختراع الطرق لازعاج الشعب ، حين بدأنا نذوق طعم الهدوء قليلا بعد كل تلك البلايا التي حلت بنا ، يا الـهي الطيب ، وبعد تلك الملكة المسكينة التي رأيتها تجتاز الشارع في العربة الكارّة ! وهذا كله سيرفع سعر السعوط ايضاً . يا لها من فضيحة ! وليس من شك في اني سوف أراك تعدم بالمقصلة : ايها الشرير ! »
فقال غافروش :
— « أنت مصابة بالخنان ، يا عجوزتي : غطي أكمتك البحرية ! »

ومضى لسبيله .

حتى إذا بلغ شارع بافيه ، تذكر ملتقطة الخرق ، فنـــاجـــى نفسه هكـذا :

— « انت مخطئة في إهانتك للثوار ، ايتها الام المتكوّمة في الزاوية . هذه الغدارة هي لمصلحتك . أنا أحملها لكي تدخل سلتكِ اشياء اكثر تصلح للأكل . »

وفجأة سمع ضجة خلفه . كانت هي باتاغون البوابة التي تبعته ، والتي كانت تهز جُمع كفها ، على مسافة ما ، تهدده صائحة :

— « انت لست إلا ابن زنا ! »

فقال غافروش :

— « اجل ، انا لا ابالي بذلك على نحو صارخ . »

وسرعان ما مر بأوتيل لاموانيون . وهناك اطلق هذا النداء :

— « هيا إلى المعركـة ! »

واستبدت بـه رعشة كـآبة . ونظر إلى غدارته نظرة مؤنبة بـدت وكأنهـا محاولة إلى ترقيقها .

وقال مخاطباً الغدارة :

— « سوف امضي أنا . أما أنت فلن تمضي . »

إن كلباً ما قد يصرف الانظار عن كلب آخر . كان كلب ذو وبر طويل مجعد ، كلبٌ بالغ الهزال ، يجتاز بالمكان . وأثار مشهده الشفقة في قلب غافروش .

وقـال :

— « يا كلبي المسكين ، هل ابتلعت برميلاً حتى تبدو منك جميع الحلقـات الحـديدية ؟ »

ثم وجّه خطاه نحو « أورم سان جيرفيه » .

٣

سخط مشروع
يستبد بأحد الحلاقين

كان الحلاق الجليل ، الذي طرد الصغيرين اللذين فتح لهما غافروش أحشاء الفيل الأبوية ، في دكانه تلك اللحظة ، منهمكاً في حلق لحية جندي من جنود الفرق المعروفة بالليجيون سبق له أن خدم في ظل الامبراطورية . كانا يتجاذبان أطراف الحديث . وكان الحلاق قد حدّث الجندي العتيق ، طبعاً ، عن الفتنة ، ثم عن الجنرال لامارك ، ومن لامارك كانا قد انتقلا إلى الامبراطور . ومن هنا نشأت محاورة بين حلاق وجندي كان خليقاً ببرودوم ، لو سمعها ، بأن يغنّيها بالاشكال العربية (آرابيسك) ، وبأن يدعوها : « حوار بين الموسى والسيف . »

وقال المزين :

— « سيدي ، كيف كان الامبراطور يمتطي جواده ؟ »

— « على شكل رديء . انه ما كان يعرف كيف يقع . ومن اجل ذلك لم يقــع قط . »

— « هل كانت عنده جياد كريمة ؟ لا ريب انه كان يملك جيــاداً كريمــة ! »

— « يوم منحنى صليب الحرب لاحظت دابته . كانت فرساً سريعة العدو ، بيضاء كلها . كانت اذناها متباعدتين جداً. وكان سرجها عميقاً، وكان رأسها جميلا مُعلَماً بنجمة سوداء ، وكان جيدها طويلا جداً ، وركبتاها راسختين ، ووركاها بارزتين ، وكتفاها منحدرتين ، وقائمتاها الخلفيتان قويتين . كان ارتفاعها خمسة عشر شبراً ، أو أكثر قليلا . »

فقال المزين :

— « فرس جميلة : »

— « كانت دابة جلالته . »

واستشعر المزين ان الاعتصام بقليل من الصمت ، بعد هذه الكلمة ، أليقُ بالموقف . فسلك وفقاً لذلك المقتضى ، ثم استأنف كلامه :

— « ان الامبراطور لم يُجرح قط إلا مرة واحدة ، اليس كذلــك يا سيدي ؟ »

فأجاب الجندي العجوز بالنبرة الهادئة الجليلة التي يصدر عنها الرجل الذي كـان هناك * :

— « في عقبه . في راتيسبون . أنا لم أره أحسن بزة ممــا كان في ذلك اليوم . كان نظيفاً مثل فلس . »

— « وانت ، يا سيدي الجندي العتيق ، لا شك في انك قد جرحت مرات عديدة ؟ »

فقــال :

---

* يقصد الذي شهد تلك الموقعة .

— « أنا ؟ آه ، لم يكن ثمة اشياء خطيرة . لقد أصبت بجرحين في عنقي من ضربة سيف يومَ مارانغو ، واصابتني قذيفة مدفع في ذراعي الايمن ، يوم اوسترليتز ، واخرى في وركي الأيسر ، يوم يينا ، واصابني جرح من حربة ، يوم فريدلند ، وهناك ، في الموسكوفا أصبت بسبعة جراح أو بثمانية جراح لا أدري ، وفي لوتزن انفجرت قنبلة فبترت اصبعي ... آه ! أما في واترلو ، فقد اصابتني كرة حديدية من كرات المدافع في رجلي . ذلك كل شيء . »

فصاح المزين في نبرة بندارية ** :

— « ما أحلى الموت في ساحة القتال ! واني لاقسم لك بشرفي اني لأوثر ان تصيبني كرة من كرات المدافع في بطني على ان اموت في سريري ، صريع الداء ، موتاً بطيئاً ، قليلا قليلا يوماً بعد يوم ، بواسطة العقاقير ، واللزقات ، والمحاقن ، والطب . »

فقال الجندي :

— « انت لست متقزز النفس . »

ولم يكد ينهي كلمته حتى هزت الدكان قرقعة رهيبة . كان لوح من الواح الزجاج قد حُطم فجأة .

وشحب وجه الحلاق .

وصاح :

— « آه ، يا الـٰهي ! هذه واحدة ! »

— « ماذا ؟ »

— « كرة من كرات المدافع . »

ووقال الجندي :

— « ها هي ذي . »

** اي فخمة ، على طريقة الشاعر اليوناني بندار .

والتقط شيئاً كان يجري على ارض الدكان . كان حجراً .

وركض الحلاق إلى اللوح الزجاجي المكسور ورأى غافروش ، الذي كان يعدو بكامل قوته نحو سوق سان جان . حتى إذا وصل إلى دكان الحلاق ، لم يستطع غافروش – وكانت صورة الطفلين لا تبرح ذهنه – ان يقاوم الرغبة في ان يلقي عليه السلام ، فقذف لوحه الزجاجي بحجر .

وصاح الحلاق . وكان ابيضاض لونه قد استحال إلى ازرقاق :

– « انظر ! إنه يصنع الشر من اجل الشر . هل آذى أحد هذا المتشرد ؟ »



٤
الطفل يعجب للرجل العجوز

وفي غضون ذلك كان غافروش قد التحق – في سوق سان جان ، حيث جُردت الحامية من السلاح – بعصابة يقودها آنجولراس ، وكورفيراك ، وكومبوفير ، وفويي . كانوا مسلحين تقريباً . وكان باهوريل وجان بروفير قد التحقا بهم وضخّما الجمع . وكان آنجولراس يحمل بندقية صيد ذات اسطوانتين . وكان كومبوفير يحمل بندقية حرس وطني عليها رقم الفرقة الخاصة أو الليجيون ، وحول خصره غدارتان نمّت عنهما سترته الطويلة غير المزرّرة . أما جان بروفير فحمل بندقية قصيرة عتيقة من بنادق الفرسان ، واما باهوريل فحمل بندقية قصيرة خفيفة من النوع المعروف بالكارابين ، في حين شهر فويي سيفاً ، واندفع يمشي في المقدمة ، صائحاً :

– « فلتحي بولونيا ! »

لقد اقبلوا من الـ « كي مورلان » ، من غير اربطة عنق ، ومن غير قبعات ، لاهثين ، مشبعين بالمطر ، وقد أومض البرق في أعينهم . واقترب غافروش منهم في هدوء :

– « إلى أين نحن ذاهبون ؟ »

فقال كورفيراك :

– « تعال . »

وخلف فويي ، مشى ، أو على الأصح ، وثب باهوريل ، سمكة في مياه الفتنة . كان يرتدي صدرة قرمزية ، وكانت له تلك الكلمات التي تسحق كل شيء . واثارت صدرته احد عابري السبيل ، فصاح في جزع :

— « ها هم الحمر ! »

فأجاب باهوريل :

— « الحمر ! الحمر ! خوف مضحك ، ايهـــا البورجوازي . أمـا أنا ، فلست ارتجف أمـــام الخشخاش البري الاحمر . والقبعـــة الصغيرة الحمراء لا توقـــع في نفسي اي ذعر . صـــدقني ، ايهـــا البورجوازي ، يجب أن تـــدع الخوف من اللون الاحمر للحيوانـــات ذوات القرون . »

ووقع نظره على زاوية من جدار ، حيث ألصقت اهـدأ ورقـــة في الدنيا ، وكانت إذناً بأكل البيض ، امراً رعائياً خاصاً بالصوم الكبير ، وجّهه كبير اساقفة باريس إلى قطعانه (*ouailles*) .

وهتف باهوريل :

— « قطعان » (*ouailles*) ، وسيلة لطيفة لقول « إوزّ » (*oies*) .

ونزع الامر الرعائي عن الجدار . واجتذب ذلك غافروش . ومنـــذ تلك اللحظة بدأ غافروش يدرس باهوريل .

ولاحظ آنجولراس :

— « باهوريل ، انت مخطىء . كان ينبغي ان تترك الامر الرعائي وشأنه ، فليست هذه هي مهمتنا . أنت تنفق غضبك على غير طائل . اقتصد في ذخيرتك . نحن لا نطلق النار خارج الصفوف ، لا بالروح ولا بالبندقية . »

فأجاب باهوريل في سرعـــة وحدّة :

— « لكلٍّ طريقته ، يا آنجولراس . فهذا النثر الاسقفي يزعجني ، انا اريد ان آكل البيض من غير اذن من احد . أنت عندك الاسلوب البارد المحرق . إنني اتسلى . وإلى هذا ، فأنا لا أنهك نفسي ، إني اكتسب قوة جديدة . وإذا كنت قد مزقت ذلك الامر الرعائي ، قسماً بـ « هرقل » ! *Hercle* ، فلكي يفتح ذلك شهيتي . »

وادهشت هذه الكلمة غافروش . كان يلتمس كل المناسبات لـــكي يثقف نفسه . وكان ممزق الاعلانات هـــذا قـــد اكتسب اعجـابـه . وسألـه :

— « ما معنى *Hercle* ؟ »

فأجابه باهوريل :

— « إنها اسم كلب مقدس في اللاتينية . »

وهنا تبيّن باهوريل عند احدى النوافذ شاباً شاحب الوجه ذا لحيـــة سوداء ، كان ينظر اليهم فيما هم يجتازون الطريق ، ولعله ان يكون احد « اصدقاء الالفباء » . وناداه صائحاً :

— « عجّل ! الخراطيش ! مسدس حربي *para bellum* . »

فقال غافروش الذي أمسى يفهم اللاتينية الآن :

— « *bel homme* (رجل جميل) . هذا صحيح . »

ورافقهم موكب صاخب : طلاب ، وفنانون ، وشباب ينتسبون إلى جماعة الـ « كوغورد ديكس » ، عمال ، وشغيلة مرافىء ، مسلحون بالعصي والحراب . وكان قليل منهم ، مثل كومبوفير ، يحملون غدارات مقحمة في أحزمتهم . وكان يمشي مع هذه العصبة رجل عجوز بـــدا هرماً جداً . ولم يكن يحمل سلاحاً البتة ، وكان يغذ الخطى خشية ان يخلّفوه وراءهم ، على الرغم من انه كانت تبدو على وجهه أمارات الاستغراق في التفكير . ولمحه غافروش .

وقال لكورفيراك :

— « من هـــذا ؟ »

— « هذا رجل عجوز . »

كان هو مسيو مابوف .

٥
العجــــوز

ينبغي ان نروي ما قــــد حــــدث .

كان آنجولراس واصدقاؤه في جادة بوردون ، قرب مستودعــــات الحنطــة لحظــة اطلق « الفرسان التنانين » النار . وكان آنجولراس ، وكورفيراك ، وكومبوفير بين اولئك الذين اتجهوا نحو شارع باسومبيير صائحين : « إلى المتاريس ! » وفي شارع « ليديغيير » التقوا رجلا عجوزاً يمشي الهوينا .

وكان الذي لفت نظرهم ان مشية هذا الرجل كانت متعرجة كمشية الثمل . وإلى هذا ، فقد كان يمسك قبعته بيده ، على الرغم من ان المطر لم ينقطع طوال الصباح ، وعلى الرغم من ان السماء كانت تمطر مطراً غزيراً في تلك اللحظة عينها . وعرف كورفيراك فيه الأبَ مابوف . عرفه بسبب من انه كثيراً ما رافق ماريوس حتى باب غرفته . وإذ كان يعرف عادات وكيل الكنيسة العجوز المولع بالكتب القديمة ــ تلك العادات المسالمة ، الاكثر من هيّابة ، واذ اذهله ان يراه وسط هذا الجمع الصاخب ، على بعد خطوتين من نار الخيالة ، وفي غمرة من رصاص البنادق تقريباً ، حاسرَ الرأس تحت وابل المطر ، مطوفاً بين القنابل ، فقد تقدم نحوه ، وجرى بين الثائر ذي الخمسة والعشرين ربيعاً ، وبين العجوز الذي تعدّى الثمانين هــــذا الحوار :

ــ « مسيو مابوف ، ارجع إلى البيت . »

ــ « لمــــاذا ؟ »

ــ « سوف يقع اشتباك . »

ــ « حسن . »

— « ضربات سيوف ، رصاص بنادق ، يا مسيو مابوف : »

— « حسن . »

— « نيران مدافع . »

— « حسن . إلى أين أنتم ذاهبون ؟ »

— « إننا ذاهبون لنطرح الحكومة أرضاً . »

— « حسن . »

وأنشأ يتبعهم . ومنذ تلك اللحظة لم ينطق بكلمة . وكانت خطاه قد أمست ، فجأة ، ثابتة راسخة . وحاول بعض العمال ان يضعوا ذراعهم بذراعه ، ولكنه رفض في ايماءة برأسه . وتقدّم ، أو كاد ، إلى الصف الأمامي من الحشد ، وقد تكشّف في آن معاً عن حركة رجل يمشي قدماً ، ومحيّا رجل مستسلم للرقاد .

وغمغم الطلاب :

— « يا له من رجل طيب يائس ! »

وسرت في الجمع شائعة تقول انه كان عضواً سابقاً من اعضاء المؤتمر الوطني ، قاتلاً قديماً من قتلة الملوك .

وكان الجمع قد انعطف إلى شارع « لا فيريري » . وكان غافروش الصغير يسير على رأس الموكب منشداً هذه الاغنية بكامل قواه ، مما جعله ضرباً من البوق . لقد أنشد :

« هوذا القمر يبدو
متى سنذهب الى الغابة ؟
هكذا سأل شارلو شارلوت .

تو ، تو ، تو
لـ « شاتو » .

ليس لي غير اله واحد ، غير ملك واحد ، غير فلس واحد ،
غير حذاء واحد .

ولأنهما شربا في الصباح الباكر ،
النبي والصعتر ،
كان اثنان من الصنونو في سكر شديد .

زي ، زي ، زي ،
لـ « باسي »
ليس لي غير الله واحد ، غير ملك واحد ، غير فلس واحد ،
غير حذاء واحد .

وهذان الذئبان الصغيران المسكينان
كانا ثملين مثل سمانيَيْن ؛
وسخر نمر من ذلك في كهفه .

دون ، دون ، دون
لـ « مودون »
ليس لي غير اله واحد ، غير ملك واحد ، غير فلس واحد ،
غير حذاء واحد .

وأقسم احدهما ، وراح الآخر يلعن
متى سنذهب الى الغابة ؟
هكذا سأل شارلو شارلوت .

تن ، تن ، تن ،
ا « بانتين » .
ليس لي غير اله واحد ، غير ملك واحد ، غير فلس واحد ،
غير حذاء واحد .

واتخذوا سبيلهم نحو سان ميرّي ٥



٦
مجندون جدد

وتعاظمت العصبة لحظةً اثر لحظة . وقريباً من شارع بييت التحق بالقوم رجل طويل القامة، وخطّ الشيب شعره ، رجل لاحظ كورفيراك وآنجولراس ، وكومبوفير سيماه الخشنة المقدامة ، ولكن اياً منهم لم يعرفه . ولم يلتفت غافروش إلى ذلك الرجل ، فقد كان منهمكاً في إنشاده ، وتصفيره ، ودندنته ، والتقدم إلى أمام وطرق مصاريع الدكاكين بعقب غدارته التي لا زناد لها .

واتفق ان اجتازوا ، في شارع الـ « فيريري » بباب كورفيراك . وقال كورفيراك :

— « هذه مصادفة حسنة . لقد نسيتُ حافظة نقودي ، وخسرت قبعتي . »

وفارق الجمعَ ، وصعد إلى غرفته ، مرتقياً درجات السلم أربعاً أربعاً ، وتناول قبعة قديمة وحافظة نقوده . واخذ ايضاً صندوقاً كبيراً مربعاً ، في حجم حقيبة ضخمة ، كان مخبوءاً بين ملابسه المتسخة . وفيما هو يهبط السلم كرة اخرى ، نادته البوابة قائلة :

— « مسيو دو كورفيراك ! »

فأجابها :

— « ايتها البوابة ، ما اسمك ؟ »

وبهتت البوابة .

— « ولكن ... انت تعرف جيداً . انا البوابة ، انا أدعى الأم فوفين . »

— « حسناً ، إذا دعوتني مرة اخرى مسيو دو كورفيراك ، فسوف

ادعوك الام دو فوفين . والآن ، تكلمي، ما المسألة ؟ ماذا تريدين ؟»

— « هناك من يريد ان يتحدث اليك . »

— « من هو ؟ »

— « لست ادري . »

— « اين هو ؟ »

— « في كوخي . »

فقال كورفيراك :

— « يا للشيطان ! »

واضافت البوابـة :

— « لقد سلخ اكثر من ساعة وهو ينتظر عودتك إلى البيت . »

وفي الوقت ذاته خرج من كوخ الأم فوفين شبه عامل شاب ، نحيل ، شاحب الوجه ، صغير الجسم ، منمش البشرة ، يرتدي قميصاً ممزقـاً وبنطلوناً مرقوعاً مخيطاً من قماش مخملي مضلع ، ويبدو وكأنه فتاة في ثوب صبي اكثر منه رجلا . وفي صوت لم يكن ليشبه ، بحال مـن الاحوال ، صوت امرأة ، قال لكورفيراك :

— « مسيو ماريوس ، من فضلك ؟ »

— « انه ليس هنـا . »

— « هل سيرجع هذا المساء ؟ »

— « لست ادري شيئاً عن ذلك . »

واضاف كورفيراك :

— « أما انا فلن ارجع إلى البيت . »

وحدق الفتى نظره اليه ، وسأله :

— « ولم ذاك ؟ »

— « لأنـه . »

— « وإلى أين سوف تذهب إذن ؟ »

— « وما علاقتك بذلك ؟ »

— « هل تريد ان احمل لك صندوقك ؟ »

— « انا ذاهب إلى المتاريس . »

— « أتريد أن أذهب معك ؟ »

فأجابه كورفيراك :

— « إذا شئت . الطريق مفتوحة . والشوارع ملك للناس جميعاً . »

وانطلق يعدو لكي يلتحق باصدقائه . حتى إذا انضم اليهم ، قدم الصندوق إلى واحد منهم يحمله . ولم يلاحظ ، إلا بعد ربع ساعة ، ان الشاب كان قد تبعهم .

إن الحشود لا تمضي إلى حيث تشاء على وجه الضبط . ولقد اوضحنا ان هبة من ريح خليقة بأن تتلاعب بها . لقد اجتاز القوم إلى سان ميري ، ولكنهم وجدوا انفسهم ، من غير ان يعرفوا كيف ، في شارع سان دونيز .





الكتاب الثاني عشر

كورنث



١

تاريخ كورنث منذ تأسيسها

إن الباريسيين الذين يلاحظون اليوم ، عند دخولهم شارع رامبوتــو من جانب الاسواق ، وإلى يمينهم ، تجاه شارع مونديتور ، دكان صانع سلال ، ذات علامة تجارية تمثل سلة على شكل الامبراطور نابوليــون

الكبير ، وقد كتب عليها :

نابوليون قد صنع
كله من خيزران

نقول ان هؤلاء الباريسيين لا تخطر بيالهم البتة بعض المشاهد الرهيبة التي عرفها هذا المكان نفسه منذ ثلاثين سنة أو اقل .

فهناك كان شارع شانفريري ، الذي كانت اللافتات القديمة تدعوه شانفيريري ، والحانة الشهيرة المسماة كورنث .

والقارىء يذكر كل ما قيل على المتراس الذي أقيم في تلك النقطة ، والذي كسفه في مكان آخر متراس سان ميري . وعلى متراس شارع الـ « شانفريري » الشهير هذا ، الغارق اليوم في ظلمة عميقة ، نوشك ان نلقي قليلا من النور .

وليسمح لنا القارىء ان نلجأ ، ابتغاء الوضوح ، إلى الوسيلة البسيطة التي اصطنعناها من قبل في كلامنا على واترلو . وليس على الذين يريدون ان يتمثلوا ، في دقة وافية ، مجاميع البيوت التي نهضت في ذلك الحين قرب رأس سان اوستاش ، في الزاوية الشمالية الشرقية من اسواق باريس ، حيث يقع اليوم فم شارع رامبوتو ، إلا ان يتخيلوا ، على تماس بشارع سان دونيز عند قمتها ، وبالاسواق عند قاعدتها ، حرف N يمثل خطيه العموديين شارع « غراند تروواندري » وشارع شانفريري ، ويمثل خطه المعترض شارع «بيتيت تروواندري » . كان شارع موندیتور العتيق يقطع القوائم الثلاث عند زواياها الاكثر اعوجاجاً . بحيث ان التشابك المحير الذي تشكله تلك الشوارع الاربعة كان كافياً لأن ينشىء — على رقعة مساحتها ستمئة قدم مربع ، بين الاسواق وشارع سان دونيز من ناحية ، وبين شارع « دو سيني » وشارع

الـ « بريشير » من ناحية اخرى – سبعة مجاميع منفردة من البيوت ، متقاطعة على نحو غريب ، وذوات احجام مختلفة ، وقائمة على شكل معوج ، وكأنما كان ذلك بمحض المصادفة ، ولا ينفصل بعضها عن بعضها إلا انفصالا ضئيلا ، مثل قطع الحجارة في مستودع الخشب ، بشقوق ضيقة .

نحن نقول « شقوق ضيقة » ، وليس في استطاعتنا ان نعطي فكرة أصح عن هذه الازقة المظلمة ، المنقبضة ، المقرّنة ، المحاطة ببيوت عتيقة متهدمة ذات ثمانية أدوار . وكانت هذه البيوت من الهرم بحيث ان الواجهات ، في شارع الـ « شانفريري » وشارع بيتيت تروواندري ، كانت مدعمة بعوارض امتدت من بيت إلى آخر . كان الشارع ضيقاً ، وكان مجرى الماء واسعاً ، وكان عابر السبيل يمشي على الرصيف المندى دائماً ، محاذياً دكاكين اشبه ما تكون بكهوف ، ومعالم ضخمة مطوقة بالحديد ، واكوام من القاذورات هائلة ، وأبواب ازقة مسلحة بشباك حديدية ضخمة عريقة في القدم . لقد اكتسح شارع رامبوتو ذلك كله .

وهذا الاسم ، موندیتور (*) ، يصور على نحو رائع التواءات هذه الطرق كلها ، وإذا تقدمتَ أبعد قليلا وجدت صورة اقوى تعبيراً عنها في شارع بيرוويت (**) الذي يفنى في شارع موندیتور .

وكان عابر السبيل الوافد من شارع سان دونيز إلى شارع الـ « شانفريري » يرى الطريق تضيق تدريجياً ، أمامه ، وكأنما قد دخل في قمع متطاول . وعند نهاية الشارع ، الذي كان ضيقاً جداً ، كان يجد الممر مسدوداً من ناحية السوق ، فيحسب نفسه في زقاق غير نافذ ، إذا لم يسبق له ان لاحظ عن يمينه وعن شماله فتحتين سوداوين يستطيع ان يفر من خلالهما . وكان ذلك شارع موندیتور المتصل من ناحية بشارع الـ

---

* Mondétour وفي هذه الكلمة معنى الانعطاف والالتواء.

** Pirouette وفي هذه الكلمة معنى الدوران على رجل واحدة.

« بريشير » ، ومن اخرى بشارعي « دو سيني » و « بيتيت تروواندري » .
وعند نهاية هذا الضرب من الزقاق غير النافذ . عند زاوية الفتحة التي إلى اليمين ، كان يرى بيت اكثر انخفاضاً من سائر البيوت ، يشكل شبه رأس على الشارع .

في هذا المنزل المؤلف من دورين ليس غير ، استقرت في خفة وفرح ، منذ ثلاثمئة عام ، حانة شهيرة . وكانت هذه الحانة تطلق اصداء مرحة في ذلك الموطن عينه الذي شهره تيوفيل العجوز بهذين البيتين :

هناك يقعقع الهيكل العظمي الرهيب
لعاشق مسكين كان قد شنق نفسه

وكان الموقع جيداً . وانتقلت ملكية الحانة من الآباء إلى الأولاد .

وفي عهد ماتورين رينييه كانت هذه الحانة تدعى « اناء الـــورود » Pot aux Roses ، وإذ كانت الالغاز التصويرية زياً شائعاً في ذلك العهـد فقد جعلوا لافتتها وتداً (*) مصبوغاً بلون أزهر . وفي القرن الماضي ، عمد ناتوار الجليل ، احد الفنانين الغريبي الاخلاق الذين تحتقرهم اليوم المدرسة المتصلبة ، بعد ان سكر عدة مرات في هذه الحانة ، على المائدة نفسها حيث استبد السكر بـ « رينييه » ، نقول عمد ناتوار اعترافاً منه بالجميل فرسم عنقوداً من عنب كورنث على الوتد المصبوغ باللون الازهر . وغيّر صاحب الحانة لافتته ، ابتهاجاً ، ورسم تحت العنقود ، هذه الكلمات مذهّبة : **عنب كورنث** . ومن هنا اسم كورنث . وليس شيء اكثر طبعية ، بالنسبة إلى السكيرين ، من الاضمار . والاضمار هو تعرّج العبارة . فشيئاً بعد شيء خلعت كورنث « اناء الورود » عن العرش . وعمد آخر خمار في السلالة ، الاب هوشلو ، في غمرة من جهله حتى لذلك التقليد نفسه ، فصبغ الوتد بلون ازرق .

صالة سفلية حيث كانت مائدة المحاسبة ، وغرفة في الدور الاول حيث كانت مائدة البليارد ، وسلم خشبية لولبية تخترق السقف ، خمر عـلى

* poteau على اعتبار المجانسة بين هذه الكلمة وكلمتي pot aux في اسم الحانة .

الموائد ، ودخان على الجدران ، وشموع في وضح النهار ، تلك كانت الحانة . وكانت سلم ذات باب مسحور في الصالة السفلى تقود إلى الكهف . وفي الدور الثاني كانت حجرات آل هوشلو . وكان المرء يصعد إلى هناك بسلم ، بل بمرقاة ، على الاصح ، لا سبيل إلى الدخول اليهـــا إلا من باب خلفي في القاعة الكبرى من الدور الأول . وتحت السطح ، كانت عليتان ذواتا كوتين ، خُصصتا للخدم . وكان المطبخ يقســـم الطابق الارضي بحجرة المحاسبة .

ولعل الاب هوشلو كان كيميائياً بالفطرة ، ولقد كان طاهياً من غير شك . إن الناس ما كانوا يحتسون الخمر في حانته فحسب ، لقد كانوا يأكلون هناك . وكان هوشلو قد اخترع اكلة ممتازة لم تكن توجد إلا عنده ، كانت مؤلفة من عظام معاصم محشوة دعاها **عظام معاصم بالدسم** *Corpes au gras* . وكان هذا الطبق يؤكل على ضوء شمعة من الشحم الابيض ، أو على ضوء مصباح من عهد لويس السادس عشر ، عـــلى موائد كان القماش المشمع قد سمر فوقها ليقوم مقام غطاء الخوان . وكان الناس يفدون إلى هناك من مكان بعيد . وذات صباح جميـــل ، خطر لهوشلو أن من الخير له ان يعرّف عابري السبيل بـ « اختراعه » . فغمس فرشاة في اناء من الدهان الاسود ، واذ كانت له طريقة خاصـــة في الاملاء ، كما كانت له طريقة خاصة في الطبخ ، فقد ارتجل عـــلى جداره هذه الديباجة التي تلفت النظر :

Carpes Ho Gras

وذات شتاء ، بدا للامطار والعواصف ان تمحو الـ s التي تختـــم الكلمة الاولى . والـ G التي تستهل الكلمـــة الثالثة ، فخُلّفت عـــلى هـــذا النحـــو : Carpe Ho Ras

وبعون من الزمن والمطر ، كان ذلك الاعلان المتواضع الخاص بالمآكل الفاخرة قد غدا نصيحة عميقة .

وهكذا اتفق ان الاب هوشلو وقد جهل الفرنسية قد عرف اللاتينية ، وانه قد أطلع من مطبخه فلسفة ، وانه وقد رغب في ان يتفوق على « كاريم » قد ساوى هوراس . وكان مما يوقع الدهش في النفس ان ذلك قد عنى ايضاً : ادخلوا إلى حانتي .

إن شيئاً من ذلك كله ليس يوجد الآن . فقد ُبقر بطنه ووسع منذ عام ١٨٤٧ ولعله لم يعد اليوم قائماً . لقد غاب شارع الـ « شانفريري» وكورنث تحت ارصفة شارع رامبوتو .

وكما سبق منا القول ، كانت حانة كورنث احد المواطن التي يلتقي فيها ، ان لم نقل يجتمع فيها في حالات الخطر ، كورفيراك واصدقاؤه ؛ وكان غرانتير هو الذي اكتشف كورنث . كان قد دخل بسبب من Carpe Horas ، ورجع بسبب من Carpes aux Gras : كانوا يعاقرون الخمر هناك ، وكانوا يأكلون هناك ، وكانوا يصيحون هناك . كانوا يدفعون قليلا ، وكانوا يدفعون دفعاً مطففاً ، وكانوا لا يدفعون شيئاً على الاطلاق ، وكانوا موضع الترحيب دائماً . فقد كان الاب هوشلو رجلا طيباً .

وكان هوشلو ـ الرجل الطيب ، كما قلنا اللحظة ـ طاهياً ذا شاربين : تنوّع مسلٍ . وكانت ترين على وجهه دائماً سيما الملل ، ويبدو وكأنه راغب في ان يرهب زبائنه ، ويتذمر من الوافدين على حانته ، ويظهر وكأنه اكثر استعداداً لأن يلتمس اسباب النزاع معهم منه لأن يقدم اليهم حساءهم . ومع ذلك فنحن نصر على القول إنهم كانوا دائماً موضع الترحيب . وهذه الغرابة جعلت سوق حانته نافقة ، وقادت الشبان اليه وبعضهم يقول لبعض : « تعالوا واسمعوا الأب هوشلو يتأفف . » وكان في ما مضى استاذاً في المسايفة . وكان ينفجر ، فجأة ، ضاحكاً . صوت خشن ، شيطان طيب . كان فؤاده كوميدياً ، وكان وجهه تراجيدياً . ولم يكن يطمع بشيء خير من ترويعك ، مثل علب السعوط تلك التي ُجعلت على

شكل غدارة . ودويّ الانفجار عطسة .

وكانت الام هوشلو هي زوجته ،وكانت مخلوقة ذات لحية ؛ مخلوقة قبيحة جداً

وحوالى عام ١٨٣٠ توفي الاب هوشلو . وبموتـه ضاع سر « عظام المعاصم بالشحم » . وادارت الحانة من بعده أرملته . وكانت قليـلة التعزي ، ولكن المطبخ فسد ، وامسى مقيتاً . وأما الخمر التي كانـت دائماً رديئة فقد أمست مخيفة . ومع ذلك فقد واصل كورفيراك واصدقاؤه الذهاب الى كورنث — « بدافع الشفقة » كما قال بوسوويه .

كانت الأرملة هوشلو مبهورة قصيرة التنفّس، شوهاء ، ذات ذكريات ريفية . وكانت تزيل ضجرهم بطريقة لفظها. وكان لها اسلوب في قول الاشياء يُتَبِّل ذكريات قريتها وايام ربيعها ، وكان من حظها — كما اكدت — أن سمعت ذات يوم « ذئاب الفجاج تغني في زعرور الاودية . »

وكانت حجرة الدور الأول ، حيث « المطعم » ، غرفـة طويـلة واسعة مزدحمة بالمقاعد التي لا ظهور لها ، والمواطيء ، والكراسي ، والدكك ، والموائد ، وبطاولة بليارد عتيقة عرجاء . وكان المرء يبلغهـا بالسلم اللولبية المنتهية عند زاوية الغرفة إلى ثقب مربع اشبه ما يكـون بكوّة مركب .

وكان لهذه الغرفة ، المضاءة بنافذة مفردة ضيقة وبمصباح كان دائماً مشعلا ، مظهر عليّة . وكانت جميع قطع الاثاث القائمة على اربـع ارجـل تسلك وكأن ليس لهـا غير ثلاث . ولم يكن يزين الجدران المبيضة بالكلس غير هذه الرباعية التي نظمت على شرف مدام هوشلو :

« إنها تدهش على مدى عشر خطى ؛ انها تخيف على مدى خطوتين ،
وان ثؤلولا ليسكن في انفها الخطر.
وانك لترتجف كل لحظة خشية ان تتمخطه نحوك .
وخشية أن يجيء يوم صاح يسقط فيه انفها في فمها . »

كان ذلك مكتوباً بالفحم على الجدار .

وكانت مدام هوشلو ، الاصلية ، تروح وتجيءُ من الصباح إلى المساء ،

امام هذه الرباعية ، في هدوء كامل . وكانت خادمتان، تدعيان ماتولوت * وجيبولوت ** ، ولا يعرفهما احد بأي اسم آخر ، تساعدان مدام هوشلو في وضع اكواز الخمر الزرقاء ، على الموائد ، وفي وضع مختلف ضروب المرق التي كانت تقدم إلى الجائعين في اطباق فخارية . وكانت ماتولوت ، البدينة المدورة ، الصهباء، الصخابة، الاثيرة السابقة على فؤاد هوشلو الفقيد ، ابشع من اي هولة أسطورية . ومع ذلك، وإذ كان من المناسب ان تتخلف الخادمة عن سيدتها دائماً فقد كانت اقل بشاعة من مدام هوشلو. أما جيبولوت ، الطويلة القامة ، الرقيقة الحاشية ، البيضاء بياضاً ليمفاوياً ، المطوقة عيناها بدوائر مزرقة ، المتساقطة الاجفان ، المرهقة المنهوكة أبداً ، الرازحة تحت وطأة ما يمكن ان ندعوه السأم المزمن ، المستيقظة قبل الجميع ، الآوية إلى فراشها بعد الجميع — نقول أما جيبولوت هذه فكانت تخدم كل الناس ، حتى الخادمة الاخرى ، في صمت وفي دماثة ، مبتسمة من خلال التعب ابتسامة غامضة ناعسة .

وقبل أن تدخل إلى قاعة المطعم كنت تقرأ على الباب هذا البيت وقد كتب بالطباشير بخط كورفيراك :

تلذذ اذا استطعت وكل اذا جرؤت على الاكل .

٢
ابتهاج تمهيدي

كان ليغل دو مو ، كما نعرف ، يحيا مع جولي أكثر مما يحيا في اي مكان آخر . كان له مأوى كما أن للطير غصناً . وكان الصديقان

* Matelote ومعناها في الاصل طعام مركب من اسماك مختلفة الانواع مطبوخة بالسمن وشيء من العجين والخمر .

** Gibe lotte ومعناها في الاصل لحم محمر .

يعيشان معاً ، ويأكلان معاً ، وينامان معاً . كان كل شيء مشتركاً عندهما، حتى موزيشيتا إلى حد ما . كانا ما يعرف عند « اخوان القبعات » بـ bini . وفي صباح الخامس من حزيران ، قصدا لتناول الفطور في كورنث . وكان جولي ، المصاب بصداع ، يشكو زكاماً شديداً بدأ ليغل يشاركه فيه . كانت سترة ليغل خلقة بالية ، ولكن جولي كان حسن البزة .

وكانت الساعة حوالى التاسعة صباحاً عندما فتحا باب كورنث .

وصعدا إلى الدور الأولى :

واستقبلتهما ماتولوت وجيبولوت :

وقال ليغل :

— « محارات ، جبن ، وفخذ خنزير . »

وجلسا إلى احدى الطاولات :

كانت الحانة خالية . ولم يكن فيها أحد غيرهما .

ووضعت جيبولوت ، وقد عرفت جولي وليغل ، زجاجة خمر على الطاولة :

وفيما هما يتناولان أولى محاراتهما ، برز رأس من كوة السلم ، وقال صوت :

— « كنت ماراً ، فشممت في الشارع رائحة جبن « بري » اللذيذة، فدخلت . »

كان ذلك هو غرانتير .

وأخذ غرانتير مقعداً من غير ظهر ، وجلس إلى الطاولة :

وإذ رأت جيبولوت غرانتير ، وضعت زجاجتي خمر على المائدة :

وهكذا صارت الزجاجات ثلاثاً .

وسأل ليغل غرانتير :

— « اتعتزم ان تشرب هاتين الزجاجتين ؟ »

وأجاب غرانتير :

— « كلهم دهاة ، أما انت فساذج . إن زجاجتي خمر لم تدهشا احداً من الرجال في يوم من الايام . »

كان الآخران قد بدءا بتناول الطعام . وكان غرانتير قد بدأ بمعاقرة الخمر . وجرع نصف زجاجة في سرعة .

وأضاف ليغل :

— « ألديك ثقب في معدتك . »

فقال غرانتير :

— « الأمر الثابت أن لديك ثقباً في مرفقك . »

وبعد ان افرغ كأسه ، اردف :

— « والآن ، يا ليغل المرائي . إن سترتك عتيقة . »

فأجاب ليغل :

— « ارجو ذلك . هذا ما يجعلنا متفقين تمام الاتفاق : أنا وسترتي . لقد اقتبستْ جميع تجعداتي . فهي لا تربكني البتة . ولقد كيفست نفسها وفقاً لجميع قباحاتي . وانهـا لتساير جميع حركاتي . وأنا لا أحس بها إلا لأنها تحفظ عليّ الدفء . إن السترات القديمة اشبه شيء بالاصدقاء القدماء . »

فهتف جولي ، مشتركـاً في الحوار :

— « هذا صحيح . الثوب (habit) العتيق صديق (abi) عتيـق »

وقال غرانتير :

— « خاصة في فم انسان مزكوم »

وتساءل ليغل :

— « غرانتير ، أقادم أنت من الجادة ؟ »

— « لا » .

ـ « لقد رأينا اللحظة ، أنا وجولي ، مقدمة الموكب تمرّ . »
فقال جولي :
ـ « انه مشهد رائــع . »
وهتف ليغل :
ـ « ما أهدأ الشارع ! من الذي يظن ان باريس كلها قد قلبــت رأساً على عقب ؟ وكما ترى ، فقد كانت الأديرة كلها هنا في ما مضى . وقد اورد « دو بريل » و « سوفال » لائحة بها ، وكذلك فعل الاب لوبوف . اجل كانوا كلهم في هذه الناحية ؛ ولقد تكاثروا ، متعلـين وحفاة ، حليقين وملتحين ، رماديين وسوداً وبيضاً ؛ فرنسيسكانيين ، ومينيميين ، وكبوشيين ، وكرمليين ، واوغسطينيين صغاراً ،واوغسطينيين كباراً ، واوغوسطينيين شيوخاً . كانوا يفرخون . »
فقاطعه غرانتير :
ـ « لا تتحدث عن الرهبان . إن ذلك يغريني بأن احك جلدي . »
ثم إنــه هتف :
ـ « بُه ، لقد بلعت اللحظة محاراً رديئاً . وها هي ذي السوداوية تعاودني . المحارات فاسدة ، والخادمات بشعات . انا اكره الجنس البشري . لقد مررت اللحظة بشارع ريشيليو ، امام المكتبــة العموميــة الكبيرة . والتفكير في ركام اصداف المحار ، الذي يدعونه مكتبــة ، يوقع الاشمئزاز في نفسي .كم قد استهلك من الورق ! ومن الحبر ! ومن الخربشة ! لقد كتب القوم ذلك كله ! ما اشد حماقة ذلك الذي قال ان الانسان كائن ذو قدمين من غير ريش ! وبعد ذلك التقيت فتاة مليحة أعرفها ، جميلة كالربيــع ، جديرة بأن تدعى فلوريال * ، مبتهجة ، متهللة ، سعيدة ، مـع الملائكة ، ـ ويا لها من مسكينة ـ

* Floreal الشهر الثامن من التقويم الثوري ، وكان يبدأ عندهم في العشرين من نيسان ، وهو يحمل معنى الزهر .

لأن مصرفياً مخيفاً ، مثقب الوجه بالجدري ، تنازل أمس وابدى رغبته فيها . واأسفاه ! إن المرأة لا تترصد جابي المكوس بأقل مما تترصد الشاب المتأنق ؛ والقطط تتصيد الفئران والطيور جميعاً . وهذه الآنسة : كانت قبل شهرين اثنين فتاة طيبة في علية . كانت تثبت حلقات نحاسية صغيرة في ثقيبات المشدات ، ماذا تدعو ذلك ؟ كانت تخيط ، وكان عندها فراش على سيور ، وكانت تقطن مع أصيص أزهار ، وكانت بذلك راضية . أما اليوم فقد اصبحت صاحبة مصرف . وهذا التحول إنما تم الليلة البارحة . ولقد لقيت الضحية ، هذا الصباح ، مفعمة بالغبطة . والجانب البشع من المسألة ، ان الوقحة كانت اليوم على مثل جمالها أمس . إن خبيرها المالي لا يبدو على وجهها . والواقع ان الورود تختلف عن النسوة ، قليلا أو كثيراً ، في هذه الخصلة : أن الآثار التي تخلفها الديدان عليها تكون منظورة . آه ، ليس ثمة اخلاق على سطح الارض ! وانا استشهد بالرند ، رمز الحب ، وبالغار ، رمز الحروب ، وبالزيتونة ، تلك البلهاء ، رمز السلام ، وبالتفاحة التي كادت تخنق آدم ببزرها ، والتينة ، جدة التنانير . أما الحقوق ، فهل تعلمون ما هي الحقوق ؟ الغاليون يطمعون بالكلوسيوم ، وروما تحمي الكلوسيوم ، وسلهم ما الذي فعله الكلوسيوم لهم ؟ ويجيب برينوس * : « ما الذي فعلته « البا » لكم ؟ ما الذي فعلته فيدين ** ؟ ما الذي فعله الايكيون ، والفولسكيون ، والسابينيون « لقد كانوا جيرانكم . أما الكلوسيون فكانوا جيراننا . ونحن نفهم الجوار مثلكم . لقد سرقتم ألبا ، ونحن نأخذ الكلوسيوم . . » وتقول رومة : « لن تأخذوا الكلوسيوم . »

* Brennus احد الزعماء الغاليين ، وقد غزا أتروريا عام ٣٩٠ قبل الميلاد ، وسحق الرومان في موقعة آليا Allia واستولى على رومة وخربها .

** Fidène مدينة قديمة من بلاد السابينيين . وقد خضعت لرومة في ما بعد .

واخذ برينوس رومة . ثم صاح : « ! vae victis » * . تلك هي الحقوق . آه ! في هذا العالم ، ما اكثر الوحوش المفترسة ! ومـــا اكثر النسور ! إن فرائصي لترتعد من ذلك ! »

وأدنى كأسه من جولي ، فملأها له . ثم شرب . واردف من غير ان تعترضه . أو تكاد . كأس الخمر تلك التي لم يلحظها احد ، حتى هو نفســه :

— « برونوس . الذي يستولي على رومة ، نسر . وصاحب المصرف الذي يستولي على الفتاة المغناج ، نسر . لا حياء هنا . ولا حياء هناك . واذن فلنتجنب الايمان بأي شيء . هناك حقيقة واحدة : أن نشرب الخمر . وايأ ما كان رأيك ، وسواء أكنت من انصار الديك الهزيل ، مثل قضاء اوري ، أو من انصار الديك السمين مثل قضاء غلاري ، لا فرق ، فعليك بالشراب . انت تحدثني عن الجادة ، عن الموكب . الخ . آه ، إذن ، فسوف تنشب الثورة من جـــديد ؟ هذا الفقر في الوسائل من جانب الرب الرحيم يدهشني . ان عليـــه ان يشحم ثلوم الحوادث على نحو متواصل . إنها تعلق ، إنها لا تمشي . وفي الحال تقع ثورة . ويدا الرب تظلان سوداوين من دهن العربات الخبيث هذا ، دائماً . ولو كنت محله اذن لاشتغلت بصورة ابسط . لو كنت محله لمـــا « ملأت » ما كينتي كل لحظة ، كنت اقود الجنس البشري في رفـــق اكثر ، كنت ازرد الحقائق عقدة عقدة من غير ان اقطع الخيط ، كنت استغني عن الازمات والطواريء ، وعن اللوائح الاستثنائية . إن مـــا تدعونه ايها الاخوان تقدماً ، يمشي بمحركين : الناس والاحداث . ولكن من المحزن أن يكون الاستثنائي ضرورياً بين الفينة والفينة . وفي ما يتصل بالاحداث وفي ما يتصل بالناس ، لاتكفي الفئات العادية . ينبغي ان يبرز بين الناس عباقرة ، وان تظهر بين الاحداث ثورات . والحوادث العظمى هي القانون . ونظام

* تعبير لاتيني معناه « الويل للمغلوب » .

الاشياء لا يستطيع ان يتخذ سبيله بدونها . ولكي يرى المرء ظهور المذنبات يُغرى بالاعتقاد بان السماء نفسها في حاجة إلى ممثلين من النجوم. فلحظة يكون توقّعُك لها اضعف ما يكون يعلن الرب . على جدار الفلك ، عن ظهور مذنّب . وتقبل نجمة غريبة ما مؤكدة بذيل هائل . وهذا يقضي على قيصر . إن بروتوس يطعنه بمدية ، وان الرب يضربه بمذنب . كراك ، هوذا فجر شمالي ، هي ذي ثورة ، هو ذا رجل عظيم ، عام ١٧٩٣ بأحرف ضخام ، ونابوليون في سطر على حدة . ومذنّب ١٨١١ في رأس الاعلان . آه . يا له من اعلان ازرق جميل ، متلألىء كله بأنوار غير متوقعة . بُم ! بم ! مشهد خارق للعادة . أنظروا إلى أعلى ، ايها السادرون ! كل شيء أشعث ، النجم ، والدرامة سواء بسواء . ايها الرب الرحيم ، ذلك اكثر مما ينبغي ، وذلك ليس بكاف . وهذه الموارد ، المصطنعة في الاحوال الاستثنائية ، تبدو بهاء ، وإنها لفقر . الثورة ، علام يدل ذلك ؟ على ان الرب في عسر . إنه يقوم بانقلاب . لأن ثمة محلول اتصال بين الحاضر والمستقبل ، ولأنه هو ، الرب ، عاجز عن ان يصل ما بين الطرفين . والحق ان ذلك يؤيد ظنوني الخاصة بثروة يهوه . فحين ارى كل هذا القلق فوق وتحت ، وكل هذه الدناءة وهذا الشح ، وهذا البخل ، وهذه الشدة في السماء وعلى الارض ، ابتداء من الطائر الذي لا يملك حبة من الذرة البيضاء ، إليّ أنا الذي لا أملك دخلا مقداره مئة ألف ليرة سنوياً ؛ وحين ارى المصير الانساني ، البالي إلى ابعد الحدود ، بل والمصير الملكي الذي يكشف عن سداة النسج ، واشهد البرنس دو كونديه يُشنق ، وحين ارى الشتاء ، وهو ليس غير خرق في نقطة السمت تهب من خلال الريح ، وحين ارى كل هذه المزق حتى في ارجوان الصباح البالغ الجدة فوق اعالي التلال ، وحين ارى قطرات الندى ، تلك اللآلىء الزائفة ، وحين ارى الصقيع . ذلك الألماس

الصناعي ، وحين ارى الانسانية مفتتة ، والاحداث مرقعة ، وكل هذه البقع على وجه الشمس ، وكل هذه الثقوب في جسم القمر ، وحين ارى البؤس في كل مكان ، يتراءى لي ان الله ليس غنياً . إنه يتظاهر بالغنى ، هذا صحيح ، ولكني استشعر الضنك . إنه يقدم ثورة ، مثلما يحيي تاجر فارغ الصندوق حفلة راقصة . يجب ان لا نحكم على الآلهة من مظاهرها . فتحت تذهيب السماء ألمح كوناً فقيراً . الخليقة قد افلست . من اجل ذلك تجدونني مستاء . انظروا . إنه الخامس من حزيران . والليل حالك الظلام . منذ الصباح وأنا أنتظر انبلاج الفجر ، ولكنه لم ينبلج . وانا اراهن انه لن يأتي اليوم البتة . إنه إهمال اشبه باهمال موظف حقير الأجر . أجل ، كل شيء مرتب ترتيباً رديئاً ، وليس هناك شيء يوافق شيئاً . وهذا العالم العجوز أعوج كله . أنا منضو تحت راية المعارضة . كل شيء يجري على نحو منحرف . والكون كثير التنكيد . إنه اشبه بالاطفال : الذين يريدونه لا يفوزون به ، والذين لا يريدونه يفوزون به . الحاصل : أنا مغتاظ . وإلى هذا ، فليغل دو مو ، ذلك الأصلع ، يؤذي ناظري . .وانا استشعر الذل حين افكر ان عمري يعدل عمر تلك الركبة . وفوق هذا ، فأنا انتقد . ولكني لا أهين . الكون هو ما هو ، أنا اتكلم هنا من غير مقصد سيء ، ولكي أريح ضميري . تقبّل ، ايها الأب الأزلي ، اعتباري الفائق ، الأكيد . آه ، وحق جميع قديسي الاولومب ، وجميع آلهة الجنة ، أنا لم اخلق لأكون باريسياً ، يعني لكي أثب إلى الأبد ، مثل كرة الاطفال المريشة بين مضربين ، من جماعة المتبطلين إلى جماعة المشاغبين ! لقد خلقت لكي اكون تركياً انظر طوال النهار إلى نساء غبيات يؤدين رقصات مصر اللذيذة ، الشبقة مثل احلام رجل عفيف ، أو فلاح بيوسي * ، او سيد بندقي محاط بمجموعة من العقائل ، أو امير الماني صغير يقدم

* beauceron نسبة الى مقاطعة « بوس » Beauce الفرنسية ، وعاصمتها شارتر Chartres

نصف جندي راجل إلى « الاتحاد الجرماني » ، ويشغل فراغه بتجفيف جواربه على سياج بيته ، يعني على حدود إمارته ! ذلك هو القدر الذي خلقت من اجله ! اجل ، لقد قلت « تركياً » ، وانا لا ارجع عما قلت . ولست ادري لماذا ننظر إلى الاتراك ، عادة ، هـذه النظـرة الازدرائية ؟ .... وعلى هذا ، أصر على معاقرة الخمر . الارض حماقة كبيرة . ويبدو انهم سوف يقاتلون - اعني جميع اولئك البلهاء - لكي يحطموا رؤوسهم ، ان يذبح بعضهم بعضاً . في قلب الصيف ، في شهر بريريال (حزيران) ، على حين يستطيع كل منهم ان ينطلق متأبطـاً ذراع كائن ما لكي يستروح في الحقول فنجان الشاي الهائل الذي تقدمه الصائرة ! حقاً انهم حمقى اكثر مما ينبغي ! إن مصباحاً عتيقـاً مكسوراً رأيته اللحظة في احد دكاكين السلع المستعملة ليوحي إلي بفكرة . لقد آن الأوان لتنوير الجنس البشري . أجل ، ها هو الاسى يعاودني، ما افظع التهام المرء محارة او ثورة بطريقة ملتوية ! إن الكـآبة تستبد بي من جديد . آه ، يا للعالم القديم الرهيب ! إنهم يتكافحون ، وإنهـم يتناهبون . إنهم يتعاهرون ، وإنهم يتقاتلون . ان بعضهم ليألف بعضهم الآخر ! »

وأصيب غرانتير ، بعد نوبة الفصاحة هذه ، بنوبـة سعـال كـان يستحقهـا .

وقـال جولي :

- « وعلى ذكر الثورة يبدو ان باريوس هو من غير شك مغرم . »

وتساءل ليغـل :

- « أتعرفون عمن يتكلم ؟ »

- « اجل ! »

- « لا ؟ »

- « اجل ! انا اقول لكم . »

وهتف غرانتير :

— « عن غراميات ماريوس . أنا أراها الآن . ماريوس ضباب . ولا بد انه قد وجد بخاراً . ماريوس من زمرة الشعراء . ومن يقل « شاعر » فكأنه قال « مجنون » . *Timbraeus Apollo*. ماريوس وماري ، أو وماريا ، أو وماربيت ، أو وماريون : لا ريب في ان هؤلاء يشكلون عشاقاً مضحكين . أنا اتخيل كيف يكون ذلك . نشوات ينسون فيها تبادل القبل . عفيفين فوق سطح الارض ، ولكن مقترنين في اللانهاية انها نفوس ذوات أحاسيس . إنهم ينامون معاً في النجوم . »

كان غرانتير قد دخل في كأسه الثانية ، وربما في خطابه الثاني . عندما انبثق ممثل جديد من ثقب السلم المربع . كان غلاماً لم يبلغ العاشرة ، رث الثياب ، ضئيل الجسم جداً ، اصفر اللون ، ذا وجه أشبه بالكوز ، وعين حادة ، وشعر طويل إلى حد هائل ، مبلل بالمطر ، وذا سيما راضية .

وتخير الغلام ، من غير تردد ، واحداً من الثلاثة ، على الرغم من انه ما كان يعرف اياً منهم من غير ريب . فوجه الخطاب إلى ليغل دو مو ، متسائلا :

— « هل انت مسيو بوسوويه ؟ »

فأجابه ليغل :

— « هذا لقبي . ماذا تريد مني ؟ »

— « إسمع . ان رجلا أشقر ضخماً قال لي في الجادة : هل تعرف الأم هوشلو ؟ فقلت له : نعم ، شارع شانفريري ، أرملة الرجل العجوز . فقال لي : اذهب إلى هناك ، تجد مسيو بوسوويه ، فقل له من قبلي : « ألفباء A. B. C. » ، هذه مزحة يمزحونها معك ، اليس كذلك ؟ لقد أعطاني عشرة « سو » .

— « جولي ، أعرني عشرة سو » قال ليغل ذلك ، ثم التفت إلى

غرانتير واردف : « غرانتير ، أعرني عشرة سو . »
وهكذا اجتمع له عشرون سو قدمها إلى الطفل .
فقال الفتى الصغير :
— « اشكرك ، يا سيدي . »
وسأله ليغل :
— « ما اسمك ؟ »
— « نافيه . صديق غافروش . »
فقال ليغل :
— « إبق معنا . »
وقال غرانتير :
— « تناول طعام الصباح معنا . »
فأجاب الطفل :
— « لا استطيع . أنا مع الموكب . انا الذي يصيح : فليسقط بوليناك ! »
ورد قدمه ردة طويلة إلى وراء ، وهي احفل الانحناءات الممكنة بالاقدام ، ومضى لسبيله .
حتى إذا غاب عن النظر استأنف غرانتير الكلام :
— « هذا هو المتشرد الخالص . إن ثمة صنوفاً عديدة من المتشردين : فالكاتب العدل المتشرد يدعى *sauve - ruisseau* والطاهي المتشرد يدعى *marmiton* ، والخباز المتشرد يدعى *mitron* ، والمتذلل المتشرد يدعى *groom* ، والبحري المتشرد يدعى *mousse* والجندي المتشرد ، يدعى *tapin* والرسام المتشرد يدعى *rapin* ، والتاجر المتشرد يدعى *trottin* ، والمتودد المتشرد يدعى *menin* والملك المتشرد يدعى *dauphin* ، والرب المتشرد يدعى *bambino* » .
وفي غضون ذلك ، كان ليغل يتأمل . لقد قال في صوت خفيض :
— « ألفباء A.B.C. ، يعني : جنازة لامارك . »

ولاحظ غرانتير :

— « إن الرجل الأشقر الضخم هو آنجولراس ، إنه قـــد ارسـل الغلام ليحيطك علمـــاً . »

وقال بوسوويه :

— « هل نذهب ؟ »

فقال جولي :

— « إنها تمطر . لقد أقسمت ان اذهب وسط النار ، لا تحت الماء . انا لا أريـــد ان اصاب بزكام . »

فقال غرانتير :

— « سوف ابقى هنا . انا افضل طعام الصباح على عربة الموتى . »

واضاف بوسوويه :

— « النتيجة : سوف نبقى . واذن ، فلنعاقر الخمر . وإلى هذا ، ففي استطاعتنا ان نفوّت الجنازة ، من غير ان نفوّت الفتنة . »

فهتف جولي :

— « آه ! الفتنة ، انا هنا من اجل ذلك . »

وفرك ليغل يديه :

— « انهم سوف ينقحون ثورة ١٨٣٠ . الواقع ، أنهـــا تشـــد الناس من آباطهم . »

فقـال غرانتير :

— « انا لا ابالي كثيراً بثورتك هذه . أنا لا امقت هذه الحكومة . إنـه التاج ملطّفاً بالقلنسوة القطنية . إنه صولجان منته بمظلة . ويخيل الي ، اليوم ، ان لويس فيليب سيكون في ميسوره ، في هذا الجو ، ان يستخدم ملوكيته من طرفيها ، فيلوّح بطرفها الأول ، الصولجان ، في وجه الشعب ، ويفتح طرفها الثاني ، المظلة ، في وجه السماء . »

كانت الحجرة مظلمة ، وكانت سحب ضخام تتمم تعطيل ضوء

النهار . ولم يكن ثمة احد في الحانة ، أو في الشارع : كان كل امرئ قد انطلق « ليرى الحوادث » .

وصاح بوسوويه :

— « اهو الظهر ام منتصف الليل ؟ ليس في استطاعة المرء ان يرى ذرة . جيبولوت ، شيئاً من النور . »

وكان غرانتير يعاقر الخمر محزون الفؤاد .

وغمغم :

— « آنجولراس يحتقرني . آنجولراس قال : جولي مريض . غرانتير سكران . انه إنما أرسل نافيه إلى بوسوويه . ولو انه جاء ليأخذني اذن لتبعته ، سحقاً لآنجولراس . انا لن اشهد جنازته . »

حتى إذا تم اتخاذ هذا القرار أقام بوسوويه ، وجولي ، وغرانتير ، في الحانة لا يبرحونها . وحوالى الساعة الثانية بعد الظهر ، كانت الطاولة التي اتكأوا عليها مغطاة بالزجاجات الفارغة . كانت شمعتان تحترقان على الشمعدان النحاسي التام الخضرة ، والثانية في عنق قنينة عريضة الكعب مصدوعة ، كان غرانتير قد اغرى جولي وبوسوويه بالشراب ، وكان بوسوويه وجولي قد اغريا غرانتير بالمرح .

أما غرانتير فكان قد اجتاز ، منذ الظهيرة ، مرحلة الخمر ، مصدر الأحلام الوسط : والخمر ، عند السكيرين الجديين ، لا تحقق غير نجاح هادئ : وهناك ، من حيث الثمل ، سحر أسود وسحر ابيض . والخمر سحر ابيض ليس غير . كان غرانتير شارب أحلام مقداماً . وكان سواد الثمل الرهيب الفاغر فمه أمامه لا يوقفه عند حده ، بل يجذبه اليه : كان قد اطرح الزجاجة جانباً وتناول القدح الضخم . والقدح الضخم هو الهاوية . وإذ لم يكن عنده لا أفيون ولا « حشيش » ، وإذ كان راغباً في ان يملأ دماغه بالضباب فقد فزع إلى ذلك المزيج الرهيب المؤلف من عرق ، و « ستوت » ،

و « ابيسنت » والذي يحدث سباتاً فظيعاً . ومن هذه الاخرة الثلاثة ، الجعة والعرق والابيسنت ، يشكل رصاص الروح . انها ثلاث ظلمات ، والفراشة السماوية تغرق في لججها ، وهناك تنشأ ، في دخان غشائي يتكثف على شكل غامض إلى اجنحة خفافيش ، سورات خرساء ثلاث ، الـكابوس ، والليل ، والموت ، حومة فوق « النفس » الهاجعة .

ولم يكن غرانتير قد انتهى إلى هذا الوجه الكئيب . لا ، كـان بعيداً عن ذلك . كان مبتهجاً على نحو عجيب ، ولم يتخلف بوسوويه وجولي عنه قط . لقد قرعا الكأس بالكأس . واضاف غرانتير ، إلى نبرات كلماته وافكاره غير المألوفة ، هذيان الايماءة . لقد أراح جمـع كفه الايسر على ركبته في وقار ، وشكلت ذراعه زاوية قائمة . كـان رباط عنقه محلولا ، وكان مباعداً ما بين رجليه فوق مقعد لا ظهر له ، ممسكاً بكأسه المترعة بيده اليمنى ، رامياً الخادمة الضخمة ، ماتولوت ، بهذه الكلمات الجليلة :

— « فلتُفتح ابواب القصر ! فليعين كل امرىء عضواً في الاكاديمية الفرنسية ، وليكن له الحق في معانقة مدام هوتشلو . فلنشرب ! »

ثم انه التفت إلى السيدة هوتشلو ، وأضاف :

— « أيتها المرأة العتيقة التي كرسها الاستعمال ، اقتربي حتى يكون في استطاعتي ان احدق اليك ! »

وهتف جولي :

— « ماتولوت وجيبولوت ، لا تقدما إلى غرانتير شراباً اضافياً . انه ينفق في إسراف يائس ، فرنكين وخمسة وتسعين سنتيماً . »

واجاب غرانتير :

— « من الذي فك النجوم من غير اذني لكي يضعها فوق الطاولة على شكل شموع ؟ »

وكان بوسوويه ، وقد تعتعه السكر ، محتفظاً بهدوئه ،

كان جالساً عند النافذة المفتوحة ، مبللا ظهره بالمطر الهاطل ، محدقاً إلى صديقيه .

وفجأة ، سمع خلفه جلبة ، ووقع اقدام مسرعة ، وصيحات « الى السلاح ! » . والتفت ، فرأى آنجولراس يجتاز بشارع سان دونيز ، عند طرف شارع الـ « شانفريري » ، والبندقية في يده ، ورأى غافروش حاملا غدارته ، وفويي شاهراً حسامه ، وكورفيراك شاهراً سيفه ، وجان بروفير مسدداً بندقيته القصيرة ، وكومبوفير بندقيته ، وباهوريل بندقيته القصيرة الخفيفة ، وكامل الحشد المسلح العاصف الذي كان يلحق بهم ؛

كان طول شارع الـ « شانفريري » لا يكاد يبلغ مدى بندقية قصيرة . وارتجل بوسوويه من يديه الاثنتين بوقاً ناطقاً ، وصاح :

— « كورفيراك ! كورفيراك ! هو هاي ! »

وسمع كورفيراك النداء ، ولمح بوسوويه ، وتقدم بضع خطوات في شارع الـ «بشانفريري» ، مطلقاً صيحة « ماذا تريد ؟ » التقت في الطريق بصيحة « إلى أين ذاهب ؟ »

وأجاب كورفيراك :

— « اريد أن أقيم متراساً . »

— « حسن . هنا ! هذا مكان ممتاز . أقمه هنا ! »

فقال كورفيراك :

— « هذا صحيح ، يا ايغل . »

وبأشارة من كورفيراك هجمت العصبة إلى شارع الـ « شانفريري » .

٣
الليل يبدأ في التجمع فوق غرانتير

كان المكان قد اختير على نحو رائع حقاً . فمدخل الشارع عريض، وطرفــه الاقصى ضيق ، وشبيه بزقاق غير نافذ ، وكورنث تخنقه ، وشارع مونديتور يسهل سده عن يمين وشمال ، وليس من سبيل إلى شن هجوم ما إلا من شارع سان دونيز ، يعني من قدام ، ومن غير وقاية . وكانت لبوسوويه ، النشوان بعض الشيء ، نظرة هنيبعل صائم .

وعند هجوم الحشد استبد الذعر بالشارع كله ، ولم يبق عابر سبيل إلا ولى الأدبار . وفي مثل لمح البصر ، في الطرف الاقصى ، وعــن يمين ، وعن شمال ، أغلقت الدكاكين ، والحظائر ، وابواب الازقة ، والنوافذ ، ومصاريـع النوافذ ، والكوى ، والمصاريـع على اختــلاف أحجامها ، اغلقت كلها من الارض إلى السطوح . وكانت امرأة عجوز مروعة قد ثبتت حشية امام نافذتها فوق وتدين من اوتاد نشر الغسيل كدرع يقيها غائلة البنادق . وكانت الحانة هي الدكان الوحيدة الـتي ظلت مشرعة الابواب ، وذلك لسبب وجيه ، وهو ان العصابة كانت قد انقضت عليها . وتنهدت مدام هوشلو :

— « آه يا إلـهي ! آه يا إلـهي ! »

وكان بوسوويه قد هبط ليلتقي كورفيراك .

وصاح جولي الذي كان قد مضى إلى النافذة :

— « كورفيراك ، ينبغي ان تأخذ مظلة . سوف تصاب بزكام . »

وفي غضون ذلك ، خلال بضع دقائق ، اقتُلع عشرون قضيباً حديدياً من واجهة الحانة المقضبة . وانتُزع البلاط من جزء من رصيف الشارع يبلغ طوله ستين قدماً . وكان غافروش وباهوريل قد استوليا ، عنـد

جزئه الضيق ،على عجلة نقل لتاجر من تجار الكلس يدعى آنسو وقلباها ، رأساً على عقب ، وكانت تلك العجلة تحتوي على ثلاثة براميل ملأى بالكلس كانا قد وضعاها تحت ركام بلاط الرصيف . وكان آنجولراس قد فتح باب القبو المسحور . وكانت جميع دنان الأرملة هوشلو الفارغة قد مضت لتدعيم براميل الكلس . وكان فويبي ، بأصابعه المتعودة تلوين طيات المراوح الدقيقة ، قد رفد البراميل وعجلة النقل بركامين هائلين من حجارة . حجارة مرتجلة كسائر الاشياء ، جيء بها من مكان ليس يدريه احد . وكانت بعض العوارض الخشبية قد انتزعت من واجهة منزل مجاور ووُضعت فوق الدنان . وحين استدار بوسوويه وكورفيراك كان نصف الشارع قد سُد بسور أعلى من قامة الرجل . فليس ثمة ما هو ابرع من اليد الشعبية في بناء كل ما يمكن ان يبنى من طريق التخريب .

وكانت ماتولوت وجيبولوت قد انضمتا إلى العاملين . وانشأت جيبولوت تروح وتغدو مثقلة بسقط المتاع . لقد أسهم ضجرها في إقامة المتراس . كانت تحمل اليهم حجارة الرصيف في سيماء ناعسة ، شأنها حين تقدم اليهم الخمر .

واجتازت اقصى الشارع مركبة عامة ذات جوادين أبيضين .

ووثب بوسوويه فوق الرصيف ، وركض ، وأوقف السائق ، وحمل الركاب على النزول ، ومد يده إلى « السيدات » ، وسرّح السائق ، ورجع بالمركبة يقود جواديها بالعنان .

وقال :

— « المركبات العامة لا تمر أمام كورنث *non licet omnibus adire Corinthum*

وبعد لحظة كان الجوادان قد حررا من المركبة وانطلقا على هواهما في شارع مونديتور ، وكانت العربة قد اضطجعت على جانبها متممة سد الشارع .

وكان القلق قد استبد بمدام هوشلو ، ففزعت إلى الدور الأول .

كانت عيناها تائهتين ، وكانت تنظر من غير ان ترى ، صائحة في همس . كانت صيحاتها مذعورة ، ولم تكن لتجرؤ على الانطلاق من حنجرتها .

وغمغمت :

— « إنها نهاية العالم . »

وطبع جولي قبلة على عنق مدام هوشلو الخشن ، الأحمر ، المتجعد وقال لغرانتير :

— « يا صديقي العزيز ، لقد كنت دائماً أعتبر عنق المرأة شيئاً ناعماً إلى ما لا نهاية . »

ولكن غرانتير كان قد بلغ اسمى غايات الشعر المدحي : فحين انتهت ماتولوت إلى الدور الاول أمسك غرانتير بها من خصرها ،وجذبها نحو النافذة منفجراً بضحكات طويلة

وصاح :

— « ماتولوت قبيحة ! ماتولوت حلم القباحة ! ماتولوت كائن خرافي . اسمعوا سر مولدها : كان بيجماليون غوطي يصنع ميازيب كاتدرائيات ، فعشق ذات صباح واحداً من تلك الميازيب — افظع تلك الميازيب . وتضرع إلى الحب ان ينفخ الحياة في ذلك الميزاب ، فكانت ماتولوت . انظروا اليها ، ايها المواطنون ! ان شعرها في لون كرومات الرصاص . مثل شعر خليلة تيتيان ، وإنها لفتاة طيبة . أنا أكفل لكم انها سوف تبلي بلاء حسناً . إن في بردي كل فتاة بطلا . أما الأم هوشلو فشجاعة عجوز . انظروا إلى شاربيها ! لقد ورثتها من زوجها . إنها فارسة حقاً . ولسوف تقاتل ايضاً . وهاتان المرأتان وحدهما ستوقعان الرعب في الضاحية . ايها الرفاق سوف نقلب الحكومة . هذا شيء لا شك فيه مثل وجود خمسة عشر حامضاً متوسطاً بين حامض الزباد والحامض النملي ،

هذه الحوامض التي لا ابالي بها ، في ما عدا ذلك ، البتة . ايها السادة ، لقد ابغضني والدي ابداً ، لانني لم اكن قادراً على فهم الرياضيات . انا لا أفهم غير الحب والحرية . انا غرانتير ، الولد الصالح . وإذ لم املك في يوم من الايام أيما مال ، فانني لم اتعوده قط ، وهكذا لم استشعر الحاجة اليه بحال من الاحوال . ولكن لو قد كنت غنياً إذن لما بقي ثمة فقراء ! ولكان في ميسوركم ان تروا ذلك ! أوه ! لو كانت القلوب الطيبة هي المالكة لحافظات النقود السمينة اذن لسار كل شيء سيراً افضل بكثير ! انا اتخيل يسوع المسيح مالكاً ثروة كثروة روتشيلد ! فكروا بالخير العميم الذي كان خليقاً به ان يصنعه ! ماتولوت ، عانقيني ! انت شهوانية وجبانة ! إن لك وجنتين تتطلبان قبلة من اخت ، وشفتين تتطلبان قبلة من محب . »

وقال كورفيراك :

— « إلزم الهدوء ، ايها الدن ! * »

فأجابه غرانتير :

— « انا كابيتول وسيد الالعاب الزهرية ! * »

ورفع آنجولراس ، الواقف فوق قمة المتراس ، وبندقيته في يده — رفع وجهه الكالح الوسيم . وكان في آنجولراس ، كما نعرف ، شيء من الاسبارطي والطهري . لقد كان خليقاً به ان يموت في تيرموبيل مع ليونيداس ** ، وان يحرق دروجيدا *** مع كرومويل .

وصاح :

— « غرانتير ، اذهب ونم مخموراً بعيداً عن هذا المكان . هذا موطن التمل لا السكر . لا تسربل المتراس بالعار ! »

---

* الكابيتول capitoul اسم كان يطلق على قضاة تولوز . و « الالعاب الزهرية » اكاديمية ادبية انشئت في تولوز .

** Leonidas ملك اسبارطة من عام ٤٩٠ الى ٤٨٠ ق.م. وقد دافع عن بلاده ضد الفرس .

*** Drogheda مرفأ في جمهورية ايرلندة حيث انتصر وليم الثالث على جاك الثاني (عام ١٦٩٠)

وترك هذا الكلام الغاضب اثراً فريداً في نفس غرانتير . ولقد كان خليقاً بالمرء ان يعتقد ان وجهه قد رشق بكأس ماء بارد . لقد بــــدا وكأنمـا قـــد صحا على نحو مفاجيء . وجلس ، واستند إلى طـــاولة قريبة من النافذة . ونظر إلى آنجولراس في رقة لا سبيل إلى وصفها ، وقـال له :

— « دعني انام هنا . » .

فصاح آنجولراس :

— « اذهب ونم في مكان آخر ! »

ولكن غرانتير أجاب ، مسدداً نحوه دائماً عينيه المفعمتين بالرقـــة والقلــق :

— « دعني أنام هنا — إلى ان اموت هنا . »

وحدجه آنجولراس بنظرة مزدرية :

— « غرانتير ، انت عاجز عن الايمان ، عن التفكير ، عن الإرادة ، عن الحياة ، وعن الموت . »

وتمتم بضع كلمات اخرى غير مفهومـة ، ثم سقط رأسه ثقيـــلا على الطـاولة . وما هي إلا لحظـة حتى استغرق في النوم ، وذلك اثرٌ مألوف لمرحلة الثمل الثانية الـــتي دفعه آنجولراس اليها ، في خشونـة وعلى حين غرة .

٤
محاولة لتعزية الارملة هوشلو

وفي نشوات المتراس الروحية ، صاح باهوريل :

— « هو ذا الشارع مرتدياً ثوباً كاشفاً عن العنق واعلى الصـــدر

ما أجمل منظره ! »

وسعى كورفيراك ، حتى فيما هو يخرب الحانة بعض الشيء ، إلى ان يوقع العزاء في فؤاد صاحبة الحانة الارملة .

— « ايتها الأم هوشلو ، ألم تكوني تتشكين ، ذلك اليوم ، من انك استدعيت وغرمت لأن جيبولوت هزت سجادة من نافذتك ؟ »

— « نعم ، ايها السيد كورفيراك الطيب . آه ، يا الهي ! هل ستدخل هذه الطاولة ايضاً هو لكم ؟ وإلى هذا ، فبسبب من السجادة، ومن أصيص أزهار سقط من العلية إلى الشارع دفعتني الحكومة مئة فرنك غرامة . إذا لم يكن ذلك مقتاً ! »

— « حسن ، ايتها الأم هوشلو ، إننا ننتقم لك . »

وبدت الام هوشلو ، في هذا التعويض الذي كانوا يقدمونه اليهـا ، وكأنها لا تفهم فائدتها . كانت راضية على طريقة تلك المرأة العربية التي صفعها زوجها فمضت إلى أبيها تشكوه ، مطالبة بالثأر قائلة : « أبي ، يجب ان توجه إلى زوجي مثل الاهانة التي وجهها الي . » فسألها والدها: « على اي خد صفعك ؟ » فقالت : « على الخد الأيسر » . فصفعها ابوها على الخد الايمن وقال : « الآن تم لك الرضا . اذهبي وأخبري زوجك انه صفع ابنتي ، ولكني صفعت زوجته . »

وكف المطر عن التهطال ، وكانت الامداد قد اقبلت : وكان بعض العمال قد حملوا ، تحت ظهاراتهم برميلا صغيراً من البارود ، وسلة تحتوي على زجاجات من الزاج أو الكبريتات ، وشعلتين أو ثلاث من شعل الكرنافال ، وسلة ملأى بالمصابيح ، « بقايا عيد الملك » ، ذلك العيد الذي انقضى منذ فترة قريبة ، إذ احتفل به في اول نوار . ولقد قيل ان هذه الذخائر جيء بها من عند بقال في ضاحية سانت انطوان يدعى بيبين. وحطم المصباح الوحيد في شارع الـ « شانفريري » ، والمصباح المواجه لشارع سان دونيز ، وجميع مصابيح الشوارع المجاورة : شـارع

مونديتور ، وشارع « دو سيني » ، وشارع الـ « بريشور » ، وشارعي الـ « غران ترووندري » والـ « بيتي ترووانلدري » .

وأدار آنجولراس ، وكومبوفير ، وكورفيراك كل شيء . كان ثمة متراسان يُنشآن في آن معاً ، وكل منهما مستند إلى حانة كورنث ومشكل معها زاوية قائمة . لقد سد اكبرهما شارع الـ « شانفريري » ، وسد الثاني شارع مونديتور من ناحية شارع دو سيني . وهذا المتراس الاخير ، الضيق جداً ، كان مقاماً من دنان ومن حجارة ارصفة ليس غير . وكان هناك نحو من خمسين عاملا ، ثلاثون منهم تقريباً مسلحون بالبنادق ، ذلك انهم في طريقهم كانوا قد عقدوا قرضاً بالجملة من دكان تاجر اسلحة .

ولم يكن ثمة ما هو اعجب ولا اكثر تنافراً من هذه العصبة . كان احدهم يرتدي سترة قصيرة ويحمل سيفاً من سيوف الفرسان وغدارتي خيل ، وكان آخر يرتدي أردان قميص ويعتمر بقبعة مستديرة ، وقد تدلى من جانبه وعاء بارود . وكان ثالث متدرعاً بتسع صحائف من ورق رمادي ومتسلحاً بمخرز صانع سروج . وكان هناك من صرخ : « **فلنهلكهم عن بكرة ابيهم ولنمت على رؤوس حرابنا !** » ولم يكن مع هذا الرجل حربة . وعرض آخر فوق سترته حزام ثور وصندوق خراطيش من صناديق الحرس الوطني وقد زين غطاء الصندوق بهذا السطر مرقوماً بصوف أحمر : « **امن شعبي** » . وكانت ثمة بنادق كثيرة تحمل ارقام فرقها ، وبضع قبعات ، وكثير من الاذرع العارية ، وبعض الحراب ، ولم يكن ثمة اربطة عنق البتة . اضف إلى هذه الاعمار كلها وهذه الوجوه كلها ، بعض الشبان الشاحبين الوجوه الضئيلي الاجسام ، بعض عمال الموانيء البرونزيي البشرة . كانوا كلهم يستعجلون ، وفيما هم يتبادلون المعونة كانوا يتحدثون عما يُحتمل ان يقع — أن نجدة سوف تقبل اليهم حوالى الساعة الثالثة صباحاً ؛ انهم كانوا واثقين من ان هذه

النجدة لن تقل عن كتيبة ؛ ان باريس سوف تنهض ؛ موضوعات رهيبة امتزج بها ضرب من المزاح المرح الودي . ولو قد رآهم المرء آنذاك لحسبهم اخوة ، أما هم فما كان بعضهم ليعرف اسماء بعضهم الآخر . ان للمخاطر العظمى هذا الجمال وهو انها تلقي النور على اخوة الغرباء .

كانت نار قد أضرمت في المطبخ ، وكانوا يذيبون الاوعية المعدنية والاطباق والشوكات وجميع آنية الحانة القصديرية ويحولونها إلى رصاصات. وكانوا يشربون خلال ذلك كله . وتدحرجت الكبسولات ورصاصات الصيد الضخمة ، على الموائد ، كيفما اتفق ، مع زجاجات الخمر . وفي غرفة البليارد ، كانت مدام هوشلو وماتولوت وجيبولوت — وقد غيّرهن الذعر على نحو متفاوت ، فأحداهنّ ذاهلة ، والاخرى لاهثة ، والثالثة يقظة — يمزقن الخرق البالية ويصنعن نُسالة . وساعدهن ثلاثة متمردين ، ثلاثة أشداء طوال الشعور ذوي لحى وشوارب ، كانوا يمزقون القماش بأصابع جرّاح ، ويوقعون الرعدة في اوصالهن .

وكان الرجل الفارع الطول الذي لاحظه كورفيراك وكومبوفير وآنجولراس لحظة التحق بالجماعة عند زاوية شارع دي بيليت يشتغل في المتراس الصغير ويقدم خدماته هناك . واشتغل غافروش في المتراس الكبير ، أما الشاب الذي انتظر كورفيراك في غرفته ، وسأله عن مسيو ماريوس ، فكان قد اختفى بعد أن قُلبت العربة العامة بقليل .

وكان غافروش ، وقد اشرق وجهه واستخفه الجذل : قد عهد إلى نفسه في ان يجعل القوم كلهم على قدم الاستعداد . كان يروح ، ويجيء ، ويصعد ، ويهبط ، ويعاود الصعود ، ويدوّي ، ويتوقد ذكاء . لقد بدا وكأنه قد وُجد هناك لتشجيع الجميع . هل كان يحمل

مهمازاً ؟ اجل ، من غير ريب ، ولم يكن ذلك المهماز غير بؤسه . هل كان له جناحان ؟ اجل ، من غير ريب : بهجته . كان غافروش زوبعة . لقد رأوه على غير انقطاع ، ولقد سمعوه على نحو موصول . لقد ملأ الهواء . إذ كان في كل مكان في آن معاً . كان ضرباً من كليّ الوجود مسخط أو يكاد ، فليس من توقّف ممكناً معه . لقد احس به المتراس الهائل فوق ظهره . لقد ازعج المتبلدين ، وأثار الكسالى ، ونشط المتعبين ، وأفرغ صبر المستغرقين في التفكير ، جاعلا بعضهم يبتهج ، وبعضهم يعكف على العمل ، وبعضهم يغضب ، وجميعهم يتحركون وينشطون ، ونخس تلميذاً ، وعض عاملا من العمال ، واتخذ موقعاً ، ووقف ، وانطلق من جديد ، وطار فوق الجلبة والجهد ، ووثب من هؤلاء إلى هؤلاء ، وغمغم ، وهمهم ، وحرض هذا القطار كله ؛ كان ذبابة على عربة الثورة الهائلة .

كانت الحركة السرمدية في ذراعيه الصغيرتين ، والصخب السرمدي في رئتيه الضئيلتين :

— « عظيم ! هات بلاطاً اضافياً ! هات دناناً اضافية ! هات اشخاصاً اضافيين ! اين يوجد شيء من ذلك ؟ سلة من جبسين لسد ذلك الثقب . ان متراسكم هذا اصغر مما ينبغي . يجب ان يرتفع إلى اعلى . اركموا كل شيء . دعّموه بكل شيء . اغرزوا حوله كل شيء . اهدموا المنزل . المتراس حفلة شاي الأم جيبو . انظروا ، هو ذا باب مزجج . »

وهذا جعل العمال يهتفون :

— « باب مزجج ؟ اي شيء تريدنا ان نصنعه بباب مزجج ، دونّية ؟ »

فأجابهم غافروش :

— « ايها الجبابرة ! إن وجود باب مزجج في متراس شيء ممتاز .

إنــه لا يحول دون الهجوم عليه ، ولكنه يزعجهم حين يحاولون انتزاعه . ثم ، ألم تسرقوا التفاح ، في يوم من الايام ، من جدار زُرع بالزجاجات المحطمة ؟ إن الباب المزجج يحطم ابواق الحرس الوطني حين يحاولون أن يتسلقوا المتراس . يا الٓهي ! الزجاج هو الشيطان ! آه ، ليس الكم يا رفاقي ، خيال جموح ! »

ومع ذلك ، فقد كان محتدماً غيظاً على غدارته التي لا زناد لهـا . ومضى من واحد إلى آخر مطالبـــاً :

— « بندقية ! اريد بندقية ! لمـاذا لا تعطونني بندقية ! »

فقال كومبوفير :

— « تريد بندقية لك ؟ »

فأجاب غافروش :

— « حسن ، ولم لا ؟ لقد كانت عندي واحدة سنة ١٨٣٠ ، يوم نشب النزاع مع شارل العاشر . »

وهز آنجولراس كتفيه :

— « حين يكون عندنا ما يكفي الرجال نقدم الباقي إلى الاطفال . »

واستدار غافروش في اعتزاز ، واجابه :

— « إذا قُتِلتَ قبلي ، فسوف آخذ بندقيتك . »

فقال آنجولراس :

— « متشرد ! »

فقال غافروش :

— « غِرّ ! »

وتشاغل متأنق كان يتسكع عند اقصى الشارع .

وناداه غافروش : صائحاً :

— « تعال معنا ، ايها الشاب ! حسن . هذه البلاد العجوز ، انت لن تعمل شيئاً من اجلها اذن ؟ »

واطلق المتأنق ساقيه للريح .

٥
الاستعدادات

إن جرائد العصر التي قالت إن متراس شارع الـ « شانفريري » ، تلك «المنشأة التي لا تُقهر أو تكاد » ، كما دعتها ، بلغ مستوى طابق ثان ، كانت مخطئة . الواقع انه لم يتعدّ ارتفاعاً متوسطاً مقداره ستة اقدام أو سبعة اقدام . لقد بني على نحو يمكّن المقاتلين ، تبعاً لمشيئتهم ، من ان يختفوا خلف الجدار أو يطلّوا من فوقه . بل ان يتسلقوا ذروته بواسطة سلسلة رباعية من حجارة الرصيف نضّدت ورتبت مثل درجات السلم من باطن . أما واجهة المتراس من خارج ، وكانت مؤلفة من اكوام مـن بلاط وبراميل شد بعضها إلى بعضها بالعوارض والالواح الخشبية الـتي تداخلت في دواليب عربة آنسو والعربة العمومية المقلوبة ، نقول امـا واجهة المتراس من خارج فكانت ذات مظهر شائك شديد التعقيد .

وكان قد تُركت بين جدار البيوت واقصى المتراس الاكثر بعداً عن الحانة فتحة تكفي لمرور المرء من خلالها ، بحيث كان الخروج ممكنـاً . وكان عريش العربة العامة قد وُجِّه إلى اعلى توجيهاً مستقيماً وشـد بالحبـال ، وكان علم احمر معلـق بهـذا العريش يرفرف فـوق المتراس .

وكان متراس مونديتور الصغير ، المخبوء خلف الحانة ، متواريـاً عن النظر . وكان المتراسان يشكلان ، مجتمعين ، حصناً حقيقياً . ولم ير آنجولراس وكورفيراك ان من الخير أن يمترسا الطرف الآخر من شارع مونديتور الذي يفتح ممراً إلى الاسواق من خلال شارع الـ « بريشور » ،

بسبب من رغبتهما – من غير شك – في ان يحتفظا باتصال ممكن مع الخارج . ولخوفهما بعض الشيء من ان يهاجم رجالهم من زقاق الـ « بريشور » الخطر العسير .

وباستثناء هذا الممر الذي ظل حراً ، والذي شكل ما كان خليقاً بـ « فولار » * ان يدعوه باسلوبه الستراتيجي مجازاً طويلا ضيقاً ، وإذا ذكرنا ايضاً الفتحة الضيقة المقامة عند شارع الـ « شانفريري » ، فان الجزء الداخلي من المتراس ، حيث كونت الحانة زاوية بارزة إلى الخارج كان اشبه شيء برباعيّ اضلاع غير مستقيم موصد من نواحيه جميعاً . وكانت عشرون خطوة ، أو نحوها ، تفصل ما بين المتراس الكبير والبيوت العالية التي شكلت نهاية الشارع ، بحيث نستطيع ان نقول أن المتراس استند إلى هذه البيوت الآهلة كلها ، ولكن الموصدة من أعلى إلى أدنى .

وإنما تم هذا العمل كله ، من غير عائق ، في اقل من ساعة ، ومن غير أن ترى تلك الحفنة من الرجال البواسل قبعة وبر ترتفع أو حربة تُشهر . فقد كان البورجوازيون القلائل الذين لم يفقدوا الجرأة ، في تلك المرحلة من الفتنة ، على الاقتراب من شارع سان دونيز يلقون نظرة على شارع الـ « شانفريري » ، ويلمحون المتراس ، ويضاعفون سرعة خطاهم .

حتى إذا تم انشاء المتراسين ، ورفعت الراية ، سحبت من الحانة مائدة . وارتقى كورفيراك تلك المائدة . وجاء آنجولراس بالصندوق المربع ، وفتحه كورفيراك . وكان هذا الصندوق مليئاً بالخراطيش . وحين بدت الخراطيش للعيان سرت في اوصال أشجع القوم رعدة ، وران الصمت لحظة .

ووزعها كورفيراك في ابتسامة .

وتلقى كل امرىء ثلاثين خرطوشة . وكان مع كثير منهم بارود ،

* Folard خبير حربي فرنسي (١٦٦٩ – ١٧٥٢)

فراحوا يعملون خراطيش اخرى بالكرات التي كانوا يصبونها . أما برميل البارود الصغير ، فكان وحده فوق طاولة ، مجاورة للباب ، وكان مدّخراً .

ولم يكن قرع الطبول ، الذي طاف باريس كلها ، قد انقطع بعد ، ولكنه كان قد أمسى مجرد صوت رتيب لم يعودوا يلقون اليه بالا . وكان هذا الصوت يبتعد حيناً ، ويقترب حيناً ، في تموجات كئيبة .

لقد شحنوا بنادقهم وبنادقهم القصيرة الخفيفة ، في آن معاً ، من غير اضطراب ، وفي رصانة احتفالية . ووضع آنجولراس ثلاثة حراس خارج المتراسين ، احدهم في شارع الـ « شانفريري » ، وثانيهم في شارع الـ « بريشور » ، وثالثهم عند زاوية الـ « بيتيت تروواندري » .

ولحظة أكمل انشاء المتراسين ، وعُينت مراكز الجند ، وشحنت البنادق ، وسمي الحراس ، راحوا ينتظرون متوحدين في هذه الشوارع الرهيبة التي ما عاد احد يمر بها ، وقد احاطت بهم هذه البيوت الخرساء ، وكأنها ميتة ، حيث لم تختلج حركة بشرية واحدة ، ولفّتهم ظلال الغسق المتكاثفة ، الآخذة في السقوط ، ووسط تلك الظلمة وهذا الصمت اللذين أحسا من خلالهما اقتراب شيء فاجع ومروّع إلى حد يستعصي على التعبير — راحوا ينتظرون منعزلين ، مسلحين ، مصممين ، رابطي الجأش .

٦
في فترة الانتظار

وفي ساعات الانتظار تلك ، ماذا فعلوا ؟

يجب ان نروي ذلك ، لأنه جزء من التاريخ .

فيما كان الرجال يصنعون الخراطيش والنساء يصنعن النسالة ، وفيما كانت مقلاة ضخمة حافلة بالقصدير والرصاص المعدّين لقالب القذائف تطلق الدخان فوق موقد مضطرم ، وفيما كان الحرس يراقبون المتراسين والسلاح في ايديهم ، وفيما كان آنجولراس ، المتعذر على اي شيء أن يشغله، يراقب الحرس ، كان كومبوفير ، وكورفيراك ، وجان بروفير ، وفويي، وبوسوويه ، وجولي ، وباهوريل ، وبضعة نفر آخرين ، يبحث بعضهم عن بعض ويجتمع بعضهم إلى بعض ، شأنهم في أهدأ ايام لغوهم المدرسي واحفلها بالأمن . وفي احدى زوايا هذه الحانة التي حولت إلى سرداب معقد من سراديب الحصون ، على بعد بضع خطى من المتراس الذي أقاموه ، وبنادقهم القصيرة الخفيفة المشحونة بالبارود مستريحة إلى ظهور كراسيهم ، كانوا ـــ وهم الفتيان الشجعان ـــ المجاورون اشد المجاورة ساعتهم الاخيرة ، قد بدأوا يغنون اغاني الغرام :

إية أغانٍ ؟ ها هي ذي :

هل تذكرين حياتنا العذبة ،
حين كنا كلانا صغيرين جداً ،
وحين لم تختلج في فؤادنا غير رغبة واحدة ،
هي ان نرتدي ثياباً انيقة وان يحب احدنا الآخر !

حين كنا اذا انضاف عمرك الى عمري
لا يبلغ مجموع عمرينا اربعين عاماً ،
وحين كان كل شيء ، في بيتنا المتواضع الصغير ،
ربيعاً بالنسبة الينا ، حتى الشتاء نفسه !

يا لها اياماً حلوة ! كان مانيوريل فخوراً وحكيماً ،
وكانت باريس تجلس الى مآدب مقدسة ،
وكان فوا يشن الهجوم ، وكان في
الصدار الاعلى من فستانك ، حيث
موضع شكري ، دبوس.

لقد تأملك القوم كلهم . وكنت محامياً من غير دعاوى ،
يوم اصطحبتك الى متنزه برادو ،
فكنت جميلة الى درجة جعلت الزهور
توقع في نفسي انها تتململ .

لقد سمعتها تقول : ما أجملها !
ما اطيب عبقها ! ما اروع تموج شعرها !
انها تخفي تحت ردائها القصير جناحاً ،
وقبعتها الفاتنة لم تكد تبزغ .

وهمت على وجهي معك ، ضاغطاً على ذراعك الرخصة .
واعتقد عابرو السبيل ان الحب المسحور
قد زوّج ، في شخصينا السعيدين ،
شهر نيسان العذب الى شهر نوار الجميل.

نحن نحيا مختبئين ، راضيين ، مستسرين
ملتهمين الحب ، تلك الثمرة المحرمة الطيبة ،
ولم يكن فمي ليقول شيئاً
الا أجابه فؤادك في الحال .

وكانت السوربون هي البقعة الشعرية الوعائية
حيث كنت اعبدك من المساء حتى الصباح .
هكذا تستعمل النفس العاشقة
تذكرة الـ « تاندر » * في البلدان اللاتينية .

إيه يا ساحة موبير ! إيه يا ساحة دوفين .
يوم سحبتُ ، في الكوخ البارد الربيعي ،
ذراعك فوق ساقك الناعمة ،
لقد رأيت نجماً في اقصى العليّة .

---

* بلاد تاندر ، او بلاد الرقة *Pays de Tendre* بلاد رمزية لا يشغل المرء فيها بغير الحب ، وقد تخيلتها الانسة سكوديري Mlle de Scudéry وغيرها من روائيي القرن السابع عشر . وتذكرة تاندر هي تذكرة هوية تلك البلاد وقد تخيلتها الكاتبة نفسها .

لقد قرأت افلاطون كثيراً ولكن لم يبق في ذهني شيء منه ،
كما لم يبق شيء من « مالبرانش » و « لامنيه » ،
لقد اريتني اللطف السماوي .
بزهرة قدمتها أنتِ الي .

لقد اطعتكِ ، وكنتِ انت طوع يدي .
إيه ايتها العلية المذهبة ! كم كنت أراك
رائحة غادية منذ الضحى في قميصك ،
تنظرين الى جبينك الغض في مرآتك العتيقة !

ومن ذا الذي يستطيع ان ينسى
أويقات الفجر تلك ، والقبة الزرقاء ،
والاوشحة والازهار ، والشفوف والانسجة المتموجة ،
حيث الحب يغمغم بلغة سوقية قائلة !

كانت حدائقنا أصيصاً من الخزامى ،
وكنت تقدّمين زجاج النافذة بتنورة .
واخذت طاسة التليون الفخارية ،
واعطيتك فنجان الخزف الياباني .

وتلك المصائب الكبرى التي كانت تضحكنا !
فروة يديك المحترقة ، وفروة جيدك الطويلة الضائعة !
وتلك الصورة الاثيرة من صور شيكسبير الالـهي
التي بعناها ذات مساء ، لنتناول العشاء !

لقد كنت متسولاً ، وكنت أنت متصدقة ،
لقد قبّلت ، على الطائر ، ذراعيك الغضتين المدورتين
واتخذنا من دانتي ، في قطع نصف طلحية ، مائدة
لكي نأكل في ابتهاج مئة حبة من كستناء .

واول مرة اخذت فيها ، في غرفتي
الصغيرة ، قبلة من شفتيك الملتهبتين
حين تشعث شعرك وشاع الدم في وجهك ،
ظللت اصفر شاحباً وآمنت بالله !

هل تذكرين سماداتنا التي لا تحصى
وجميع تلك المناديل التي استحالت الى خرق !
اوه ! كم زفرة من قلبينا المفعمين بالظل
قد انطلقت في السماوات العميقة !

وكان في المناسبة ، والموقع ، وذكريات الصبا المستعادة هـذه ، والنجوم القليلة التي بـدأت تشع في السماء ، والسكون المأتمي الذي ران على تلك الشوارع المهجورة ، ووشك وقوع الحادثة التي لا ترحم — كان في هذا كله ما خلع فتنة موثرة على هذه الأبيات ، التي راح جان بروفير يغمغم بها في الغسق ، بصوت خفيض . جان بروفير الذي كان كما قلنا من قبل شاعراً رقيقاً :

وفي غضون ذلك كانوا قد اضاءوا مصيبحاً في المتراس الصغير ، واشعلوا في المتراس الكبير واحداً من تلك المشاعل الشمعية التي يراهـا المرء في ثلاثاء المرفع امام العربات المثقلة بالاقنعة ، القاصدة الـى الكورتي * . وإنمـا جـاءت هـذه المشاعل ، كما رأينا ، من ضاحية سان انطوان .

وكان المشعل قد وُضع في ضرب من القفص أغلق ببعض بلاطـات الطريق من جهات ثلاث لكي يقيها من الريـح ، وأعِدّ على ان يجعل النور كله ينصبّ على الراية . وظل الشارع والمتراس غارقين في الظلمة ، ولم يكن يُرى غير العلم الأحمر ، المضاء على نحو رهيب ، وكأنما قد صُوِّب اليه مصباح هائل يَرى حامله به ولا يُرى .

وخلع ذلك الضوء على نسيج الراية القرمزية وهجاً ارجوانياً يمتنـع على الوصف .

* Courtille حيّ من أحياء باريس القديمة كانت تعجه غوغاء الجماهير المحتفلة بثلاثاء المرفع .

٧

الرجل المجند في شارع الـ « بيليت »

كان الظلام قد خيم على الدنيا ، ولم يكن احد قد أقبل . كانت ثمة اصوات مختلطة ليس غير . وبين الفينة والفينة كانت تُسمع طلقات بنادق ، ولكنها طلقات نادرة ، متقطعة ، نائية . وكانت هذه الاستراحة ، المتطاولة على هذا الشكل ، دليلا على ان الحكومة كانت تفيد من الوقت وتحشد قواها . لقد كان هؤلاء الرجال الخمسون ينتظرون ستين الف رجل .

واستبد بأنجولراس فروغ الصبر ذاك الذي يستحوذ على النفوس القوية عند عتبة الاحداث الرهيبة . ومضى يبحث عن غافروش الذي كان قد انصرف إلى صنع الخراطيش في الحجرة السفلى على ضوء باهت منطلق من شمعتين وضعتا على منضدة المحاسبة ، خوفاً على البارود المنتثر على الموائد أن تمسه النار . ولم تكن هاتان الشمعتان ترسلان ايما شعاع إلى الخارج . وفوق هذا ، فقد حرص المتمردون على ان تُشعل في الادوار العليا انوار ما .

كان غافروش منهمكاً في تلك اللحظة انهماكاً شديداً ، ولكن انهماكه ذاك لم يكن في الخراطيش على وجه الضبط .

وكان الرجل المقبل من شارع الـ « بيليت » قد دخل اللحظة إلى الحجرة السفلى ، وكان قد جلس إلى المائدة الاقل فوزاً بالنور . وكان قد اصاب بندقيةً مشاة من طراز ضخم ، وكان يضعها بين ركبتيه . وحتّى تلك اللحظة ، لم يكن غافروش ، المشغول بمئة شيء « مسلٍّ » ، قد رأى حتّى هذا الرجل .

وحين دخل ، أتبعه غافروش ناظريه على نحو ميكانيكي ، معجباً

ببندقيته . ولم يكد الرجل يجلس حتى نهض « المتشرد » فجأة . ولو قد قدّر لأحد ان يرى ذلك الرجل حتى تلك اللحظة إذن لرآه يراقب كل شيء في المتراس وفي عصبة المتمردين بانتباه فريد . ولكنه غرق منذ دخل إلى الغرفة في ضرب من التأمل ، وبدا وكأنه لم يعد يرى شيئاً مما كان يجري . واقترب « المتشرد » من هذه الشخصية المستغرقة في التفكير ، وشرع يدور حوله على رؤوس اصابعه كما يمشي المرء حين يكون قرب شخص يخشى ان يوقظه . وفي الوقت نفسه ، تعاقبت على وجهه الطفلي ، المتهتك إلى ابعد الحدود الجدي إلى ابعد الحدود في آن معاً ، المبتهج إلى ابعد الحدود المحزن إلى ابعد الحدود — نقول تعاقبت على وجهه جميع تصعرات الشيوخ التي تعني : «اوه ، عجباً ! مستحيل ! ان على عيني غشاوة ! أنا احلم ! هل هذا ممكن ؟ لا . انه غير ممكن ! اجل انه ممكن ! ، لا ، لا ، انه غير ممكن ! » الخ . واقام غافروش توازنه على عقبيه ، وشنج قبضتيه في جيبيه ، ولوى عنقه مثل طائر من الطيور ، وانفق في عبسة لا حد لها كل ما في شفته السفلى من حذق وفطنة . كان مشدوهاً ، مرتاباً ، قليل التصديق ، مقتنعاً ، مبهور البصر . كانت له سيما رئيس الخصيان في سوق الرقيق وقد اكتشف زُهرة (فينوس) بين نساء بدينات ، ومحيّا هاوٍ من هواة الفن يتبين نابغة مثل رافاييل وسط ركام من الصور التافهة التي يعوزها الاتقان . كان كل شيء فيه ناشطاً يعمل : الغريزة التي تستروح والفكر الذي يدبر . كان واضحاً ان حادثاً قد ألمّ بغافروش .

وقال آنجولراس :

— « انت صغير . إن احداً لن يراك . اخرج من المتراسين ، وتسلل على طول البيوت ، وألق نظرة سريعة إلى الشوارع ، ثم ارجع واخبرني ما الذي يجري هناك . »

وتصدّر غافروش ، وقال :

— « اذن فالصغار يصلحون لشيء ما ! هذا سار جداً ! سوف اذهب . وفي غضون ذلك ثق بالصغار ، ولا تثق بالكبار ... »

ثم انه رفع رأسه ، وخفض صوته، واضاف مشيراً إلى الرجل الذي أقبل من شارع « بيليت » :

— « اترى الرجل الضخم الذي هناك ؟ »

— « ثم ماذا ؟ »

— « إنه جاسوس . »

— « اواثق انت ؟ »

— « لم ينقض اسبوعان على شده لي من اذني في كورنيش « الجسر الملكي » حيث كنت اشم الهواء . »

وفي سرعة ، فارق آنجولراس « المتشرد » ، وهمس بضع كلمات في اذن عامل من عمال المرافىء كان هناك . وغادر العامل الغرفة ، ورجع في الحال تقريباً ، يصحبه ثلاثة آخرون . ومضى الرجال الاربعة ، الحمالون الاربعة العراض الاكتاف ، وجلسوا ، من غير أن يعملوا اي شيء يلفت النظر ، خلف الطاولة التي كان الرجل المقبل من شارع « بيليت » متكئاً عليها . كانوا مستعدين من غير شك لان ينقضّوا عليه انقضاضاً .

ثم إن آنجولراس اقترب من الرجل وسأله :

— « من انت ؟ »

عند هذا السؤال المفاجيء ، اجفل الرجل . وحدق النظر إلى اعماق عين آنجولراس الصريحة ، وبدا وكأنه ادرك ما يجول في خاطره . وابتسم ابتسامة لم يكن في العالم ما هو اكثر ازدراء ، وأشد قوة ، وأمضى عزماً منها ، وأجاب في وقار متعجرف :

— « إني أرى كيف تجري ... حسناً ، أجل ! »

— « انت جاسوس ؟ »
— « انا رجل من رجال السلطة . »
— « وما اسمك ؟ »
— « جافير . »

وأومأ آنجولراس إلى الرجال الأربعة . وفي لمح البصر . وقبل ان يجد جافير متسعاً من الوقت للالتفات ، كان الرجال قد اخذوا بخناقه ، وطرحوه ارضاً ، وأحكموا وثاقه ، وفتشوه .

وعثروا في جيوبه على بطاقة مستديرة ملصقة بين قطعتي زجاج ، نقش على احد وجهيها شعار فرنسة مع هاتين الكلمتين : «**سهر وحذر**» وعلى الوجه الاخر هذا التظهير : «**جافير، مفتش شرطة، عمره اثنتان وخمسون**» وتوقيع مدير الشرطة في ذلك العهد م. غيسكيه .

وكان يحمل إلى جانب ذلك ساعته وحافظة نقوده التي انطوت على بضع قطع نقدية ذهبية . وتركوا له الساعة وحافظة النقود . وتحت الساعة ، في قعر جيبه الصغير ، تحسسوا واستولوا على ورقة في ظرف . وفض آنجولراس الظرف ، وقرأ هذه السطور الستة مكتوبة بخط مدير الشرطة نفسه :

« حالما يتم المفتش جافير مهمته السياسية ، سوف يتحقق ، من طريق الدراسة الخاصة ، ما إذا كان صحيحاً ان الاشرار يفزعون إلى جُرف الضفة اليمنى من نهر السين ، قرب جسر يينا . »

حتى إذا انهوا التفتيش ، رفعوا جافير ، واوثقوا ذراعيه خلف ظهره وشدوه وسط الحجرة السفلى إلى ذلك الوتد الشهير الذي خلع اسمه ، في وقت مضى ، على الحانة .

واقترب غافروش — الذي شهد المشهد كله ووافق على كل شيء بهزات صامتة من رأسه — اقترب من جافير وقال له :

— « لقد قبضت الفأرة على الهرة . »

وإنمـا نُفّـذ هذا كلـه في سرعة بالغة بحيث أتيم لحظة تنبه اليـه القوم العاملون قريباً من الخانة . ولم يكن جافير قد ارسل صيحة واحدة . وما إن رأى كورفيراك ، وبوسوويه ، وجولي ، وكومبوفير والرجال المتثرون حول المتراسين ، نقول ما إن رأوا جافير موثقاً إلى الوتد حتى هرعوا مقبلين .

وإذ وجد جافير نفسه مشدود الظهر إلى الوتد ، مطوقاً بالحبال على نحو لا يمكنه من ان يأتي بحركة ما ، فقد رفع رأسه بمثل الطلاقة الجديرة برجل لم يكذب في حياته قط .

وقال آنجولراس :

— « انه جاسوس . »

والتفت إلى جافير قائلا :

— « سوف تُقتل رميـاً بالرصاص قبل ان يؤخذ المتراس بعشـر دقـائق . »

واجاب جافير بنبرته الاكثر صلفاً :

— « ولم لا يكون ذلك في الحال ؟ »

— « نحن نقتصد في البارود . »

— « اذن فاقتلوني بمدية . »

فقال آنجولراس الوسيم :

— « ايها الجاسوس . نحن قضاة ، ولسنا سفاحين . »

ثم نادى غافروش :

— « انت ! امض في عملك ! إفعل ما قلته لك . »

فصاح غافروش :

— « سوف اذهب . »

ثم وقف لحظـة انطلق وأضاف :

— « بالمناسبة ، سوف تعطيني بندقيته ! اني اترك لك الموسيقي ، »

ولكني اريد الكلارينيت * . »

وأدى المتشرد تحية عسكرية ، واجتاز مبتهجاً تلك الفتحة التي في المتراس الكبير .

٨

عدة علامات استفهام حول شخص يدعى « لو كابوك » لعله لم يكن « لو كابوك »

لن تكون الصورة الفاجعة التي بدأنا رسمها كاملة ، ولن يرى القاريء ، لحظات الولادة الاجتماعية والمخاض الثوري العظيمة ، في تضاريسها الحقيقية الدقيقة – هذه اللحظات التي امتزج فيها التشنج بالجهد – إذا اغفلنا ، في التخطيط المرسوم هنا – حادثة مفعمة بالذعر الملحمي والوحشي وقعت إثر ذهاب غافروش مباشرة ، تقريباً .

ان الجماهير ، كما نعلم ، اشبه شيء بكتل الثلج ، وهي تجمع ركاماً من الرجال الصخابين فيما هي تتدحرج . وهؤلاء الرجال لا يسأل بعضهم بعضاً من اين اقبلوا . ولقد كان بين عابري السبيل هؤلاء الذين التحقوا بالجماعة التي قادها آنجولراس وكومبوفير وكورفيراك شخص يرتدي صدرة حمال مهترئة الكتفين ، ويصيح مكثراً من الحركات اثناء الكلام ، وتبدو عليه سيما سكير وحشي . وكان هذا المدعو أو الملقب بـ « لو كابوك » *Le Cabuc* ، والذي كان إلى ذلك مجهولا بالكلية عند اولئك الذين حاولوا ان يتبينوه ، الثمل إلى حد بعيد ، أو المتظاهر بذلك ، – كان جالساً مع بضعة رجال آخرين إلى طاولة

* اليراعة ، وهي آلة موسيقية .

سحبوها إلى خارج الحانة . وكان « كابوك » هذا يبدو — فيما هو يغري بالشراب اولئك الذين من حوله — وكأنه يحدق في سيما تأمـــل إلى البيت الكبير القائم في مؤخرة المتراس ، والــذي كـانـت أدواره الخمسة تشرف علـى الشارع كلـه وتواجـه شارع سان دونيز وفجـأة هتف :

— « ايها الرفاق ، هل تعلمون ؟ من هذا المنزل بالذات يجب ان نطلق النار . اننا حين نكون خلف تلك النوافذ فلن يستطيع احد ، وحتى الشيطان ، ان يجيء إلى الشارع . »

فقال احد الشاربين :

— « اجل ، ولكن البيت مغلق . »

— « نقرع الباب ! »

— « ولكنهم لن يفتحوا . »

— « نقتحم الباب . »

ويعدو « لو كابوك » إلى البـاب الذي كان مزوداً بقـارعـة ضخمة ، ويخفقه . ولكن الباب لا يفتح . ويخفق كرة ثانيـة . ولكن احداً لا يجيب . ويخفـق كرة ثالثـة . فـلا يقـع إلا علـى الصمت نفسه .

ويصيح « لو كابوك » :

— « هل يوجد احد هنا ؟ »

ولا يتحرك شيء .

ثم يمسك ببندقية ويشرع يضرب الباب بعقبها . كان باباً زقاقيـاً عتيقـاً ، ذا قوس ، وكان منخفضاً ، ضيقاً ، صلباً ، مصنوعاً كلـه من خشب السنديان ، مبطناً من داخل بطبقـة من حديد مصفح وبأطواق حديدية . كان باباً حقيقياً من ابواب السجون الخفية المطلـة علـى خنـدق ما .

وعلى اية حال ، فمن المحتمل ان يكون السكان قد اهتاجوا ، إذ رأى القوم آخر الامر نافذة صغيرة مربعة في الدور الثالث تضاء وتفتح ، وتبدو عند النافذة شمعة ، ووجه رجل تقي مروع أشيب هو البواب .

وكف الرجل القارع عن القرع .

وتساءل البواب :

— « ايها السادة ، ماذا تريدون ؟ »

فقال « لوكابوك » :

— « افتح ! »

— « ايها السادة ، هذا غير ممكن . »

— « افتح ، اقول لك ! »

— « مستحيل ، أيها السادة ! »

وتناول « لو كابوك » بندقيته وسددها إلى رأس البواب . ولكن لما كان هو تحت ، وكان الظلام حالكاً جداً ، فان البواب لم يره .

— « هل ستفتح ، نعم ام لا ؟ »

— « لا ، ايها السادة ! »

— « تقول لا ؟ »

— « اقول لا ، يا سادتي الـ ... »

ولم يتم البواب كلامه . لقد اطلقت النار . كانت الرصاصة قد اخترقت جسم الرجل ، تحت ذقنه ، وخرجت من مؤخر عنقه ، مجتازة حبل الوريد . وخر العجوز على الارض من غير ان يرسل زفرة ما : وسقطت الشمعة ، وانطفأت ، ولم يعد ثمة شيء تمكن رؤيته غير رأس جامد منطرح على حافة النافذة ، وقليل من الدخان الضارب إلى البياض وقد اخذ يطفو نحو السطح .

وقال « لو كابوك » تاركاً عقب بندقيته يسقط على الارض :

— « هكذا ! »

ولم يكد ينطق بهذه الكلمة حتى استشعر يداً تنقض على كتفه بمثل ثقل براثن نسر ، وسمع صوتاً يقول له :

— « على ركبتيك . »

واستدار القاتل فرأى أمامه وجه آنجولراس البارد الابيض . وكان آنجولراس يحمل غدارة في يده .

كان قد وصل عند دوي الانفجار .

وكان قد امسك ، بيده اليسرى ، بتلبيب « لو كابوك » ، ودرّاعته ، وقميصه ، وحمالة بنطلونه .

وكرر :

— « على ركبتيك . »

وبحركة ترشح بالسلطة لوى ابن العشرين الهزيلُ الخيال القوي العريض المنكبين كما تلوى القصبة ، واكرهه على الركوع في الوحل . وحاول « لو كابوك » ان يقاوم ، ولكنه بدا وكأن قبضة فوق بشرية كانت قد استبدت به .

وكان آنجولراس شاحب الوجه ، عاري العنق ، متطاير الشعر ، وكان يرين على وجهه النسوي ، في تلك اللحظة ، شيء من «تيميس» * القديمة وكان في منخريه المنتفخين وعينيه المخفوضتين ما منح صورته الجانبية الاغريقية الحقود انطباعة الغيظ تلك ، وانطباعة الطهر تلك اللتين كانتا ، من وجهة النظر الخاصة بالعالم القديم ، من خصائص العدالة .

وهرع المتراس كله ، وتحلقوا كلهم في دائرة على مسافة ما ، مستشعرين ان من المستحيل التلفظ بكلمة في حضرة العمل الذي يوشكون ان يروه .

وقال :

* Thémis الآهة العدل ، وكانوا يمثلونها حاملة ميزاناً .

— « استجمع افكارك : صل أو فكر . عندك دقيقة . »

وغمغم القاتل :

— « عفوك ! »

ثم خفض رأسه ، وغمغم ببضع أيمان غير مفهومة .

ولم يرفع آنجولراس عينيه عنه ، لقد ترك الدقيقة تنقضي ، ثم أعاد الساعة إلى جيبه الصغيرة . حتى إذا تم له ذلك امسك بشعر « لو كابوك » ، الذي كان يتلوى على ركبتيه ويعوي ، واسند خطم غدارته إلى اذنـه . فلم يكن من كثير من اولئك الرجـال البواسل ، الذين خاضوا بكثير من الهـدوء اكثر المغامرات ترويعاً ، إلا ان اشاحوا بوجوههم :

لقد سمعوا الانفجار ، وخر القاتل مستقبلا الارض بوجهه ، وتصدّر آنجولراس والقى حوله نظرته العازمة القاسية :

ثم انه دفع الجثة بقدمه وقال :

— « اطرحوا هذه إلى الخارج . »

ورفع رجال ثلاثة جثة الشقي التي كانت تختلج بآخر التشنجات الميكانيكية لحياة انطفأت : وطرحوه من فوق المتراس الصغير إلى زقاق مونديتور :

كان آنجولراس لا يزال مستغرقاً في التفكير . وكانت ظلمات ملغزة وعظيمة تنتشر شيئاً فشيئاً فوق هدوئه الرهيب . وفجأة رفع صوتـه وران الصمت :

وقال آنجولراس :

— « أيها المواطنون ، إن ما عمله هذا لرهيب ، وان ما عملتـه لفظيـع . لقد قتل ، وهذا هو السبب الذي من أجله قتلته . لقد كنت مكرهاً على عمل ذلك ، لأن الثورة ينبغي ان يكون لها هنا سلطتهـا التأديبية : ومع ذلك فان القتل ليُعتبر هنا جريمة اعظم منه في ايما مكان آخر . اننا تحت عين الثورة ، إننا كهان الثورة ، إننا قرابين الواجب ،

وينبغي ان لا يتمكن احد من التجني على نضالنا : وهكذا قاضيت ذلك الرجل وحكمت عليه بالموت . أما أنا ، وقد اضطررت إلى القيام بذلك الصنيع ولكنني قمت به كارهاً له ، فقد قاضيت نفسي ايضاً ، ولسوف ترون وشيكاً بم حكمت على نفسي . »

وارتعدت فرائص اولئك الذين سمعوا كلامه .

وصاح كومبوفير :

— « سوف نقاسمك مصيرك . »

فأضاف آنجولراس :

— « ليكن ذلك . بقيت كلمة . لقد خضعت للضرورة في قتل ذلك الرجل . ولكن الضرورة هولة من هولات العالم القديم ، والضرورة يدعونها القدر . ولكن قانون التقدم ان تختفي الهولات في وجه الملائكة ، وان يتلاشى القدر امام الاخاء . وهذه ليست هي اللحظة التي تُلفظ فيها كلمة المحبة . ومع ذلك ، فانا ألفظها وانا امجدها . يا ايتها المحبة ، انت المستقبل . ويا ايها الموت ، إني استخدمك ، ولكني اكرهك . ايها المواطنون ، لن يكون في المستقبل لا ظلمة ولا صواعق ، لا جهل ضارٍ ولا ثأر دامٍ . وإذ لن يبقى ثمة ابليس فكذلك لن يبقى ثمة ميكائيل . في المستقبل لن يقتل شخص شخصاً ، والارض سوف تشع ، والجنس البشري سوف يحب . سوف يأتي ، ايها المواطنون ، ذلك اليوم الذي يسود فيه الوفاق ، والانسجام ، والنور ، والبهجة ، والحياة ، إنه سوف يأتي ، ومن اجل ان يأتي نعتزم ان نموت : »

وسكت آنجولراس . لقد اطبقت شفتاه العذراوان . وظل فترة واقفاً في البقعة التي سفح عليها الدم ، في مثل جمود الرخام . وكان في عينيه المسددتين ما جعل كل من حوله يتكلمون في همس .

وفي صمت شبك جان بروفير وكومبوفير يديهما ، واتكأ احدهما على

الآخر في زاوية المتراس ، وراحا يتأملان – في اعجاب يخالطه الحنان– هذا الفتى الصارم ، الجلاد والكاهن ، المتألق مثل البلور ، الصلب مثل الصخر ايضاً .

ولنقل هنا مباشرة انه حين نقلت الجثث في ما بعد ، إثر الحادث ، إلى معرض الجثث المجهولة وفتشت ، عثر في ثياب «لوكابوك» على بطاقة رجل من رجال الشرطة . وقد وقع في يدي مؤلف هذا الكتاب عام ١٨٤٨ ، تقرير خاص عن هذا الموضوع قدم إلى مدير البوليس عام ١٨٣٢ .

ولنضف إلى هذا – إذا اردنا ان نصدق رواية من روايات الشرطة غريبة ولكنها صحيحة في اغلب الظن – ان « لو كابوك » كان هو كلاكسو . فالواقع انه بعد موت «لو كابوك» لم يسمع عن كلاكسو شيء ما . ولم يترك كلاكسو ايما اثر يتصل باختفائه ، ويبدو أنه قد دُمج باللامنظور . كانت حياته ظلاماً ، وكانت نهايته ليلا .

وكان جمهور المتمردين كله لا يزال تحت وطأة انفعال هذه المحاكمة الفاجعة ، التي بدئت في سرعة بالغة وختمت في سرعة بالغة ، عندما رأى كورفيراك كرة اخرى ، في المتراس ، ذلك الشاب الضئيل الجسم الذي كان قد وفد على غرفته صباحاً وسأل عن ماريوس .

كان هذا الغلام ، الذي كانت تبدو على محياه أمارات الجسارة والتهور قد أقبل لينضم إلى المتمردين .

الكتاب الثالث عشر

ماريوس يدخل في الظلام

١

من شارع بلوميه الى حي سان دونيز

كان ذلك الصوت الذي نادى ماريوس عبر الغسق إلى متراس شارع الـ « شانفريري » قد بدا له اشبه شيء بصوت القدر . لقد اراد ان يموت ، وهاهي ذي الفرصة تسنح . كان يقرع باب القبر ، فاذا بيد في الظلام تقدم اليه المفتاح . وهذه الفروج الكئيبة التي يتكشف عنها الظلام أمام اليأس شديدة الاغراء . وازاح ماريوس القضيب الحديدي الذي كثيراً ما مكّنه من المرور ، وغادر الحديقة قائلا : « فلأمض ! »

وإذ ذهب الأسى بصوابه ، ولم يعد يستشعر أيما شيء محدد وصلب

في دماغه ، وعجز عن ان يتقبل شيئاً منذ اليوم من القدر ، بعد هذين الشهرين اللذين قضاهما في نشوات الشباب والحب ، واذ رزح في الوقت نفسه تحت مختلف ضروب التفكير اليائس فلم يعد يجد في ذات نفسه غير رغبة واحدة : أن يضع حداً لذلك في سرعة بالغة .

شرع يمشي على عجل . واتفق ان كان مسلحاً ، فقد كان يحمل غدارتي جافير .

وغاب الفتى ، الذي حسب انه رآه ، عن ناظريه في الشوارع .

واجتاز ماريوس ، الذي كان قد غادر شارع بلوميه من طريق الجادة — اجتاز الـ « اسبلاناد » ، وجسر الانفاليد ، وساحة الزيليزيه ، وميدان لويس الخامس عشر ، ودخل شارع ريفولي . كانت المحال التجارية مفتوحة ، وكان الغاز مشتعلا تحت العقود ، وكانت النسوة يشترين حاجاتهن من الدكاكين ، وكان الناس يتناولون المرطبات في مقهى « ليتيه » ، ويأكلون قطع الكاتو الصغيرة في « محل المعجنات الانكليزية » . غير ان عدداً قليلا من عربات البريد كان ينطلق مخبأ من « اوتيل الامراء » إلى « اوتيل موريس » .

ومن خلال مجاز ديلورم دخل ماريوس شارع سان هونوريه . كانت الدكاكين ههنا موصدة ، كان التجار يتجاذبون اطراف الاحاديث امام ابوابهم نصف المفتوحة ، وكان الناس يروحون ويجيئون ، وكانت المصابيح مضاءة ، وكانت النوافذ كلها ، فوق الطوابق الاولى ، منارة كالعادة . كان ثمة قوة من الفرسان في « ساحة القصر الملكي » .

وسلك ماريوس شارع سان هونوريه . وكلما ابتعد عن « القصر الملكي » قلّت النوافذ المضاءة ، كانت الدكاكين مغلقة كلها ، ولم يكن احد يتجاذب أطراف الحديث على العتبات ، وكان الشارع يحلولك ، وفي الوقت نفسه كان الحشد يزداد كثافة . ذلك ان عابري السبيل أمسوا الآن حشداً . وبدا وكأن احداً لم يكن يتكلم في ذلك الحشد ، ومع هذا

فقد انبعثت منه دندنة عميقة خرساء .

وقريباً من عين «لاربر سيك» كانت «احتشادات» ، جماعات جامدة كالحة كانت بين الغادين والرائحين اشبه شيء بالحجارة وسط جدول جار.

وعند مدخل شارع بروفير لم يعد الحشد يتحرك . كان كتلة من الناس مقاومة ، متلاحمة ، صلبة ، كثيفة ، تكاد ان تكون ممتنعة على الاختراق ، كتلة متراكمة تتحدث في همس . كانت السترات السوداء والقبعات المستديرة قد اختفت أو كادت . ولم يبق غير دُرّاعات ، وظِهارات ، وقلنسوات ، ووجوه متنمرة قذرة . وماجت هذه الجمهرة مختلطة مشوشة في الليل المُضبّب . لقد كان لهمسها مثل جرْس الارتجاج الخشن . وعلى الرغم من ان احداً لم يكن يمشي فقد سُمع وطء اقدام في الوحل . وخلف هذه الجمهرة الكثيفة ، في شارع «رول» ، في شارع الـ «بروفير» ، وفي امتداد شارع سان هونوريه ، لم يكن ثمة نافذة واحدة اضيئت فيها شمعة . وفي هذه الشوارع كانت صفوف المصابيح تُرى مترامية على نحو متوحد متناقص . كانت المصابيح في ذلك العهد تشبه نجوماً حمراء كبيرة تتدلى من حبال ، وكانت ترسل ظلا على الرصيف الذي كان له شكل رتيلاء ضخمة . ولم تكن هذه الشوارع خالية . فقد كان في ميسور المرء ان يتبين البنادق محزومة حزماً ، والحراب تتحرك ، والقوى تعسكر في العراء . ولم يتخطّ ايما فضولي هذه الحدود . هناك توقّف السير ، وهناك انتهى الحشد وبدأ الجيش .

واستبدت بماريوس ارادة اشبه بارادة الرجل الذي فقد الامل . لقد نودي ، فينبغي ان يذهب . ووجد الوسيلة إلى ان يشق طريقه من خلال الحشد ، وإلى ان يجتاز معسكر الجند ، مجتنباً العسس ، مفلتاً من الحرس وقام بدورة ، فانتهى إلى شارع «بيتيزي» ، واتخذ سبيله نحو الاسواق . وعند زاوية شارع «بوردونيه» لم يبق مصباح من مصابيح الشوارع .

وبه ، ان اخترق طوق الحشد واجتاز تخم الجند . وجد نفسه وسط شيء فظيع . لم يبق ثمة عابر سبيل ؛ لم يبة ثمة جندي . لم يبق ثمة ضوء ، لم يبق ثمة احد . وحدة ، صمت ، ليل ، واستبدت به قشعريرة لا سبيل إلى وصفها . كان الدخول الى شارع من الشوارع اشبه بالدخول إلى كهف .

وتابع تقدمه .

وخطا بضع خطوات . واجتاز به شخص يعدو . هل كان رجلا ؟ هل كانت امرأة ؟ هل كانوا عدة اشخاص ؟ لم يكن في ميسور أحد ان يحزر . لقد اجتاز به ذلك الشخص واختفى .

وبحركة دائرية اثر حركة دائرية ، انتهى إلى زقاق قدّر انه شارع « لا بوتري » . وحوالى منتصف هذا الزقاق اعترضت سبيله عقبة . وبسط يديه . كانت عربة مقلوبة . وتبينت قدمه برك ماء ، ومستنقعات ، وحجارة ارصفة متناثرة ومركومة . لقد كان في النية اقامة متراس هناك ، ثم صُرف النظر عن ذلك . وتسلق ركام الحجارة ، فوجد نفسه في الجهة الاخرى من السد . ومشى في محاذاة معالم الطريق ، مسترشداً بجدران البيوت . ووراء المتراس بقليل بدا وكأنه لمح امامه شيئاً ابيض . واقترب ، فاتخذ – ذلك الشيء شكلا . كانا جوادين ابيضين ! جوادي العربة العامة اللذين حلهما بوسوويه في الصباح ، واللذين كانا قد طوّفا كيفما اتفق من شارع إلى شارع طوال النهار ، وكانا قد وقفا آخر الامر هناك ، بصبر البهائم المستنفد ، تلك البهائم التي لا تفهم اساليب الانسان بأكثر مما يفهم الانسان اساليب العناية الالـهية .

وخلف ماريوس الجوادين وراءه . حتى إذا بلغ شارعاً وقع في نفسه انه شارع « العقد الاجتماعي » ، صفرت على مقربة منه رصاصة بندقية منطلقة من مكان مجهول ، عابرة الظلمة كيفما اتفق . وثقبت الرصاصة طبق حلاقة نحاسياً كان معلقاً عند باب احد المزينين . وطبق الحلاقة المثقوب هذا كان لا يزال في امكان المرء ان يراه ، عام ١٨٤٦ في شارع

« العقد الاجتماعي » ، عند زاوية اعمدة الاسواق .

كانت طلقة البندقية تلك تمور بالحياة ، وبعد تلك اللحظة لم يتلق شيئاً البتة .

لقد اشبهت الطريق كلها هبوطاً من على سلّم مظلم .

ومع ذلك ، فقد تقدم ماريوس إلى امام .

٢
نظرة بوم على باريس

لو استطاع كائن ان يحلّق فوق باريس ، في تلك اللحظة ، بجناح الخفاش أو البوم اذن لرأى تحت ناظريه مشهداً فاجعاً .

إن حي الاسواق العتيق كله ، ذلك الذي يشبه مدينة ضمن المدينة ، والذي اخترقه شارعا سان دونيز وسان مارتين ، حيث يتقاطع الف من الازقة ، والذي اتخذ منه المتمردون معقلا لهم وميداناً لتمردهم — نقول إن هذا الحي كان خليقاً بأن يبدو له مثل ثقب هائل أسود شُق في قلب باريس . هناك وقعت العين في هاوية . وبفضل المصابيح المحطمة ، وبفضل النوافذ الموصدة انقطع هناك كل إشعاع ، وكل حياة ؛ كل صوت ، وكل حركة . وراقبت شرطة المتمردين غير المنظورة كل مكان ، وحفظت النظام ، يعني الليل . إن إغراق العدد الصغير في ظلمة عريضة ، ومضاعفة كل مقاتل بالامكانيات التي تنطوي عليها تلك الظلمة — إن ذلك هو تكتيك الثورة الضروري . فعند هبوط الليل كانت رصاصة قد أصابت كل نافذة مضاءة بشمعة . لقد أطفيء النور ، ولقد قُتل الساكن في بعض الاحيان . وهكذا لم يتحرك شيء . لم يكن ثمة غير الذعر ، والحداد ، والذهول في البيوت ؛ أما في الشوارع فكان ضرب من الرعب المقدس .

حتى صفوف النوافذ والطوابق الطويلة لم تكن منظورة ، وكذلك تسنّن المواقد والسطوح ، والانعكاسات الباهتة الملتمعة فوق الرصيف الموحل المندّى . كان خليقاً بالعين التي تنظر من علٍ إلى ركام الظلال ذاك ان تلمح ههنا وهناك - ربما - ومن نقطة إلى نقطة ، اضواء غير واضحة مبرزة خطوطاً متكسرة وغريبة ، صوراً جانبية لمنشآت فريدة، شيئاً مثل ومضات شبحية تروح وتجيء بين الخرائب ؛ تلك كانت المتاريس . أما الباقي فكان بحيرة من الظلمة ، بحيرة مضببّة ، ثقيلة ، جنائزية ، ارتفعت فوقها ظلال سوداء مشؤومة لا حراك فيها ، ظلال برج سان جاك ، وكنيسة سان ميري ، واثنان أو ثلاثة من تلك الأبنية الضخمة التي يجعل منها الانسان عماليق ويجعل منها الليل أشباحاً .

وحوالى هذا التيه المهجور المقلق ، في الأحياء التي لم تنقطع فيها حركة المواصلات الباريسية ، وحيث اضاءت بضعة مصابيح ليس غير ، كان خليقاً بالمراقب الجوي ان يتبين بريق السيوف والحراب المعدني ، ودويّ المدفعية المختنق ،وتحرك الكتائب الصامتة المتكاثرة من لحظة إلى اخرى - نطاق رهيب كان يضيق ويطبق في بطء على الفتنة .

ولم يكن الحي المحاصر غير ضرب من كهف ضخم إلى حد مخيف . لقد بدا كل ما فيه مضطجعاً أو جامداً لا حراك فيه . وكما قلنا اللحظة ، لم يكن اي من الشوارع التي قد ندخلها ليقدم شيئاً غير الظلمة .

ظلمة ضارية ، ملأى بالاشراك ، ملأى بالمناوشات المجهولة المخوفة ، حيث كان من الرهيب ان يدخل المرء ، ومن الراعب ان يبقى ، حيث ارتعد اولئك الذين دخلوا ، امام اولئك الذين ينتظرونهم ، وحيث ارتجف اولئك الذين انتظروا ، أمام اولئك الذين يوشكون ان يجيئوا .

لقد تمترس مقاتلون غير منظورين عند زاوية من زوايا الشوارع ، واختبأت مكامن القبر في كثافة الليل . لقد قضي الأمر . ولم يكن يُرتجى ان ينطلق من هنالك منذ ذلك الحين إما ضياء غير وميض البنادق ، وإما لقاء إلا مع الموت المفاجيء السريع . اين ؟ كيف؟ متى ؟ إن احداً لم يكن يدري . ولكن ذلك كان امراً ثابتاً ومحتوماً . هناك ، في ذلك الموقع المختار للمعركة كان على الحكومة والثورة ، على الحرس الوطني والجمعيات الشعبية ، على البورجوازية والفتنة ، أن يتحسا سبيلهما في الظلام . فبالنسبة إلى هؤلاء ، وبالنسبة إلى اولئك ، كانت الضرورة واحدة . لم يكن قد بقي أمامهم غير شيء واحد : ان يخرجوا من هناك صرعى أو منتصرين . وضعٌ حرج إلى أبعد الحدود ، وظلمة طاغية إلى أبعد الحدود ، حتى لقد استشعر اجبنهم ان العزم يعمر قلبه ، واستشعر أشجعهم ان الذعر يملأ فؤاده .

وإلى هذا ، فقد استبد بكل من الجانبين قدر متساو من الجيشان ، والعناد ، والعزم . كان التقدم ، بالنسبة إلى هؤلاء ، يعني الموت ، ولم يكن احد ليفكر في التراجع . وكان البقاء ، بالنسبة إلى اولئك ، يعني الموت ، ولم يكن احد ليفكر في الفرار .

كان ضرورياً ان يتقرر كل شيء غداً ، وأن يسير النصر في ركاب هذا الفريق أو ذاك ، وان تصبح حركة التمرد إمّا ثورة وإما مجازفة خاسرة . وادركت الحكومة ذلك ، كما ادركته الاحزاب ، وحتى اصغر البورجوازيين استشعر الأمر . ومن هنا ذلك الشعور بالقلق الذي امتزج بظلمة هذا الحي الكثيفة حيث كان ينبغي ان يتقرر كل شيء . ومن هنا تعاظم الحصر النفسي حول هذا الصمت الذي توشك ان تنبثق منه كارثة. إن صوتاً واحداً ، ليس غير ، كان يُسمع ، صوتاً ممزقاً للقلب مثل حشرجة ، متوعداً مثل لعنة ، هو ناقوس سان ميرّي . ولم يكن شيء ادعى إلى ايقاع القشعريرة في الفؤاد من صيحات هذا الجرس العنيف اليائس المولول في الظلمات .

وكما يقع غالباً فقد بدت الطبيعة وكأنها اقامت انسجاماً بينها وبين ما كان الرجال يعتزمون القيام به . ولم يعكر شيء اتساقات ذلك الكل المأتمية . كانت النجوم قد اختفت ، وكانت سحب ثقيلة قد ملأت الأفق كله بطياتها الكئيبة . كانت ثمة سماء سوداء فوق تلك الشوارع الميتة ، وكأن كفناً هائلا قد انتشر فوق ذلك القبر الهائل .

وفيما كانت معركةٌ سياسية كاملة تتأهب للعمل في ذلك الموقع ذاتـه الذي شهد من قبل كثيراً من الاحداث الثورية ؛ فيما كان الشباب ، والجمعيات السرية ، والمدارس ، باسم المباديء ، والطبقة الوسطى ، باسم المصالح ، تقترب لتتصادم . وتتلاصق ليهزم بعضها بعضاً ؛ فيما كان كلٌ يسرع ويدعو ساعة الازمة الاخيرةَ الحاسمةَ ، بعيداً عن ذلك الحي المشؤوم وخارجه ، في أعمق تجاويف باريس التي لا قرار لهـا ، باريس العتيقة البائسة المختفية تحت زهو باريس السعيدة الموسرة — سُمع صوت الشعب الكالح يزمجر في سره .

صوت رهيب ومقدس ، يتألف من زمجرة البهيمة وكلام الله ؛ صوت يروّع الضعفاء ويحذر الحكماء ؛ صوت ينطلق في الوقت نفسه من ادنى ، مثل زئير الاسد ، ومن اعلى مثل هزيم الرعد .

٣
الحد الاقصى

كان ماريوس قد بلغ الاسواق .

هناك كان كل شيء اكثر هدوءاً ، واكثر غموضاً . واكثر جموداً من الشوارع المجاورة نفسها . كان خليقاً بالمرء ان يقول إن طمأنينة القبر قد انبعثت من الارض وانتشرت في السماء .

ومع ذلك فان وهجاً احمر قصيّاً فوق هذه الخليقة القاتمة ، سطوحَ المنازل العالية التي سدت شارع الـ «شانفريري» من ناحية سان أوستاش. كان ذلك انعكاس الشعلة المضطرمة في متراس كورنث. ووجَّه ماريوس خطاه نحو هذا الوهج ، فقادته إلى سوق السّلق. ولمح فم شـــارع الـ «بريشور» المظلم. ودخله. ولم يلحظه حرس المتمردين القـــائم بالمراقبة عند الطرف الآخر. واستشعر انه كان قريباً جداً مما راح يلتمسه، وانشأ يمشي على رؤوس اصابعه. وعلى هذا النحو ، بلغ منعطف نهاية شارع موندیتور القصيرة التي كانت ، كما نذكر ، نقطة الاتصال الوحيدة التي احتفظ بهـــا آنجولراس مـع الخـارج. وعنـد زاويـة المنزل الاخير ، إلى يساره ، أتلع عنقه. ونظ إلى نهـــاية شـــارع موندیتور هذه.

وبُعيد زاوية الزقاق السوداء وشارع الـ «شانفريري» الذي ألقى ظلا عريضاً وجد نفسه هو دفيناً فيه، لمح ضياء على الرصيف ، بعضاً من حانة ، وخلف ذلك مصباحاً صغيراً يغمز بعينه في شبه حائط شائه ، ورجـالا جاثمين على الارض والبنادق على ركبهم. وكان كل ذلك على مبعدة ستين قدماً منه. كان الجزءَ الداخليَّ من المتراس.

كانت البيوت المحاذية للزقاق الذي إلى يمينه قد حجبت عنه سـائر الحانة ، والمتراس الكبير ، والراية.

ولم يبق على ماريوس غير خطوة واحدة يخطوها.

ثم ان الشاب التعس قعد على حجر. وطوى ذراعيه ، وفـكـــر في أبيـه.

فكر في الكولونيل بونميرسي الباسل ذاك ، الذي كان جندياً أنوفاً جداً ، والذي دافع عن حدود فرنسة في ظل الجمهورية ، وانتهـى إلى حدود آسية في ظل الامبراطورية ، والذي شهد جنوى ، والاسكندرية ، وميلان ، ومدريد ، وتورين ، وفيينا ، ودرسدن ، وبرلين ، وموسكو ؛

والذي خلف فوق كل ميدان من ميادين النصر في اوروبا قطرات من ذلك الدم نفسه الذي يجري في عروقه ، هو ماريوس ؛ والذي اشتعل رأسه شيباً قبل الأوان تحت راية النظام والقيادة ؛ والذي عاش وحمالة سيفه مزررة ، وكتافتاه منحدرتان على صدره ، وشارة قبعته مسودّة بالبارود ، وجبينه مجعد من اثر الخوذة ، في الثكنة ، في المعسكر ، في المعسكر الخلوي ، في عربة الاسعاف ؛ والذي رجع بعد عشرين سنة من الحروب الكبرى وعلى خده ندبة ، وعلى شفتيه ابتسامة ، رجع بسيطاً ، هادئاً ، رائعاً ، طاهراً مثل طفل ، بسبب من انه عمل كل شيء من اجل فرنسة ولم يعمل شيئاً ضدها .

وقال في ذات نفسه ان يومه قد حان ايضاً ، أن ساعته قد دقت آخر الامر ، وأنه بعد أبيه يجب ان يكون ايضاً شجاعاً ، باسلا ، مقداماً ، وان يعدو وسط الرصاص ، وان يعري صدره للحراب ، وان يريق دمه ، وان يلتمس العدوّ ، ويلتمس الموت ، وان عليه ان يشن الحرب بدوره ، وان يقتحم ميدان المعركة ، وان ميدان المعركة الذي يوشك ان يقتحمه هو الشارع ، وان الحرب التي يوشك ان يشنها كانت الحرب الاهلية !

ورأى الحرب الاهلية تفغر فاها أمامه مثل هاوية ، وأدرك انه سوف يسقط في تلك الهاوية .

وعندئذ اصابته رعدة .

لقد فكر في سيف أبيه ذاك الذي باعه جده لاحد المتاجرين بالتحف والذي تأسف عليه هو أوجع التأسف . وقال في ذات نفسه انه سعيد بأن يكون ذلك السيف العفيف الباسل قد ضاع منه وولى مغضباً في الظلام . وانه إذا كان قد فر على هذا النحو فلأنه كان ذكياً ، ولانه تنبأ بالمستقبل . لأن قلبه أشعره بالفتنة قبل وقوعها ، أشعره بحرب السواقي ، حرب الارصفة ، بأطلاق الرصاص من منافذ الكهوف ، بالضربات

تُنزل بالناس ويتلقاها الناس من خلاف . لأنــه وقد اقبـــل مـــن « مارانغو » و « فريدلند » ، فلن يذهب إلى شارع الـ « شانفربري » ، ولأنــه بعد ان عمل ما عمله بيد الأب ، لن يعمل ذلك بيد الابن ! وقال في ذات نفسه : لو ان ذلك السيف كان هناك ، ولو انه كان قد تلقــاه من جانب فراش ابيه الميت وتجرأ على ان يتقلده ويمضي به لهذا الصراع الليلي بـــين الفرنسيين عند زوايا الشوارع ، فليس من ريب في ان ذلك السيف كان خليقاً بأن يحرق يديه ويشتعل أمام ناظريه مثل سيف الملاك ! وقال في ذات نفسه ان من حسن الطالع ان لا يكون هناك وان يكون قد اختفى ؛ ان ذلك كان خيراً ، أن ذلك كان عــدلا ، أن جده كان الحارس الحقيقي لمجد أبيه ، وأن المناداة على ســـيف الكولونيل في المـــزاد العلني ، وبيعــه لمشتري الادوات العتيقة ، ورميه وسط ركام الحـــديـــد القديم افضل من اصطناعه اليوم في تمـــزيـــق اضلاع الوطن .

وعندئذ شرع يبكي بكاء مريراً .

كان ذلك رهيباً . ولكن ما الذي يستطيع ان يعمله ؟ أن يعيش من غير كوزيت ، — ذلك ما لم يكن بقادر عليه . وما دامت قـد مضت لسبيلها ، فـلا ريب في ان عليه ان يموت . ألم يعدها وعد شرف بأنه سوف يموت ؟ لقــد مضت لسبيلها وهي تعلم ذلك ، وإذن فانه ليسرها ان يموت ماريوس . وإلى هـــذا فقد كان واضحــاً أنها ما عادت تحبه ، بعد ان ولت على هـــذه الصورة ، من غير ان تحيطه علماً ، من غير كلمة ، من غير رسالة ، وهي تعرف عنوانه ! اي فائدة ترجى من الحياة ولمَ يعيش بعد ؟ ولكن أيكون قد انتهــى ، حقاً ، إلى هذا الحد ، ثم يرتدّ ! ايكون قد اقترب من الخطر ثم يفر ! ايكون قد اقبل ونظر إلى داخل المتراس ثم ينسلّ هارباً ! ينسل مرتعد الاوصال قائلا : « في

* معركتان شهيرتان سبق التعريف بهما .

الواقع لقد شبعت من ذلك ، لقد رأيت ، هذا كاف ، انهـــا حرب اهلية ، انا ماض لسبيلي ! » أيتخلى عن اصدقائه الذين كانوا ينتظرونه! الذين كانوا حفنة ضد جيش ! أيخفق في جميـع الاشياء دفعة واحدة ، في حبه ، في صداقته ، في وعده ! أيخلع على جبنه رداء الوطنية ! لا، إن هذا مستحيل ، ولو ان طيف والده كان هناك في الظل ورآه يتراجع اذن لضربه بعرض سيفه وصاح في وجهه : « تقدم ، ايها الجبان ! »

وخفض رأسه وقد استبد به اضطراب أفكاره وتذبذبها .

وفجأة ، تصدّر. كان ضرب من التقويم الرائع قد دب في روحه . ولقد عرف امتداداً فكرياً ملائمـاً لجوار القبر ، فقربُ المرء من الموت يفتح عينيه على الحقيقة . ولم يعد العمل الذي استشعر انه ربمـا كان على وشك القيام به ليبدو له محزناً ، بل بهياً . وبمخاض من مخاضات النفس الداخلية المجهولة اتخذت حرب الشوارع ، فجـأة ، شكلا جديداً رفيعاً أمام ناظري عقله . وعاودت تطويقه جميـع علامات الاستفهام الصخابة التي ينطوي عليها الاستغراق في التفكير ، ولكن من غير ان تقلقه . إنه لم يغادر اياً منها بدون جواب .

فلنر ما الذي يثير سخط أبيه ؟ اليس ثمـة أحوال يرتقي فيهـــا العصيان إلى مرتبة الواجب ؟ وإذن فما الذي ينتقص من قدر ابن الكولونيل بونمرسي في الصراع الموشك ان ينشب ؟ إنها لم تعد لا « مونميراي» * ولا « شامبوبير » ** إنها شيء آخر . إنها لم تعد مسألة منطقة مقدسة ، ولكنها مسألة فكرة مقدسة . الوطن يتشكى ، لا بأس ، ولكن الانسانية تصفق . وإلى هذا ، فهل صحيـح ان الوطن ينوح ؟ ان فرنسة يقطر الدم من جراحها ، ولكن الحرية تبتسم ، وامام ابتسامة الحرية تنسى

* Montmirail ، حيث هزم نابوليون الاول الروس والبروسيين في ١١ و١٢ شباط ١٨١٤

** Champaubert حيث تغلب نابوليون الاول على الروس بقيادة الجنرال اولسوفييف ، في ١٠ شباط ١٨١٤

فرنسة جرحها . وفوق ذلك ، إذا نظرنا إلى المسألة من موطن اعلى ، فما الذي يجعل الناس يتحدثون عن الحرب الاهلية ؟

الحرب الاهلية ؟ ما معنى ذلك ؟ وهل توجد حرب أجنبية ؟ اليست كل حرب بين الناس حرباً بين أخوة ؟ إن الحرب يجب ان لا توصف إلا على اساس من غايتها . فليس هناك لا حرب اجنبية ، ولا حرب أهلية . هناك حرب ظالمة وحرب عادلة ليس غير . وحتى ذلك اليوم الذي تُعقد فيه المعاهدة الانسانية الكبرى فان الحرب — أو على الاقل تلك التي هي نضال المستقبل المستعجل ضد الماضي المتخلف — قد تكون ضرورية . وايّ اعتراض يمكن ان يوجّه إلى مثل هذه الحرب ؟ إن الحرب لا تصبح عاراً ، والسيف لا يصبح خنجراً إلا عندما يريقان دم الحق ، والتقدم ، والعقل ، والحضارة . عندئذ تكون الحرب — اهلية كانت أو اجنبية — باغية ، وعندئذ يكون اسمها جريمة . وخارج ذلك الشيء المقدس ، العدالة ، بأي حق يزدري شكل من اشكال الحرب شكلا ؟ بأي حق يجحد واشنطون حربة كاميل ديمولين ؟ وايّ أعظم : ليونيداس * في وجه الاجنبي ، ام تيموليون ** في وجه الطاغية ؟ احدهما هو المدافع ، وثانيهما هو المحرر . أنستهجن ، من غير ان نزعج انفسنا بالتساؤل عن الهدف ، كل لجوء إلى السلاح في داخل المدينة ؟ إذن فلنجلبب بالعار كلا من بروتوس ، ومارسيل *** ، وآرنولد اوف

---

* Léonidas ليونيداس الاول ، ملك اسبارطة من عام ٤٩٠ الى عام ٤٨٠ قبل الميلاد وهو بطل موقعة تيرموبيل حيث دافع عن بلاده ضد المغيرين من الفرس ، وقضى نحبه مع ثلاثمئة من الاسبارطيين .

** Témoléon رجل دولة اغريقي ، حرر سرقوسة ، وكان محباً للقانون والحرية الى حد جعله يترك اثنين من اصدقائه يقتلان اخاه تيموفان Timophane المتهم بأنه كان يحاول ان يجعل من نفسه ديكتاتوراً طاغية .

*** Etienne Marcel رئيس تجار باريس ، وقد لعب دورا هاماً في مجلس وكلاء المملكة او مجلس الطبقات Etats généraux من عام ١٣٥٥ الى عام ١٣٥٧ وعارض اشد المعارضة ولي العهد

بلانكنهايم ، وكولوني * . حرب الادغال ؟ حرب الشوارع ؟ ولم لا ؟ إنها حرب آمبيوريكس ** ، حرب آرتافيلد *** ، حرب مارنيكس **** ، حرب بيلاجيوس ***** . ولكن آمبيوريكس قاتل ضد رومة ، وآرتافيلد قاتل ضد فرنسة ، ومارنيكس قاتل ضد اسبانية ، وبيلاجيوس قاتل ضد المسلمين . كلهم قاتلوا ضد الاجنبي . حسن ، الملكية هي الاجنبي ؛ الاضطهاد هو الاجنبي ؛ الحق الآلهي هو الاجنبي . إن الاستبداد ينتهك حرمة الحدود الاخلاقية كما ينتهك الغزو حرمة الحدود الجغرافية . وطردك الطاغية أو طردك الانكليز يعني في الحالين ان تسترد بلادك . فقد تأتي ساعة ينتهي فيها الاحتجاج إلى ان يصبح غير كاف . وبعد الفلسفة ، يجب ان يُلجأ إلى العمل ،

شارل (الذي اسمى فيما بعد شارل الخامس) وقتل في عام ١٣٥٨ بيدجان مايار Maillard لحظة كان ماضياً ليسلم باريس الى شارل الرديء ، ملك نافار . وكان قد حاول ان يقيم في فرنسة حكومة برلمانية .

* Cologny الاميرال غاسبار دو كولوني ، زعيم البروتستانت الفرنسيين ، وكان قائداً عظيما قضى نحبه في مذبحة القديس بارتلماوس وقد سبق التعريف به (١٥١٩ – ١٥٧٢)

** Ambiorix ملك « الايبرون » وهم قوم من الغاليين ، وقد حاول ان يمبربلاد غالة (فرنسة) والبلجيك يوم كان قيصر في انكلترة . وقد هزمه قيصر في ما بعد ، ولكنه نجا من الوقوع في يديه (عام ٥٤ قبل الميلاد) .

*** Arteveide صانع جعة وعمدة بلدة غان Gand وقدتزعم جماعات الفلامنديين الثائرين ضدفرنسة وقضى نحبه في احدى الفتن . وتتجلى عظمته في انه سعى الى ان يحقق منذ القرن الرابع عشر اتحاد المناطق المترامية الاطراف التي تشكل اليوم دولة البلجيك (١٣٤٥)

**** Marnix أديب وديبلوماسي ، ولد في بروكسل وتوفي في لايدن (١٥٣٨ – ١٥٩٨) وقد عاون وليم اوف اورانج في صراعه ضد الاسبان . وهو ناظم النشيد الوطني الموسوم بالـ *Wilhelmuslied* .

***** Pélge احد ملوك أشتوريش ، ومؤسس المملكة الاسبانية ، وقد خاض عدة معارك ضد العرب (٧١٩ – ٧٣٧) .

فاليد القوية تتم ما رسمته الفكرة . إن « بروميثيوس مقيداً » * تبدأ ، وإن آريستوجيتون ** يتم . « الآنسيكلوبيديا » *** تنوّر النفوس ، والعاشر من آب يكهربها . فبعد آشيلوس **** يجيء ثراسيبولوس ***** وبعد ديدرو يجيء دانتون . إن عند الجماهير لنزعة إلى ان تتقبل سيداً . ومجموعها يركد بالخمول . إن الغوغاء تحشد نفسها في سهولة تحت راية العبودية . والناس ينبغي ان يستثاروا ، ان يُدفعوا ، ان يُهزوا بفوائد انقاذهم نفسها ، ان تُجرح اعينهم بالحق ، وان يُقذف اليهم النور في حفنات رهيبة . يجب ان يُصعقوا قليلا لمصلحتهم هم ، فهذا الجهسر يوقظهم . ومن هنا الحاجة إلى نواقيس الخطر ، وإلى الحروب. إن الحروب العظيمة يجب ان تنشب ، أن تنور الشعوب بالجراءة ، وان تهز هذه الانسانية الحزينة التي يجللها ، بالظلمة ، الحقّ الالـهي ، والمجد القيصري ، والقوة والتعصب ، والسلطان غير المسؤول ، والسيطرة المطلقة ؛ غوغاء منهمكة في بلاهة بالتحديق ، في بهائها الغسقي ، إلى انتصارات الليل المظلمة تلك . فليسقط الطاغية ! ولكن ماذا ؟ عمن تتكلم ؟ هل تدعو لويس فيليب

---

* Prométhée enchainé مأساة لأشيلوس ، وهي اثر ادبي رائع حافل بالوحات الفنائية البارعة ، حيث يجعل الشاعر من بروميثيوس المثل الالـهي للانسانية . لقد قاوم الاشراك التي نصبها له مبعوثو « زيوس » ولم يستطع شيء ما ، ان يكسر من شوكة كبريائه او ان ينتزع منه سره (حوالي القرن الخامس قبل الميلاد) .

** Aristogiton صديق هارموديوس ، وهو اثيني تآمر معه ضد ابني بيزيسترات — هيبارك وهيبياس — (٥١٤ قبل الميلاد) وقد قتل الصديقان هيبارك .

*** يقصد الانسيكلوبيديا التي وضعها قبيل الثورة الفرنسية نفر من فلاسفة فرنسة ومفكريها ، ابرزهم ديدرو وفولتير وروسو ومونتيسكيو .

**** Eschyle ابو التراجيديا اليونانية (٥٢٥ — ٤٥٦ ق.م) ويعتبر واحداً من اعظم الشعراء الذين عرفتهم الانسانية ، وقد سبق التعريف به .

***** Thrasybule جنرال اثيني استطاع بمساعدة قوات « طيبة » ان يطرد اعضاء المجلس الذي فرضه الاسبارطيون على الاثينيين . وقد وفق الى ذلك عام ٤٠٤ ق.م. وكانت وفاته عام ٣٨٨ ق.م.

طاغية ؟ لا ، ليس اكثر من لويس السادس عشر . ان كلا منهما كان يمثل ما تعوّد التاريخ ان يدعوه ملكاً صالحاً . ولكن المبادىء لا تتجزأ ، ومنطق « الحقيقي » مستقيم ، وخاصةُ الحق أنه تعوزه المجاملة . لا تسوية ، اذن . فكل جور على الانسان يجب ان يُكبح . هناك حق الٓهي في لويس السادس عشر . هناك « لأنه بوربوني » في لويس فيليب . إن كلا منهما يمثل ، إلى حد ما ، مصادرة الحق ؛ ولكي يُمسَح الاغتصاب الشامل ، ينبغي أن يحارَبا . ينبغي ؛ وهنا تكون فرنسة هي التي تبدأ دائماً . وحين يسقط السيد في فرنسة ، يسقط في كل مكان . وبالاختصار ، فأية قضية أعدل ، وبالتالي أية حرب اسمى من اقامة الحق الاجتماعي ، واعادة الحرية إلى عرشها ، واعادة الشعب إلى الشعب ، واعادة السيادة إلى الانسان ، وإرجاع الارجوان إلى رأس فرنسة ، وإحياء العقل والعدالة في كمالها ، وقمع كل جرثومة من جراثيم الخصومة بردّ كل امرىء إلى نفسه ، وازاحة العقبة التي تقيمها الملكية في سبيل الوفاق الكوني الهائل ، ورفع المستوى البشري كرة اخرى الى مستوى الحق ؟ هذه الحروب تنشىء السلم . ان قلعة ضخمة من الاهواء ، والامتيازات ، والخرافات ، والاكاذيب ، والمظالم ، وضروب التعسف ، والعنف ، والبغي ، والظلام ، لا تزال تتحدى العالم بابراجها التي هي ابراج البغض . ان هذه القلعة يجب ان تُدكّ . هذا الركام الرهيب يجب ان يقوّض . إن الانتصار في اوسترليتز شيء عظيم . وان الاستيلاء على الباستيل شيء هائل .

ليس ثمّة شخص لم يلحظ هذا في ذات نفسه : أن للنفس – وتلك اعجوبة وحدتها المعقدة وكلية وجودها – مقدرة بارعة على ان تفكر تفكيراً يكاد يكون بارداً في الشدائد الموئسة إلى أقصى الحدود . وكثيراً ما يتفق ان تعمد العاطفة المحزونة واليأس العميق ، حتى في آلام مناجاتهما الاشد قتاماً ، إلى درس الموضوعات ، ومناقشة الفكرات . إن المنطق ليمتزج بالتشنج ،

وان خيطاً من قياس منطقي ليطفو غير منقطع في عاصفة الفكر الكئيبة . تلك كانت حالة ماريوس الذهنية .

وحتى وهو يفكر على هذا النحو ، مرهقاً ولكن مصمماً ، متردداً مع ذلك ، مرتعداً امام ما كان يوشك ان يقدم عليه ، تاهت عينه مطوفةً في داخل المتراس . كان المتمردون يتحدثون في همس ، من غير ان يتحركوا ، وكان المرء يستشعر ثمة شبه الصمت ذاك الذي يطبع آخر مرحلة من مراحل الانتظار . وفوقهم ، وعند كوة في طابق ثالث ، تبين ماريوس شبه شاهد أو رقيب بدا له شديد الانتباه على نحو فريد . كان هو البواب الذي قتله « لو كابوك » . ومن ادنى ، وعلى ضوء الشعلة المخبوءة بين حجارة الرصيف ، كان ذلك الرأس يُرى على نحو باهت . ولم يكن ثمة ما هو اغرب ، في ذلك الضوء القاتم المتردد ، من ذلك الوجه الشاحب ، الجامد ، المندهش ، بشعره الشائك ، وعينيه المحدقين ، وفمه الفاغر ، منحنياً فوق الشارع في فضول . لقد كان خليقاً بالمرء ان يقول إن ذلك الذي كان ميتاً إنما يحدق إلى اولئك الذين يوشكون ان يموتوا . كان خط طويل من الدم الذي جرى من رأسه قد سقط في قطرات مشربة بالحمرة من النافذة إلى اعلى الطابق الاول حيث انقطع .

الكتاب الرابع عشر

عظمة اليأس

١

الراية : الفصل الأول

ولم يكن أحد قد أقبل . كانت ساعة سان ميرّي قد اعلنت العاشرة ، وكان آنجولراس وكومبوفير قد جلسا ، وفي يد كل منهما بندقيته القصيرة الخفيفة ، قرب فتحة المتراس الكبير . ولم يكونا يتكلمان ؛ كانا يصغيان ، محاولين ان يتصيدا ولو انأى وأخفت صدى من اصداء الزحف .

وفجأة ، وسط هذا الهدوء الحدادي ، انبعث صوت واضح ، غض ، مرح ، بدا وكأنه مقبل من شارع سان دونيز ، وبدأ يغني في وضوح

على اللحن الشعبي القديم « في ضوء القمر » Au clair de la lune هذه الابيات التي تنتهي بضرب من الصرخة يشبه صياح الديك :

إن انفي يذرف الدمع
يا صديقي بوغو ،
أعرني اسنتك
حتى اقول لها كلمة .
في ثوب عسكري ازرق ،
وقلنسوة مريشة
مي ذي الضاحية !
كو – كو كو ريكو !

وشبك كل منهما يده بيد الآخر .

وقال آنجولراس :

– « إنه غافروش . »

فأجابه كومبوفير :

– « إنه يحذرنا . »

ورنق الشارعَ المقفر ركض عاجل . ورأى القوم مخلوقاً ارشق من مهرج يمتطي متن العربة العمومية ، ورأوا غافروش يثب إلى المتراس لاهثاً وهو يقول :

– « بندقيتي ! ها هم ! »

وسرت رعدة كهربائية في أوصال المتراس كله ، وسُمعت حركة أيد تتلمس البنادق .

وقال آنجولراس للمتشرد :

– « اتريد بندقيتي الخفيفة ؟ »

فأجابه غافروش :

– « اريد البندقية الكبيرة . »

واخذ بندقية جافير .

كان اثنان من الحرس قد انكفآ ، وانتهيا إلى المتراس لحظة بلغه غافروش تقريباً . كانا الحارسَ القائم عند اقصى الشارع والرقيبَ العامل في الـ « بيتي تروواندري » . أما رقيب زقاق الـ « بريشور » فلم يفارق مركزه ، مما دل على ان أحداً لم يكن مقبلا من ناحية الجسور والاسواق .

وتراءى شارع الـ « شانفريري » ، حيث كانت بعض حجارة الارصفة تبدو باهتة بانعكاس الضوء الملقى على الراية — تراءى ذلك الشارع امام اعين المتمرديق وكأنه باب اسود ضخم منفتح في سحابة من دخان .

كان كل امريء قد اتخذ موقعه للقتال .

كان ثلاثة واربعون متمرداً — بينهم آنجولراس ، وكومبوفير ، وكورفيراك ، وبوسوويه ، وجولي ، وباهوريل ، وغافروش — راكعين على ركبهم في المتراس الكبير ، ورؤوسهم على مستوى قمة الجدار ، وانابيب بنادقهم وبنادقهم الخفيفة مسددة فوق ارصفة الشوارع وكأنها تعمل من خلال كوى مفتوحة في الحصون ، وقد غلب عليهم الانتباه الشديد ، واستبد بهم الصمت ، واستعدوا لاطلاق النار . وكان ستة نفر ، بقيادة فويي ، قد تمركزوا ، متنكبين بنادقهم ، في نوافذ الدورين العلويين من كورنث :

وتصرمت بضع لحظات اخرى ، ثم سُمع في وضوح من ناحية « سان ليو » وقع اقدام ، موزونة ، ثقيلة ، عديدة . واقترب هذا الوقع — الذي كان خافتاً اول الامر ، ثم متميزاً ثم ثقيلاً ومرناناً — اقترب هذا الوقع شيئاً فشيئاً من غير توقف ، من غير مقاطعة ، وفي اتصال هادىء وفظيع . ولم يُسمع شيء غير هذا . كان في آن معاً صمت « تمثال القائد » وصوته ، ولكن هذه الخطوة الحجرية كانت هائلة

ومتعددة إلى حد لا يوصف حتى لقد اثارت في الاذهان فكرة الكتلة البشرية وفكرة الشبح في وقت واحد . ولقد كان خليقاً بالمرء ان يحسب انه سمع خطى « تمثال الليجيون » * المروّع . واقتربت تلك الخطوة . واقتربت اكثر ، ثم توقفت . لقد بدا للمرء وكأنه يسمع عند اقصى الشارع انفاس جمهرة من الناس . ومع ذلك ، فلم يروا شيئاً . بيد أنهم اكتشفوا عند ابعد نقطة في الشارع ، في تلك الظلمة الكثيفة ، مجموعة من الخيوط المعدنية ، دقيقة كالابر فهي لا تكاد تُلحظ ، تختلج مثل تلك الشبكات الفوصفورية الممتنعة على الوصف والتي نلمحها تحت اجفاننا المغمضة لحظة نمضي إلى النوم ، عندما يطلق السبات ضبابه الأول . كانت حراباً وانابيب بنادق اضيئت على نحو باهت بانعكاس الشعلة القصي .

كانت ثمة وقفة اخرى ، فكأن القوم في كلتا الناحيتين كانوا ينتظرون . وفجأة ، ومن اعماق ذلك الظلام ، صاح صوت تعاظم شؤمه بسبب من ان احداً لم يكن ليرى احداً وبسبب من أنه بدا وكأن الظلمة نفسها كانت تتكلم :

— « مَن هناك ؟ »

وفي الوقت نفسه سُمعت قرقعة البنادق المسددة .

وأجاب آنجولراس في جرس متغطرس مُرِنّ :

— « الثورة الفرنسية ! »

وقال الصوت :

— « النار ! »

والتمع برق خضّبَ بالارجوان جميع واجهات الشارع ، لكأن باب فرن قد فُتح ثم أوصد فجأة .

وانفجر دوي رهيب فوق المتراس . وسقطت الراية الحمراء . كان

* الليجيون Légion اسم كان يطلق على بعض فرق الجند في فرنسة .

وابل الطلقــات ثقيلا جـــداً ، وكثيفاً جداً ، بحيث كسر ساريتها : يعني طرف عريش العربة العامة نفسه . ودخلت المتراس بضع قذائف كانت قد ارتدت عن افاريز المنازل . وجرحت عدة رجال .

كانت الانطباعة التي أوقعها هذا الوابل الأول في نفوس القوم انطباعة راعبة . كان الهجوم مخوفاً ، وذا طبيعة تحمل اكثر الناس شجاعة على التفكير . وكان واضحــاً انه كان عليهم ان يواجهوا كتيبة كاملة على الاقل .

وصاح كورفيراك :

— « ايها الرفاق ، لا تفرطوا بالبارود . فلنرجيء الأجابة إلى حين يدخلون الشارع . »

وقال آنجولراس :

— « وقبل كل شيء ، فلنرفع الراية مرة اخرى ! »

وتناول الراية التي كانت قد سقطت على قدميه نفسيهما .

ومن خارج ، سمعوا قعقعة القثاثات في البنادق . كان الجنود يعيدون شحن الاسلحــة .

وتابــع آنجولراس :

— « من يملك قلباً شجاعاً هنا ؟ من الذي سوف ينصب الراية من جديد ، فوق المتراس ؟ »

ولم يجب احد . فقد كان ارتقاء المتراس لحظــة لم يكن شك في ان الجند سوف يصوبون النار اليه كرة اخرى ، هو الموت بعينه . إن اشجع الناس ليتردد في الحكم على نفسه بالموت . واستشعر آنجولراس نفسُــه رعدة . وكرر :

— « اليس هناك متطوع واحد ؟ »

٢
الراية : الفصل الثاني

إن احداً لم يكد يلقي اي ما انتباه إلى الاب مابوف منذ ان وصلوا إلى كورنث وبدأوا في إقامة المتراس . ومع ذلك ، فان مسيو مابوف لم يفارق الجماعة . كان قد دخل الدور الارضي من الحانة وجلس خلف منضدة المحاسبة . وهناك كان – إذا جاز التعبير – قد فني في ذاته . لقد بدا وكأنه لم يعد ينظر أو يفكر . ومرتين أو ثلاث مرات كان كورفيراك وغيره قد اقتربوا منه ، ليحذروه من الخطر ، ويحضوه على الانسحاب ، وكأنه لم يسمعهم . وحين كانوا يكفون عن توجيه الكلام اليه ، كانت شفتاه تتحركان وكأنهما تجيبان شخصاً ما . حتى إذا وُجهت اليه كلمة ما ، سكنت شفتاه ، وفقدت عيناه كل مظهر من مظاهر الحياة . وقبل بضع ساعات من الهجوم على المتراس ، كان قد اتخذ مكاناً لم يفارقه منذ تلك اللحظة ، ويداه على ركبتيه ، ورأسه منكّس وكأنه كان يحدق إلى هاوية . ولم يستطع شيء أن ينتزعه من هذا الوضع . لقد بدا وكأن ذهنه لم يكن في المتراس . وحين مضى كل امرىء واتخذ موقعه استعداداً للقتال ، لم يكن في الحجرة السفلى غير جافير موثقاً إلى الوتد ، وأحد المتمردين شاهرٌ السيف مراقباً جافير ، وهو – مابوف . ولحظة الهجوم ، حين انفجر وابل الطلقات ، بلغته الهزة الجسدية فأيقظته أو بدت وكأنها ايقظته . فنهض فجأة ، واجتاز الغرفة . وفي اللحظة التي كرر آنجولراس فيها نداءه : « اليس هناك متطوع واحد ؟» شوهد العجوز على عتبة الحانة .

واحدث ظهوره شبه هزة في الجماعة . وارتفعت صيحة :

— « إنـه المقترع ! إنـه عضو المؤتمر الوطني ! إنه ممثل الشعب ! »
ومن المحتمل ان يكون العجوز لم يسمع ذلك .

ومضى قدماً نحو آنجولراس ، وتراجـع المتمردون أمامه في خشية تقوية ، وانتزع الراية من آنجولراس الذي انكـفأ متحجراً ، وعندئذ شرع هذا العجوز الثمانيني ، بعد ان لم يجرؤ احد على ايقافه ، أو مساعدته — شرع يرتقي في بطء ، مرتعش الرأس ولكن ثابت القدم، تلك السلم المبنية من حجارة الارصفة والمؤدية إلى المتراس . وكان ذلك قاتماً جداً ، وجليلا جداً ، حتى لقد صاح كل من حوله : « ارفعوا قبعاتكم ! » وكان ارتقاؤه كل درجة من درجات السلم رهيباً . وانبثق شعره الاشيب ، ووجهه الهرم ، وجبينه العريض الاصلع المتغضن ، وعيناه الغائرتان ، وفمه الفاغر المرتجف ، وذراعه العجوز ترفع الرايـة الحمراء — انبثق ذلك كله من الظلام ، وأمسى جليلا في ضياء الشعلة الدامي ، وتراءى لهم أنهم يرون شبـح عام ٩٣ ينبجس من الارض ، وفي يده راية الارهاب .

وحين انتهـى إلى اعلى الدرجة الاخيرة ، حين نهض ذلك الطيف المرتعد القظيـع واقفاً فوق ركام الانقاض امام الف ومئتي بندقية غير منظورة ، في وجه الموت ، وكأنه كان اقوى منه ، اتخذ المتراس كلـه في غمرة من الظلام مظهراً خارقاً هائلا .

وران صمت من تلك الصموت التي لا ترين إلا في حضرة المعجزات.

ووسط هذا الصمت لوّح العجوز بالراية الحمراء ، وصاح :

— « فلتحي الثورة ! فلتحي الجمهورية ! الاخاء ! المسـاواة ! والموت ! »

وسمعوا من المتراس همهمة خفيضة وسريعة مثل همس كاهن مستعجل ينجز صلاة . ولعل ذلك الصوت كان صوت مفوض الشرطة الذي كان يجري الاخطار الرسمي في الطرف الآخر من الشارع .

ثم ان الصوت المرنّ الذي سبق له ان صرخ : « مَن هناك ؟ » صـاح :

— « تراجعوا ! »

ورفـع مسيو مابوف ، شاحب الوجـه ، زائغ البصر ، ملتمـع العينين بلهب الجنون الفاجـع — رفـع الراية فوق رأسه وكـرر :

— « فلتحي الجمهورية ! »

وقال الصوت :

— « النار ! »

وانقضّ على المتراس وابل جديد اشبه ما يكون بوابل من قذائف المـدفعيـة .

وخر العجوز على ركبتيه ، ثم نهض ، وترك الراية تقع ، وسقط إلى الوراء فوق الرصيف ، مثـل لوح خشبـي ، على طوله كلـه ، متصالبَ الذراعين .

وجرت سيول من الدم من تحته . وبدا وجهه العجوز ، الشـاحب المحزون ، وكأنه ينظر إلى السماء .

واستبدت بالمتمردين احدى تلك العواطف المتفوقـة على الانسان ، والتي تجعلنا ننسى الدفاع حتى عن انفسنا ، واقتربوا من الجثة في ذعر يرشح بالاحترام .

وقال آنجولراس :

— « اي رجال هم قاتلو الملوك هؤلاء ! »

وانحنى كورفيراك فوق اذن آنجولراس :

— « هذا من اجلك فقط ، فأنا لا اريد أن أضعِف من الحماسة . ولكنه لم يكن من قتلة الملوك قط . انا اعرفه . انه يدعى مسيو مابوف . ولست ادري ما الذي أصابـه اليوم . ولكنه كان أبله شجاعـاً . انظر إلى رأسه . »

فأجاب آنجولراس :

– « رأس ابله وقلب بروتوس . »

ثم إنه رفع صوته :

– « ايها المواطنون ! هذا هو المثل الذي يضربه الشيوخ للشبان . لقد ترددنا ، أما هو فتقدم . وتراجعنا أما هو فأقدم ! انظروا اي شيء يلقنه اولئك المرتجفون بالشيخوخة لاولئك المرتجفين بالخوف ! إن هذا الجد لمبجل في نظر الوطن . لقد عاش حياة طويلة ومات موتاً رائعاً ! فلنحم ، الآن ، جثمانه ! وليدافع كل امرىء عن هذا العجوز الميت كما يدافع عن ابيه الحي ، وليكن في وجوده بيننا ما يجعل المتراس أمنع من عقاب الجو ! »

وتبعت هذه الكلمات همهمة من الرضا القاتم المصمم .

وانحنى آنجولراس ، ورفع رأس الرجل العجوز ، وفي ضراوة طبع على جبينه قبلة ، ثم فصل ما بين ذراعيه ، وأمسك برأسه في عناية رفيقة ، وكأنما كان يخشى ان يؤذيه ، ونزع سترته ، وأطلع القوم كلهم على الثقوب الدامية ، وقال :

– « هو ذا علّمنا بعد الآن ! »

٣
كان من الخير لغافروش ان يقبل بندقية آنجولراس الخفيفة

ونشروا فوق جثمان الأب مابوف شالاً طويلا أسود خاصاً بالارملة هوشلو . واتخذ ستة رجال من بنادقهم حمالة ، ووضعوا الجثمان عليها ،

ونقلوه ، حاسري الرؤوس ، في بطء احتفالي ، إلى المائدة الكبرى في الحجرة السفلية .

إن هؤلاء الرجال ، المستغرقين استغراقاً كلياً في المهمة الخطيرة المقدسة التي كانوا يؤدونها ، لم يعودوا يفكرون في الحالة الخطرة التي كانت تحيط بهم .

وحين امست الجثة على مقربة من جافير ، الذي كان ثابت الجنان ابداً ، قال آنجولراس للجاسوس :

— « انت ! في الحال ! »

وفي اثناء ذلك اعتقد غافروش — وكان الوحيد الذي لم يفارق مركزه والذي ظل يقوم بواجب المراقبة — انه شاهد نفراً من الرجال يقتربون من المتراس خلسة . وفجأة صاح :

— « احذروا ! »

وفي صخب ، فارق الحانة كل من كورفيراك ، وآنجولراس ، وجان بروفير ، وكومبوفير ، وجولي ، وباهوريل ، وبوسوويه . ولم يكن ثمة لحظة تضاع . ولمحوا كثافة متلألاة من الحراب تتموج فوق المتراس . لقد تسربت جماعة من الحرس البلدي ذوي القامة الطويلة ، بعضهم من طريق الوثوب فوق العربة العمومية ، وبعضهم من طريق الفتحة ، دافعين امامهم « المتشرد » الذي تراجع ، ولكنه لم يفر .

كانت اللحظة حرجة . كانت لحظة الطوفان الرهيبة الأولى ، عندما يرتفع النهر إلى مستوى الضفة ، وعندما تشرع المياه تتسرب من خلال صدوع السد . وبعد ثانية ليس غير ، كان المتراس قد سقط في ايدي الجند .

ووثب باهوريل على اول متسلل من رجال الحرس ، وقتله بانبوب غدارته نفسه . فما كان من الثاني إلا ان قتل باهوريل بحربته . وكان آخر قد هزم كورفيراك الذي راح يصيح : « النجدة ! » . واندفع

اضخم الجماعة ، وكان اشبه بعملاق من العمالقة ، نحو غافروش مسدداً حربته اليه . فتناول « المتشرد » بندقية جافير الضخمة بذراعيه الصغيرتين ، وسددها في تصميم إلى العملاق ، وضغط على الزناد . ولم ينطلق شيء . ذلك ان جافير لم يكن قد شحن بندقيته . وانفجر الحرس الوطني في ضحكة مدوية ، ورفع حربته فوق رأس الطفل .

وقبل ان تمس الحربة رأس غافروش سقطت البندقية من يدي الجندي، فقد اصابت الحرس الوطني قذيفة في وسط الجبين ، وخر على ظهره . واصابت قذيفة اخرى الحرس البلدي الآخر ، الذي كان قد انقض على كورفيراك — اصابته في صميم صدره ، وطرحته على الرصيف .

كان ذلك هو ماريوس ، الذي دخل المتراس منذ لحظة .

٤

برميل البارود الصغير

كان ماريوس ، المختبئ حتى ذلك الحين عند زاوية شارع مونديتور ، قد راقب المرحلة الاولى من الصراع ، متردداً مرتعشاً . ومع ذلك ، فانه لم يستطع ان يقاوم طويلا ذلك الدوار الغريب القاهر الذي نستطيع ان ندعوه نداء الهوة . وأمام وشك الخطر ، وأمام موت مسيو مابوف ، ذلك اللغز المأتمي ، وأمام باهوريل القتيل ، وكورفيراك الصائح « النجدة ! » ، وامام ذلك الطفل المهدد ، وامام اصدقائه الذين كان عليهم أن ينجدوه او يثأروا له — أمام هذا كله تلاشى التردد جميعه ، فاندفع نحو المعترك ، وفي يديه غدارتاه . وبالرصاصة الأولى انقذ غافروش ، وبالرصاصة الثانية خلص كورفيراك .

ولدى انطلاق الرصاصتين ، وصيحات رجلي الحرس الجريحين ، تسلق المتمردون المتراس ، الذي كان في استطاعة القوم الآن ان يروا فوق قمته كيف احتشد جماعات من الحرس البلدي والجند والمشاة ، وحرس الضواحي الوطني ، وانتصبوا فبدا من كل منهم اكثر من نصف قامته ، وبندقيته في يده . كانوا قد غطوا اكثر من ثلثي الجدار، ولكنهم لم يثبوا إلى السور ، لقد بدوا مترددين ، يخشون شركاً ما . ونظروا إلى المتراس المظلم كما ينظر المرء إلى عرين آساد . ولم يضىء نور الشعلة غير حرابهم ، وقبعاتهم الوبرية والجزء الاعلى من وجوههم القلقة المغضبة .

ولم يكن مع ماريوس سلاح ما . كان قد طرح غدارتيه المفرغتين ، ولكنه كان قد لاحظ برميل البارود الصغير في الحجرة السفلى قرب الباب .

وفيما هو يستدير نصف استدارة ، ناظراً في تلك الناحية ، سدد جندي سلاحه اليه . ولحظة اتخذ الجندي من ماريوس هدفاً له ، انقضت يد على انبوب البندقية ، وسدته . كان شخصاً وثب إلى أمام ، هو العامل الشاب ذو البنطلون المخملي . وانطلقت الرصاصة ، واخترقت اليد ، ولعلها ان تكون قد اخترقت العامل ايضاً فقد خر على الارض ، ولكن الرصاصة لم تبلغ ماريوس . وانما كان ذلك كله في غمرة من الدخان ، ومن هنا حزره القوم حزراً اكثر مما رأوه رؤية . وبشق النفس لاحظه ماريوس الذي كان يدخل الحجرة السفلى . ومع ذلك فقد كان قد لمح على نحو باهت تلك البندقية المسددة اليه ، وتلك اليد التي سدتها ، وكان قد سمع الطلق . ولكن في مثل تلك اللحظات تتذبذب الاشياء التي نراها وتندفع إلى أمام ، ولا نقف نحن من اجل شيء . إننا نستشعر على نحو غامض اننا مدفوعون إلى ظلمة اشد وأعمق ، وان كل شيء من حولنا ضباب .

وكان المتمردون قد جمعوا شملهم ، منذهلين ولكن غير مروعين . وكان آنجولراس قد صاح : « انتظروا ! لا تطلقوا النار كيفما اتفق ! » والواقع ان بعضهم كان خليقاً بـه ان يصيب بعضهم الآخر في غمرة الاضطراب الاول هـذه . وكان معظمهم قـد صعدوا إلى نافذة الطابق الثاني وإلى نوافذ العلية ، حيث اطلوا على المغيرين . وكان اشدهم تصميماً قـد اسندوا ظهورهم ، مـع آنجولراس ، وكورفيراك ، وجان بروفير ، وكومبوفير ، إلى البيوت الخلفية ، في اعتزاز ، وواجهوا ، من غير ما وقاية ، صفوف الجند والحرس المحتشدين في المتراس .

وتم ذلك كله في غير ما عجلة ، بتلك الرصانة الغريبة المتوعدة التي تسبق القتال . وفي كلتا الناحيتين كان المحاربون يسددون بنادقهم الى اهدافها ، وقد كادت انابيب تلك البنادق ان تتماس . وكان الفريقـان من القرب بحيث يستطيعان ان يتحدثا في جرس عادي . ولحظة اوشكت الشرارة أن تنطلق ، بسط ضابط ذو طوق معدني للعنق وكتافتين ضخمتين — بسط سيفه وقال :

— « سددوا بنادقـكم ! »

فقال آنجولراس :

— « النار ! »

وانطلق الانفجاران في وقت معاً ، واختفى كل شيء وسط الدخان : دخان لاسع خانق تلوى في غمرته ، في انين واهن أبكم ، عدد من القتلى والجرحى .

حتى اذا انجاب الدخان ، أمسى في ميسور المرء ان يرى المتقاتلين من الفريقين وقد نقص عددهم ولكنهم ما يزالون محتفظين بمواقعهم نفسها معيدين شحن اسلحتهم في صمت .

وفجأة ، سمع صوت راعد ، يصيح :

— « انصرفوا ، وإلا نسفت المتراس ! »

والتفتوا جميعاً نحو الجهة التي أقبل منها الصوت .

كان ماريوس قد دخل الحجرة السفلى ، وكان قد اخذ برميل البارود الصغير ، ثم كان قد أفاد من الدخان ومن شبه الضباب المظلم ذاك الذي ملأ السور المحصن لكي ينسلّ على طول المتراس حتى ذلك القفص المصنوع من حجارة الارصفة ، حيث رُكزت الشعلة . وكان اقتلاع الشعلة ، ووضعُ برميل البارود الصغير مكانها ، ودفعُ ركام الحجارة فوق البرميل الصغير ، الذي نزع أسفله في الحال ، بضرب من ضبط الذات رهيب — كان ذلك كله بالنسبة إلى ماريوس عمل انحناء وتصدّر . وفي خلال هذا راح القوم كلهم — من حرس وطني ، وحرس بلدي ، وضباط ، وجنود ، محتشدين في الطرف الآخر من المتراس — ينظرون اليه في رعب ، وقدمه على حجارة الارصفة ، والشعلة في يده ، ووجهه الصارم مضاء بعزم مهلك ، حانياً لهب الشعلة نحو الركام الرهيب حيث تبينوا برميل البارود الصغير ، ومطلقاً هذه الصيحة المروعة :

— « انصرفوا ، وإلا نسفت المتراس ! »

وكان ماريوس ، وقد وقف فوق هذا المتراس ، وبعد الرجل العجوز ذي الثمانين ، هو رؤيا الثورة الشابة إثر طيف الثورة العجوز .

وقال رقيب من الجند :

— « انسف المتراس ! وانسف نفسك ايضاً ! »

فأجاب ماريوس :

— « وسأنسف نفسي ايضاً ! »

وقرّب الشعلة إلى برميل البارود الصغير :

ولكن لم يكن قد بقي احد على الجدار . لقد تراجع المغيرون ، مخلفين قتلاهم وجرحاهم ، تراجعاً فوضوياً نحو طرف الشارع ، واختفوا كرة اخرى في الظلام . كان ذلك فراراً .

لقد أنقِذ المتراس .

٥
نهاية قصيدة جان بروفير

واحاطوا كلهم بماريوس . ووثب كورفيراك إلى عنقه :

— « أنت هنا ! »

وقال كومبوفير :

— « اية سعادة ! »

وقال بوسوويه :

— « لقد جئت في اللحظة المناسبة ! »

وعاد كورفيراك إلى القول :

— « لولاك لكنت في عداد الموتى ! »

وأضاف غافروش :

— « ولولاك لكنت قد ابتُلعت ! »

وتساءل ماريوس :

— « اين الزعيم ؟ »

فقال آنجولراس :

— « انت الزعيم . »

كان فرن يضطرم في دماغ ماريوس طوال النهار ، اما الآن فقد استحال الفرن إلى زوبعة . واثرت فيه هذه الزوبعة الباطنية وكأنها مقبلة من خارج فهي تجرفه جرفاً . لقد بدا له وكأنما انتهى إلى مسافة بعيدة جداً عن الحياة . وتراءى له شهراه المشحان بالبهجة والحب ، المنتهيان فجأة عند هذه الهوة الرهيبة ، وكوزيت التي خسرها ، وهذا المتراس ، وموت مسيو مابوف من اجل الجمهورية ، واختياره هو

زعيماً للمتمردين – تراءى له ذلك كله مثل كابوس مروّع . وكان عليه يبذل جهداً عقلياً لـكي يقنع نفسه بأن كل هذا الذي يحيط بـه كـان واقعياً . ولم يكن ماريوس قد عاش غير فترة قصيرة لا تمكنه من ان يدرك أنه ليس ثمـة ما هو ادنى واقرب من المستحيل ، وان ما يتعين علينا دائماً أن تنتظر وقوعه هو الطاريء غير المتوقع . لقد شاهد مأساته الشخصية كما يشاهد المرء مسرحية لا يفهمها .

وفي ذلك الضباب الذي كان عقله يناضل في غمرة منه ، لم يتبين جافير الذي كان يحرك رأسه – وقد أوثِق إلى الوتد – طوال الهجوم على المتراس ، والذي راقب الثورة تضطرم من حوله بمثل إذعان شهيد ، وجلال قاضٍ . ولم يلمحـه ماريوس ولو مجرد لمح .

وفي غضون ذلك ، لم يأت المغيرون بحركة ما . لقد سُمعوا يزحفون ويتكاثرون عند اقصى الشارع ، ولكنهم لم يغامروا بالهجوم ، فلعلهـم كانوا ينتظرون الأوامر ، أو لعلهم كانوا ينتظرون الامداد قبل ان يهجموا على المتراس الممتنع الحصين كرة اخرى . وكان المتمردون قد أقامـوا حرساً ، وكان بعض الذين كانوا طلبة في مدرسة الطب قد انصرفوا لتضميد جراحات الجرحى .

كانوا قد طرحوا الموائد إلى خـارج الحـانة ، ما عدا اثنتين حـُفظتا للنّسالة والخراطيش ، وتلك المائدة التي سُجي عليها الأب مابوف . لقد اضافوها إلى المتراس ، واستعاضوا عنها في الحجرة السفلى بحشايا سرر الارملة هوشلو والخادمتين . وعلى هذه الحشايا ، كانوا قد مددوا الجرحى . اما المخلوقات الثلاث البائسة التي كانت تعيش في كورنث فلم يدر احد ما الذي حل بها . بيد انهن وُجدن ، آخـر الامر ، مختبئـات في القبـو .

كان انفعال مرير قد اخذ يكدر ابتهاجهم بالمتراس المنقَذ .

ونودي عليهم باسمائهم . كان احد المتمردين غائباً . ومن ؟ واحد

من آثرهم لديهم . واحد من اشدهم شجاعة ، جان بروفير . والتمسوه بين الجرحى ، فلم يقعوا عليه هناك . والتمسوه بين القتلى ، فلم يجدوه هناك ، لقد كان اسيراً من غير شك .

وقال كومبوفير لآنجولراس :

— « لقد اسروا صديقنا ، ولكنا أسرنا ضابطهم . هل عقدتَ العزم على قتل هذا الجاسوس ؟ »

فقال آنجولراس :

— « نعم ، ولكن اقل مما عقدته على حياة جان بروفير . »

وإنما جرى ذلك في الحجرة السفلية غير بعيد عن وتد جافير .

واجاب كومبوفير :

— « حسن . سوف اربط منديلي بعصاي ، وانطلق براية الصلح لاعرض عليهم ان يأخذوا رجلهم لقاء اعطائنا رجلنا . »

فقال آنجولراس ، واضعاً يده على ذراع كومبوفير :

— « إسمع ! »

كانت ثمة قعقعة سلاح معبرة في نهاية الشارع .

وسمعوا صوت رجل يصيح :

— « فلتحي فرنسة ! فليحي المستقبل ! »

وعرفوا في ذلك الصوت صوت بروفير .

والتمع وميض ، ودوّى انفجار .

وخيم الصمت من جديد .

وصاح كومبوفير :

— « لقد قتلوه ! »

فنظر آنجولراس إلى جافير وقال له :

— « لقد قتلك رفاقك اللحظة ، رمياً بالرصاص . »

٦
آلام الموت بعد آلام الحياة

من فوائد هـــذا النوع من الحرب أن الهجوم على المتاريس يتم دائماً ، تقريباً ، من امام ، وان المهاجمين يحجمون على العموم عـــن الالتفاف حول المواقع ، إما لأنهم يخشون الكمائن ، واما لأنهم يخافون التورط في الشوارع الملتوية . واذن ، فقد حُوِّل انتباه المتمردين كلــه نحو المتراس الكبير ، الذي كان من غير شك النقطة التي لا تزال مهددة ، وحيث كان محتوماً على القتال ان يُستأنف من جديد . ومع ذلك ، فقد فكر ماريوس بالمتراس الصغير ، ومضى نحوه . كان مهجوراً ، ولم يكن ليحرسه غير المصباح الصغير المرتجف بين الحجارة . وإلى هذا ، فقد كان الهدوء يخيم على زقاق مونديتور ، وامتدادي شارع الـ « تروواندري » الصغير وشارع « دو سيني » تخييماً تاماً .

وفيما كان ماريوس ينسحب ، بعد المناداة على الاسماء ، سمع اسمه يلفظ في خفوت ، وسط الدجنة :

— « مسيو ماريوس ! »

وارتعد ، ذلك انه تبين الصوت الذي كان قد ناداه قبل ساعتين من خلال الباب المقضب في شارع بلوميه .

كل ما في الامر أن هذا الصوت بدا له الآن مجرد نفَس .

واجال طرفه في ما حوله ، فلم ير احداً .

وحسب ماريوس أنــه خُدع ، وان ذلك لم يكن غير وهم أضافــه عقله إلى الوقائع الخارقة التي كانت تحتشد حوله . وخطا أولى خطواته في سبيل الابتعاد عن الفجوة المنعزلة التي كان المتراس قائماً فيها .

وكرر الصوت :

– « مسيو ماريوس ! »

هذه المرة لم يكن في ميسوره أن يشك . كان قد سمع النداء في وضوح . ونظر ، فلم ير شيئاً .

وقال الصوت :

– « عند قدميك .. »

وانحنى ، فرأى شكلاً ، في الظلام ، كان يجر نفسه نحوه . كان يزحف على الرصيف . وكان ذلك هو الذي خاطبه من قبل .

ومكنه المصباح من أن يتبين بلوزة ، وبنطلوناً ممزقاً من مخمل خشن . وقدمين حافيتين ، وشيئاً كان يشبه بركة دم . ولمح ماريوس وجهاً شاحباً ارتفع نحوه وقال له :

– « ألا تعرفني ؟ »

– « لا . »

– « ايبونين . »

وانحنى ماريوس في الحال . كانت هي في الحق تلك الطفلة التعسة . وكانت ترتدي ملابس الرجال .

– « كيف جئت إلى هنا ؟ ماذا تفعلين هناك ؟ »

فقالت :

– « أنا أموت . »

إن ثمة كلمات وحوادث تثير المخلوقات المرهفة . وصاح ماريوس مجفلا :

– « انتِ جريح ! انتظري ، سوف أحملك إلى الغرفة ! هناك سوف يضمدون جراحك ! هل هي خطيرة ؟ كيف استطيع ان انقلك بطريقة لا تؤذيك ؟ عونك ، يا الـهي ! ولكن من اجل ماذا جئت إلى هنا ؟ »

وحاول ان يُمر ذراعه تحتها لكي يرفعها .
وإذ كان يرفعها لمس يدها .
وأطلقت صرخة واهنة .
وسألها ماريوس :
— « هل اوجعتُك ؟ »
— « قليلا . »
— « ولكني لم امسّ غير يدك . »
ورفعت يدها نحو عيني ماريوس ، فرأى ماريوس في وسط تسلك اليد ثقباً أسود .
وقـال :
— « ما بال يدك ؟ »
— « إنهـا مثقوبة . »
— « مثقوبة ؟ »
— « نعم . »
— « بمـاذا ؟ »
— « برصاصة . »
— « كيف ؟ »
— « هل رأيت بندقية مسددة نحوك ؟ »
— « نعم ، ويداً سدتها . »
— « تلك كانت يدي . »
وارتعد ماريوس .
— « ايّ جنون ؟ يا لك من طفلة بائسة ! ولكن هذا ليس رديئاً جداً إذا كان ذلك كل شيء ؛ انه ليس شيئاً . دعيني احملك إلى سرير. إنهم سوف يعتنون بك . ان الناس لا يموتون بسبب من يد مثقوبة . »
وغمغمت :

— « لقد اخترقت الرصاصة يدي ، ولكنها خرجت من ظهري . لا فائدة في نقلك اياي من هنا . سوف اقول لك كيف تضمد جراحي خيراً مما يضمدها الطبيب الجراح . إجلس قربي على ذلك الحجر . »
وامتثل أمرها . ووضعت رأسها على ركبتي ماريوس . ومن غير ان تنظر اليه ، قالت :
— « أوه ! ما احسن ذلك ! انظر ، اني لم اعد احس بالألم ! »
واعتصمت بالصمت لحظة ، ثم ادارت رأسها في جهد ونظرت إلى ماريوس :
— « أتدري يا مسيو ماريوس ؟ لقـــد أزعجني دخولك إلى تلك الحديقة . كان ذلك حمقاً ، لأنني أنا الذي دللتك على ذلك المنزل . وفوق هـــذا فقـد كان علي ان اعرف جيداً ان شاباً مثلك ... »
وكفت عن الكلام ، واثبة فوق الالتفاتات القاتمة التي كانت في ذهنها من غير شك ، ثم اضافت في ابتسامة تمزق الفؤاد :
— « لقد وجدتني قبيحة ، اليس كذلك ؟ »
وتابعت حديثها :
— « انظر ، ها انت ذا هالك ! إن احداً لن يستطيع الخروج من المتراس ، الآن . إني انا الذي قدتك إلى ذلك ، اجل انا ! انت سوف تموت ، انا واثقة من هـــذا . ومع ذلك ، فحين رأيته يصوب النـــار اليك ، وضعت يدي على انبوب البندقية . كم كان ذلك مضحكاً ! ولكني اقدمت على ذلك لانني اردت ان اموت قبلك . وحين اصابتني هـــذه الرصاصة جررت نفسي إلى هنا . إن احداً لم يرني ، إن احداً لم يرفعني عن الارض . لقد انتظرتك ، وقلت : « ألن يجيء اذن ؟ اوه ! ليتك تعرف ، لقد عضضت بلوزتي ، لقد قاسيت آلاماً قاسية ! والآن ، انا في خير . هل تذكر يوم جئتُ إلى غرفتك ، ونظرتُ إلى وجهي في رآتك ، ويوم التقيت بك في الجادة قرب بعض النسوة العاملات بالمياومة ؟

ما كان اجمل تغريد العصافير ! إن ذلك لم يكن منذ زمن بعيد جداً. ولقد أعطيتني مئة « سو » ، ولقد قلت لك : « انا لا اريد دراهمك.» هل التقطت قطعتك النقدية على الأقل ؟ انت لست غنياً . ولم أفكر في ان اقول لك ان تلتقطها . كانت الشمس مشرقة ، ولم يكن الجو بارداً. هل تذكر ، يا مسيو ماريوس ؟ آوه ! إني سعيدة ! إننا كلنا سوف نموت . »

كانت ترين على وجهها سيماء ذاهلة ، رزينة ، مؤثرة . وكشفت بلوزتها الممزقة عن حنجرتها العارية . وفيما كانت تتحدث أسندت يدها الجريح إلى صدرها حيث كان ثقب آخر انبعث منه مع كل نبضة سيل من الدم مثل انبجاس الخمر من فم برميل مفتوح .

وحدق ماريوس إلى هذه المخلوقة التعسة في حنان عميق .

وصرخت فجأة :

— « اوه ! لقد عاودتني . إني اختنق ! »

وأمسكت ببلوزتها وعضتها ، وتلوت قدماها على الرصيف .

وفي هذه اللحظة دوى صوت الصفير الشبيه بصوت ديك فتيّ ، من خلال المتراس . كان الطفل قد امتطى متن احدى الموائد لكي يشحن بندقيته ، وكان يتغنى في ابتهاج بتلك الاغنية الشديدة الذيوع آنذاك :

واذ رأوا لافاييت ،
كرر رجال الدرك ،
فلننج بانفسنا ! فلننج بانفسنا ! فلننج بانفسنا !

ورفعت ايبونين نفسها ، وأصغت ، ثم غمغمت :

— « إنه هو . »

ثم التفتت نحو ماريوس وقالت :

— « أخي هنا . ينبغي ان لا يراني . إنه سوف يؤنبني . »

فتساءل ماريوس الذي فكر ، في اعماق قلبه الاشد مرارة والأشد حزناً ، بالواجبات التي كان أبوه قد اوصاه بها نحو اسرة تيناردييه :

— « اخوكِ ؟ من هو اخوك ؟ »

— « هذا الصبي الصغير . »

— « الصبي الذي يغني ؟ »

— « نعم . »

وأتى ماريوس بحركة .

فقالت :

— « اوه ! لا تذهب ! لن يطول الأمر كثيراً . »

كانت جالسة على نحو منتصب تقريباً ، ولكن صوتها كان خفيضاً جداً ، تقطّعه الشهقات . وبين الفينة والفينة كانت الحشرجة تقاطعها . وقربت وجهها ، اكثر ما استطاعت ، من وجه ماريوس . واضافت في انطباعة عجيبة :

— « إسمع ، انا لا اريد أن اخدعك . ان في جيبي رسالة اليك . منذ امس . لقد كلفوني ان أضعها في البريد . ولقد احتفظت بها . أنا لم أرد أن تصل اليك . ولكن ذلك قد لا يرضيك مني حين نجتمع مرة اخرى بمثل هذه السرعة . لقد اجتمعنا كرة ثانية ، أليس كذلك ؟ خذ رسالتك . »

وفي تشنج ، امسكت يد ماريوس بيدها الجريح ، ولكنها بدت وكأنها ما عادت تستشعر الألم . ووضعت يد ماريوس في جيب بلوزتها . وأحس ماريوس بأن ثمة ورقة حقاً .

وقالت :

— « خذها . »

واخذ ماريوس الرسالة .

وقامت بحركة تؤذن بالارتياح والرضا .

— « والآن إكراماً لآلامي ، عِدني .... »
وترددت .
فسألها ماريوس :
— « ماذا ؟ »
— « عدني ! »
— « أعدك . »
— « عدني بأن تطبع قبلة على جبيني حين اموت . سوف اشعر بذلك . »
وتركت رأسها يسقط على ركبتي ماريوس ، وأطبقت اجفانها . وظن ان تلك الروح البائسة قد فاضت . لقد انطرحت ايبونين من غير حراك ، ولكن ما إن حسب ماريوس انها رقدت إلى الابد حتى فتحت ببطء ، عينيها اللتين بدا فيهما عمق الموت المظلم ، وقالت له في نبرة كانت حلاوتها قد بدت وكأنها قادمة من عالم آخر :
— « والى هذا ، فهل تعرف يا ماريوس ؟ إني اعتقد اني كنت عاشقة لك بعض الشيء . »
وحاولت ان تبتسم مرة اخرى ، وأسلمت الروح .

٧
غافروش ، حاسب عميق للمسافات

وأوفى ماريوس بعهده . لقد قبّل ذلك الجبين الشاحب الذي تحلّب منه عرق مثلوج . ولم يكن ذلك خيانة لكوزيت . كان توديعاً متأملا وعذباً لنفس تعسة .
ولم يكن قد تناول الرسالة التي اعطته كوزيت اياها من غير رعشة .

كان قد استشعر في الحال أنه أمام حدث ذي شأن . وكان شديد التوق إلى تلاوتها . إن فؤاد الانسان هكذا جُعل . فما ان اغمضت الطفلة التعسة عينيها حتى فكر ماريوس في ان ينشر تلك الورقة . فوضع الميتة على الارض ، في رفق ، ومضى لسبيله . لقد انبأه شيء ما بأنه لن يستطيع ان يتلو هذه الرسالة على مشهد من هذا الجثمان .

واقترب من شمعة في الحجرة السفلية . كانت مذكرة صغيرة ، طويت وختمت بعناية المرأة الانيقة . وكان العنوان مكتوباً بخط نسوي ، وكان يجري على هذا النحو :

— « إلى سيدي ، مسيو ماريوس بونميرسي ، منزل مسيو كورفيراك ، شارع الـ « فيريري » ، رقم ١٦ . »

وكسر الختم ، وقرأ :

— « يا حبيبي ، وا أسفاه ! إن والدي يريد ان يسافر في الحال . سوف نكون هذا المساء في شارع الرجل المسلح ، رقم ٧ . وبعد ثمانية ايام سوف نكون في انكلترة . كوزيت . ٤ حزيران . »

كذلك كانت براءة هذا الحب . حتى لقد عجز ماريوس عن معرفة خط كوزيت .

إن ما حدث يمكن ان يروى في بضع كلمات . كانت ايبونين قد فعلت ذلك كله . فبعد مساء الثالث من حزيران ، راودتها فكرة مزدوجة : أن تحبط مؤامرة ابيها وقطاع الطرق على المنزل القائم في شارع بلوميه ، وأن تفصل ماريوس عن كوزيت . وكانت قد تبادلت الاسمال البالية مع أول أفاق رأى من المسلي ان يرتدي ثياب امرأة ، بينا تقنعت ايبونين بملابس رجل . كانت هي التي قدمت إلى جان فالجان ، في الـ « شان دو مارس » ، ذلك التحذير المعبر : « انتقل من منزلك ! » ورجع جان فالجان إلى المنزل ، وقال لكوزيت :

« سوف نسافر هذا المساء ، ولسوف نذهب الى شارع الرجل المسلح مع توسين . وفي الاسبوع التالي سوف نكون في لندن . »

وسارعت كوزيت ، وقد جندلتها هذه الضربة غير المتوقعة ، إلى كتابة سطرين إلى ماريوس . ولكن كيف تستطيع ان تضع الرسالة في البريد ؟ إنها ما كانت لتخرج وحدها ، ولو قد كلفت توسين بذلك اذن لكانت خليقة بأن تعجب لهذه المهمة ، واذن لأطلعت مسيو فوشلوفان ، من غير شك ، على الرسالة . وفي غمرة من هذا القلق رأت كوزيت ، من خلال الباب الحديدي ، ايبونين في ملابس الرجال ، وكانت هذه قد بدأت تطوّف في غير ما انقطاع حول الحديقة . ونادت كوزيت « هذا العامل الشاب » ، وقدمت اليه خمسة فرنكات والرسالة ، قائلة له : « احمل هذه الرسالة إلى عنوانها في الحال . » ووضعت ايبونين الرسالة في جيبها . وفي اليوم التالي ، ٥ حزيران ، مضت إلى غرفة كورفيراك تسأل عن ماريوس ، لا لكي تعطيه الرسالة ، ولكن — وهذا شيء تستطيع ان تفهمه كل نفس غيور وعاشقة — « لكي ترى » . وهناك انتظرت ماريوس ، أو على الاقل انتظرت كورفيراك — « لكي ترى » ايضاً . وحين قال لها ماريوس : نحن ذاهبون إلى المتاريس ، أومضت في ذهنها فكرة . أن تقذف بنفسها في اشداق ذلك الموت ، كما كان خليقاً بها ان تقذف بنفسها في اشداق اي موت آخر ، وان تدفع ماريوس إلى مثل ذلك . وتبعت كورفيراك ، واستيقنت من الموقع الذي اقاموا المتراس فيه . وإذ تأكد لديها ، بسبب من ان ماريوس لم يتلق اي إعلام بعد ان احتجزت الرسالة ، أنه سوف يمضي عند هبوط الليل إلى موعده المسائي المعتاد ، فقد قصدت إلى شارع بلوميه ، وانتظرت ماريوس هناك ، وحملت اليه ، باسم اصدقائه ، ذلك النداء الذي كان ينبغي — في اعتقادها — ان يقوده إلى المتّراس . لقد اعتمدت على اليأس الذي كان خليقاً بأن يصيب ماريوس حين يفتقد كوزيت ، ولم تكن مخطئة . أما هي فرجعت إلى شارع الـ « شانفريري » . ولقد رأينا ما عملت هناك . لقد ماتت بتلك البهجة الفاجعة التي تعصف بالقلوب الغيرى ، الدافعة من تحب إلى الموت معها ، قائلة : « إن احداً لن

يفوز بــه ! »

وأمطر ماريوس رسالة كوزيت بالقبل . لقد أحبته اذن ؟ وراودته لحظة فكرة تقول بـأنه لم يعد واجباً عليه الآن ان يموت . ثم قال في ذات نفسه : « إنهـا ذاهبة . ان اباها يريد ان يأخذها إلى انكلترة ، وجدي يرفض الموافقة على الزواج . إن شيئاً لم يتغير في القدر . » والواقع ان ذوي النفوس الحالمـة ، مثل ماريوس ، يصابون عادة بهذا الضنى الرفيع ، ومن هنا تختار السبل في يأس . إن إجهاد الحياة شيء لا يطاق ، وهكذا يتمثل الموت على نحو أعجل .

عندئذ فكر انه لا يزال ثمـة واجبان يتعين عليه ان يؤديهما : ان يخبر كوزيت بموته وان يبعث اليها بكلمة وداع اخيرة ، وان ينقذ من الكارثة المحدقة ، الزاحفة ، ذلك الطفل البائس ، اخا ايبونين وابن تيناردييه .

وكانت في جيبه حافظة اوراق ، هي نفسها التي سبق لها ان احتوت على الصفحات التي خط عليها كثيراً من خواطر الحب لكوزيت . وانتزع ورقة ، وكتب هذه الاسطر القليلة بقلم رصاصي :

« ان زواجنا مستحيل . لقد سألت جدي ، فرفض . أنا لا املك ثروة ، وكذلك انتِ . لقد هرعت إلى منزلك ، فلم اجدك ، انــت تعرفين ما عاهدتك عليه . سوف أنفذه ؛ سوف اموت ؛ انا احبك . وحين تقرأين هذه الكلمات ستكون روحي قريباً منك، وستبسم لك . »

وإذ لم يكن عنده ما يختم به تلك الرسالة، فقد اكتفى بأن طوى الورقة ، وكتب عليها هذا العنوان :

« الى الآنسة كوزيت فوشلوفان ، منزل مسيو فوشلوفان ، شارع الرجل المسلح رقم ٧ »

وظل لحظة يفكر ، والرسالة مطوية ، ثم اخرج حافظة اوراقه مــن جديد ، وفتحها ، وكتب على الصفحة الاولى ، وبالقلم الرصاصي نفسه ، هذه الاسطر :

« إن اسمي ماريوس بونميرسي . احملوا جثتي إلى منزل جدي ،

مسيو جيلنورمان شارع « فتيات كالغير ، رقم ٦ ، في الـ « ماريه » .

واعاد الدفتر إلى جيب سترته ، ثم نادى غافروش . وما ان سمع « المتشرد » صوت ماريوس ، حتى هرع بوجهه البهيج المتفاني .

— « هل ترغب في ان تقوم نحوي بخدمة ؟ »

فقال غافروش :

— « مهما تكن . يا الـهي الطيب ! لولاك لكنت طُبخت ، من غير شك . »

— « ترى هذه الرسالة ؟ »

— « نعم . »

— « خذها . اخرج من المتراس في الحال (واستبد القلق بغافروش، فشرع يخدش اذنه) وغداً صباحاً سوف تحملها إلى عنوانها ، إلى الآنسة كوزيت ، منزل مسيو فوشلوفان ، شارع الرجل المسلح ، رقم ٧ . »

فأجابه الفتى الباسل :

— « آه ، حسناً ، وفي خلال ذلك ، سوف يستولون على المتراس، ولن اكون أنا هنا . »

— « ان المتراس لن يهاجَم من جديد قبل الفجر ، على ما يُفهم من جميع المظاهر ، ولن يُستولى عليه قبل ظهر غد . »

والواقع ان المهلة الجديدة التي مُنحها المتراسُ من قِبل المهاجمين قد مُددت . كانت واحدة من فترات انقطاع الحمّى تلك ، المألوفة في المعارك الليلية ، والتي تتبعها دائماً سورة مضاعفة .

وقال غافروش :

— « حسن ، وما قولك في ان احمل رسالتك غداً صباحاً ! »

— « عندئذ يفوت الاوان . من الجائز ان يحاصر المتراس . إن الحراسة سوف تُفرض على جميع الشوارع ، ولن يكون في ميسورك ان تخرج . إذهب ، في الحال ! »

ولم يحر غافروش جواباً . لقد وقف هناك ، متردداً ، يخدش اذنه في اكتئاب . وفجأة ، وبأحدى حركاته الشبيهة بحركات العصافير ، اخذ الرسالة .

وقـال :

— « حسن . »

وانطلق راكضاً من خلال زقاق مونديتور .

لقد خطرت لغافروش فكرة جعلته يزمع على الانطلاق . ولكنه لم يصرح بها خشية أن يبدي ماريوس اعتراضاً ما عليها .

وكانت الفكرة هي هذه :

— « ان الليل لم يكد ينتصف ، وشارع الرجل المسلح ليس بعيداً ، ولسوف احمل الرسالة في الحال ، ولسوف ارجع في الوقت المناسب . »

الكتاب الخامس عشر

شارع الرجل المسلح

١

الورق النشاف ، الثرثار

أي شيء هي تشنجات مدينة ما ، بالقياس إلى ثورات الروح ؟ إن الانسان يظل اعمق عمقاً من الشعب بكثير . ففي تلك اللحظة بالذات ، كان جان فالجان فريسة لجيشان رهيب . كانت جميع المهالك قــد فُتحت كرة اخرى في ذات نفسه . وكان هو ايضاً يرتعد ، مثل باريس على عتبة ثورة راعبة وغامضة . وكانت بضع ساعات كافية لذلك .لقد حجب الظلام ، فجــأة ، قدرَه وضميره . وعنه ايضاً نستطيع ان نقول كما نقول عن باريس : كان المبدءان وجهاً لوجه . كان ملاك الضياء

وملاك الظلام على وشك ان يتصارعا فوق جسر الهاوية . ايّ الملاكين سوف يجندل الآخر ؟ من الذي سيستحوذ عليه ؟

وعشية ذلك اليوم نفسه ، الخامس من حزيران ، كان جان فالجان قد استقر به المقام ، تصحبه كوزيت وتوسين ، في شارع الرجل المسلح . كان تحوّلٌ ينتظره هناك .

ولم تكن كوزيت قد فارقت شارع بلوميه من غير ان تحاول المقاومة . فللمرة الأولى منذ سُكناهما معاً ، ظهرت ارادة كل من كوزيت وجان فالجان على نحو متميز ؛ صحيح ان الارادتين لم تصطدما ، ولكنهما تناقضتا على الاقل . كان ثمة اعتراض من ناحية ، وتصلب من الناحية الاخرى . وكانت النصيحة المباغتة « انتقل من منزلك ! » وقد قذف بها جانَ فالجان شخصٌ مجهول ، قد أرعبته إلى درجة جعلته جازماً . لقد اعتقد انه ملاحق مقتص الأثر . واضطرت كوزيت إلى الاذعان .

ووصلا معاً إلى شارع الرجل المسلح من غير ان ينبسا ببنت شفة ، وكل منهما مستغرق في تأملاته الخاصة . فأما جان فالجان فكان من القلق بحيث لم يلحظ حزن كوزيت ، وأما كوزيت فكانت من الحزن بحيث لم تلحظ قلق جان فالجان .

وكان جان فالجان قد اصطحب توسين ، وهو ما لم يفعله قط في غيباته السابقة . لقد رأى ان من الجائز ان لا يعود إلى شارع بلوميه ، ولم يكن بقادر على ان يخلّف توسين وراءه ، أو يطلعها على سره . وإلى هذا ، فقد استشعر انها كانت متفانية موثوقة . إن الخيانة ، بين الخادم والسيد ، تبدأ بالفضول . ولكن توسين لم تكن فضولية ، فكأنما كان مقدراً لها أن تكون خادماً لجان فالجان . لقد قالت من خلال تلجلجها ، في لهجتها الريفية الخاصة بابناء بارنفيل : « انا من مِثْل إلى مِثْل ؛ أنا اتأمل عملي . الباقي ليس عملي » . (أنا هكذا ؛ انا اقوم بعملي ، وسائر ذلك ليس من شأني .)

وفي هذه المغادرة لشارع بلوميه ، التي كادت ان تكون فراراً ، لم يحمل جان فالجان شيئاً غير الحقيبة الصغيرة المعطرة التي عمّدتها كوزيت خالعة عليها اسم « ممتنعة الانفصال » . ذلك بأن الحقائب الملأى كانت خليقة بان تحتاج إلى حمالين ، والحمالون شهود . وكانوا قد استدعوا عربة اجرة إلى الباب المطل على شارع بابل ، ومضوا لسبيلهم .

وفي صعوبة بالغة انتزعت توسين اذناً بأن ترزم قليلا من الملابس الداخلية ومن الثياب وبعض ادوات الزينة . أما كوزيت فلم تصطحب غير ادواتها المكتبية وورقها النشاف .

ولكي يزيد هذا الاختفاءَ وحشة وغموضاً ، كان جان فالجان قد رتب كل شيء بحيث لا يغادر البيت الصغير القائم في شارع بلوميه إلا عند انحسار النهار مما ترك لكوزيت متسعاً من الوقت لتكتب إلى ماريوس مذكرتها . ووصلوا إلى شارع الرجل المسلح ، بعد هبوط الليل .

وآوى كل منهم إلى فراشه في صمت .

كان المنزل الذي في شارع الرجل المسلح قائماً في فناء خلفي ، في الطابق الثاني ، وكان مؤلفاً من حجرتي نوم ، وحجرة طعام ، ومطبخ محاذ لحجرة الطعام ، وعلية فيها فراش ذو سيور خُصت به توسين . وكانت حجرة الطعام هي في الوقت نفسه غرفة الانتظار ، وكانت تفصل احدى حجرتي النوم عن الاخرى . لقد اشتمل المسكن على جميع الاثاث الضروري .

إننا نستعيد الطمأنينة بمثل الحمق الذي نروَّع فيه ؛ تلك هي الطبيعة البشرية . فما إن حل جان فالجان في شارع الرجل المسلح حتى تضاءل قلقه ، وشيئاً بعد شيء تبدّد بالكلية . إن ثمة مواطن مهدئة تؤثر ، بطريقة ما ، تأثيراً آلياً في العقل . فحين يكون الشارع مغموراً ، يكون السكان آمنين . واستشعر جان فالجان عدوى اطمئنان غريبة في زقاق باريس العتيقة ، ذاك ، الضيق إلى حد جعله مسدوداً في وجه العربات

بلوح خشبي ثخين معترض نُصب على وتدين ، الاصم الابكم وسط المدينة الصاخبة ، فهو غسق في وضح النهار ، العاجز عن الانفعالات ، إذا جاز التعبير ، بين صفي بيوته العالية البالغ عمرها قرناً من الزمان ، تلك البيوت الصامتة مثل العجائز الذين كانتهم . إن ثمة نسياناً راكداً في هذا الشارع . وتنفس جان فالجان هناك . بأي طريقة يستطيع اي امرىء ان يجده في ذلك المكان ؟

وكان اول ما اهتم بـه ان يضع « ممتنعة الانفصال » إلى جانبه .

ونام نوماً عميقاً . إن الليل ينصح ، وفي ميسورنا أن نضيف : الليل يهدىء . وفي صباح اليوم التالي نهض مبتهجاً أو يكاد . لقد خيل اليه ان حجرة الطعام فاتنة ، برغم أنها كانت رهيبة موثثة بمائدة مستديرة ونَضَد للمائدة منخفض تعلوه مرآة منحنية ، وكرمي نَخِرٍ ذي ذراعين ، وبضعة كراسي اخرى مثقلة بصرر توسين . ومن خلال فتحة في احدى هذه الصرر كان في ميسور المرء ان يرى بزة الحرس الرسمية الخاصة بجان فالجان .

اما كوزيت ، فكانت قد سألت توسين ان تحمل قصعة من حساء إلى غرفتها ، ولم تبرز للعيان إلا عند المساء .

وحوالى الساعة الخامسة تقدمت توسين — وكانت تروح وتجيء منشغلة إلى ابعد الحدود بهذه النقلة اليسيرة وما اقتضته من ترتيب الاثاث في المنزل الجديد — ووضعت دجاجة باردة على مائدة حجرة الطعام وافقت كوزيت ، مراعاة لوالدها ، على ان تنظر اليها .

حتى إذا تم ذلك تذرعت كوزيت بصداع شديد ، وقالت « طابت ليلتك » لأبيها ، وقصدت إلى حجرة نومها واوصدت بابها عليها . وأكل جان فالجان أحد جناحي الدجاجة في شهية جيدة . واذ انحنى فوق المائدة ، وقد عاودته طلاقة الوجه شيئاً فشيئاً ، استشعر الأمن والسلامة مـن جـديـد .

وفيما هو يتناول عشاءه المتقشف ذاك ، انتبه على نحو مشوش ، في مناسبتين أو ثلاث ، إلى تمتمة توسين التي قالت له : « سيدي ، هنـاك ضوضاء . إنهم يتقاتلون في باريس » . ولكنه ، وقد استغرق في جمهرة من التفاعلات الداخلية ، لم يلق اليها بالا . والصدق يقتضينا ان نقول إنـه لم يسمع كلماتها تلك .

ونهض ، وبدأ يمشي من النافذة إلى الباب ، ومن الباب إلى النافذة . مستعيداً طمأنينته شيئاً بعد شيء .

ومع الطمأنينة عادت كوزيت ، همـّه الاوحد ، إلى أفكاره . ولم يكن ذلك لقلق الم ّ به من ذلك الصداع ، فليس يعدو ان يكون اضطراباً في الاعصاب ، أو من ذلك العبوس الذي يرين على وجوه الفتيات الصغيرات ، فليس يعدو ان يكون سحابة عابرة لا بد ان تنقشع بعد يوم أو يومين ، ولكنه فكر في المستقبل ، وكدأبه دائماً فكر فيه بعذوبة . وعلى اية حال ، فانه لم ير ايما عقبة تحول دون عودة سعادتهما إلى مجاريها . ففي بعض الساعات يبدو كل شيء مستحيلا ، وفي بعض الساعات يبدو كل شيء سهلا . ولقد كان جان فالجان في احدى تلك الساعات السعيدة . إنهـا تجيء عادة بعد الساعات التعسة ، كما يعقب النهار الليل ، بحكم قـانون التعاقب والتغاير القائم في أساس الطبيعة ، والذي تدعوه العقول السطحية « التضاد » . ففي هذا الشارع الآمن الذي فزع اليه جان فالجـان ، تحرر من كل ما كان قد أقلقه منذ فترة ما . ولمجرد انـه كان قد رأى كثيراً من الظلام بدأ يلمح شيئاً من السماء اللازوردية . كان تركُهُ شارع بلوميه من غير ما إشكال ولا حادث هو في ذاته فلذة من الحظ السعيد . ولعل من الحكمة ان يغادر البلاد ، ولو بضعة اشهر ليس غير ، وأن يذهب إلى لندن . حسناً ، سوف يذهبون . واي فرق بين ان يكون في فرنسة او ان يكون في انكلترة ، ما دامت كوزيت معه ؟ كانت كوزيت وطنه . وكانت كوزيت كافية لسعادته . أما الفكرة القائلة بان من الجائز

ن لا يكون هو كافياً لسعادة كوزيت ، تلك الفكرة التي كانت ذات يوم حُمّاه وسهده ، فلم تتمثل لعقله ولو مجرد تمثل . كانت آلامه الماضية كلها قد تلاشت ، وكانت تغمره موجة عارمة من التفاؤل . لقد بدت له كوزيت ، وهي في قربه ، وكأنها ملكهُ ؛ أثر بصريّ يعرفه كـل امرىء بالتجربة . لقد رتب في ذات نفسه ، وفي كل سهولة ممكنة ، أمر الذهاب إلى انكلترة مع كوزيت ، ورأى إلى سعادته تزهو من جديد . بقطع النظر عن المكان ، على ضوء أحلامه .

وفيما هو لا يزال يذرع الغرفـة جيئة وذهوباً ، في خطى وئيدة ، وقعت عينه فجأة على شيء غريب .

لقد رأى تجاهه ، في المرآة المنحنية التي تعلو نضَد المائدة ، وقرأ في وضوح الاسطر التالية :

« يا حبيبـي ، واأسفاه ! إن والدي يريد أن يسافر في الحـال سوف نكون هذا المساء في شارع الرجل المسلح ، رقم ٧ . وبعد ثمانية ايام سوف نكون في انكلترة . كوزيت . ٤ حزيران . »

ووقف جان فالجان شارد اللب .

كانت كوزيت قد وضعت ورقها النشاف ، لدن وصولها ، على نضد المائدة امام المرآة ، وكانت لعظيم استغراقها في هلعها المحزون قد نسيته هناك ، من غير ان تلاحظ انها تركته منشوراً على مداه ، ومنشوراً عند الصفحة نفسها التي نشفت بها الاسطر الاربعة التي خطتها ، والتي حمّلتها ذلك العاملَ الفتى المار في شارع بلوميه . كانت الكتابة قد انطبعت على الورق النشاف .

لقد عكست المرآة تلك الكتابة .

وانما نتج عن ذلك ما ندعوه في الهندسة الصورة المتناظرة . بحيث ان الصورة المعكوسة على الورق النشاف قد صُححت بالمرآة . فاستردت شكلها الاصلي . وهكذا وجد جان فالجان تحت ناظريه تلك الرسالة التي

كتبتها كوزيت عشية البارحة ، إلى ماريوس .

كانت بسيطة وصاعقة .

ومضى جان فالجان إلى المرآة . وقرأ تلك الاسطر الاربعة كرة اخرى . ولكنه لم يصدقها قط . لقد تركت في نفسه مثل الاثر الذي تتركه رؤيا وسط وميض البرق . كان ذلك وهماً . كان مستحيلا . إن ذلك لم يكن .

وشيئاً بعد شيء أمسى ادراكه اكثر دقة . لقد نظر إلى ورق كوزيت النشاف ، وعاوده وعي الحقيقة الواقعة . وتناول الورق النشاف وقال : « إنما يجيء ذلك من هنا » . وتأمل على نحو محموم في الاسطر الأربعة المنطبعة على الورق النشاف ، وقد جعل انعكاس الاحرف من تلك الاسطر خربشة عجيبة ، ولم يجد لها معنى البتة . ثم قال مخاطباً نفسه : « ولكن هذا لا يعني شيئاً . ليس ثمة شي مكتوب هنا . » واخذ نفساً طويلا ، وقد استشعر اطمئناناً لا سبيل إلى وصفه . ومن ذا الذي لم يستشعر مثل هذه المباهج الحمقاء في لحظات الذعر ؟ ان النفس لا تستسلم لليأس إلا بعد ان تستنفد الاوهام كلها .

ورفع الورق النشاف بيده ، وحدق اليه ، سعيداً على نحو أبله ، وهو يكاد يضحك ساخراً من الوهم الذي خدعه . وفجأة ، وقعت عيناه كرة اخرى على المرآة ، وبصر بالرؤيا من جديد . لقد ارتسمت الاسطر الاربعة ، هناك ، في وضوح لا يرحم . وهذه المرة لم تكن سراباً . إن تكرر الرؤيا يؤذن بأنها حقيقة . كانت ملموسة ، كانت الكتابةَ مقوَّمةً بالمرآة . وفهم .

وتمايل جان فالجان ، وافلت الورقَ النشاف . وارتمى في الكرسي العتيق ذي الذراعين المجاور لنضد المائدة ، منكّسَ الرأس ، زجاجيَّ العينين ، ذاهل اللب . وقال في ذات نفسه ان الامر واضح ، وان ضياء العالم قد كُسف إلى الابد ، وان كوزيت قد كتبت ذلك إلى شخص ما .

ثم سمع روحه ، وقد ارتدّت فظيعةً ، تطلق زئيراً أبكم في الظلام . اذهب اذن ؛ وانتزِع من الاسد الكلب الذي في قفصه !

شيء غريب ومحزن . ففي تلك اللحظة بالذات لم يكن ماريوس قد تلقّى بعدُ رسالة كوزيت . كانت المصادفة قد حملتها ، كالخائنة ، إلى جان فالجان قبل ان تسلمها إلى ماريوس .

وحتى ذلك اليوم ، لم يسبق للمحنة أن قهرت جان فالجان قط . كان قد أخضِع لتجارب رهيبة ، ولم تكن قد وفرته ايما ضربة من ضربات الشقاء . كانت ضراوة القدر ، مسلحةً بضروب الانتقام والازدراء الاجتماعين كلها ، قد جعلت منه عبداً رقيقاً لها ، وطاردته في شره . ولم يتراجع قط ولم يستسلم قط أمام اي شيء . وكان قد ارتضى ، حين تعيّن عليه ذلك ، ضروب الشدائد على اختلافها . كان قد ضحى بحرمة رجولته المستعادة ، وتخلى عن حريته ، وغامر برأسه ، وخسر كل شيء ، وقاسى كل شيء ، وظل نزيهاً ثبت الجنان إلى درجة كانت تخيل إلى المرء في بعض الاحيان أنه غافلٌ عن نفسه ، مثل شهيد من الشهداء . وكان وجدانه ، المتمرس بكل ممكن من هجمات الشقاء ، خليقاً بأن يبدو ممتنعاً على المغيرين ، إلى الابد . ومع ذلك فلو قُدّر لامريء ان يطّلع على دخيلة نفسه في تلك اللحظة اذن لاضطر إلى التسليم بأن الوهن قد اتخذ سبيله اليه .

ذلك ان هذا العذاب كان ، من بين جميع ضروب النكال التي اخضعه لها ديوان تفتيش القدر ، اشدها فظاعة وترويعاً . إن كلاّبتين من مثل هاتين لم تعضّاه قط ، في يوم من الايام . لقد استشعر الرعدة الغريبة التي تلازم كل انفعال خفي . استشعر قَرْصَ الانفعال المجهول . والأسفاه ، ان المحنة العظمى ، او على الاصح ، المحنة الوحيدة ، هي خسارتنا الكائنَ الذي نحب .

وليس من ريب في أن جان فالجان العجوز المسكين لم يحب كوزيت إلا كما يحب والد ولده . ولكن كما اشرنا من قبل ، كان ترمّل حياته

نفسُهُ قد ادخل على هذه الأبوة كل حب . لقد احب كوزيت وكأنها ابنته ، واحبها وكأنها أمه، واحبها وكأنها اخته . وإذ لم تكن له في يوم من الايام حبيبة او زوجة ، ولما كانت الطبيعة دائناً لا يقبل احتجاجاً ، فان تلك العاطفة ايضاً ، وهي اشد العواطف ديمومة على الاطلاق ، قد امتزجت بالعواطف الاخرى ، غامضةً ، جاهلةً ، طاهرةً طهارة العمى ، غير واعية ، سماويةً ، ملائكيةً ، الـٰهية ، اقل شبهاً بعاطفة من العواطف منها بغريزة من الغرائز ، واقل شبهاً بغريزة من الغرائز منها بميل من الميول ، غير مدركة وغير منظورة ، ولكنْ حقيقية . والحب ، بحصر المعنى ، كان منطوياً في حنوه العظيم على كوزيت ، كما ينطوي عِرْق الذهب في الجبل ، قاتماً وبتولياً .

لنذكر حال القلب تلك التي اشرنا اليها اللحظة . لم يكن اي ما زواج ممكناً بينهما ، حتى زواج النفوس ؛ ومع ذلك فقد كان واضحاً أن قدرَيهما كانا مقترنين . فباستثناء كوزيت ، يعني باستثناء طفولة ما ، لم يعرف جان فالجان ، في حياته الطويلة كلها ، اياً من تلك الاشياء التي يستطيع المرء ان يحبها . ولم تكن ضروب العاطفة والحب التي يعقب بعضها بعضاً قد تركت في ذات نفسه ذلك الاخضرار المتتالي — اخضراراً زاهياً فوق اخضرار قاتم — الذي نلمحه على اوراق الشجر التي تجتاز فصل الشتاء ، وعلى الرجال الذين يجتازون سن الخمسين . وخلاصة القول ، وقد أصررنا على ذلك غير مرة ، أن ذلك الاتحاد الداخلي كله ، ذلك الاتفاق كله ، الذي كانت حصيلته فضيلة شامخة ، انتهى إلى جعل جان فالجان أباً لكوزيت . أبا غريباً مصوغاً من الجد ، والابن ، والاخ ، والزوج ، التي انطوت عليها نفس جان فالجان . أباً كان فيه حتى الأم ذاتها ، أباً أحب كوزيت ، وعبدها ، وكانت له تلك الطفلة ضياءً ، وكانت بيتاً ، وكانت أسرة ، وكانت وطناً ، وكانت فردوساً .

وهكذا عندما رأى ان ذلك قد انتهى من غير ريب ، انها قد أفلتت منه ، انها قد انسلت من بين يديه ، انها قد غابت عنه ، أنها كانت سحابة ، انها كانت ماء ، وعندما وجد امام عينيه هذا الدليل الماحق : ان شخصاً آخر هو غاية فؤادها ، ان شخصاً آخر كان أمل حياتها ، ان هناك محبوباً ، وانه هو لم يعد غير أبيها ، وانه لم يبق موجوداً البتة ، وعندما قال في ذات نفسه : « إنها انفصلت عني » تخطى الألم الذي أصابه حد الاحتمال . أيكون قد عمل كل ما قد عمله لينتهي إلى هذا ؟ وماذا ! أن يصبح لا شيء ! عندئذ ، كما قلنا منذ لحظة ، أحس برعدة ثورة تعصف به من رأسه إلى أخمص قدميه . لقد أحسّ حتى جذورِ شعره بيقظة الانانية الهائلة ، وعوت « الانا » في هوة ذلك الرجل .

إن ثمة انهيارات داخلية . فنفاذ اليقين الموئس إلى الانسان لا يتم من غير أن تزيح وتحطم بعض العناصر العميقة التي هي الانسان نفسه في بعض الاحيان . والأسى ، حين يبلغ هذه المرحلة ، يكون فراراً تقوم به جميع قوى الروح . تلك ازمات مهلكة . وقليلون هم اولئك الذين يخرجون منها كما دخلوا ، وراسخي القدم في اداء الواجب . وحين يتخطى المرء حدود العذاب ، فان الفضيلة الاكثر ثباتاً ورباطة جأش تضطرب وتحار . وتناول جان فالجان الورق النشاف ، وأقنع نفسه من جديد . وظل منحنياً ، وكأنه قد استحال إلى حجر ، فوق الأسطر الأربعة التي لا سبيل إلى تكذيبها ، مسمّر العين . وتشكلت في ذات نفسه سحابة كانت من العظم بحيث يخيل إلى المرء ان باطن تلك النفس كله آخذ في الانهيار .

وفحص هذا الكشف ، من خلال قوى التفكير الحالم المضخّمة ، في هدوء ظاهري ورهيب . ذلك بأن من الفظاعة ان يبلغ هدوء الانسان برودةَ التمثال .

وقاس الخطوة الراعبة التي خطاها القدر من غير ان يستثير ريبه. واستعاد في الذاكرة المخاوف التي ألمت به في الصيف الماضي والتي بُدِّدت بتلك الحماقة كلها. وادرك الهوة. كانت لا تزال هي هي. كل ما في الأمر ان جان فالجان لم يعد على الحافة؛ كان في القعر.

شيء خارق وممضّ. لقد سقط من غير أن يعي. كان الضياء كله قد فارق حياته، وكان هو يعتقد أنه يرى الشمس ابداً.

ولم تتردد غريزته. وقرن بعض المناسبات إلى بعضها الآخر، وبعض التواريخ إلى بعضها الآخر، وبعض احمرار وجه كوزيت إلى بعضه الآخر، وبعض شحوبه إلى بعضه الآخر، وقال في ذات نفسه: «إنه هو.» إن تكهّن اليأس ضرب من قوس عجيب لا يخطىء هدفه البتة. وبحدسه الاول، اصاب ماريوس. انه لم يعرف الاسم، ولكنه وجد الرجل في الحال. لقد لمح على نحو واضح، في قعر استحضار ذكرياته الحقود، ذلك المطوِّف المجهول في اللوكسومبورغ، ذلك الباحث الدنيّ عن الحب، ذلك المتبطل الرومانتيّ، ذلك المعتوه، ذلك الجبان، لأن من الجبن ان يفد المرء ويرنو في تودد إلى الفتيات الجالسات قرب آبائهن الذين يحبونهن.

وبعد ان قرر على نحو يقينيّ ان ذلك الفتى كان وراء هذه الورطة، وان كل شيء جاء من هناك، نظر هو جان فالجان – الرجل الذي خُلِق خلقاً آخر، الرجل الذي انهمك طويلا في تهذيب نفسه، الرجل الذي انفق جهوداً كثيرة لكي يحل الحياة كلها، والبؤس كله، والتعاسة كلها ويذيبها في الحب – نظر هو جان فالجان إلى ذات نفسه، وهناك رأى شبحاً: الضغينة.

إن الآلام الكبيرة تنطوي على تثبيط. إنها تثبيط الوجود. وكل من تلمّ به يستشعر أن شيئاً قد ابتعد عنه. وفي الشباب، تكون زيارتها حِدادية، وفي السنوات التالية تكون تلك الزيارة مشؤومة. واأسفاه!

إذا كان اليأس شيئاً رهيباً حين يكون الدم حاراً ، حين يكون الشعر أسود ، حين يكون الرأس منتصباً فوق الجسد مثل الشعلة فوق المشعل ، حين تكون حزمة القدَر ملأى ما تزال . حين يكون القلب ، المفعم بحب سعيد ، لا تزال له نبضات يمكن ان يستجاب لها ، حين يكون امامنا متسع من الوقت لاصلاح الخلل ، حين تكون النساء كلهن أمامنا ، والبسمات كلها ، والمستقبل كله ، والأفق كله ، حين تكون قوة الحياة كاملة — إذا كان اليأس شيئاً رهيباً في هذه الحال ، فكيف يكون في الشيخوخة ، حين تندفع السنوات ، وهي تزداد شحوباً على شحوب ، في تلك الساعة الغسقية التي نشرع فيها برؤية نجوم القبر .

وفيما هو يفكر ، دخلت توسين . ونهض جان فالجان ، وسألها :

— « في اي اتجاه هو ؟ هل تعرفين ؟ »

واستولى الدهش على توسين فلم تستطع ان تجيب بغير قولها :

— « من فضلك ؟ »

وتابع جان فالجان :

— « ألم تقولي لي الآن انهم يتقاتلون ؟ »

فأجابت توسين :

— « ، نعم ، يا سيدي . إنه في ناحية سان ميرّي . »

ان هناك بعض الاندفاعات الميكانيكية التي تجيئنا ، دون ان ندري ، من أعمق افكارنا . وليس من ريب في أنه تحت تأثير اندفاعة من هذا النوع لم يكد يشعر بها ، وجد جان فالجان نفسه بعد خمس دقائق في الشارع .

كان حاسر الرأس ، جالساً على المَعْلَم المجاور لمنزله . لقد بدا وكأنه يصغي .

كان الليل قد هبط .

٢

«المتشرد» عدوّ الضياء

ما المدة التي قضاها على هذا النحو ؟ أيّ شيء كان مدّ ذلك التأمل الفاجع وجزره ؟ هل تصدّر ؟ هل ظل منحنياً إلى حد يخشى معه من ان ينكسر ؟ أكان لا يزال في ميسوره ان يتصدر ، وان يثبّت قدمه من جديد في ضميره فوق شيء صلب ؟ انه هو نفسه ما كان يدري في اغلب الظن .

كان الشارع مقفراً . ولم يلمحه ، بشق النفس ، غير بضعة بورجوازيين قلقين ، عائدين إلى بيوتهم على جناح السرعة . ففي ساعات الخطر لا يفكر المرء إلا بنفسه . وأقبل مُشعل المصابيح ، كالعادة ، ليضيء المصباح المتدلي مقابل باب المنزل رقم ٧ مباشرة ، ومضى لسبيله . ولو قدّر لامريء ما ان يدرس جان فالجان في ذلك الظلام اذن لما بدا له انساناً حياً . هنالك كان ، قاعداً على المَعْلم المجاور لباب بيته ، جامداً مثل مارد من ثلج . إن في اليأس تجمّداً . وسُمع ناقوس الخطر ، وسمعت اصوات عاصفة غامضة. ووسط تشنجات الناقوس هذه كلها ، الممتزجة باصداء الفتنة ، دقت ساعة سان بول الحادية عشرة ، في رزانة وفي غير عجلة . ذلك ان ناقوس الخطر هو الانسان ، والساعة هي الالٰـه . ولم يترك انقضاء الساعة أيما أثر في نفس جان فالجان ، إن جان فالجان لم يتحرك قط . ومع ذلك ففي تلك اللحظة نفسها تقريباً ، وقع انفجار عنيف في ناحية الاسواق ، وتبعه ثان ، اشد عنفاً . ولعله كان ذلك الهجوم الذي شُن على متراس شارع الـ «شانفريري» ، والذي رأينا منذ لحظة كيف صده ماريوس . ولدن سماع هذا الانفجار المزدوج الذي بدت سورته وكأنما ضاعفها انذهال الليل ، اجفل جان فالجان . لقد نهض في الاتجاه الذي

أقبل منه الصوت . ثم ارتمى على المعْلم من جديد ، وطوى ذراعيه . وسقط رأسه فوق صدره في بطء .

واستأنف حواره المظلم مع نفسه .

وفجأة رفع عينيه . كان شخص ما ، يمشي في الشارع . لقد سمع وقع خطى على مقربة منه . ونظر . وعلى ضوء المصباح ، في اتجاه الـ « آرشيف » ، لمح ، وجهاً شاحباً ، فتياً ، مشعاً .

كان غافروش قد وصل منذ لحظة الى شارع الرجل المسلّح .

كان غافروش ينظر إلى الفضاء ، ولقد بدا وكأنه يبحث عن شيء . لقد رأى جان فالجان في وضوح كامل ، ولكنه لم يلق بالاً اليه .

وبعد النظر إلى الفضاء ، راح غافروش ينظر إلى الارض . لقد رفع نفسه على رؤوس اصابعه ، ولمس ابواب الطابق الأرضي ونوافذه. كانت كلها مغلقة ، مثقلة بالحديد ، مطوقة بالسلاسل . وبعد أن وجد خمسة منازل أو ستة منازل ممترسة على هذا النحو ، هز « المتشرد » كتفيه ، واستهل الكلام مع نفسه بهذه العبارة :

— « وحق الالـه ! »

ثم شرع ينظر إلى الفضاء من جديد .

واستشعر جان فالجان — الذي كان في اللحظة السابقة ، وبحكم الحال العقلية التي كان عليها ، خليقاً بأن لا يتكلم مع احد ، بل أن لا يجيب احداً — استشعر انه مضطر على نحو لا يقاوَم إلى ان يوجه كلمة إلى هذا الطفل .

وقال :

— « ايها الصبي الصغير ، ما خطبك ؟ »

فأجابه غافروش في لذع :

— « خطبي انني جائع . »

ثم أضاف :

— « الصغير هو أنت . »

وبحث جان فالجان في جيب صدرته الصغير ، واخرج قطعة نقدية من فئة الفرنـكات الخمسة .

ولكن غافروش ، الذي كان من نوع الطائر المعروف بأم سكعكع ، والذي انتقل في سرعة من عمل إلى عمل ، كان قد التقط حجراً . كان قـد لمح مصباحاً .

وقـال :

— « هاي ! إن مصابيحكم لا تزال هنا . أنتم غير نظاميين ، يا أصدقائي . هذه فوضى . اكسروا لي هذا . »

وقذف المصباح بالحجر ، فسقط زجاجه في دوي جعـل بعض البورجوازيين ، الجاثمين تحت ستائرهم في البيت المقابل ، يصيحون : « هناك ثلاث وتسعون ! » *

وتمايل المصباح في عنف ، وانطفأ . وأمسى الشارع مظلمـاً على نحو مفاجىء .

وقال غافروش :

— « ذلك هو ، ايها الشارع العجوز . إعتمر بقلنسوتك الليلية . »

والتفت نحو جان فالجان ، وأردف :

— « ما تدعو هذا النصب القائم هناك في أقصى الشارع ؟ انـه الـ « آرشيف » ، أليس كذلك ؟ يجب أن تُشظَّى هذه الاعمدة الضخمة الحمقى ، قليلا ، ويُصنع منها متراس من المتاريس في لطف . »

واقترب جان فالجان من غافروش .

وقال في همس ، مخاطباً نفسه :

— « يا له من مخلوق مسكين . إنـه جائـع . »

ووضع قطعة المئة « سو » في يده .

---

* يقصد ارهاباً كالذي وقع عام ١٧٩٣ خلال الثورة الفرنسية .

ورفع غافروش أنفه ، وقد استولى عليه الدهش لضخامة هذا الـ « سو » البالغة . لقد نظر اليه في الظلام ، وبهره بياض الـ « سو » الكبير . كان يعرف قطع الفرنكات الخمسة بالسماع . كانت شهرتها محببة إلى نفسه . ولقد أبهجه ان يرى إحداها عن كثب . وقال :

— « فلنتأمل النَّمِر . »

وحدق اليها بضع لحظات في انخطاف . ثم التفت إلى جان فالجان وقدم اليه القطعة النقدية ، وقال في عظمة :

— « ايها البورجوازي ، أنا افضل ان اكسر المصابيح . استرجع وحشك الضاري . انت لا تستطيع ان تفسدني . إن له خمسة براثن ، ولكنها لا تخدشني . »

وسأله جان فالجان :

— « ألك أم ؟ »

فأجابه غافروش :

— « لعل لي أكثر مما لك . »

فقال جان فالجان :

— « حسناً ، احتفظ بهذه الدراهم من أجل امك . »

واستشعر غافروش شيئاً من الطمأنينة . وإلى ذلك ، فقد سبق ان تبين منذ لحظة ان الرجل الذي كان يتحدث اليه لم يكن يعتمر بقبعة ، فأوقع ذلك الثقة في نفسه .

وقال :

— « حقاً ، انت لم تعطني اياها لكي تحول بيني وبين تحطيم مصابيح الشوارع ؟ »

— « حطمْ قدر ما تريد . »

فقال غافروش :

— « انت رجل رائع . »

ووضع قطعة الفرنكات الخمسة في احد جيوبه .

وإذ تعاظمت ثقته ، أضاف :

— « هل انت من الشارع ؟ »

— « نعم . لماذا ؟ »

— « هل تستطيع ان تدلني على رقم ٧ ؟ »

— « ماذا تريد من رقم ٧ ؟ »

وهنا كف الطفل عن الكلام . لقد خشي ان يكون قد قال اكثر مما ينبغي . وأقحم اظافره بعنف في شعره . واكتفى بأن اجاب :

— « آه ! هو ذاك . »

وخطرت لجان فالجان فكرة . إن للألم النفسي المرير مثل هذه الفطنة .

وقال للطفل :

— « أأنت الذي يحمل الي الرسالة التي أنتظرها ؟ »

فقال غافروش :

— « انت ؟ انت لست امرأة . »

— « الرسالة موجهة إلى الآنسة كوزيت ، أليس كذلك ؟ »

فغمغم غافروش :

— « كوزيت ؟ اجل ، اظن انها موجهة إلى صاحبة ذلك الاسم المضحك . »

فعاد جان فالجان إلى القول :

— « حسناً ، انا الذي ينبغي ان أسلمها تلك الرسالة . أعطني إياها . »

— « في هذه الحال ، ليس من ريب في انك تعرف انني مرسل من جانب المتراس ؟ »

فقال جان فالجان :

— « طبعاً . »

وأقحم غافروش يده في جيب آخر من جيوبـه ، وسحب ورقة مطويـة .

ثم ادى تحيـة عسكرية .

وقـال :

ــ « الاحترام للرسالة . إنها مرسلة من الحكومة الموقتة . »

فقال جان فالجان :

ــ « أعطني اياها . »

ورفـع غافروش الورقة عالية فوق رأسه .

ــ « لا تحسب ان هذه الرسالة غرامية . انها موجهة إلى امرأة . ولكنها موجهة إلى الشعب . نحن الرجال نخوض الآن المعركة ، ولكننا نحترم الجنس . إننا لا نفعل ما يفعله أبناء الطبقة المترفة حيث توجـد اسود تبعث برسائل الغرام إلى النياق . »

ــ « أعطني إياها . »

وواصل غافروش :

ــ « في الواقع انك تبدو في نظري مثل رجل رائع . »

ــ « أعطني إياها في سرعـة . »

ــ « خذها . »

وقدم الورقة إلى جان فالجان .

ــ « وأسرع انت ايها السيد لا أعرف اسمه ، لأن الآنسة لا اعرف اسمها تنتظر . »

وكان غافروش فخوراً بأن يبدع هذه الكلمة .

وسأله جان فالجان :

ــ « ألى سان ميرّي يجب ان يرسل الجواب ؟ »

فهتف غافروش :

ــ « في مثل هذه الحال . سوف تعمل واحدة من تلك الفطائر التي

يدعونها في العامية « بريوش » * . ان الرسالة آتية من المتراس الذي في شارع الـ « شانفريري » ، وأنا راجع إلى هناك . طابت ليلتك ، ايها المواطن . »

قال غافروش ذلك ومضى لسبيله ، أو على الاصح ، استأنف طيرانه مثل طائر هارب ، نحو البقعة التي أقبل منها . لقد عاود الغوص في الظلام وكأنما قد احدث فيه ثقباً ، بمثل سرعة القذيفة ودقتها . وأمسى شارع الرجل المسلح صامتاً متوحداً كرة اخرى . وفي طرفة عين ، غرق ذلك الطفل العجيب — الذي كان ينطوي على الظلمة والحُلم — في ضباب تلك البيوت السوداء القائمة صفاً ، وضاع ثمة مثل دخان في الدجنة . ولقد كان خليقاً بالمرء ان يحسبه قد تبدد أو تلاشى لولا ما سُمع، بعد بضع دقائق انقضت على اختفائه ، من تحطم زجاج صارخ وسقوط رائع لمصباح ينقضّ على الرصيف ، فعاود إيقاظَ البورجوازيين الساخطين على نحو مفاجىء . كان غافروش يجتاز بشارع شوم .

٣

فيما تنام كوزيت وتوسين

ورجع جان فالجان حاملاً رسالة ماريوس .

وارتقى السلم متلمساً طريقه تلمساً ، سعيداً بالظلمة مثل بومة تمسك بفريستها ، وفتح الباب وأغلقه في لطف ، وأصغى ليرى ما إذا كان قد سمع صوتاً ما ، وقرّر أن كوزيت وتوسين كانتا نائمتين ، وغطّس ثلاثة اعواد أو اربعة اعواد ثقاب في زجاجة صندوق الصوفان قبل ان يستخرج شرارة ، فقد ارتعشت يده ارتعاشاً عظيماً . كان ثمة سرقة في ما كان يوشك ان يعمله .

* Brioches وهي حلوى تصنع بالدقيق والسمن والبيض .

واخيراً ، أضيئت شمعته . وأسند مرفقيه على الطاولة ، ونشر الورقة ، وقرأ .

إننا تحت وطـأة الانفعالات العنيفة لا تقرأ ، نحن نُذلّ – إذا جـاز التعبير – الورقـة التي نحملها ، نحن نخنقها مثل ضحية من الضحايا ؛ نحن نسحق الورقة ؛ نحن ننشب اظافر غيظنا أو بهجتنا فيها ؛ نحن نعدو إلى النهاية ، ونحن نثب إلى البداية . إن الانتباه لمحموم . إنه يفهم بالجملة ، تقريباً ، كل ما هو أساسي . إنه يتعلق بنقطة ما ، وعندئذ تتلاشى سائر النقاط . ففي مذكرة ماريوس إلى كوزيت ، لم ير جـان فالجان غير هذه الكلمات :

« ... انا أموت . وحين تقرأين هذه الاسطر ، سوف تكون روحي عـلى مقربة منك . »

وأمام هذين السطرين ، استبد بـه انذهال رهيب . وظل لحظة وكأنما سحقه تغير الانفعال الذي تم في ذات نفسه ، ونظر إلى مذكرة ماريوس في ضرب من الدهش الثمل . كانت امام عينيه تلك الروعة : مـوت الـكائن البغيض .

وأطلق صيحة رهيبة من الابتهاج الباطني . واذن ، فقد قضي الأمر . لقد اقبلت النهاية بأسرع مما جرؤ على ان يرجو . كان المخلوق الـذي عاق قدَرَه في طريقه إلى الزوال . كان ذاهباً بارادته ، عن رضاً ، وعن طيب نفس . ومن غير ما تدخل من جانبه ، جانبِ جان فالجان ، ومن غير ما خطأ من ناحيته هو ، كان « هذا الرجل » على وشك ان يموت . بل لعله ان يكون قد مات وانتهـى . وهنا اخذت حُمّاه تحسب وتقدّر . لا ، إنه لمّا يمت . كان واضحاً ان الرسالة كتبت لكي تقرأها كوزيت في الصباح . ومنذ سُمع هذان الوابلان من الرصاص بـين الساعة الحادية عشرة ومنتصف الليل ، لم يقع شيء البتة . إن المتراس لن يهاجَم جدياً إلا عند منبلج الصباح . ولكن سيان ، لأنه في اللحظة التي يخوض فيها « ذلك الرجل » غمار تلك المعركة يلمّ به الهلاك . لقد وقع

في الشبكة . واستشعر جان فالجان انه قد أنقذ . إنه خليق بعد ذلك بأن يجد نفسه ، كرة اخرى ، وحيداً مع كوزيت . لقد انقضت المنافسة، وبدأ المستقبل من جديد . لم يكن يتعين عليه غير ان يبقي المذكرة في جيبه . عندئذ لن تعرف كوزيت ما الذي حل بـ « ذلك الرجل » أبداً .
« ليس علي إلا ان ادع الامور تتخذ سبيلها . ذلك الرجل لن يستطيع الفرار . إن لم يكن قد مات بعد ، فمن المؤكد انه سوف يموت . يا للسعادة ! »

حتى إذا قال ذلك كله في ما بينه وبين نفسه استشعر الكآبة والغم .

وبعد ساعة تقريباً ، خرج جان فالجان في لباس الحرس الوطني الكامل متنكباً سلاحه . كان البواب قد وجد ، في الجوار — بسهولة — كل ما كان ضرورياً لاتمام تسلحه . كانت معه بندقية مشحونة ، وجعبة ملأى بالخراطيش . ومضى في اتجاه الاسواق .

٤
اندفاع غافروش المفرط

وفي غضون ذلك وقع لغافروش حادث غير منتظر .

ذلك ان غافروش ، بعد ان رشق بالحجارة ، وفقاً لما املاه عليه ضميره ، مصباح شارع شوم ، شخص إلى شارع الـ « فييّي هودرييت » . وإذ لم ير « هرة » هناك ، فقد ظن ان الفرصة سانحة لكي يفرغ كل ما كان قادراً عليه من غناء . ولم يعق الغناء سيره . لقد ادى إلى تسارعه . وشرع ينثر على طول البيوت الهاجعة أو المروّعة هذه الادوار المضرمة للنار :

في المشى المظلل بالشجيرات راح العصفور يطمن ويغتاب
زاعماً ان آتالا
ذهبت أمس مع رجل روسي .

حيث تذهب الفتيات الجميلات ،
لونلا .

يا صديقي بيرو ، انت تثرثر
لان « ميلا » دقت ذلك اليوم
على زجاج نافذتها ونادتني .

حيث تذهب الفتيات الجميلات ،
لونلا .

الفتيات الخالعات العذار لطيفات جداً .
ان سُمهن الذي يسحرني
يُضيع صواب مسيو اورفيلا .

حيث تذهب الفتيات الجميلات ،
لونلا .

انا احب الحب وخصوماته الخفيفة ؛
انا احب آغنيس ، انا أحب باميلا
ولقد احترقت ليزا وهي تشعلني .

حيث تذهب الفتيات الجميلات ،
لونلا .

بالامس حين رأيت خماريّ
« سوزيت » و « زيلا » الاسودين الكبيرين
امتزجت روحي بطياتها .

حيث تذهب الفتيات الجميلات ،
لونلا .

ايها الحب ، حين تعتمر بورود
« لولا » في الظلام ، حيث تتألق
فاني اهلك هلاكاً ابدياً بسبب من هذا .

حيث تذهب الفتيات الجميلات ،
لولا .

أيه يا جانُ ، وقد جلستِ الى مرآتك تتزينين !
لقد اختفى قلبي ذات يومٍ صاحٍ .
وانا اعتقد ان جان هي التي استولت عليه .

حيث تذهب الفتيات الجميلات ،
لولا .

وفي المساء حين خرجت من الرقص
أريت « ستيلا » النجوم ،
وقلت لهنّ : انظرن اليها .

حيث تذهب الفتيات الجميلات ،
لولا .

كان غافروش يسرف ، خلال إنشاده ، في ارسال الحركـات والايماءات . فالايماءة هي مرتكَز اللازمة الغنائية . واحدث وجهه ، وهو قائمة لا تنتهي من الاقنعة ، تجهمات اكثر تشنجاً وغرابة من افـواه قماشة ممزقة تعبث بها ريح عاتية . وإذ كان وحده ، وتحت جنـح الظلام ، فان ذلك لم يُرَ – لسوء الحظ – وما كان قابلا لأن يُرى . ان ثمـة مثل هذه الكنوز الضائعة .

وفجأة كف عن السير .

وقـال :

– « فلنقطع الاغنية . »

كانت عينه السنورية قد تبيّنت ، اللحظة ، في فجوة احد ابواب العربات ، ما يدعى في فن الرسم تناسقاً ، يعني مخلوقاً وشيئاً . أما الشيء فكان كارّة تُجر باليد ، وأما المخلوقة فكان رجلا من ابناء « اوفيرنْي » نائماً في داخلها .

لقد استند ذراعا الكارّة إلى الرصيف ، واستند رأس الرجل الافيرنيي إلى عارضة الكارة الخلفية . كان جسده ملتفاً فوق ذلك السطح المنحني . وكانت قدماه تمسان الارض .

وعرف غافروش ، بما تم له من تجارب في هذا العالم ، انه امام رجل سكران .

كان حمالاً ما ، اسرف في الشراب ، وأسرف في النوم .

وقال غافروش في ما بينه وبين نفسه :

— « لمثل هذا تصلح ليالي الصيف . ان الرجل الاوفيرنيي نائم في كارته . سوف نأخذ الكارة من اجل الجمهورية ، ونترك الاوفيرنيي للملكيـة . »

وكان عقله قد تلقّى هذه الاعاضة منذ لحظة :

— « هذه الكارة تلائم متراسنا احسن الملاءمة . »

كان الاوفيرنيي يغط .

وفي رفق ، سحب غافروش الكارة من وراء ، والرجل الاوفيرنيي من أمام ، يعني من قدميه . وما هي إلا دقيقة حتى كان الاوفيرنيي ، الرابط الجأش ، منطرحاً على الرصيف .

لقد تم الاستيلاء على الكارة .

وكان غافروش الذي تعوّد ان يواجه كل ما ليس بمتوقع من الجهات جميعاً ، كامل العدة مستعداً لكل الاحتمالات . ومد يده إلى احد جيوبه ، وسحب قصاصة من ورق ، وبقية من قلم رصاصي أحمر مسروقاً من احـد النجارين .

وكتب :

« الجمهورية الفرنسية

تسلمت كارّتك . »

ووقّع : « غافروش » .

حتى إذا تم له ذلك ، وضع الورقة في جيب الصدرة المخملية التي كان يرتديها الاوفيرنيي المستمر في غطيطه ، وامسك بذراعي الكارة بيديه الاثنتين ، وانطلق في اتجاه الاسواق ، دافعاً الكارة امامه في سرعة بالغة ، وفي صخب ماجد مظفّر .

وكان ذلك خطراً . فقد كان في المطبعة الملكية مركز للجند . ولم يكن غافروش قد فكر في هذا . وكان يحتل هذا المركز بعض رجال حرس الضواحي الوطني . وبدأت بقظة ما ، تثير الكتيبة ، فارتفعت رؤوسها فوق سُرر المعسكر . فقد كان تحطُّم مصباحين الواحد تلو الآخر ، وتلك الاغنية المنشَدة بأعلى الصوت ، شيئاً كثيراً بالنسبة إلى تلك الشوارع البالغة الجبن ، التواقة إلى الرقاد عند الغروب ، والمسارعة في ساعة مبكرة جداً إلى وضع المِطفأة على شمعتها . فمنذ ساعة ، و « المتشرد » يطلق في تلك المنطقة الآمنة مثل طنين ذبابة في زجاجة . وأصغى ضابط الضاحية . كان رجلا فطناً .

وجاوز جري العربة المجنون حدود الابطاء الممكن ، وحمل الضابطَ على ان يحاول الاستطلاع .

وقال :

— « ان ههنا عصبة كاملة . يجب ان نمضي في تؤدة . »

كان واضحاً ان افعوان الفوضوية قد خرج من صندوقه ، وانشأ يضطرب في الحي .

وغامر الضابط فغادر المركز في خطى متسللة .

وفجأة ، فيما كان غافروش يدفع كارته ، وفيما كان على وشك ان ينبثق من شارع « فيي هودرييت » ، وجد نفسه وجهاً لوجه ، أمام بذلة عسكرية وقلنسوة ، وريشة قلنسوة ، وبندقية .

وللمرة الثانية كف عن الانطلاق .

وقال :

— « هاي ! إنه هو . صباح الخير ، ايها النظام العام . »

ولكنّ دهش غافروش كان قصيراً ؛ لقد ذاب ، في سرعة .

وصاح الضابط :

— « إلى أين انت ذاهب ، ايها المتشرد ؟ »

فقال غافروش :

— « ايها المواطن ، انا لم أدعُكَ بورجوازياً حتى الآن . لماذا تهينني ؟ »

— « إلى أين انت ذاهب . أيها الوغد ؟ »

فعاد غافروش إلى القول :

— « سيدي ، ربما كنتَ أمسِ رجلا أريباً ، ولكنك عُزلت من منصبك هذا الصباح . »

— « أنا اسألك إلى اين انت ذاهب ، ايها الجرو الطويل الشعر ؟ »

فأجابه غافروش :

— « انت تتحدث في لطف . حقاً ، إن احداً لا يستطيع ان يحزر ما عمرك . يجب ان تبيع شعرك كله ، لقاء مئة فرنك للشعرة الواحدة . وبذلك يجتمع لك خمسمئة فرنك ! »

— « إلى أين انت ذاهب ؟ إلى أين انت ذاهب ؟ إلى أين انت ذاهب ، يا قاطع الطريق ؟ »

فأجاب غافروش :

— « هذه كلمات بشعة . فحين يرضعك المرء لأول مرة ، يتعين عليه أن يغسل فمك جيداً . »

وسدد الضابط رأس حربته ، وقال :

— « أتريد أن تخبرني ، آخر الأمر . إلى أين انت ذاهب ، أيها الدنيء ؟ »

فقال غافروش :

— « ايها الجنرال ، أنا ذاهب لآتي بطبيب لزوجتي طريحة الفراش . »

فصاح الضابط :

— « إلى السلاح ! »

إن من معجزات الرجال العظام ان ينقذوا انفسهم بواسطة ذلك الذي أهلكهم . واستعرض غافروش الموقف كله في لحظة . كانت الكارة هي التي عرضته للخطر ، وكان على الكارة نفسها أن تحميه

ولحظة كان الضابط على وشك أن يهجم على غافروش ، غدت الكارة قذيفة ، واندفعت عليه في ضراوة — بعد ان قذف بها « المتشرد » بكامل قوته . وخرّ الضابط ، وقد اصابته في صميم بطنه ، إلى الوراء ، في الساقية ، بينا وثبت بندقيته في الهواء .

ولم يكد رجال المركز يسمعون صيحة الضابط حتى اندفعوا في اختلاط وفوضى . لقد ادى صوت البندقية إلى اطلاق نار جماعي ، كيفما اتفق ، عاد بعده الجند إلى شحن اسلحتهم ، وشرعوا يطلقون النار من جديد.

ودام اطلاق النار هذا ، المرسل على غير هدى ، خمس عشرة دقيقة كاملة ، وقتل بضعة الواح من الزجاج .

وفي غضون ذلك كان غافروش — الذي ارتد في يأس ، قد وقف بعد ان اجتاز خمسة شوارع أو ستة شوارع من هناك ، وجلس لاهثاً فوق المعلم الذي يشكل زاوية شارع « الاطفال الحمر » .

واصغى في انتباه .

وبعد ان تنفس بضع لحظات ، التفت نحو الجهة التي كان اطلاق النار

جائشاً فيها ، ورفع يده اليسرى إلى مستوى أنفه . وقذف بها ثلاث مرات إلى أمام ، ضارباً مؤخرة رأسه . في الوقت نفسه ، بيده اليمنى : حركة فخيمة كثّف فيها « المتشرد » الباريسي التهكمَ الفرنسي ، وكانت فعالة من غير شك ، إذ عُمِّرت ، حتى تلك اللحظة ، نصف قرن من الزمان .

وعكر ابتهاجه ذاك تفكير مرير .

لقد قال :

— « اجل ، انا اقهقه ، أنا ألوي نفسي ، أنا أفيض بالبهجة ، ولكني أضل عن سبيلي ، ويجب علي الآن ان اقوم بدورة . شرط ان اصل إلى المتراس في الوقت المناسب . »

وفي الحال استأنف انطلاقه .

وقال ، من غير ان يكف عن العدْو :

— « آه ، أجل ، أين كنتُ ؟ »

وبدأ ينشد اغنيته من جديد ، فيما غاص في الشوارع بسرعة . وتراجعت اصداء هذه الابيات في الظلام :

ولكن لا تزال هناك سجون باستيل .
وانا اريد ان أطفىء الخصومة .
في النظام العام الذي هناك .

حيث تذهب الفتيات الجميلات ،
لونلا .

ايريد احد ان يلعب لعبة الاساطين والكرات الخشبية ؟
ان العالم القديم كله ينهار ،
حين تجري الكرة الضخمة .

حيث تذهب الفتيات الجميلات ،
لونلا .

ايها الشعب العجوز الطيب ، فلنكسر
بضربة عكاز هذا اللوفر ، حيث تُعرض
الملكية في زينتها وتخريجها .

حيث تذهب الفتيات الجميلات ،
لوفلا .

لقد اقتحمنا القضبان المشبكة ،
وفي ذلك اليوم لم يحسن شارل
العاشر المقاومة ، واغل غراؤه .

حيث تذهب الفتيات الجميلات
لوفلا .

ولم يكن تقلّد رجال المركز لسلاحهم من غير ثمرة . لقد استولوا على الكارة ، واسروا السكير . فأما الأولى فوضعوها في مستودع الحطب ، واما الثاني فقد حوكم بعد ذلك امام المجلس الحربي بوصفه مشاركاً في الجريمة . لقد اتخذت نيابة ذلك العهد العامة من هذه الحادثة وسيلة لاظهار غيرتها التي لا تعرف الكلل من اجل الدفاع عن المجتمع .

إن مغامرة غافروش ، المصونة بين تقاليد حي التامبل وأحاديثه ، هي احدى ذكريات بورجوازيي الـ «ماريه» القدماء ، الادعى إلى الرعب ، وهي تحمل في ذواكرهم هذا العنوان : هجوم ليليّ على مركز الجند في المطبعة الملكية .







فهرست القسم الرابع : قصيدة شارع بلوميه الرعائية وملحمة شارع سان دونيز

ص

الكتاب الاول : بضع صفحات من التاريخ

الكتاب الثاني : ايبونين

الكتاب الثالث : المنزل الذي في شارع بلوميه

الكتاب الرابع : العون السفلي قد يكون عوناً علوياً

الكتاب الخامس : حيث النهاية لا تشبه البداية

الكتاب السادس : غافروش الصغير

الكتاب السابع : لغة السوقة

الكتاب الثامن : رقى وأطلال

الكتاب التاسع : إلى اين هما ذاهبان

الكتاب العاشر : اليوم الخامس من حزيران ١٨٣٢

الكتاب الحادي عشر : الذرة تؤاخي الاعصار

الكتاب الثاني عشر : كورنث

الكتاب الثالث عشر : ماريوس يدخل في الظلام

الكتاب الرابع عشر : عظمة اليأس

الكتاب الخامس عشر : شارع الرجل المسلح

تم المجلد الرابع

ويليه المجلد الخامس

مطبعة العلوم

حارة حريك - لبنان